كارول شيلدز

مذكرات الحجر

الحائزة على جائزتي بوليتزر وغوفرنر جنرال

ترجمة نوال لابقة



رواية المدى

المؤلف: كارول شيلدز
عنوان الكتاب: مذكرات الحجر
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
تصميم الغلاف: ريم الجندي

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

كارول شيلدز

مذكرات الحجر

ترجمة: نوال لايقة

الحائزة على جائزة بوليتزر
الحائزة على جائزة غوفرنر جنرال

إطراءات لرواية مذكرات الحجر

"سبرت كارول شيلدز أسرار الحياة بحيوية، معرّضة نفسها لمخاطر استثنائية في سياق فعلها ذاك. رواية مذكرات الحجر تذكرنا مرة أخرى بمدى أهمية الأدب".

ـ نيويورك تايمز بوك ريفيو

صاغت شيلدز روايةً معجزة، نصباً تذكارياً صلباً كالصخر يخلّد الطبيعة السريعة الزوال لكل الحيوات، ويخلّد الذوات المختلفة التي يمكن لحياة شخص واحد أن تشتمل عليها".

ـ ماكلينز

"شيلدز، التي بدأت كرسامة للمنمنمات في كتابتها، بلغت أوج تفتحها بهذا السّبر الأخير للحياة العائلية بغناها وضحالتها؛ لقد دخلت مرحلة الوضوح والنضج، مبتكرةً أسلوباً لتطوير خرافيّتها الغرائبيّة السابقة إلى غنائيّةٍ ماضية الحدّ، مناسبة تماماً لهذا السبر الطموح، الثنائيّ الثقافة، الذي تأخذه على عاتقها هنا".

ـ كيركوس

"رواية تذخر بالخيال الحاد، غنية بالحس الإنساني، مكتوبة ببراعة ومفصّلة تفصيلاً خالياً من العيوب والأخطاء...".

ـ بيلشرز ويكلي

"يبلغ فنّ قص شيلدز هنا قمة طموحه وتشويقه".

ـ تورنتو ستار

"عمل يبلغ حدود الكمال...مزيج متوازن من الحقيقة والخيال...عمل سيملأ قراءها بالامتنان المشدوه".

ـ أنيتا بروكنر

"رواية تعيد تشكيل حياة "عادية" متحفظة يعوزها الطموح والتميز لتجعل منها تجلّياً رائعا يلازم القارئ طويلا".

ـ جانيت تيرنر هوسبيتال

"...التجلّي الأكثر ثقةً وشعريةً وقوةً لفنّ [شيلدز]".

ـ ذي كالغاري هيرالد

"...كتاب غنيّ بالتفاصيل، يستغرق القارئ ويستحوذ على تفكيره، عقلاني لا يغرق في العاطفية، يذخر بالمعرفة والحكمة والاطلاع".

ـ بوكس إن كندا

"... روايةٌ نهر... تشق طريقها عبر المروج بقوة ونشاط... تجري وتجري وتجري كقطارٍ ثقيلٍ يقعقع عبر حقول القمح القصيّة".

ـ فانكوفر ريفيو

"مذكرات الحجر...تمثّل...الإنجاز الفني الأرقى والأبرع في عالم الكتابة والنشر".

ـ ذا دوثاي ريدر

" شيلدز...كتبت رواية إنسانية بحِرَفية عالية، رواية يقرؤها المرء باهتمام واستغراق".

ـ كْوِيل آند كْواير

"جملها وشخصياتها تنحرف بكلمات قليلة من الشعريّ إلى المحكيّ، موحّدةً بذلك بين الرائع والعادي، بين العائليّ وبين الكونيّ".

ـ جوان بارفوت

"بذكاءٍ وحسّ دعابة، تبعث شيلدز الحياة في أربعة أجيال من الكنديين والأمريكيين...يتوازن الهجاء والتعاطف بصورة بارعة في هذا العمل الأدبي الرفيع".

ـ ويندسور ستار

"إن هذه الرواية مشبعة بعناية شيلدز المعتادة بالتفاصيل، وبحس دعابتها الساخر. لكن هذه الكوميديا التي تصوّر عادات شخوصها وأسلوب حياتهم هي نتاج فنانة في أوج سيطرتها على أدواتها...مذكرات الحجر هي رواية هامة تحكم على الحياة بقدر ما تحتفي بها".

ـ كيتشنر ـ واترلو ريكورد

"...لقاء معجزة بين قوة الفكر وفيض المخيلة. هي، من ناحية، سبر حادّ لمحدودية السِّيَر الذاتية، وهي من ناحية أخرى رواية تُمتع الفكر والحواس بسهولة ومن دون عناء".

ـ نيو ستيتسمان / سوسايِتي

"إن رواية شيلدز الجديدة الرائعة هي بحث جَذِل، حسّاس وخفيف الظلّ...رواية ساحرة دافئة ومبهجة، تذخر بالتفاصيل التي تملأ الحواس؛ يتّسم نثرها بسلاسة الزبد".

ـ الغارديان البريطانية

"طموحة، مشوقة تستحوذ على الانتباه... تراوح بين الكئيب والمضحك جداً، قوية في واقعيتها بقدر ما هي بارعة في إدراكيتها الحسيّة".

ـ الصنداي تايمز

"رواية جميلة، ذاخرة بالسخرية السوداء عن سوء الفهم والفرص الضائعة".

- إسكواير

"مذكرات الحجر هي عمل ذو شأن مرة أخرى: الحياة المتخيلة الكاملة لامرأة واحدة، بدءاً من قصة ميلادها الاستثنائية وصولاً إلى موتها الذي لم تستسلم له بسهولة...النتيجة، أكثر تشويقاً من استراق السمع لحديث الآخرين".

- تاتلر

"مذكرات الحجر هي رواية مشبعة بالحكمة والسخرية اللاذعة حول مصاعب الحياة اليومية البسيطة".

- صنداي إكسبريس

"...هذه الكتابة تهمهم بالحنوّ الذي ينتصر للحياة...شخصياتها مرسومة بحيوية وفهم عميق للمشاعر الإنسانية. الصورة التي رسمتها للضعف والشيخوخة هي صورة دقيقة وشديدة التأثير".

- ويك إند تلغراف

كارول شيلدز هي كاتبة معروفة عالمياً حازت العديد من الجوائز على رواياتها وقصصها القصيرة. مذكرات الحجر هي الرواية التي حازت على جائزة غوفرنر جنرال أوارد للآداب، وجائزة مكناللي روبنسون أوارد لأفضل كتاب في العام في مانيتوبا وكانت على اللائحة النهائية المختصرة للأعمال المرشحة لجائزة البوكر. اختيرت شيلدز من قبل كاناديان بوكسيللر أسوسييشن كأفضل كاتب في العام. تتضمن أعمالها الأخرى: حدث صدفة، جمهورية الحب، السمكة البرتقالية، مراسم صغيرة، إوزة، معجزات متنوعة والحديقة الصندوقية. وهي تقيم وتكتب في وينبيغ.

إلى أختي

بابـز

قرأ عدد من الأشخاص مخطوطة هذا الكتاب وقدموا التشجيع والاقتراحات. أتقدم بالشكر إلى بلانش هوارد، جوان كلارك، جيم كيلر، آن جيارديني، كاثرين، ميغ وسارة شيلدز، وعلى وجه الخصوص، الآنسة لويز ويات في لندن، أونتاريو.

لا شيء مما فعلَته
أو قالَته

عبّر تماماً
عمّا عنتْه

ومع ذلك، حياتها
يمكن أن تُعتبر نصباً تذكارياً

شُكّل في ظلّ
ما توفر من ضوء

وهُيّأ للحركة
على أنغام موسيقى محتملة

(من "حياة الجدة" تأليف جوديث داونينغ، المجلة الفصلية كونفرس، عدد الخريف)

الفصل الأول

الولادة ـ ١٩٠٥

كان اسم أمي ميرسي ستون غودويل. لم تكن قد تجاوزت الثلاثين من عمرها حين باغتها المرض، في يوم حار جداً، واقفةً في مطبخها الخلفي، تعدّ حلوى (مالفرن) لعشاء زوجها. كتابٌ في فنّ الطبخ مفتوح فوق المنضدة: "خذي بعض شرائح الخبز اليابس"، تقول الوصفة، "ونصف كيلو غرام من الزبيب؛ ربع كيلو غرام من توت العليق؛ أربع أونصات من السكر؛ بعض الكريما إذا توفرت". اختزلت جميع الكميات إلى النصف لأنهما شخصان فقط، ولأن الزبيب شيء نادر، كما أن سايلور (أبي) يأكل بتأنق، وهو قادر على تناول طعامه أو الاستغناء عنه.

كم يخجلها اكتفاء الرجل بالقليل، إذ يحرك ملعقته في صحنه ببطء، رافعاً نظره مرة أو مرتين ليرمقها بنظرة امتنان خجولة عبر المائدة، لكنه لا يعيد ملء صحنه أبداً، بل يترك لها أن تأتي على كل شيء ـ مادّاً يديه في الهواء بإيماءته الحالمة تلك، حاثّاً إياها على تناول المزيد، وابتسامة حالمة على محياه

اللطيف الحنون. ماذا يعني الطعام لشغّيل مثله؟ مصدر إزعاج، إلهاء، أو ربما ثمناً من نوعٍ ما على المرء أن يدفعه كي يستمر في التنفس.

لكن الأمر مختلف بالنسبة لها، بالنسبة لأمي. فالطعام هو نعيمها الخاص. (هناك اسم مرضيّ في أيامنا هذه لتعريف عشق من هذا النوع).

تَما أن بهجتها بصنع الطعام كانت توازي بهجتها بتناوله ـ لكم أبهجها هذا ـ لكل شخص على هذه الأرض مفهومه عن الفردوس، وكان هذا فردوسها الخاص: أن تقف في مطبخها الخلفي، تعدّ وتدبّر، تنحني إلى الأمام وتحدّق في الأحرف الصغيرة لكتاب فن الطبخ، وبيدها ملعقة خشبية نظيفة.

كم هي لافتة طريقتها في التركيز، وجهها المتحمّس المشغول، ونشوتها لرؤية الطبق يتخذ شكلاً بينما تصبّ الفواكه المطهوّة في القالب المزخرف، وتضغط شرائح الخبز السميكة إلى أسفل العصير الراشح، فتطرى وتمتصّ حمرة توت العلّيق شيئاً فشيئاً. (حلويات مالفرن)، إنها تحبّ الاسم أيضاً، تشعر بكلماته تذوب على لسانها كقطعة حلوى. مثل فنانة ـ بعد سنوات من ذلك أصبح هذا النوع من الفنيّة واضحاً في ذهني ـ مثل فنانة تمطّ شفتها السفلى متأمّلة، سيكون طبقاً رائعاً، إسفنجة حارة مشبعة باللون. كانت جارتها، السيّدة فليت، قد سمحت لها أن تقطف بعض ثمار حديقتها؛ أما ثمار العليق فقد عثرت عليها على جانبيّ الطريق، جنوبي القرية، جمعتها بنفسها، رغم أنّ المشي خارجاً في حر النهار يكاد يقتل امرأة في مثل حجمها.

تنثر المزيد من السكر، ملعقة مليئة، ثم أخرى، ثم ترفع الملعقة إلى فمها، تساعدها البلورات الصلبة على الاحتفاظ بنشاطها. إنها الساعة الثالثة من أصيلٍ تموزيٍّ حار في وسط مانيتوبا، وسط الأراضي الكنديّة. أعلنت ساعة الردهة لتوّها تمام الثالثة (وهي ساعة سطحها أملس لامع وقائمتاها مزخرفتان، هديّة قدمها لها أهل زوجها بمناسبة زفافها، هديّة آل غودويل في ستونوول). سيصل سايلور إلى البيت عائداً من المقلع في تمام الخامسة، ثمّ يغتسل بمرح فوق حوض المطبخ، وفي الخامسة والنصف سيجلسان حول المائدة ـ حول هذه الطاولة ذاتها، ولكن بعد أن تفرشها بغطاء نظيف، إذ إنها تغيّر الغطاء كلّ يومين ـ ثمّ سيتناولان عشاءهما، الذي سيكون بجزئه الأعظم عشاءً صامتاً. فوالديّ كلاهما خجول بطبيعته، قد تربّيا على الاعتقاد بأنّ تبادل أطراف الحديث وتناول الطعام هما نشاطان مختلفان، يشغلان أوقاتاً مختلفة. الليلة، سيتناولان لحم البقر المملّح البارد مع بعض المقبّلات البيتية والبطاطس، وأكواباً من الشاي الحلو، ثمّ هذه الحلوى الرائعة. سيفتح عينيه على سعتهما، أعني أبي، سايلور غودويل، ذي الثماني والعشرين ربيعاً، المتزوّج منذ عامين، والذي لم يسبق له أن تذوّق حلوى مالفرن. (هذا ما تهيئ نفسها له ـ نظرته المرتبكة المذهولة، وفمه الذكوريّ اللطيف، تفغره الدهشة. هذا أقلّ ما يمكنها أن تفعله من أجله، أن تفاجئه هكذا). بحذر تضع طبقاً مزيناً برسوم الأزهار فوق الحلوى ثمّ تثقله بحجر.

مكان بارد، تقول الوصفة: "ضعي القالب في مكان بارد". (إنه كتاب قديم في فن الطبخ، طُبع في بريطانيا منذ أكثر من ثلاثين عاماً، صفحاته بالية، ولكنّ لهجة المؤلفة قويّة

وحازمة). مع ذلك، أين لميرسي غودويل أن تجد مكاناً بارداً في يوم حار كهذا؟ حتى الأرضيّة الحجرية الغامقة تحت درجات قبو التخزين حيث تحتفظ بالحليب والزبد أصبحت ساخنة تصدر عنها رائحة حامضيّة غريبة. عائلة فليت، في البيت المجاور، ابتاعت في الآونة الأخيرة ثلاجة لابرادور مبطّنة بالزنك، تحدّثت السيّدة فليت، بحياء، عن هذا المكسب إلى ميرسي، مشيرةً إلى ميزاتها، أقنية تهويتها، رفوفها اللامعة المكسوّة بالقصدير، وكيف أنّ باستطاعتها الاحتفاظ بقالب من الجليد لمدّة يومين حارّين من دون ذوبان.

فكرةٌ حادة ما، القلق حول الاحتفاظ بالحلوى باردة، أو ربما حسدها لآل فليت على ثلاجتهم، كلّ ذلك يسبّب لأمّي نوبة الألم الأولى. تطلق آهة صغيرة. تطبق عينيها بشدّة، وكأنّ أحداً ما قد أمسك بشعرها وشدّه بقوّة نحو الأعلى فخدّر فروة رأسها. لو أنّ شاهداً رآها، لو أن أحداً كان هناك في مطبخها الصغير، لخشي عليها من الإغماء، رغم أنّ أمي لم تكن ممّن يتعرّضن للإغماء. ما تشعر به يشبه أكثر ما يشبه تبدّلاً في أسفل صدرها، يرتفع في البداية ثم يهبط بصورة مفاجئة، تقلّصاً يشبه حركة أكورديون ممسَكاً به من الجانبين.

تخفض نظرها وتدهش كيف أنّ الخطوط البيضاء والزرقاء على مريولها بدأت تتفكّك إلى رقائق ملوّنة. تطير يداها في الهواء بحركة لا إرادية في محاولةٍ لكبح ضغطٍ ماحق، وتوازن نفسها بإرخاء كتفيها ووضع راحتيها منبسطتين فوق المنضدة، تميل نحو الأمام، ثم تطلق أنةً طويلةً خافتة. الصوت الذي يخرج من بين شفتيها غامضٌ واهن، موجة من الحيرة

والارتباك. (في ما بعد، ستلتصق هذه الكلمات ـ أكثر من أي كلمات أخرى ـ بالصورة التي رسمتها عن أمي). تعرّقها قليل بالنسبة لامرأة في مثل حجمها، حتّى في ذروة الصيف، يتملّكها عادةً زهو حيِيّ بجفاف جسدها ـ الآن فقط ينتشر خطّ عريض من الرطوبة تحت مئزرها وعلى طول قناة ظهرها. يتسارع تنفّسها، وتطرف عيناها بينما تلفّ بطنها تقلّصات قويّة مؤلمة. وهناك، في ذاك المكان بين طيّات حجرها البدين، تشعر أنّ شيئاً ما يجتاحها؛ موجة عارمة، فيضان.

عانت من عسر الهضم طوال الربيع. كثيرا ما نهضت من فراشها في الصباح، ثمّ أثناء الليل، بعد أن يغطّ زوجها في النوم، لتتناول جرعات من شراب المغنيزيا الحامضيّ. عندما تشرب الحليب العادي أو الشاي المحلّى أو الليمونادة المحلاة، تبتلعها بجشع، أمّا الجرعات البيضاء الباردة من شراب المغنيزيا فتصبّها في كوب خزفيّ نفيس ثمّ ترشفها بتركيز بطيء عميق، ترشفها بوقار. لا تعرف تفسيراً لحالتها. تعتقد تارةً أنّ كبدها يعمل باضطراب، وتظنّ تارة أخرى أنّ المشكلة تخصّ كليتيها ـ هي في الثلاثين من عمرها فقط، ولكن اضطرابات الكلية يمكن أن تبدأ باكراً في الحياة، وبخاصّة لدى امرأة في مثل حجم أمّي الاستثنائي. جارتها السيّدة فليت هي التي فكّرت بهذا الاحتمال، ناصحةً إيّاها بأقراص الراوند، أو ربما كانت مشكلة نسائيّة من نوع ما، أسرّت السيّدة فليت لها. ففقدان الدم الغزير، قالت لميرسي، يقف وراء الكثير ممّا تعانيه السيّدات الشابات ـ هل تحدّثت ميرسي إلى الطبيب سبيرز؟ فالطبيب سبيرز معروف بحساسيته لشكاوى النساء، لديه أسلوب خاص في إغلاق عينيه بشدّة عندما يوجّه أسئلته الحسّاسة إليهنّ، كما أنّ أسلوب حديثه

يكاد يكون شاعرياً حين يتكلم عن الدورات الطبيعيّة وتوازناتها، وعن الخصوبة بمدّها وجذرها أو عن الارتياح الذي تخلفه أملاح الفواكه. لا، لم تلجأ ميرسي إلى الطبيب سبيرز، ولن تكلّمه عن شيء كهذا أبداً، ولن تكلم أحداً آخر عنه، ولا حتى زوجها. ظهر دمها الشهري مرتين في حياتها، منبثقاً من الوسائد الناعمة المكونة لمنطقتها التناسلية، ملطخاً ملابسها الداخلية بسطوعه المروّع، هازئاً من الآداب والواجبات الصغيرة التي تمنح الاستقرار لحياتها: تطريزها، تدبيرها لشؤون المنزل، مهارتها في استخدام المكواة، مخللاتها، وملاءاتها وزجاجة القنديل التي تلمعها كل صباح.

جرعات المغنيزيا بالكاد تساعدها، كما أن أملاح الفواكه تزيد من معاناتها. استمرت جدران بطنها في التشنج والانتفاخ طوال الربيع، وعجبت في بعض الأحيان إن كان غشاؤها الداخلي سينفجر تحت تأثير الضغط. كثيراً ما ترتفع الحموضة إلى حلقها. وتعلو الحكة بشرتها في كل أنحاء جسدها. تعاني من نوبات حرقة، وخصوصاً أثناء الليل عندما تستلقي إلى جانب والدي، الذي يدفعه الحب و الرقة إلى التظاهر بالنوم العميق، تعرف هذا من الطريقة التي يبقى فيها ملتفاً باحترام في الجانب الذي يخصه من الفراش.

الخبز وحده قادر على التخفيف من معاناتها، الخبز المدهون بالزبد، شرائح كبيرة منه، من النوع الذي يسمونه درجات الباب، تأكله طازجاً من الفرن، شريحة بعد أخرى، أحياناً لا تكلف نفسها عناء تقطيعه بالسكين، بل تمزقه بيدها. في أحد الأيام، وحيدةً في هذا المطبخ، استهلكت رغيفاً كاملاً

بين الظهيرة والعشاء. (قالت لزوجها أنّ أحد الأرغفة قد احترق، كي تبرر غياب ذاك الرغيف ـ وكأن رجلاً حالماً مثل أبي سيلاحظ شيئاً صغيراً كهذا، وكأن أي رجل سيلاحظ شيئاً كهذا). وفي مرات كثيرة، تنثر السكر فوق الخبز المدهون بالزبد. يومض سطحه متألقاً، تذوب بلوراته بين أسنانها فتمدها بالطاقة. تتخيّل العجين الناعم يدخل معدتها و يبطن ذاك الوعاء المنتفخ الموجِع بدفءٍ قطنيٍّ يمتص و يُحيِّد سموم جسدها نفسه.

إن عجزها عن الاستمتاع بممارسة الحب سمّم حياتها، فلجأت إلى تناول السكر والخميرة والزبد والدقيق لتساعدها على تقبل هذه الحقيقة؛ إنها واثقة من هذا. هي تحاول، تتظاهر بالاستمتاع، كما يشجعون النساء أن يفعلن، لكنها تُعاقب على هذا بجوع يداهمها عندما تكون وحيدة، كما هو حالها الآن في هذا اليوم التّموزيّ الحار، متواريةً في قرية في مانيتوبا، قرية صغيرة مغبرة ومحاطة بالأراضي (نصف دزينة من الشوارع غير المرصوفة، مخزن، فندق، كنيسة ميثوديّة، محطة قطار، ومنزل عند منعطف طريق بيشوب، يستقبل الرجال العزّاب). تبدو دائماً وكأنها بانتظار حدوث شيء ما، لكن رؤيتها لهذا الـ (شيء ما) غائمة بسبب جهلها وانتفاخ أنسجة جسمها. في الليل، تجمع ثوب نومها حول جسدها بارتباك. وعندما تطفئ المصباح، لا تدري ما يجب أن تتوقع أو كيف تفسر شهقات زوجها، التي تمتصها، لحسن الحظ، جدران المنزل المؤطّر بالخشب، حيث تعيش مع أبي. غرفتان في الأعلى، وغرفتان في الأسفل، وكنيف في الخلفية. ما تعلمه فقط هو أنها بلا تاريخ متماسك واضح، محرومة من سلوى علاقات القربى، تغمرها أكثر فأكثر

حرارة سايلور غودويل العميقة الهائلة خلال العامين الأخيرين. شلالات نياغارا بكل قوتها هو ما يقفز إلى ذهنها عندما يتسلق فوق جسدها كل مساء، ثم اندفاع مرعد يغمر الجدران الداخلية المثنّاة لجسدها.

في هذه اللحظات بالذات تشعر بانغمار عميق، وكأنها هي، ميرسي ستون، ليست أكثر من نبضة دم داخل جسدها، وجهها الواسع، عنقها العجينيّ الثخين، ثدييها الطليقين الهائلين، والصخرة الضخمة التي تُشكّل بطنها.

واقفة في مطبخها الخلفي، يحتك فخذا أمي الأبيضان (كأي لحم أبيض، دجاج...إلخ)، يحتكان تحت سروالها الداخلي ـ الذي أدركت لتوها أنه مبلل تماماً، تحيط بكاحليها ورسغيها طبقات سميكة من الشحم، ويجعل التّعرقُ أطرافها المنتفخة زلقة. تضغط أصابعها الضخمة المتورمة على سطح طاولة المطبخ، وتنبض يدها اليسرى، حيث يغوص خاتم زواجها في اللحم الناعم، تنبض بالخطر. تشعر وكأنها ترى ضوءاً أخضر ضعيفاً ينبسط أمام عينيها كمروحة. هذا أسوأ بكثير من كل ما عانته من قبل. تعجب إن كان جسدها سينفجر، وتنطلق العظام من تحت اللحم ويتدفق الدم على الأرض والجدران. تتصور لون دمها أصفر وليس أحمر، يشبه حمأة كثيفة بلون العسل، تثقل حركتها وتمنعها من مناداة جارتها السيدة فليت.

صادف أن السيدة فليت على مرمى السمع، لا يفصلها عنها أكثر من أربعين قدماً، وهي تعلق شراشفها الخشنة وأغطية مخداتها على حبل الغسيل. لو علمت بمحنة ميرسي ستون

غودويل لهرعت إليها، ولكانت إلى جانبها بلمح البصر، ولَنَصحت المسكينة العزيزة أن تهدأ، ولرجتها أن تستلقي على أريكة المطبخ، و لمسحت وجهها العريض الرطب بخرقة باردة، ولخففت ثيابها ونزعت حذاءها المربوط بإحكام وجوربيها السميكين. إنها تحب ميرسي، تحب أسلوبها، تركيزها المتواصل، رغم أن حبها لها بصورة عامة (يجب الاعتراف) هو بدافع الدهشة، والشفقة أيضاً ـ الشفقة على ذاك الجسد الضخم الناعم الذي يتحرك ببطء، والشحم المتراكم على جانبي وجه ميرسي الشاب، والملاحة الوَضّاءة التي تبدو تحت ضوء معيّن، في خط شفتها العليا، وفي الارتباك اللطيف لعينيها البنيّتين. عندما تنظر إلى عيني ميرسي اللتين تشبهان عيني عجل صغير، تقول لنفسها، يا للطفلة، يا للمسكينة الصغيرة التائهة. هي لم تعرف لها أماً قط، والآن، كما يبدو، لن يكون لها صغار تهز مهدهم وتعنى بهم ـ ولكن من يستطيع التكهن بذلك، من يستطيع قراءة المستقبل).

للسيدة فليت ـ واسمها الأول هو كلارينتاين ـ ثلاثة أبناء بالغين، سيمون، أندرو وباركر، ولكن ليس لها ابنة. الأكبر بين الأبناء، باركر، ذهب إلى وينيبيغ كي يُدرِّس في جامعتها، أما الابنان الآخران فيعملان في مقلع الحجارة جنباً إلى جنب مع زوجها ماغنوس، وهو قاطع حجارة بارع، رجل من جزر الأوكني شمالي اسكوتلندة، رجل بارد فظ هاجر إلى كندا في سن التاسعة عشرة. ولم تغادره عاداته الأوكنية. فهو يفضل الأشياء المتقشفة. منزل مفروش ببساطة. حديقة محاطة بالعناية. طعام بسيط على المائدة، عشاء من عصيدة أو سمك مدخن أو مجرد طبق من الخبز المدهون بالزبد يليه كوب من الشاي. رؤية

حلويات مالفرن مفرغة من القالب فوق طبق زجاجي ومغطاة بالكريما كانت لتبعث في نفسه الضيق، وبخاصة عندما تُقدم في واحدة من أماسي الآحاد العادية من صيف عام ١٩٠٥ (وهو عام مولدي، بل يوم مولدي).

السيدة فليت، كلارينتاين، وهي امرأة متناسقة الجسد ذات بشرة بلون الفطر، بهتت ذاكرتها حول طفولة أبنائها نتيجة خيبة الأمل، تحلم بأن تأخذ يد ميرسي الضخمة الجافة بين يديها وتقول لها إن حياة المرأة لا تساوي مقدار طبق مليء بالملفوف إن هي لم تشعر بالحياة تتحرك تحت قلبها. فأن ترضع صغيراً لها، أن ترعاه وهو ينمو ليصبح رجلاً، ذاك هو الحب. نقول إننا نحب أزواجنا، نقف في الكنيسة لنعلن أننا سنحبهم إلى الأبد، حتى يفرقنا الموت، لكنّ " دمنا ولحمنا " هو من نحب حقاً.

يروقها تقديم الأشياء لميرسي. ففي الربيع الماضي، بينما كانت تنظف المنزل، عثرت على قالب معدني لصنع الحلوى، وهو الوعاء ذاته الذي تستخدمه ميرسي اليوم كي تعطي شكلاً لحلويات مالفرن التي تصنعها. كما تقدم لميرسي أزهاراً من حديقتها، الجلبان العطر، النيكوتياني، القرنفل، زهرة الأندلس، وزهرة السمكة. بالإضافة إلى الخس في موسمه، والفجل والجزر والفاصوليا. ومرطبانات المربى والراوند المخلل. أعطتها مرة دزينة من مناشف المطبخ، مطرزة الزوايا، وفي مرة أخرى قدمت لها غطاءً مطرزاً مخرم المركز. لماذا؟ قدمت للفتاة أيضاً كتاب فن الطبخ الذي أولعت الفتاة به فبَلِيَ من كثرة الاستعمال. في عيد الميلاد أعطتها قالباً من الصابون

الأحمر جديداً في علبته، ومرة، وبلا توقع، كأساً زجاجية مزينة بشريطة، توضع فيها دبابيس الشعر. هذه الأشياء التي تعبر من يدها إلى يد ميرسي تبدو لحظياً مطوقة بنور داخلي، رغم أن التعبيرات التي تستخدمها عند تقديم هداياها مختارة بدقة بحيث تقلل من شأن كرمها، "ليس بي حاجة إلى هذا" أو "لدي من هذا ما يكفي لإطعام جيش" أو "هذا مزخرف بصورة لا تناسبنا، لكنه يناسبك" أو "السيد فليت لا يستسيغ الأشياء المرتبطة بالحلويات وأنا أكره أن أرمي ما هو جيد ومفيد".

امتنان ميرسي اللطيف، ابتسامتها التي تتشكل ببطء، ومسحة الارتباك التي ترافقها، ومظهرها الذي لم يلوثه العالم، كل ذلك يولد لدى السيدة فليت رغبة في أن تأخذها بين ذراعيها. تتصور امتلاء ميرسي المكتنز يضغط على صدر فستانها الأنيق، وهي تجيش بالمشاعر والانفعال. "عزيزتي" هذا ما تود أن تهمس إلى عنق ميرسي الشاحب المنتفخ، وكتفي ميرسي اللينين، وشعرها البني المموّج.

سيحمل المستقبل أملاً ما، لا بد أن يفعل. هذا ما يخطر ببالها وهي واقفة تحت الشمس الحارقة، تعلق غسيلها النظيف على الحبل ـ الملاءات أولاً، ثم مراييلها وبلوزاتها، ثم الأفرولات الصيفية الخاصة بالرجال. سيجفّ الغسيل خشناً ـ فالجوّ خال من النسيم ـ سيكون الغسيل جافاً خلال ساعتين، لأن الطقس حار جداً. تأخرت اليوم في غسيلها، وما زال عليها أن تعشب الحديقة وتقطف البازلاء من أجل العشاء. إنها دائماً متأخرة في إنجاز عملها، وهناك دائماً صوت ملحّ داخل

رأسها: عليّ الآن مسح الفرن، ثم رفو الثياب، ثم تنشية الستائر. الصوت الموبّخ هو صوتها هي، صوت حاد سريع، لكنه عاجز عن حثها على الحركة. يغادر الرجال، زوجها وأبناؤها، إلى المقلع في السابعة تماماً ويعودون في الخامسة. ماذا يتخيلون أنها تفعل طوال النهار؟ ترتعش لمجرد التفكير كيف أنه لا يوجد زوج واحد من الأعين يمكنه أن يرى عبر جدران وسقف بيتها، أن يلحظها تتحرك عبر أيامها التي تشبه الحلم، تغالب الكسل المغري من لحظة إلى لحظة.

الله يراها بالطبع. لا بد أنه يراها. الله يراقبها وهي واقفة في نافذتها تحدق وتحدق في ظلال شجرة القرغانة[1] المزهرة عبر الطريق، أو جالسة على واحدة من كراسي المطبخ، في ركود تام، منحنية فوق سلة رفو الثياب، ترقب ذبابة تزحف فوق الطاولة. تمضي الدقائق، تصبح ساعة، وربما ساعتين. هذه اللحظات غير مرتبطة بأي زمن تعرفه هي. تتكرر أكثر فأكثر، هذه الساعات من الضعف الشديد، تحدث كل يوم تقريباً منذ حلول الطقس الصيفي. تستيقظ نشيطة بما فيه الكفاية، لكنها، مع حركة عقارب الساعة، تشعر بقوة تغريها بالاستسلام للسكينة والسريّة، وعندها سرعان ما تخسر المعركة. أيّاً كان هذا الشيء الذي يغمرها فهو مصنوع من الحنان. يصعد حولها مثل غيمة من العطر. لا وجه له ولا صوت، فقط شذى ناعم ينتشر باطراد، موجة نشوى من نوع ما تدخل حلقها، ثم تتحرك هابطة داخل جسدها، تُقلص أعضاءها الأنثوية وعضلات فخذيها الناعمين. يخيم هدوء تام، لكنه معذِّب، وتسيطر عليها

(١) القرغانة: شجيرة من الفصيلة القرنية. (المترجمة)

دوماً فكرة جافة ـ وهي أن الرب غير مهتم بزلاتها. لم يخاطبها قط، لم يزعج نفسه حتى بالإيحاء إليها بأي شيء، رغم أنها ابتهلت إليه على قطعة من قماش مطرزة على جدار مطبخها:

يسوع المسيح هو سيد البيت

الضيف غير المرئي

على كل مائدة

يصغي بصمت

إلى كل محادثة.

ما يخيفها، ويبعث في الوقت ذاته البهجة في نفسها، هو قدرتها على خداع من حولها؛ هذا شيء جديد عليها، ساعاتها الضائعة هذه، أحلامها المفعمة بالحيوية، ومِزَق اللغة، وكأنّها مُنِحت حياتين بدلاً من حياة واحدة، وحياتها البديلة تجري سراً.

أم أنها تخدع نفسها بهذا الاعتقاد؟ فعندما التقت بالطبيب سبيرز على طريق المقلع، أمسك برسغها وكلمها بأسلوب دقيق وصريح. "تحتاج المرأة إلى رفقة النساء الأخريات"، انطلق قائلا، بعد حديث مهذب عن الطقس. "فقليل من المرح هو سلوى عظيمة، قليل من النميمة غير المؤذية. الانضمام إلى جمعية أشغال الإبرة أو ملتقى الأمهات ـ أظن أنك انضممت لوقت ما إلى نادي الإيقاع والحركة للسيدات، سيدة فليت، وكنت تستمتعين بتمضية فترة ما بعد الظهر مع رفقة مرحة. تقول زوجتي أن المحاضرة الأخيرة هناك حول البعثة التبشيرية إلى الصين كانت مسلية ومفيدة للغاية".

"أنا مشغولة جداً في البيت"، قالت السيدة فليت للدكتور سبيرز.

"بالطبع، بالطبع " أومأ بسرعة، " أو ربما كنت تفكرين بزيارة وينيبيغ لعدة أيام، فأنت، على ما أظن، تمضين بضعة أيام كل عام هناك مع ابنك باركر. هو لم يزل هناك، أليس كذلك، مشغول بدراسته، في علم النبات على ما أذكر؟ " .

"نعم" أجابت، "الأزهار. النباتات" .

"أنا واثق أنك فخورة به، فهو شاب مهذب. كنتُ واحداً ممن رشحوه للحصول على منحة إيبوورث".

" أذكر ذلك، أذكره بالفعل، و ـ "

" لماذا لا تفاجئيه بزيارتك السارة إذاً؟ كلنا يحتاج إلى التغيير من وقت لآخر، وبخاصة بعد شتاء قاسٍ طويل. يمكنني أن أكلم زوجك بالموضوع إذا أردتِ ـ بصورة غير مباشرة طبعاً ـ يمكنني أن أوحي إليه بالفوائد الصحية لعطلة قصيرة".

"افعل أرجوك" أرادت أن تقول. كانت تفكر بدوامة الصمت التي ستدخلها حال مغادرتها الدكتور سبيرز، هذا الصمت الصقيل كلؤلؤة. لكنّها سمعت نفسها تقول: "لا حاجة لذلك، يمكنني أن أخبره بنفسي" .

ملتقى الأمهات. بضعة أيام في وينيبيغ. منذ أشهر فقط كان لهذه التغييرات بعض الجاذبية. وكان من المحتمل أن تكلم زوجها ماغنوس حول زيارة المدينة لمدة أسبوع. كانت الكلمات ستخرج بتلقائية أثناء قيامها بأحد أعبائها المنزلية، مثل تنشيف الأطباق أو كنس الأوراق المتساقطة من شجرة الفوشية المتسلقة فوق النافذة. ليس زوجها بالرجل الذي يتحدث باستفاضة،

لكنهما تمكّنا خلال السنوات من التواصل الزوجي الضروري لتربية ثلاثة أبناء، تنظيم أمور المؤونة، والمناقشات الخاصة بالطقس والمرض وتحديد أصناف الخضار التي يجب زراعتها في الحديقة. لديها اعتقاد بأن زوجها ليس أكثر خشونة من غيره من الرجال ـ ولكن كيف لها أن تجزم بذلك، من في هذا العالم يمكنه أن يؤكد لها ذلك ـ "إذا كنت راغبة، أيتها الأم"، يقول في عتمة غرفة نومهما الخلفية بينما يرفع ثوب نومها تدريجياً بيد واحدة. ألف مرة، خمسة آلاف مرة، "إذا كنت راغبة، أيتها الأم"، حفرت تلك أخدوداً في وعيها، هي بالكاد تسمعها. ثم يخيم عليه الصمت ، كأنه وقع في حفرة، أو يطلق نخرة تعتبرها هي مؤشراً على بلوغه النشوة.

"هل نتزوج إذاً ؟"، تلك كانت كلماته عندما عرض الزواج عليها منذ حوالى خمسة وعشرين عاماً، انطلق التعبير بطريقة وجدتها لطيفة. في ذلك الوقت كان قد مضى على إقامته في كندا أقل من عام واحد، وثمانية أشهر على عمله في المقلع الغرانيتي القديم في لاك دو بونيت قرب مزرعة والدها. كانت لهجته الأوكنية قاطعة وفي غاية الجفاف، رغم أنها تخيلت سماع لمسة من الرقة المخبأة وراءها. رافقها إلى بيتها، عائدةً من الكنيسة في ميلنرز كروسينغ. كانت ليلة نيسانيّة دافئة امتلأت سماؤها بالنجوم. أحست أنها تجرع الهواء النقي كنوع من الغذاء. كانت المرة الثالثة التي يوصلها فيها إلى بيتها، وكانت تعرف، مثله تماماً، أن هذا يؤهله لطلب قبلة. وافقت بدافع الفضول. تحركت شفته العليا بسرعة، بسرعة كبيرة وبخشونة على فمها وخدها. ثم قال بعدها: "هل نتزوج إذاً؟".

تسليمه بموافقتها أثار مشاعرها، كان تسليماً طفولياً جداً، أحست برغبة في الضحك كي تستفزه ـ فقد كانت تعرف كيف تمرح في تلك الأيام ـ لكن وجهه كان في غاية الجدية.

"ماذا تقولين، إذاً؟" قال ملحّاً. كان الظلام يحجب ملامحه عنها، لكنها كانت تشعر بنفسه الدافئ فوق عنقها، مما أضعفها كثيراً. تهيأت لتلقّي كلمات الحب.

"أتقاضى أجراً لا بأس به"، قال، "كما أنني أعمل بانتظام".

كان هذا صحيحاً. لم يكن بمقدورها أن تعترض على ما قال. لم تتعلم أبداً أن تعترض على ما يقول. لديه طريقة خاصة في الحديث تقطع الطريق على أي اعتراض. الثلاجة الجديدة على سبيل المثال. أرسل في طلبها من مكان بعيد، طلبها سراً من شركة التسويق عبر البريد (إيتون)، وهي تشغل الآن زاوية في المطبخ. وصلت إليهم فجأة. قبل وصولها بأشهر، ولأسباب اقتصادية، رفض استشارة الدكتور سبيرز بخصوص كتلة ظهرت وراء أذنه، ثم بدد أحد عشر دولاراً من أجل ثلاجة، أحد عشر دولاراً بالإضافة إلى كلفة الشحن. كُتب على اللوحة المعدنية الأنيقة المثبتة على باب الثلاجة: "ثلاجة لابْرادور جديدة مُحَسَّنة. هي لم تطلب أبداً شيئاً كهذا. رأته في اليوم الأول لوصول الثلاجة يتحسس بأصابعه الخشب المصقول والمفصلات المدهونة، ففكرت من دون إرادة منها: هذه الأصابع ذاتها لمستني، لمست جسدي العاري.

يزداد تواتر مثل هذه الأفكار إلى ذهنها. يعمل عقلها بصورة جامحة في الأشهر الأخيرة. إنها امرأة استقرت رغباتُها ـ

منتظرةً - في قاع حفرة.

حتى في هذه اللحظة، أثناء نشر غسيلها، تشعر بدوار الشوق، ولكن الشوق إلى ماذا؟ عانقيني، تقول مخاطبةً ملاءاتها وأغطية وسائدها، ضمّيني. لكنها تقولها بفتور، بلا أمل. غسالتها فارغة الآن، وهي وعاء خشبي موضوع فوق صخرة بارزة عن سطح الأرض. السماء في الأعلى واسعة وزرقاء؛ تشعر بدوار جرّاء النظر إلى الأعلى. تشعر بتخريش في منخريها فتمد يدها إلى جيب مئزرها حيث منديلها. تؤثر رائحة الصودا التي تستخدمها في الغسيل عليها، وتولد لديها رغبة في العطس. "لست راغبةً"، تقول لنفسها، "لم أعد راغبة أبداً".

بلغت الساعة الثالثة، هكذا تخمّن. ستعفي نفسها من إزالة الأعشاب الضارة من الحديقة لهذا اليوم. إذا ما سأل أحدهم عن ذلك، زوجها أو أحد أبنائها، ستلقي باللائمة على الطقس الحار. فلماذا تعرض صحتها لمخاطر شمس حارقة كهذه؟ ستنشد برودة الغرفة الأمامية بدلاً من ذلك، الأريكة المنجّدة بنسيج مزين بالرسوم في الزاوية المعتمة. فعلت هذا من قبل، عاجزةً عن مواجهة هذا الأسى الذي تشعر به. تمكث زنبقة الصّاصَل الخَيْمِيّ الجليلة في قِدرها الخزفي؛ يروقها أن تتأمل أوراقها الخضراء الكثيبة وكأنها أسرار. ورق الجدران، أيضاً، يستحوذ على انتباهها بخطوطه المزهرة، ولونيه البني والوردي المتناوبين. المرآة الصغيرة المائلة داخل إطارها المصنوع من خشب الحوار تعكس صورتها، تعكس شعرها المتهدل وعينيها، حارّتين كجوهرتين في رأسها.

"أحبك"، سمعت سايلور غودويل يقول لزوجته المنتفخة

ذات الحجم الهائل، ميرسي. "آه، كم أحبك بكل جوارحي".

كانت ساعة باكرة في المساء عندما سمعت هذا التصريح، ذات يوم اثنين كهذا اليوم، كانت تقف قرب باب مطبخ آل غودويل، حاملةً سلة من الليلك المبكر على ذراعها، هدية من جارة إلى جارتها. (في الحقيقة، تجد صعوبة في الابتعاد، لأنها تشعر بأن منازل المتزوجين حديثاً محاطة بنوع من السحر، الهواء فيها أكثر نقاءً منه في البيوت الأخرى، الأصوات أكثر رقة، والستائر المؤقتة والبسط الرخيصة الثمن تبدو أنيقة زاهية في أماكن إقامتهم). كانت نافذة مطبخ آل غودويل مفتوحة على مصراعيها أمام نسيم الربيع المنعش. كانا يجلسان إلى المائدة (يمكنها رؤيتهما بوضوح) - ميرسي في جهة من المائدة وسايلور في الجهة المقابلة، غطاء الطاولة الأبيض وأطباق العشاء لم تزل فوق المائدة.

وقع شيء من ضوء المدخل على وجه أمي العريض، فأضفى عليه مسحةً من بهاء. كان والدي منحنياً باتجاهها، يداه تغطيان يديها. خطر لكلارينتاين فليت أنهما يصلحان كموضوع للوحة ردهة، لوحة مائية بدرجات خفيفة من اللونين الأزرق والرمادي.

كانت أمي، كما قلت سابقاً، امرأة بدينة جداً، وأخشى أن قسماتها الهلامية تجعل منها امرأة تفتقر إلى الجمال. صحيح أن جارتها، السيدة فليت، تجد ملاحةً ما في عينيها وذقنها المتهدلة، لكن الصورة الوحيدة التي بحوزتي، وهي صورة زفافها، تشي بعكس ذلك. كانت أمي ضخمة الجسم كثيرة اللحم، أما أبي فعلى العكس، كان قصير القامة، صغير الحجم

منمنماً، ترفرف على محياه نظرة توحي بالضياع. ويمكن تصور النكات الفظّة التي كان يطلقها رجال المنطقة حوله.

من كل قلبي، سمعته السيدة فليت يقول لأمي. بدا لها أنه مضنً، متكئاً الآن على ظهر كرسيه. من كل قلبي. كان هذا شبيهاً بالتعابير التي يخترعها العشاق في الكتب. كلام الحب، كلام القلوب المتيّمة، شِعر النشوة. قرأت السيدة فليت بعض الروايات الغرامية ـ بعيداً عن أنظار زوجها الذي سيعتبرها مضيعةً للوقت ـ حيث يحدث الناس بعضهم بأسلوب رقيق، لكنها لم تتوقع أبداً أن تسمع هذه التعابير في بيوت عمال المقلع العاديين في قرية مثل تاينديل، مانيتوبا. كما لم تتصور الرخامة التي تضفيها هذه التعابير على صوت صاحبها. "أوه، كم أحبك"، قال سايلور غودويل لزوجته ميرسي، متوسلاً إليها بنغمة ضارعة لم تتمكن كلارينتاين فليت من محوها من ذاكرتها. رافقتها طوال الربيع، تنهمر على جفاف أيامها. ترافقها هذه العبارة الآن بينما تقف بجانب حبل الغسيل، تعطس وتطرف عيناها تحت الشمس الساطعة و تقاوم رغبتها في قضاء ما تبقى من المساء في عزلة تامة.

ثم تخطر لها فكرة. ستُعِد إبريقاً من الشاي ثم تدعو ميرسي لزيارتها.

أجل، ستعد شاياً جيداً، هكذا تقرر كلارينتاين فليت. ستستخدم فناجينها الوردية المفضلة، فناجين رويال أليرت التي ورثتها عن أمها، وفي أثناء ذلك، ستعد طبقاً من البسكويت بالمربى. النساء بحاجة للرفقة ـ هذا تماماً ما قاله الدكتور سبيرز لها. ربما كان الشعور بالعزلة هو سبب معاناتها، الشعور

بالوحدة فقط وليس تعاسة الحياة نفسها، مجرد نوبة موسمية من الشعور بالوحدة. وميرسي غودويل، الشابة العزيزة المسكينة، تشعر بالوحدة أيضاً ـ أدركت السيدة فليت ذلك فجأةً. اكتشفت هذا بحدسها. رغم مؤونة ميرسي من الرقة ومن الكلمات اللطيفة التي يسكبها زوجها الشاب في أذنها، رغم كل ذلك. هي وميرسي وحيدتان في هذا العالم، روحان متوحدتان، جنباً إلى جنب في بيتيهما المنفصلين؟ حبيستان في دائرة التّوق نفسها. لماذا لم تر ذلك من قبل؟ هذا ما أبقى كلارينتاين فليت حبيسة منزلها خلال الأسابيع الأخيرة، بعيداً عن ملتقى الأمهات وعن جمعية أشغال الإبرة، بعيداً عن احتمال زيارة وينبيغ لأيام عدة، لا يمكنها تحمّل السفر خارج حلقة العجز التي تطوقهما، هي وميرسي غودويل ـ أختان مسيحيتان مرتبطتان بصورة فريدة.

حان الوقت للقيام بمبادرة ما، وهذا ما ستفعله؛ ستقرع باب ميرسي في هذه اللحظة وتدعوها إلى منزلها. ستعد شاياً خفيفاً حلواً كما تفضّله ميرسي. وربما ـ تجرؤ فجأة على التفكير بحفل شاي مسائي، حفل شاي من النوع الذي تقيمه زوجة الدكتور سبيرز مع السيدة هوبسبين، زوجة مدير المقلع ـ وربما تطلب منها، بعد احتساء فنجان أو اثنين من الشاي، أن تناديها باسمها الأول. ستبادرها قائلةً: " لماذا لا تناديني كلارينتاين، لن أمانع ذلك على الإطلاق، بل سأرحب به، في الواقع. فنحن جيران منذ سنتين. أنت بمثابة ابنة لي، هذا ما أشعر به، وإذا كان باستطاعتك ـ" .

ولكن استغراقها الحالم ينقطع في تلك اللحظة. تسمع صوتاً، عويل رجل مرتفع النبرة، فترفع بصرها لتجد اليهودي

العجوز يمشي متعثراً باتجاهها عبر الحديقة.

يصعب الحديث هذه الأيام عن اليهودي العجوز. إنها مسألة عويصة. على العقل أن يعود إلى الزمن الذي كان فيه تعبير "اليهودي العجوز" يُقال بلا تردد: اليهودي العجوز، ها هو ذا اليهودي العجوز.

كان هناك، بملابسه السوداء المتسخة تخفق في هذا الطقس الحار، وشعره الأشعث مبعثر حول رأسه. يرتدي قبعة من نوع ما، تمكث فوق مؤخرة جمجمته، ممزقة ومتسخة. خداه عاليان تحت عينيه، مسْمَرّان ومجعدان كثمرتي جوز. خطوط وجهه الطويلة المتآكلة مدروزة بالقذارة، إما ذاك أو أنه اللون الأجنبي الغريب لبشرته.

حصانه، ذاك المخلوق التعس، يقف إلى جانب الطريق، موثَقاً إلى شجرة الحور الرجراج قرب مدخل بيت ميرسي غودويل. إنه يربطه هكذا بإهمال رغم أنه قادر على أن يربطه إلى عمود السياج. وعربته، تلك العربة المهترئة الرثّة، بالكاد تستحق أن يُطلَق عليها اسم عربة لكثرة قعقعتها و صريرها أثناء ارتجاجها مهتزة فوق الطريق، مفرّقةً حتى الغربان في الحقول.

يثير حضورُه الهلعَ والبغض حيثما حلّ، لأنه دوماً يطلب القهوة أو شربة من الماء البارد، فيتوجب تعقّيم الفناجين والكؤوس بعد استعماله لها. أثناء سفره في الشتاء، في الأرياف النائية حول آربورغ حيث استقر جميع الأيسلنديين، كثيراً ما يتجرّأ على طلب المبيت في أحد المنازل. وعندها يتوجب غلي أغطية الفراش في اليوم التالي، وفتح النوافذ على مصراعيها لتهوية المكان . فهو يحمل إلى تلك المساكن النظيفة المتواضعة

روائح الثوم والبصل والعفن، ورائحة جلده المتسخ. ورغم أن الأزرار وأربطة الأحذية و الإبر التي يبيعها نادرة في المنطقة، لكنها تُعَدّ مقابلاً ضئيلاً إذا ما قورنت باحتمال الإصابة ببقّ الفراش والأمراض المجهولة الخطرة. لسانه ثقيل ونتن، وعيناه مرتبكتان. وهو يجيد التملق أيضاً. يخاطب جميع نساء المنطقة بلقب (سيدة) وأزواجهن بلقب (سيد). يبيع القذارة للشبان في المنازل المؤجرة. قد يكون في الأربعين أو في الستين من عمره. يحمل معه مجموعة مختارة من الأقراص الدوائية والغسول الطبية، سكاكين الجيب والدمى الصغيرة، التبغ والسكر نبات القاسي، كل ضروب السموم. لا ينظر في عيني أي شخص. يُقال إنه يسطو على البيض في أقنان الدجاج، يسرق البندورة من الحدائق، يدس ملاعق الشاي تحت معطفه ويأخذها. يمدّ يداً سوداء ليربت على رؤوس الأطفال، يفاجئهم قبل أن يتمكنوا من الهرب، مما يربك أمهاتهم وآباءهم.

يظهر في الشوارع الخلفية وهو يسوط فرسه الهرمة. يحوّل مساره نحو مداخل البيوت ويقرع بطريقة متذللة لكنها متطلبة. تسمع طرقاته فتعرف صاحبها. مشيته غير متزنة، يجر قدميه ببطء وعدم توازن يذكّران بالأمراض المعدية للعالم القديم. ومع ذلك، ها هو ذا في هذا المساء التموزيّ ، يركض بتعثر، مقترباً من السيدة فليت، وهي واقفة بجانب حبل غسيلها ـ راياتها من الملاءات والمناشف ـ تشبه في وقفتها رسماً لشكل بشري مرسوم بطريقة الحرق على لوح خشبي.

يمسك أولاً بكم ثوبها، فتسحبها بصورة غريزية، لاهثةً،

محتجة، لكنه يمسكها ثانيةً بالطبع، ملتقطاً رسغها بخشونة هذه المرة. وجهه متّشح بالحزن والأسى، وهو ينشج، ينتحب، "السيدة، السيدة"، وجهه قريب جداً من وجهها لدرجة تمكنها من اشتمام نتانة أنفاسه وجسده.

"تعالي، يا سيدتي؛ تعالي".

صوته مخبول، يشوبه الرعب، نبرته حادة بما لا يتناسب مع صوت رجل، وكلماته ليست أكثر من بربرة غير مفهومة. راعها أن تلاحظ أن لديه فقط ثلاثة أسنان في فمه. شفته العليا سوداء بسبب قروح عليها. كلارينتاين فليت، وهي تسحب نفسها بعيداً عنه، وهي تشعر بقرف يوشك أن يسبب لها الإغماء، لا تتمكن من إبعاد نظرها عن جربه الجاف، وتتوق، بدافع غامض، إلى لمس قروحه بيدها.

يرفض أن يترك يدها.

"تعالي، يا سيدة".

خشونة يده على رسغها تشعرها بالغثيان، لكنّ منظر كمّ معطفه المهترئ، ومنظر ذراعه الشاحبة التي يظهر منها جزء كبير بسبب قصر الكم، يجعلها تتردد متأمّلة.

إنها ذراع رجل عادية، هكذا تلاحظ السيدة فليت، هي فقط غريبة بعض الشيء، لكنها لا تختلف كثيراً عن ذراعي زوجها ماغنوس عندما تتحررا من ملابسه الداخلية ليلة السبت وتغطس في زبد الماء ورغوة الصابون - مكشوفة، مغطاة بالندوب، عروقها نافرة، عضلاتها مشدودة بسبب الإجهاد، لكنها، في الوقت نفسه، تشبه أذرع النساء بصورة غريبة ومؤثرة.

وتَعجب ـ تتزاحم كل هذه الصور في مخيلتها خلال ثوانٍ فقط ـ تعجب إن كان لليهودي العجوز أقارب في مكان ما في المنطقة، إن كان لديه سقف، ومدفأة مشتعلة، وفراش خاص يأوي إليه. إن صحّ هذا، قد يكون لديه أيضاً جسد امرأة يتمدد إلى جانبه تحت أغطية الفراش، وكيس من اللحم الأزرق متدلّ بين ساقيه مثل كل رجل آخر. يا لهذه الخواطر المنفرة، عليها التركيز على ما هو صحيّ وسويّ. اسمٌ أيضاً، لا بدّ أنه يحمل اسماً، لا يمكن للمرء أن يدخل هذه البلاد ويصبح مواطناً فيها من دون اسم. لعله يحمل اسمين أو ثلاثة لا يمكن تهجئتها أو لفظها. لا بدّ أن شخصاً ما قد أطلق عليه تلك الأسماء، ولكن من؟

تهجم هذه الأسئلة عليها، تحرمها من الهواء، وفي اللحظة ذاتها تراودها الأفكار متداخلة مثل دوامة ماء منعش، حول غرفة جلوسها الأمامية المعتمة، وأريكتها بوسادتها الباردة، وغطائها الأخضر المطرز المهترئ في زاوية منه، وانتباهها دائماً إلى إخفاء تلك الزاوية عن الأنظار.

يتمسك اليهودي العجوز بها، ويشير بيده الأخرى مهتاجاً باتجاه مدخل مطبخ ميرسي غودويل. "السيدة مريضة"، يتمكن أخيراً من القول بلكنته الغريبة، "مريضة، مريضة"، وتفهم أخيراً ما يعنيه.

الأرض بين البيتين غير مستوية، مليئة بالصخور والجذور والأعشاب النامية. يركضان معاً باتجاه المدخل المفتوح، يصطدمان ببعضهما بخراقة، وأصابع اليهودي العجوز لا تترك رسغ المرأة للحظة واحدة.

يغريني أن أندفع خلال القناة الدامية وأخرج من بين ساقي أمي، وأن أضع يدي فوق قلبي الخافق، رأسي المسطحة ويداي الجنينيّتان تبزغ جميعها بين الأنسجة المتلألئة. ها هي أمي ممددة، ميرسي ستون غودويل، تلهث فوق أريكة المطبخ بغطائها المرتب من القماش المزهر رخيص الثمن، مستلقية على جنبها، وكأن شخصاً ما قد أوقعها أرضاً، ركبتاها الضخمتان الليّنتان مرفوعتان، وأجزاؤها الأنثوية مكشوفة. تشبه محار البحر أو نوعاً من الفاكهة المهروسة.

سروالها الملطخ بالدم لم يزل حيث ألقت به، فوق الأرضية ربما، في مكان لا تصله الأعين.

إنه ليس بالمنظر القبيح على الإطلاق، مهما كانت تصوراتكم، ما من شيء غير طبيعي حول هذا المنظر، فلماذا لا يمكنني النظر إليه بهدوء؟ لأنني أتوق إلى إضفاء التناسق على العناصر المتنوعة المتنافرة، رغم أنني أعرف قبل أن أبدأ بأنّ محاولتي ستبدو نوعاً من الدفاع. الدم والجهل، ماذا يمكن أن يُصنَع من الدم و الجهل؟ - وجسدي حديث التفقيس، النابض، الغافل والهلامي، الذي أشعر بواجبي تجاه تحويله إلى شيء نظيف وتام بواسطة سطر من الكتاب المقدس أو شعار لاتيني.

ولا بد من أخذ أبي بعين الاعتبار أيضاً، لأنه قادم الآن، يمشي على طريق المقلع متجهاً إلى البيت. يصفر، يصفع ذباب الرمل، يركل الغبار ببوطه المخصص للعمل. إنه منهك، ومن لن يكون منهكاً بعد العمل لمدة تسع ساعات في نحت الصخور؟ يتقاضى أربعة عشرة سنتاً في الساعة، وهذا أقل من

ثمن الفواكه التي استخدمتها زوجته ميرسي لتحضير حلويات عيد الميلاد في الشتاء الماضي؟ لكنه يصفر لحناً مرحاً، "الدمية القطنية الصغيرة"، أو، ربما، "زيزي زم، زم". في شارع بايك، الذي يقود إلى المقبرة، يتوقف ويفرغ مثانته.

تبلغ المسافة بين غارسون وتايندل ميلين اثنين. بعد أن يقضي العمال الآخرون يوم عملهم أمام أفران الكلس أو في المقلع مستخدمين أزاميلهم، يعودون إلى تايندل في عربات الشركة، تتدلى أحذيتهم المخصصة للعمل على جانبي العربة. ويجر عربتهم باتجاه منازلهم فريق من الخيول القوية ـ تلك الحيوانات الجميلة، ذات العضلات القوية، التي تستحق ركوب سفينة نوح والتي قلما نراها هذه الأيام ـ باستثناء أبي. لا يعود أبي معهم، بل يفضل أن يمشي. رجل غريب الأطوار، هذا ما يقولونه عنه في هذه النواحي. انطوائي يبدو كالمعتوه. يتصرف كما يحلو له. صغير الحجم لكنه عامل نشط، ليس مغفلاً. ماهر في تشغيل الآلات. لديه لمسة فنية مميزة. صموت، وقور. وهو من أبناء ستونوول، كذلك زوجته ميرسي. أما عن زوجته، فهي امرأة تكفي لإبقائه مشغولاً طوال الليل. (يترافق هذا التعليق عادة مع غمزة أو لكزة بالمرفق).

يروقه أن يمرّن ساقيه بالمشي بعد يوم عمل شاق يقضيه منحنياً فوق الحجر الكلسي، أو محدقاً إلى مجرى البخار القديم المشاكس. يبلغ عمر المقلع سنوات فقط، اكتشفه مزارع بينما كان يحفر بئراً وراء بيته عام ١٨٩٦، ثم بيع بعد ذلك بأربع سنوات إلى رجل يدعى ويليام هارسون، وهو المالك والمستثمر الحالي (يقول البعض إنه قد سرق المقلع في عملية

غش صريح). تمّ قطع وترحيل مقدار ١٠٠٠٠٠طنّ من الحجارة حتى الآن، مما غير المنظر الطبيعي الخاص بالمنطقة وأصبحت الأرض تنحدر في حلقات تشبه حلبة مصارعة مكشوفة، يبلغ ارتفاع كل طبقة ١٢ إلى ٣٦ إنشاً. هناك جدل حول كمية الحجارة الموجودة تحت سطح الأرض. يقول البعض إن المقلع سينفذ خلال خمس إلى عشر سنوات، إذا استمر إيقاع العمل كما هو الآن، بينما يقدر البعض الآخر، الأكثر اطلاعاً وتفاؤلاً، أن عرض الطبقة الحجرية يبلغ نصف ميل، وأنها تمتد على طول المسافة إلى وينبيغ وما بعدها.

الحجر ذاته، وهو حجر كلسي دولوميتي، أجمل وأسهل معالجةً من الحجر الذي عرفه أبي أثناء ترعرعه في ستونوول، مانيتوبا. إذ تمنحه التبدلات الكيميائية الطبيعية مظهراً شبيهاً بالمخَرَّمات. متوفر بلونين اثنين، البرتقالي الفاتح مع البني، والرمادي الفاتح المرقش برمادي أغمق، (وهو لوني المفضل). يدعوه البعض بالحجر المطرز، ويثمّنون بصورة خاصة مستحاثاته العشوائية: رخويات، لا فقاريات، مفصليات، مرجانيات، وحلازين. بعد تحلل أجسام هذه الكائنات التي عاشت يوماً، ملأ مكانها طين كلسي تصلب في ما بعد مكوِّناً هذا الحجر. تلقى والدي تعليماً محدوداً، لكنه يتمتع بفضول علماء الطبيعة ومنذ وقت قريب اقتطع بعض الحجارة المثيرة للاهتمام، التي تحمل آثار مستحاثات، وحملها إلى البيت كي يريها لزوجته ميرسي. (الحجر الذي أثقلت به حلويات مالفيرن التي صنعتها يوم ميلادي، يحمل ثلاث مستحاثات مندمجة من نوع نادر جداً، نادر لدرجة أنه لم يصنّف حتى الآن).

ما الذي يجعل سايلور يعود إلى البيت مشياً على الأقدام بعد يوم عمل طويل والشمس حارة وصفراء فوق الرؤوس، ما الذي يجعله يصفر بمرح كما يفعل؟ ذكرت سابقاً أنه يحب أن يمرن عضلاته المنهكة بعد ساعات الكدح الطويلة، لكني أعتقد ـ وهذا تصور خاص بي ـ أنه يحب أن يشد أطرافه ذاتها، كي يشعر بأنه يصبح أطول، وأكبر، وأقوى وهو يقترب من بيته، يقترب من الرجل الذي هو على وشك أن يكونه، أعني الزوج. المحبّ. هناك من ينتظره، وهذه سعادة لم يكن يتوقعها. أن ينتظره أحد ما. لديه سقف خاص به (صحيح أنه مؤجَّر لكنه سقف على كل حال)، ومائدة عشاء معَدَّة من أجله، وزوجة يعبدها. أجل يعبدها روحاً وجسداً.

لاشيء في حياته أعدّه لفكرة الحب. ثمة أذىً مبكر ـ والد ذو وجه مغلق متجهم، وأم شعثاء، غياب الأخوة والأخوات ـ كل ذلك أقنعه أنه سيبقى طفلاً طوال حياته، وستبقى له شهية طفل معاقة.

يبدو أن أسرته، آل غودويل، قد بقيت حبيسة الأجواء الجنائزية المتزمّتة التي ميّزت القرن الذي ولدوا فيه، وهم جميعاً، الأب والأم والابن، يعطون انطباعاً بالعجز، ضعاف الروح، سقيميّ الجسد. البيت الذي عاشوا فيه يواجه مباشرة أفران شيّ الكلس في ستونوول. يقع في نهاية طريق متسخ. بوابته منحرفة. نوافذه ملطخة بالرماد الأصفر الذي ينبعث من أفران الكلس، تمر عليها السنون من دون تنظيف، وسقف المطبخ يدلف، كان دائماً يدلف. وفي الطقس الماطر كان الدخان ينبعث من المدخنة إلى داخل البيت. لم يكن الخبز الذي يُخبز

في هذا البيت وافراً أو جيداً. والأجور التي كان يمكن أن تُنفَق على الإصلاحات أو المتع الصغيرة، كانت توضع في مرطبان مربى فارغ، حيث كُدست الدولارات مثل أوراق متسخة، مغضنة، تنبعث منها رائحة قوية. كان رجال البلدة يجتمعون في أيام الصيف في مقهى جاكسون وماريا ليلعبوا لعبة الحدوات[٢]، أما رجال عائلة غودويل، الأب وابنه، فكانوا نادراً ما يُدعون إلى المشاركة. وكان سبب استبعادهم هذا غامضاً. ربما افترض الآخرون أنهما لا يباليان بأساليب التسلية أو أنهما يفتقران إلى المهارات الأساسية، أو أنهما سيُغْديان الآخرين بنضوبهم الغريب المكدِّر. أما السيدة غودويل ذات العيون الحادة فكانت، وبدافع من عقيدة بالية، ترتدي قبعة لبّادية صباح كل يوم أحد وتحضر القداس في الكنيسة المشيخية، ولم يقترح أحد أبداً حضور سايلور إلى القداس.

لم يكونوا يولون صحته الروحية أو الجسدية أي اهتمام، في الواقع. كما لم يسألوه إبداء رأيه حول أي موضوع. ونادراً ما سمع أي إطراء لمهارته كعامل حجارة. لم يخطر ببال أحد أن يصوره قبل يوم زفافه. لم يذكر أحد عيد ميلاده أبداً (في ٢٦ تشرين الثاني) ـ لم يتلقّ أي هدايا ولم يقم أي احتفال بهذه المناسبة أبداً، ولكن عندما بلغ الرابعة عشرة رفع والده ناظريه عن صحنه المليء بالبطاطس ولحم الخنزير وغمغم أن الوقت قد حان كي يغادر المدرسة و يبدأ بالعمل في مقالع ستونوول حيث يعمل هو. ومنذ ذلك الحين أصبحت أجور سايلور تذهب

---

(٢) لعبة الحدوات: لعبة قوامها رمي حدوة فرس بحيث تطوق مسماراً معدنياً مغروساً على مسافة ٣٠ أو ٤٠ سم. (المترجمة).

إلى مرطبان المربى القديم، هي الأخرى. واستمر ذلك طوال اثنا عشر عاماً.

لم يكن من السهل علي يوماً أن أقبل مسألة محو الوقت، أو أن أسلّم بتبدّد الفصول كما يفعل الآخرون، أو أن أرضى واعيةً بأن عاماً قد مضى وعاماً آخر قد بدأ. ففي هذا ما يدل على عجزنا الأصيل وما يشير إلى أن المادة الأعظم لحياتنا (الزمن) موسومة بالضياع والتبدّد. حتى أن مجرد النطق بجملة واحدة عن هذا يربط اللسان، كأن نقول "مضى اثنا عشر عاماً"، مما يعني نكران المنطق البيوغرافي (السِّيَري). كيف يمكن لفترة طويلة كهذه أن تتضمن القليل جداً فقط، كيف يمكن أن تُسرق منا؟ أن تضيع منا الأشهر، الأسابيع، الأيام، والساعات ـ تحديداً في أثمن مرحلة من مراحل حياتنا، حين تكون أجسادنا في ذروة نشاطها وانفتاحها أمام غزو أعنف المشاعر بصورة لن تتكرر أبداً. على مدى أحد عشر عاماً، مذ كان في الرابعة عشرة حتى بلوغه السادسة والعشرين، واظب أبي على الاستيقاظ باكراً وتناول فطور مكوّن من عصيدة الشوفان، ثم الذهاب مشياً على الأقدام إلى الجهة المقابلة للشارع حيث يقع المقلع الذي عمل فيه لتسع ساعات ونصف الساعة يومياً، ثم العودة إلى صقيع وقحط منزل والديه، كي يأوي إلى فراشه باكراً.

إنه لغشّ أن نحاول سرد حياة مضت. طبعاً، أنا أعترف بهذا، حتى القصص الخاصة بنا تتعرض للتحريف، غريب أن نحتفظ بثقة مطلقة بإحاطتنا بالمحتوى البسيط لوجودنا. طوال اثنا عشر عاماً، من المحتمل أن عصيدة الشوفان التي تناولها

أبي على الفطور كانت رقيقة أحياناً وثخينة أحياناً أخرى، من المحتمل أيضاً أن يكون قد صادف تفاصيل العشق، التقطها من محادثات سمعها مصادفةً من زملائه، عمال المقلع، أو من الحقائق الأساسية الملحة لسنّ البلوغ، أو من كلمات الأغاني الدارجة أو المرات القليلة التي تناول فيها مشروباً قوياً. اعتاد حضور الحفل السنوي الخاص بالعزّاب، كما صافح مرةً اللورد ستانلي عندما جاء هذا الأخير على متن قطار عالي الصفير عام ١٨٩٩ . لم يكن والدي أعمى، رغم سلبية شبابه الذي ضاع، كما أنه لم يكن غبياً. من المؤكد أنه نظر حوله من وقت لآخر ولاحظ تغيّراً طفيفاً في المزاج ومسحة من مشاعر حتى لدى والديه ميّتا القلب. رغم ذلك، مضى اثنا عشر عاماً بين زمن مغادرته المدرسة واليوم الذي التقى فيه بميرسي ستون ووقع في حبها. مما غير حياته برمّتها، غيرها بمعجزة .

كانت ستونوول في تلك الأيام مجرد بلدة صغيرة لا يقطنها سوى ألفي شخص، لكن المصادفة أبقتهما بعيدين، ولم يسبق أن وقعت عيناه عليها أو سمع باسمها سواء في طفولته أو بعد أن أصبح رجلاً. نشأت متوحدة كراهبة، في دار أيتام ستونوول، وهي مؤسسة تقع في الجهة الشرقية من البلدة، صارمة لكنها ليست قاسية بأي مقياس من المقاييس. في هذه الدار، وبدافع الحفاظ على النظام أو بدافع المساواة، جميع الأطفال الذين لا يحملون اسم عائلة، أي الأطفال الذين وضعتهم أمهاتهم غير المتزوجات في الدار، أُطلق عليهم اسم العائلة (ستون) ـ وهكذا كان سجل الدار يضم: برتا ستون، كارولين ستون، غاريث ستون، هايرام ستون، لامارتين ستون، وهكذا دواليك، وصولاً إلى أمي، ميرسي، التي كان نسبها

مجهولاً تماماً مثل الآخرين، رغم أن لون بشرتها، شعرها الناعم، وعينيها اللتين بلون البندق، كل ذلك يوحي بأنها أوكرانية أو ربما أيرلندية. عُثر عليها وعمرها أيام فقط، ملفوفة بقماط صوفي ناعم ـ فليالي حزيران تكون باردة أحياناً ـ في برميل دقيق قديم قرب المدخل الخلفي لمبنى المؤسسة. أطفال براميل الدقيق هؤلاء، كما كانوا يسمونهم، كانوا تحت رعاية البلدة، التي قدمت لهم التعليم الابتدائي، وعلمتهم حرفة، ثم أرسلتهم إلى العمل ـ ما عدا أمي، فمهارتها في الأعمال المنزلية جعلت التخلي عنها خسارة كبيرة. بدأت المساعدة في تدبير أعمال الدار منذ سن السادسة عشرة، وعندما توفيت مديرة الدار العجوز، بعد ذلك بأربع سنوات، تولت هي كل شيء.

إن جسدها يشي بنظامها الغذائي المكوّن من عصيدة الشوفان، ولكن، رغم حجمها ـ إذ كانت بدينة في سن العاشرة وضخمة في سن العشرين ـ كان يروق لها أن تنحني على يديها وقدميها وتمسح الأرض حتى اللمعان. كان يتملكها الزّهو عندما تُخرج صينية من الفرن الحار مليئة بالشطائر الذهبية الرائعة المحشوة بالفواكه الحلوة. لم تبدِ الكثير من الاهتمام بما يردده دزينة من الأولاد والبنات ممن يعيشون في الدار ـ "ميرسي ستون تزن ربع طن" كانت هذه هي القافية التي غنتها الفتيات أثناء قفزهن على الحبل ـ لكنها كانت تعشق تحضير المائدة، إعداد الطعام، تعشق أن ترفع كميها وتنشّي وتكوي كومة من الملاءات. كانت موهوبة. وكانت مواهبها قيد الاستخدام. يمكننا تصوّر حيوات أسوأ. عند دخولها إلى غرفة ما، مهجع البنات مثلاً، كانت عيناها تلتقط حالاً كل ما هو بحاجة لعناية أو إصلاح أو تلميع، فتشمر عن ساعديها وتبدأ مباشرة بالعمل.

في يوم ربيعي من عامها الثامن والعشرين، وهو يوم أشرقت فيه الشمس وساده النسيم المنعش، لاحظت أن الباب الخارجي للدار لم يزل مخلوعاً، بسبب الصقيع ولا شك، مما يجعله يفتح بصعوبة، مُصدراً صوتاً رهيباً. وهكذا تم استدعاء بنّاء لإصلاحه. كان هذا البنّاء هو أبي، سايلور غودويل.

أسره توّاً لطف أمي، وفتنة معينة في وجهها، الطريقة المرتبكة لحركة يديها: إحداهما تدور داخل الأخرى وهي تقف بجانبه، ربما بدافعٍ من شعور غامض بالواجب الاجتماعي. مجرد وجودها الجسدي بجانبه أثار مشاعره لدرجة فاقت تصوّره. لحمها الوافر المترجرج والمظهر الورديّ النظيف لذراعيها العاريتين وهي تشير إلى العطل في إطار الباب، كل ذلك حرك مشاعره بعمق، إضافة إلى عقصة شعرها الصغيرة، ووجهها المنتفخ، كتفيها وياقتها المنتفخة ـ المحيطة ببراءتها التي تستجدي الحماية. أحس برغبة في تقبيل باطن مرفقها، أو لمس البشرة الناعمة التي تشكل نصفَيّ دائرة تحت عينيها، لمْس أحدادبهما الناعم.

مكثت قربه بينما كان يعمل، تؤنس وحدته، تحدثه بأسلوبها المتلعثم عن قسوة الشتاء المنصرم، أقسى شتاء منذ سنوات، برياحه الباردة وصقيعه، والفيضانات التي ما زالت تغطي حقول تايندايل حتى اللحظة.

أجل، أجاب والدي، متأملاً فمها الوقور، لقد سمع بأخبار الفيضانات، كانت الحالة خطرة، ولكن ـ نفض كتفيه قائلاً ـ الفيضانات تحدث كل عام في مثل هذا الوقت.

لاحظَ أنّ بدانة أمي ابتلعت جلّ وجهها لكنها استثنت

عينيها الصافيتين بأهدابهما اللطيفة.

رفض أن يتقاضى أجراً لقاء عمله، قائلاً إنه استغرق أقل من ساعة لإنجازه، وإنه استمتع به كاستراحة من رتابة العمل في المقلع، كما أنه سعيد بتقديم ما بوسعه من مساعدة، قال ذلك مشيراً إلى دار الأيتام، وسقفها، وواجهتها، ومجموعة الأطفال الذين يلعبون قرب الطريق. فألحت عليه عند ذلك كي يدخل إلى المطبخ الكبير الدافئ، حيث قدمت له القهوة وواحدة من الفطائر المحلاة التي أخرجتها لتوها من الفرن. كانت هذه الفطائر معجزة في حلاوتها، وكانت حشوتها دسمة ولذيذة.

وضع الفنجان وصحنه على ركبته. وتذكر لاحقاً أنه نظر إلى أظافر أصابع قدميه والاتساخ الواضح حولها. ارتعشت يداه لكنه تمكن من القول، "أتسمحين لي بالقدوم مرة أخرى؟".

حدقت إليه، متخيلة عظام صدره تحت قميصه، ثم شغلت نفسها برفع الفنجان والصحن، مبتعدة عنه. لم تفهم هذا الرجل الذي يناشدها. خرجت الكلمات من فمه لتذوب في فضاء المطبخ الدافئ. لكن يداه المرتعشتان ورائحة عرقه التي تشبه رائحة البصل حببته إليها أكثر. فاستدارت، رغماً عنها، لتمنحه ابتسامة متوترة.

"يمكننا أن نتمشى معاً؟" اقترح عليها.

فاستدارت نحوه تومئ بضعف، قائلة بصوت يائس "لست بالشخص الذي يصلح للمشي".

"أرجوك"، قال، مندهشاً لجرأته، "يمكننا أن نجلس ونتحدث، إذا أردت".

فرمقته بنظرة جافة خجولة اعتبرها هو شكلاً من أشكال الموافقة.

تراءى أمامه كل ما عليه أن يتعلمه كصفحات كتاب ثقيل، عن الغزل، عن الزواج ذاته وعن شعائره، عن أسلوب جديد في الحديث. إن مجرد التفكير بكل هذا الجهد قربه من حافة اليأس، لكنه أحس برغبة في الاستمرار، في تعلم ما عليه أن يتعلمه، وفي امتحان قوته. خلال شهر واحد تمكن من انتزاع وعد منها. ستصبح زوجته. سينتقلان إلى قرية تايندیل التي تبعد ثلاثين ميلاً حيث حصل على عمل في المقلع الجديد. أعلن عن نواياه لوالديه ـ اللذين أخرستهما المفاجأة ـ ثم حدد موعداً للزفاف.

رؤيتهما معاً دفعت الناس إلى الابتسام، هذا الرجل الرعديد بجسده الذي يشبه جسد فتىً صغير ومظهره الخجول يميل باهتمام باتجاه المرأة الضخمة، ويداعب يدها العريضة الكبيرة في حجره برقّة. كان أقصر منها قامة بصورة ملحوظة. ودّعها عند باب دار الأيتام متمنياً لها ليلة سعيدة، وداعبت يده خدها العريض وبشرتها الوردية الملساء.

لقد أدرك منذ البداية أن اتقادها لا يضاهي اتقاده، بل إنه من نوع مختلف تماماً، لكنه رأى في ذلك أمراً طبيعياً سوياً. الحب الجنسي الذي غمره في عامه السادس والعشرين ردّت عليه ميرسي بانذهال خفيف. لم تكن باردة تجاهه على الإطلاق لكنها استجابت لعناقاته الأولى المتلهفة الخجولة باستسلام وتنهد. لم تبدِ فضولاً حيال حياتهما المستقبلية المشتركة وكأنها غير مكترثة بذلك، لكن فكرة إيجارهما لمنزل متواضع من

الشركة ولّدت ردة الفعل المرتقبة. فأعلنت لسايلور بحياء أن عيشها في بيت خاصٌ بها، ترتّبه وفق مزاجها، سوف يسعدها كثيراً. لم يسبق لها أن توقعت ذلك، فقد كانت امرأة تقدّر قيمة نصف الرغيف، إذا جاز التعبير.

عندما تزوج أبي من ميرسي ستون عام ١٩٠٣، لم يكن يعرف شيئاً عن النساء، عن هضاب ووديان أجسادهن، أو عن نزعاتهن وميولهن، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية تنظيم الحياة الأسرية، من أين يبدأ وماذا عليه أن يتوقع، كما لم يكن بمقدوره اتخاذ والديه الغاضبين كمثال يُحتَذى، رغم أنهما استطاعا الارتقاء إلى مستوى حضور مراسم زواجه البسيطة وتقديم هدية زفاف، وهي الساعة التي ترتفع دقاتها كل ساعة ولا تتوانى أبداً عن تذكيره بحظه السعيد الذي أتاح له استبدال النمط التعس لحياته السابقة بمتع جديدة، واستبدال جميع خبرات حياته الكئيبة السابقة بأخرى جديدة، طازجة ومشرقة.

أصبح شخصاً مختلفاً، ملأه المد العارم للرغبة الجنسية حتى الحافة، لكأنّ مادة جسده ذاتها قد تبدلت. شعر وكأنه يحمل داخل رأسه خيطاً رفيعاً عتيقاً من الذكريات، وصورة واضحة عن الثابت والممكن، عن أرض السعادة المكتسبة وشواطئها. لم يتلقّ الكثير من التعليم، ولم يكن يعرف الكثير عن التاريخ والأدب، ولم يسبق له أن سمع بأن الرجال في العصور الوسطى كانوا يلازمون الفراش بسبب مرض يدعى لوعة الحب، الذي لم يكن سوى هجوم ميتافيزيقي تحولُ شدته وغرابته دون أن يتمكن محض جسد من تحمله.

يفكر أبي بميرسي طوال يوم عمله في المقلع، وبينما

يتنفس وسط سحب من الغبار المعدني، يفكر بطيات جسدها وأسراره، بهضابها ووديانها التي من لحم ودم، بشعرها، بشذاها، بطريقتها في الاستدارة نحوه، والاستسلام له، بحياء في البداية، ثم باسترخاء أكبر. صحيح أنها تتنهد عندما يتحد جسداهما ـ لا يمكنه نكران ذلك ـ لكنه يحب تنهيدتها، يحب استسلامها وشعورها بالإنهاك. تخجلها مداعبات يديه عندما يستلقيان في فراشهما الضحل، رغم أن يدها في إحدى المرات، مصادَفةً، قد مست برفق الشعر الرطب حول عضوه مما أعطاه فكرة واضحة عن طعم الفردوس. لا ينفر أبداً من السمنة المرتجة لذراعيها وفخذيها وثدييها، على الإطلاق. بل يرغب في دفن نفسه في وفْرتِها المجيدة. فهو الذي حرم من اللحم طوال عمره يشعر أنه لن يشبع منه أبداً. وهو يعلم جيداً أنه لولا جسد ميرسي ستون السخيّ ما كان ليتسنى له أن يشعر بحقيقة العالم أو أن يفهم خصائص تبادل المشاعر التي يعتبرها الآخرون حقّهم الشرعي.

لم يكن يجرؤ على التفكير بالمستقبل خوفاً من تعكير صفو الحاضر ـ لكن تفكيره يتمخض أحياناً عن رضاً أكثر كمالاً من كل ما يعرفه، يتمخض عن تصورِ بيت أكثر اتساعاً، تضيئه عبر الليالي مصابيح أكثر سطوعاً، وربما ـ لم لا؟ ـ ربما يرزق بأطفال من صلبه ينامون في الغرف العليا. أوشك سايلور غودويل على البكاء في الأيام الأولى لزواجه حين تأمّل ترتيب رفوف مطبخ زوجته، الأطباق المكدسة وأدوات المائدة المرتبة، الأطعمة المخزنة بصورة مرئية ـ أرز، دقيق، سكر ـ كل هذا يظهر تحسّبها للمستقبل، ذاك التحسب الشجاع والمؤثر، ولكن الحاضر هو كل ما يطلبه، في الواقع. إنها

لمعجزة أن يجد الحب في متناوله، وأن يكون باستطاعته التعبير عنه بصوت مرتفع، وأن يكون ـ هو الرجل الممل والمعوق جرّاء بداياته الضحلة ـ قادر على التعبير عن انفعالات قلبه والتلفظ بعبارات الحب التي تحتاج المرأة إلى سماعها، فاجأته هذه القدرة والمعرفة في البداية، فاجأته سلاسة لغته التي تشبه نهراً في حالة فيضان. وحال انطلاق الكلمات من حلقه بدا وكأنه قد عثر على لسانه الحقيقي. عندما يتذكر الماضي الآن، لا يستطيع تصديق اعتقاده القديم بأنه عاجز عن التعبير عن عواطفه المشبوبة.

هذا ما يفكر فيه أثناء عودته مشياً على الأقدام من المقلع إلى بيته: كيف أنه انتقل خلال عامين فقط إلى عالم جديد الخلق. (يركل حجراً بمقدمة حذائه كما يفعل أي طالب مدرسة، ويستنشق ملء رئتيه الرائحة الجافة للغبار العالق فوق الحقول. لن يروقه شيء أبداً كما يروقه الهواء على طريق المقلع الآن، في تموز من عام ١٩٠٥). يشعر في المساء بتعب لطيف في كل أنحاء جسده، لكنه يثمّن كل وجع مهما صغر في أي عضلة أو عظم من جسده، لأنه يعرف أن يومه ـ وإن كان يوم اثنين عادياً مثل اليوم ـ سوف يكتمل بالنشوة والبهجة. سوف يغتسل عند وصوله إلى البيت، وبعد أن يتناول عشاء جيداً يليه كوب من الشاي، سوف يدخل تواً وقبل غروب الشمس، إلى واقعه الآخر، وهو واقع أوسع وأغنى من كل ما ينتظره المرء من مجرد فراش: لقاء الحنان والرغبة، دوامة من النشوة، ثم ـ وهذا ما يبدو له أثمن من كل شيء ـ المكافأة بمعجزة النوم جنباً إلى جنب، حبيبته إلى جانبه، تذوب أنفاسها في أنفاسه. يتحرر أحد نوابض شعرها على الوسادة المشتركة، ومن دون أن

يوقظها يقبل نهايات شعرها.

يا للمسافة التي قطعها! عندما ينظر إلى وجوه الرجال الآن، بما فيها وجه والده المتجهم، يقول لنفسه: إذاً، هذا ما يكافئنا العالم به مقابل عملنا الجاد، هذه الومضة الثمينة من البهجة!

تهبّ نسمة. وهو ينطلق بسرعة الآن، يأخذه طريق المقلع عبر حقول مستوية منخفضة، قاحلة رديئة، فيها بعض البقع المستنقعيّة، خط الأفق منخفض بصورة خانقة، يضغط على أسطحة المنازل والحظائر الخشنة. استقر عدد من الأسر الغاليّة أخيراً في هذه المنطقة، وبنوا بيوتهم الخفيضة بلا نوافذ، وطينتها النسوة بمزيج من الطين والقش. كان ينظر في وقت من الأوقات إلى هذه البيوت ويتصور أن لا شيء فيها سوى البؤس. لكنه الآن يدرك خطأ اعتقاده ذاك. فقد عرف الفردوس وأصبح يراه في كل مكان.

الحياة هي عملية تجنيد مستمرة للمزيد من الشهود. يبدو أننا بحاجة لأن يرانا الآخرون في حالات التهور كما في حالات الخزي، نحتاج إلى اهتمام الآخرين بنا. إن ذاكرتنا الشخصية تعلّقيّة بكل معنى الكلمة، وهذا ألطف ما يمكن قوله عنها. إن الاعتبارات ووجهات النظر الأخرى ضرورية أيضاً، ولكن رغم ذلك نجد أن مناسباتنا الأكثر أهمية ـ الميلاد، الحب، والموت ـ يصونها من يتواجد حولنا في اللحظة المناسبة. يا للمصادفة، يا للنزوة!

شهدت كلارينتاين فليت لحظة ميلادي، وهي امرأة نصف مجنونة بسبب سن اليأس والشعور بالوحدة، تعيش حداداً دائماً

على حياتها التي لم تعشها، وسوف تصعد إلى قطار ذاهب إلى وينبيغ بعد شهرين من الآن وتهجر زوجها نهائياً، ليس لأنه ضربها أو خانها بل لأنه منع عنها المال الضروري (دولارين ونصف الدولار) لاستشارة الدكتور سبيرز حول خراج في ضرسها.

الشاهد الآخر، الذي يعتصر يديه بصورة فظيعة ويولول بصوت عال، هو إبراهام غوزدي، البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً، المعروف محلياً باسم اليهودي العجوز، وهو بائع خردوات متزوج، ولد في قرية بريزرين الألبانية لأب يهودي شرقي يصنع المسامير ويتاجر بها، الذي كان بدوره ابناً لناسخ محترف وحفيد لراباي ـ يعود تاريخ عائلته (جمعته سكوتاري كاناديان غراندسون وطبعته لاحقاً جامعة مك ـ غيل عام ١٩٦٩) إلى القرن الخامس عشر ـ أنجبته امرأة عرفت في منطقتها بأنها أنجبت ثمانية وعشرين طفلاً عاشوا جميعاً وعمروا طويلاً وقاموا بتأبينها بصورة لائقة عند وفاتها، ثم تشاجروا عند اقتسام ملاءاتها وأطباقها.

وشهد لحظة ميلادي أيضاً الطبيب هورتون سبيرز، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، أحضره اليهودي العجوز بسرعة وقطع عليه طقس احتساء قهوة ما بعد الظهر بصحبة زوجته روزماري التي كانت قد عادت مبتهجة من الغابة الواقعة شمال القرية ومعها صنف جديد من الفراشات لتضمه إلى مجموعتها، وكانت تحاول العثور على اسم الفراشة وتصنيفها الصحيح، تدقق في مجموعةٍ فرشتها فوق طاولة غرفة الطعام، وقد انزلقت نظارتها فوق انفها الضيق القبيح. الدكتور سبيرز

رجل يتميز بعقل متقد وذوق رفيع، كما يتمتع بحساسية عالية وغامضة تكاد تكون أنثوية.

وهناك أيضا أبي، سايلور غودويل، وهو شاب، متحدث شجاع، يطفح بالصحة والامتنان لما منحته الحياة له على غير توقع، وهو جائع يتطلع إلى وجبة العشاء المعدَّة من أجله، متلهف إلى ما يخبئه له هذا المساء من حنان. يندفع وجهه الغامق وجسده القوي عبر الباب الخلفي لمنزله، يموت اللحن الذي كان يصفره على شفتيه حين يفاجأ بهذا الحشد غير المتوقع وغير الباعث على السرور، تزكم أنفه رائحة قوية، ويصل إلى مسامعه صوت عويل مفجوع ـ من أين يأتي صوت البكاء هذا، من أين؟ ـ هذه الأصوات اللعينة المرعبة تتلولب صاعدة و تنضم إلى هسهسة الشراشف والهواء، ترقد زوجته ـ وسط كل هذا فوق أريكة المطبخ المشبعة بالدماء، فوق الغطاء الكريتوني الملموم ـ أمي، وجسدها الضخم ساكن تماماً، وعيناها مغمضتان. "إنه الإرجاج(٣)"، يعلن الدكتور سبيرز بكآبة، ثم يسحب شرشفاً ـ لا ليس شرشفاً بل غطاء طاولة ـ يسحبه ليغطي به وجهها ناظراً إلى أبي بتجهم. "إنه الإرجاج بالتأكيد".

انطبعت الظلال عبر الباب الخارجي على الأرضية. وكنت أنا أرقد هناك فوق طاولة المطبخ، خارجة لتوّي من عالم الأجنة، مبللة، صغيرة جداً، مقمّطة ومغمضة العينين، تتوقف دقات قلبي على سلسلة من الصمامات الوعائية الهشة مثل

(٣) الإرجاج: تشنج يحدث أثناء الحمل أو الوضع. (المترجمة)

بتلات زهرة لم تتفتح بعد. تسألون أين أصبحت حلويات مالفرن المثقلة بحجر؟ لقد وضعت جانباً، كما وضع جانباً كتاب الطبخ الذي استعانت به أمي ولن يظهر ثانية في هذه القصة. أنا مقمطة ولكن ـ بأي قماط؟ ـ بفوطة مطبخ ربما، أو بشيء انتزع بعجالة عن حبل غسيل كلارينتاين فليت، غطاء وسادة جف قاسياً تحت أشعة شمس مانيتوبا الحادة. فمي مفتوح يشبه حلقة مجعدة مصنوعة من الخيطان، يتحرك مناشداً، بل متطلباً، وربما مدركاً بصورة لا واعية أن ذاك المنبع المدرار الذي نجدّ كي نلتقطه عند الولادة لن يكون في متناولي أبداً.

جميع من كانوا في المطبخ الصغير المزدحم الذي تفوح منه رائحة فظيعة ـ السيدة فليت، اليهودي العجوز، الدكتور سبيرز وسايلور غودويل ـ كانوا مدعوين إلى المشاركة في لحظة تاريخية.

أهو حقاً التاريخ! وكأن هذه الفترة التافهة من الزمن تستحق اسماً كهذا. الصدفة وليس التاريخ هي التي جمعتنا، ويا لنا من جمع. يا للفوضى، يا للصخب والتنافر، يا للغرابة. يتمتع من يكونون في حالة حداد بالقدرة على شحن الجوّ باللوم، لكن المجتمعين هنا ليسوا في حالة حداد بعد. الهذيان الانفعالي والشعور بالعجز هو الذي يجمع بينهم أو، بالأحرى، يفصل بينهم.

تعلن دقات الساعة السادسة تماماً، ومع دقتها الأخيرة يلتفت هؤلاء لينظروا إلى بعضهم البعض ثم ينظرون إليّ، أنا الضيفة غير المرحَّب بها. ترقص ألغازُ وأسرارُ وأكاذيب ذواتهم المنفصلة وكأنها ذرات في حقل مغناطيسي، مما يشحن الغرفة،

غرفة هذا المطبخ البسيط ذي السقف المنخفض، بذبذبات تشبه الذبذبات التي تسبق الإعصار. أنا واثقة أن الغرفة لا توحي للماكثين فيها بما عليهم أن يفعلوه، بالكلمات التي يمكن أن يقولوها أو ما يمكن أن يتناولوه لتخفيف ألمهم، كالشاي أو الويسكي، أو تمتمة الصلوات المشتركة. هؤلاء الطيبون، لأنهم كذلك فعلاً، تحملهم طبقة عتيقة من الحجر الكلسيّ، يومض بياضها على عمق إنشات فقط تحت سطح الأرضية، ورغم ذلك فإن كل واحد منهم في تلك اللحظة يشعر بعدم الثبات وبأنه يتأرجح في هذا العالم متقلقِلاً بين حتمية الموت وسطوته وبين الحماقة المخجلة للولادة.

بارتباك، أو بخجل ربما، ينظرون للمرة الأخيرة إلى الهيئة الضخمة لميرسي ستون غودويل الممددة أمامهم تحت الغطاء الأبيض، صامتة وساكنة مثل قارب، التي قضت حياتها كلها غريبة في هذا العالم، ثم منحت أنفاسها الأخيرة لمولودتها.

هذا الأنفاس التي تشبه رفّة جناح هي ما أحاول التقاطه. وما زلت واثقة تماماً من ذلك حتى لحظتي هذه. ما زلت أذكر ذبذبته، ومهما حاولت، لن أكون أكيدة من شيء تأكدي من هذا ـ من حقيقة أن أنفاسها الأخيرة وهي تحوم واهنة في أرجاء الغرفة مثل الثلج أو ضوء الشمس، حارقة، باردة، تلامس جفوني المطبقة، قائلة: افتحي، افتحي عينيك.

الفصل الثاني

الطفولة ـ ١٩١٦

باركر فليت هو شاب في الثالثة والثلاثين من عمره، يتميز بانحناءة في الكتفين وسيماء حزينة، لكن النساء اللائي تقع عيونهن عليه يشعرن أنه رجل من السهل إسعاده.

تنتابهن رغبة شديدة في كيّ سترته المصنوعة من الجوخ الرخيص، التي يرتديها عندما يحاضر في طلابه حول دورة حياة نبات بخور مريم أو زعفران المروج. ويمكن لقمصانه أن تكون أكثر نظافة أيضاً، ويمكن لياقته أن تكون أكثر ترتيباً، كما أن حذاء أكسفورد البالي الذي يرتديه يكاد يصرخ مستغيثاً من أجل الحصول على طبقة من الدهان والتلميع. إن كل ما يحتاج إليه البروفيسور فليت هو قليل من الاهتمام الأنثوي. أعني من الاهتمام المُحِبّ. لا تضحكوا عليه، أشفقوا عليه، أحبوه.

يصل إلى كليّته ذاهلاً، متأخراً عن صفه خمس دقائق وأحياناً عشر، ينظر بدهشة وانبهار بينما ينعم النظر في الوجوه المنتظرة ويبحث داخل حقيبته عن محاضرته. ها هي ذي، لقد وجدها. يرتبها فوق مِقْرَئه متجهماً، مثيراً جلبة لا داعي لها.

نظارته، لقد نسي نظارته. لا، ها هي ذي، مطوية في جيب سترته العلوي. يأخذها من جيبه ويعقف طرفيّ سلكيها حول أذنيه الجميلتين، الأذن اليسرى أولاً، ثم اليمنى - ثم يسوّيها دافعاً إياها فوق أنفه بإصبعه الوسطى. يطرف مرتين. يتنحنح. ثم يبدأ.

صوته جميل. نسيجه يشبه نسيجاً صوفياً ناعماً، ولو كان للأصوات لون، لكان له لون الكستناء الحار. إنه كل ما يجب أن يكون عليه صوت الرجل، بمرونته ورنينه إضافة إلى اللكنة الاسكتلندية الخشنة - أرقّ من طبقة الورنيش التي تغطي مِقرأه - وهي تضفي على صوته الصلابة الضرورية. يمتطي صهوة كل جملةٍ من جمله بثقة. وقفاته القصيرة بينها تشكل صمامات حسيّة، لولاها لوقع مستمعوه مغشياً عليهم بفعل النشوة.

إنهم، في الواقع، يسمرون عيونهم عليه، ويركزون انتباههم على فمه المثقف الوسيم الحزين، ويخفضون أنظارهم فقط عندما يضطرون إلى كتابة لائحة من الكلمات التي يكرّرها أمامهم: أجزاء زهرة ما: المدقة، الميسم، القلم، المبيض، السداة، المئبر، الخيط الحامل، البتلات، الكأس وكرسي الزهرة. غالباً ما يستخدم لوح الكتابة الأسود، لكنه اليوم نسي الطباشير مما اضطره إلى رسم هذه الأشكال في الهواء. يفتح أصابعه الطويلة ويغلقها حول هذه الأشكال الهوائية. من المؤسف أن يكون طرفا كميه في هذه الحالة المزرية، ويبدو - وهذا مؤكد - أن أحد أزرار كمه الأيسر مفقود، لكنه غير واعٍ لذلك - وهذا بالضبط ما تجده الطالبات آسراً في شخصية البرّوفيسور باركر فليت، هذه الموهبة الحقيقية في نكران الذات.

إنه خريف عام ١٩١٦، وصفّ علم النبات التمهيدي الذي يدرّسه مكون من اثنتي عشرة فتاة و شابين اثنين فقط. لأن رجال كلية ويسلي جميعهم لبسوا الزي العسكري وذهبوا إلى الحرب ما عدا إدوارد وود المصاب بالصرع وكلارين ريدفيلد القصير القامة و المشوه قليلاً ـ لا يتجاوز طوله ١٢٠ سم، وإحدى قدميه منحرفة نحو الخارج. ولكن، لماذا لم يذهب البروفيسور فليت إلى جبهة القتال إذاً؟.

لقد كثرت الشائعات حوله. يلمّحون إلى أنه من معارضيّ العنف لكنه لم يعلن عن نفسه بعد. أو أن قلبه ضعيف كما تشير بشرته التي تكاد تكون شفافة. أو أن حالته البصرية جعلته غير مؤهل لخوض الحرب، فرجل يرتدي النظارات الطبية يكاد يكون غير مؤهل لمقابلة القيصر، ثم أن هناك عصاه المصنوعة من الصفصاف والتي يحملها بصورة دائمة ـ والتي قد تكون ضرورية له أو مجرد مظهر ـ أو ربما اعتبروا أن عمله المستمر على أنواع القمح هو أمر حيوي جداً بالنسبة للحرب. (في عام ١٩٠٥، عندما كان باركر فليت يعدّ رسالة الماجستير، ساعد على التوصل إلى النوع "ماركيز" من القمح المهجن، وهو قمح ربيعي أحمر مغذٍ، ويحاول الآن أن يهجنه مع النوع "غارنيت" وهو قمح يمكن حصاده قبل موعد الحصاد المعتاد بعشرة أيام، مما يجنبه الكثير من الإصابات التي يسببها الصقيع المبكر). وربما اعتبروه معفى من الواجب العسكري لأنه المعيل الوحيد لوالدته العجوز وقريبته الصغيرة، وهي فتاة في الحادية عشرة من عمرها. (هذا التفسير الأخير هو المفضل لدى الجميع، كما أنه التفسير الواقعي أو الأقرب إلى الواقع).

كيف علم طلابه بأمر الأم العجوز والقريبة الصغيرة، فهو لم يشر إلى وجودهما أبداً؟ لأن إحدى طالباته، وهي الطالبة النشيطة ذات الشعر الأشقر، بيسي بيرفيكت، تقيم مع عائلة يقع منزلها في شارع داونينغ القريب من شارع سيمكو حيث تقيم عائلة فليت بأفرادها الثلاثة. كما أن طالبة أخرى واسمها جيسي سالتماير تتردد على الكنيسة الميثودية الأولى حيث تتعبد عائلة فليت صباح كل يوم أحد. وهناك أيضاً الطالبة الآنسة لينا بالينتاين؛ فوالد لينا بالينتاين هو طبيب أسنان يعرف السيدة فليت وقد زوّدها مرتين بأسنان صناعية. من أيضاً؟ حسناً، هناك كلاريس ريدفيلد الصغير الحجم الذي صادف أفراد عائلة فليت يتمشون على ضفة النهر الأحمر عندما كان يتجول أثناء إحدى العطل الأسبوعية، وكانوا يحملون معهم سلة طعام وبساطاً مطوياً كي يفتحوه فوق العشب ويتناولوا طعامهم. ضعف العائلات الصغيرة! ولكن أيضاً ثقل اكتفائها الذاتي الذي يعوض عن ضعفها.

في قاعات كلية ويسلي، جُمعت هذه النتف من المعلومات إلى بعضها وبُهِّرت. أشارت الآنسة سالتماير، في خاطرة متأخرة لها، إلى أن والدة البروفيسور فليت ليست عجوزاً إلى ذاك الحد، وأنها تزرع محصولاً لا بأس به من الأزهار خلال فصلي الربيع والصيف في الأرض المجاورة لبيتها في شارع سيمكو، وأنها تبيع محصولها لمتاجر الأزهار المنتشرة في المدينة. وساهم شخص آخر بمعلومة أخرى مفادها أن (قريبته الصغيرة) لا تربطها به قرابة دم، بل هي ابنة لأسرة من معارفهم توفيت الزوجة فيها أثناء الولادة. كانت كل هذه المعلومات ساحرة بالنسبة لطلاب الصف التمهيدي في علم النبات، لكن

أكثرها سحراً على الإطلاق هو معرفتهم أن باركر فليت هو رجل عازب. فهذه الحقيقة الغريبة المدهشة تثير الآمال: رجل وسيم في الثالثة والثلاثين من عمره لم يجد شريكة حياته بعد.

لا يستطيعون تمالك أنفسهم من التساؤل حول ما إذا كانت لديه علاقة سابقة انتهت نهاية تراجيدية ـ وكثيراً ما ناقشت الدفعات المتتالية من الطلبة هذا الاحتمال فأصبح له لمعان الأشياء الصحيحة الموثَّقة. وقد تعددت الروايات حول ذلك: محبوبة خطفها الموت بعد إصابتها بالحمى؛ خطيبة رفضتها العائلة بعد أن حكمت عليها بأنها لا تناسب ميولهم الكنسية، بسبب فساد الخلق، أو بسبب وجود حالات جنون في عائلتها، أو لأن المرتب الشهري لبروفيسور في كلية ويسلي لن يفي بمتطلباتها.

في الواقع، لا يوجد أي خطوبة مفسوخة في ماضي باركر فليت، ولا اتحاد للروح والجسد قد فصمت عراه. أما البروفيسور فليت، الذي يدرك تماماً هذه الأساطير الرومانسية التي تُحاك حوله، فيبتسم لهذه الفكرة. ابتسامته جميلة كصوته، لكنها ابتسامة يولّدها الزهد المحبَط والاعتقاد بأن الحب ليس أكثر من شكل مصغّر عن إيذاء الذات. رفقة نفسه هي الرفقة التي يفضلها. غرفة شتائية هادئة، كرسي، كتاب مفتوح تحت دائرة ضوء مصباح، تقشّف مريح. أو نزهة يقوم بها متوحداً إلى مروج الصيف، يجمع خلالها النباتات لدراستها، يحمل معه سكين جيب وأكياساً لوضع عيّناته داخلها، بالإضافة إلى شطيرة أو اثنتين. صحيح أنه زار غرف بائعات الهوى في جادة هيغنز ثلاث مرات خلال حياته الراشدة لكنه يعتبر ذلك مجرد حوادث

عرضية تعليمية لم تلامس أعماقه. ربما كان واحداً من هؤلاء الرجال الذين يحسون حيال المرأة بالحساسية المرهفة والعداء العميق في الوقت نفسه. لم يكن، على الإطلاق، في حالة حداد على حب ضائع، كما يروق لطلابه أن يعتقدوا، إنه في حالة حداد على بساطة حياة كانت له حتى وقت قريب لكنها ضاعت منه.

لم تكن السعادة في متناوله يوماً كما كانت في صيف عام ١٩٠٥، عامه الثاني والعشرين، حين كان يعيش وحيداً في غرفتين خلفيتين فوق سطح منزل مؤجر، منكبّاً على مكتب دراسته يعمل على إنجاز أطروحته حول أحد أنواع نبات خفّ السيدة.

لقد أحب زهرته، ("السيدة" هنا هي فينوس بالطبع). كان قادراً على رسم زهرته حتى في أحلامه. وريقة كأسية ظهرية، وريقة كأسية خلفية، غمد، قنابة مغلقة، وسط الزهرة والجزر. صحيح أنها نبات شائع لكنها تنتمي إلى الفصيلة السحلبية الغريبة. هذه الزهرة الهشة ذات الأهداب هي زهرته. قام بدراستها طوال أشهر، وأصبح الآن يعرف كل أجزائها الحريرية المثنّاة، والآلية الكلاسيكية لتجددها، التي ترفعها من وحل وسط أوروبا المتواضع ليتفتح جمالها الكامل للعين البشرية ـ ولعينه هو بالتحديد. (هو يؤمن بهذا بلا غرور).

شدة تحديقه في هذا الشيء الوحيد الحي أيقظت داخله رغبات أخرى معقدة ـ إذ تاق من جديد إلى الانعتاق من جسده ـ تلك النسوة في جادة هيغنز ـ تاق إلى محو كل ما وجده موجعاً في حياته حتى الآن، بدءاً من الغضب المتبلد الكئيب

لوالديه وإخوته، لأسرته التي افتقرت إلى القدرة على مساندته في مجال التعليم والثقافة وحتى اللغة. تاق إلى النأي بنفسه عن شوارع تايندیل ـ مانيتوبا الوضيعة التي تفتقر إلى الأرصفة، حيث قضى فترة صباه، وعن السعي الفجّ إلى الخلاص والجنس، الذي رآه في كل مكان حوله. كان النعيم يكمن في التركيب البسيط لهذه الزهرة البسيطة التي كان يحاول رسمها فوق صفحة بيضاء: متعضّ ذو بتلات، كامل بذاته، يذعن فقط لإيقاعاته وقوانينه الخاصة ولا شيء آخر. الآن، بعد مضي سنوات على ذلك، ما زال يتذكر كيف أمسك بفرشاة الألوان المائية، وكيف أن أشعة الشمس التي اخترقت زجاج النافذة، أضاءت نهاية رسغه وحافة كأس الماء، وكيف أضفى ذلك الإشراق على وجوده كله.

حكم على ذاك الشعور بالنشاط والخفة أن يكون قصير الأمد. فقد طلب إليه ماكنتوش، مدير الكلية، أن يغيّر وجهة بحثه لصالح عملية تطوير القمح القاسي، مذكّراً إياه بأن دين الكنيسة الميثودية هو دين اجتماعي، بقدر ما هو دين روحي، وهو بالتالي شديد الاهتمام بالحياة البشرية وتحسين مستواها ـ وهنا يؤكد الرجل العجوز على كلماته بحماس ـ الحياة البشرية على هذه الأرض. وفي سبيل هداية الشاب القابل للتأثر، باركر فليت، ردد كلمات جوناثان سويفت على مسامعه: (من استطاع استنبات كوزين من الذرة فوق قطعة أرض كان ينمو فوقها كوز واحد فقط من قبل، يستحق تقدير النوع البشري، ويكون قد أدى خدمة أساسية لبلاده تفوق جهود سلالة كاملة من السياسيين).

اضطر باركر فليت الشاب إلى التخلي عن بحثه حول نبات

خف السيدة وتركيز اهتمامه على القمح الهجين. ولم تكفهم تضحيته تلك، فأضافوا إلى عمله عبء تدريس مادتي الفيزياء والكيمياء التمهيدية إضافة إلى مادة علم النبات، وبعد ذلك بعام واحد، وبعد طرد بلاسر المسكين (حيث تبين أنه "يتعاطى الكحول")، كان على باركر تدريس مادة علم الحيوان التمهيدية أيضاً، وبين ليلة وضحاها بدا له أن وحدانية تركيزه قد تحطمت.

الأسوأ من ذلك هو ما حدث حين عاد إلى مسكنه في شارع سيمكو في أحد الأماسي أواخر أيلول ليجد أمه جالسة هناك. في حجرها طفلة حديثة الولادة تضرب بذراعيها، تركل بساقيها، وقد قوست بطنها، تصرخ ملء رئتيها محتجة على عدم عدالة هذا العالم.

هل ذكرت لكم أن كلارينتاين فليت قد هجرت زوجها ماغنوس عام١٩٠٥؟ هل أشرت إلى أنها أخذت معها المولودة التي كانت تحت رعايتها، طفلة ميرسي غودويل، جارتها التي قضت نحبها أثناء الولادة؟

غادرت السيدة فليت في شهر أيلول؛ سلسلة من الليالي الصقيعية جعلت الهواء بارداً جداً، وكانت المولودة ـ وهي فتاة صغيرة هادئة المزاج ـ مرتدية قميصاً من الموسلين تليه فانيلة ثم سترة بأزرار من الصوف الأبيض، ويدثرها فوق كل هذه الطبقات شال كبير مثبت بدبوس.

كانت الساعة التاسعة وسبع دقائق من صباح مشرق حين استقلت السيدة فليت قطار (إمبيريال ليميتد) من محطة تايندايل، موقنةً أن حياتها انهارت لكنها تمكنت، بقوة الإرادة، من المشي

منتصبة القامة، متظاهرة بالانشغال والحيوية. من رآها تبتاع بطاقتها إلى وينبيغ ـ بورقة من فئة الدولار كانت قد أخذتها من صندوق زوجها في الليلة السابقة ـ لم يلحظ أنها ابتاعت بطاقة ذهاب فقط. ربما اشتمّ هؤلاء الذين كانوا على مسافة صغيرة منها شذاً قوياً يلفّ شخصها، ينبثق من حشوة القطن التي بللتها بزيت كبش القرنفل ووضعتها داخل ضرسها الذي ينبض ألماً. لم تكن قبعتها تستحق نظرة ثانية، فهي مزينة بالساتان العادي وبجدلة يابانية، لكنها مع ذلك كانت مثبتة بالميلان الملائم فوق رأسها الصغيرة الصارمة، مما منحها المظهر الأنيق لامرأة أصغر سناً. كانت في الواقع في الخامسة والأربعين من عمرها. والباقة الكبيرة من أزهار الخريف التي كانت تحملها بدت للناظرين مجرد ميل أنثوي، وكان باستطاعة أي شخص يسترق النظر إلى حقيبتها أن يرى معطفاً صوفياً مطوياً يعود لها، دزينة من الحفاضات القطنية الصغيرة وزجاجة إرضاع مع ثلاث حلمات مطاطية سوداء. يا له من حمل غريب ـ حقيبة، باقة من الأزهار وطفلة ـ لكنها مع ذلك احتلت مكانها أمام النافذة بثقة.

كانت الرحلة قصيرة، مجرد ثلاث وخمسين دقيقة عبر الحقول المستوية المحصودة وسلسلة من القرى التي سطعت عليها الشمس ـ جارسون، إيست سيلكيرك، جونور، بيردز هيل، وايتاير جنكشن ـ وخلال الزمن الذي استغرقته الرحلة، والطفلة نائمة على ذراعها، بدأت كلارينتاين فليت بوضع الخطط لحياتها، كانت عصيدة الشوفان التي تناولتها على الإفطار تثقل معدتها، لكن مخيلتها كانت تحلق. رأت بوضوح أن حياتها الماضية قد أصبحت خلفها ـ وكأنها قطعتها بسكين حادة ـ (بتلك الملاحظة التي كتبتها وتركتها لزوجها تحت مكواة

مناديلها، كلمة واحدة مكتوبة بخط رديء: وداعاً). وكانت الفرصة التي صنعتها بنفسها تكمن بانتظارها. ستترجل من القطار إلى الشارع المزدحم أمام محطة كانيديان باسيفيك في وينبيغ ثم تعرض أزهارها على المارة؛ أبناء المدينة مولعون بالأزهار النضرة ولو كانت أزهاراً عادية كأزهارها، من النوع الذي ينمو في كل أرض بور في المنطقة، ولكن على المرء أن يعرف أين يبحث عنها. ستنسقها في أربع باقات ـ أزهار النجمة هذه، ذات اللون الأزرق الداكن، أو أزهار القديس كما يسمونها ـ ثم تضيف بعض الأوراق الخضراء وتربطها بشكل جميل بشريط حملته معها، ستبيع كل باقة بعشرة سنتات فتحصل على المال الكافي لاستئجار سيارة تقلّها مع الطفلة إلى شارع سيمكو حيث يقع المنزل الذي يسكنه ابنها باركر. حال وصولها إلى هناك، ستصعد الدرجات الخشبية القليلة، تطرق بابه، وتدخل. بعد ذلك سوف تنتظر، بيقظة وحذر، وترى ما يأتي في طريقها.

"عزيزي السيد غودويل"، كتبت كلارينتاين فليت بيدها الكبيرة الخرقاء غير المتعلمة، "أشكرك على رسالتك، وها أنا أرد عليها من دون تأخير كي أؤكد لك أن دايزي، كما اعتدت على مناداتها، تتلقى العناية اللازمة وأنها بصحة جيدة. يسعدني أنك توافقني الرأي بأن طفلة رضيعة كهذه تحتاج إلى الرعاية الأنثوية كي تنشأ النشأة المثلى، في المرحلة الحالية على الأقل. أعتذر فقط لأن حالتي الذهنية المضطربة صباح الثلاثاء لم تسمح لي بترك رسالة توضيح لك. لا تقلق على طفلتك العزيزة فحياتنا في منزل ابني هي حياة صحية ومريحة جداً. إنّ شعورك الراهن بالفقدان يؤرقني بعمق لأنني، كما تعلم، قد أحببت زوجتك ميرسي كأخت عزيزة لي. أرفق مع هذه الرسالة خصلة

من شعر طفلتك علّها تمنحك بعض السلوى. يؤسفني أنها خصلة صغيرة جداً مؤلفة من عدة شعرات فقط، لأن شعرها لم يزل خفيفاً جداً".

باركر فليت، الطالب النحيل، طويل القامة وسيئ الهندام، الذي يدرّس علم النبات، يجلس منكباً على مكتبه الذي تعمه الفوضى، زاوية انحناءة رأسه تدل على بؤسه. يتنهد بغيظ، يلتقط قلماً فولاذي الرأس، يغمسه في المحبرة، ويكتب: "والدي العزيز، أشكرك على رسالتك ولو أنه يحزنني أن أعرف عدم استعدادك للكتابة إلى أمي مباشرة، لأني لا أتمالك نفسي من الاعتقاد بأنك إن ناشدتها بصورة مباشرة ومخلصة، وبكلمات لطيفة، قد تشجعها على التفكير ملياً بحالتها ومن ثم العودة إلى البيت". (هنا يتوقف للحظة، ناظراً نحو الخارج، إلى المطر الذي يقعقع على النافذة). "في الوقت الراهن، أتوسل إليك أن تجد في قلبك من الرحمة ما يكفي كي يدفعك إلى تخصيص مبلغ صغير من المال لها، دولار أو دولارين أسبوعيا. فكما تعلم، اضطررت إلى تأجير غرفة إضافية من أجل إقامتها مع الطفلة، والمنحة الدراسية التي أتقاضاها من الكلية بالكاد تغطي هذه المصاريف الجديدة غير المتوقعة. وكان علي تسديد العديد من الفواتير الطبية أيضاً، حيث عانت أمي من التهاب شديد بعد اقتلاع أسنانها، وعانت الطفلة مما دعاه الدكتور ستيرلنغ بتشنج الصدر. ربما بلغك أن جارك، السيد غودويل، قد وافق على تقديم مبلغ ثمانية دولارات شهرياً لإعالة الطفلة، ولكن رغم مبادرته السخية، ما زال هذا المبلغ غير كاف. تحياتي الحارة لك ولإخوتي الأعزاء.

باركر فليت".

عزيزي السيد غودويل

أرحب دوماً برسائلك الشهرية، وأشكرك بحرارة على الحوالة النقدية التي أقدرها عالياً. يسعدني أن أخبرك أن دايزي طفلة سعيدة تنمو بسرعة وقد أصبحت ساقاها قويتان فعلاً. نعتقد أنا وولدي باركر أنها ستمشي قبل انتهاء الشهر. أرفق مع رسالتي الصورة التي طلبتها. (وأشكرك ثانية على إرسال المال اللازم). ستلاحظ بنفسك أن المصوّر قد التقط تجعيدات شعرها النادرة، ولون شعرها الجميل الذي سمعت انه يدعى بلون "الفريز"). أؤكد لك أن هواء وينبيغ صحي ومنعش بعكس ما قد يكون نما إليك. إضافة إلى ذلك، نحن محظوظون بأن لدينا حديقة كبيرة وجميلة ملحقة ببيتنا حيث سيكون بمقدور دايزي أن تلعب وتتجول عند حلول الصيف.

مع أجمل التحيات

كلارينتاين فليت

والدي العزيز،

لقد كلمت أمي كما طلبت مني، ولكن يؤسفني أنها مصرّة على رفض العودة إلى تايندايل رغم قبولك رجوعها إلى كنف الأسرة من دون أن تقول كلمة واحدة عن مغادرتها المفاجئة وغيابها الطويل عن البيت.

أما عن سؤالك الآخر فيؤسفني أن الجواب هو النفي أيضا، لأني أعتقد أن وصولك إلى هنا سوف يثير أعصابها.

حالتها الذهنية هادئة في الوقت الراهن، وهي منشغلة بالحديقة والركض وراء دايزي الصغيرة. ولكن، مع ذلك، يجب ألا نفقد الأمل بالمصالحة في المستقبل.

يؤسفني أيضاً قرارك حول مسألة المال، التي أمست بالنسبة لي، مصدراً لا ينضب للأسى.

ابنك

باركر

عزيزي السيد غودويل:

سيصعب عليك التصديق أن دايزي ستبدأ مدرستها خلال عشرة أيام.

وهي منذ الآن تحفظ الأحرف الأبجدية عن ظهر قلب، بالإضافة إلى الصلوات إلى الرب، المزمور ٢٣، وعدد من التراتيل البسيطة. باستطاعتها أيضاً أن تسرد الأسماء الشائعة لأنواع الأزهار في حديقتنا، التي يبلغ عددها ٢٥ نوعاً. يسعدني أن أقول إن الطقس الجميل الذي ساد في الشهرين الأخيرين، والاستخدام المنتظم لكمادات أوراق نبات آذان الدب قبل النوم قد حسن حالة صدرها. أما عني فأنا بصحة جيدة.

المخلصة

كلارينتاين فليت.

عزيزي السيد غودويل،

أشكرك على رسالتك المؤرخة في الثامن والعشرين منه، وأؤكد لك أن دايزي بصحة ممتازة. و قد أدت تسميعها المدرسي (وهو مرثية بحار) بأعمق المشاعر والحماس.

أثار اهتمامنا أن نقرأ عنك وعن برجك الشهير في مجلة تريبيون، عدد الأسبوع الماضي. تولد لدى ولدي البروفيسور فليت فضول إلى رؤية البرج كما هو في الحقيقة بعد أن حدق

إلى شكله الضبابي الغامض فوق صفحة الجريدة، ولكنه، كما تعلم، لم يعد يسافر إلى تايندل منذ أن سافر أخويه غرباً.

المخلصة،

كلارينتاين فليت.

والدي العزيز:

يؤلمني أن أطلب منك المال مرة أخرى. أتوسل إليك أن تحكم ضميرك وتفكر بالسنوات الطويلة التي أمضيتها مع أمي في وفاق وانسجام، حيث خدمتك بحب وطاعة من دون التفكير بالحصول على أي مقابل. ظروفنا اليومية هي في غاية الصعوبة الآن، وأدرك الآن أن قراري شراء البيت، والحديقة الملحقة به في شارع سيمكو، كان قراراً مبتسراً، وبخاصة أن المدينة تمتد باتجاه الجنوب، وأن الحديث الآن يدور حول الحرب. لكني أؤكد لك أن تصرفي هذا كان بدافع الرغبة في أن أقدم إلى دايزي التي تنمو إلى فتاة شابة جميلة، منزلاً جميلاً لا تخجل منه أبداً. صحيح أن أمي تجني بعض المال من بيع النباتات والأعشاب، لكن كلفة بناء بيت زجاجي كانت باهظة. وصحيح كما تقول أنت إن دخلي قد ازداد بعد ترخيص القمح الهجين (ماركيز)، لكن ثلاثة أرباع هذا الدخل يبقى ملكاً للكلية. أتطلع بأمل إلى تلقي الرد الإيجابي منك.

قد يهمّك أن تعرف أن (برج غودويل) كما يدعونه في المدينة، أصبح شهيراً جداً الآن، وأنه يجتذب الزوار من كل أنحاء المنطقة، وحتى في الولايات المتحدة.

ولدك،

باركر

عزيزي السيد غودويل :

آمل أن رسالتي الصغيرة هذه ستؤكد لك أن دايزي قد تعافت تماماً من إصابتها بالحصبة. لقد كان وقتاً عصيباً، كما كان مرهقاً لها أن تلزم الغرفة المظلمة لأسابيع عدة، وبخاصة أنها طفلة سليمة ونشيطة بطبيعتها. ولكن رؤية صورة لك وأنت واقف أمام برجك في عدد الأسبوع الماضي من (فاميلي هيرالد) قد أبهجتها كثيراً. سألتني: "هل هذا حقا أبي؟" فأكدتُ لها ذلك. لقد أصبحت متحمسة جداً لزيارتك، ولم تتحدث عن أيّ أمر آخر طوال أيام. لكننا نعتقد، البروفيسور فليت وأنا، أن زيارة كهذه قد تسبب إثارة زائدة بالنسبة لشخص شفي لتوه من مرض خطير.

نحن دوماً ممتنون لك ولمشاركتك الشهرية في مصروف المنزل. نحن ندبر أمورنا على أكمل وجه تسمح به إمكانياتنا المحدودة، كما أن مشروع حديقتي قد بدأ يزدهر. وكأن العالم بأسره قد اكتشف السعادة التي يمكن للأزهار البسيطة أن تضفيها على زمن الحرب الكئيب هذا.

المخلصة،

كلارينتاين فليت

عزيزي السيد غودويل :

أشكرك بحرارة على صلواتك وكلماتك المعزّية. أؤكد لك بصدق أن أمي العزيزة لم تتألم في أيامها الأخيرة، إذ إنها دخلت في غيبوبة لحظة وقوع الحادث المروع. كما أن أصدقاءها ومعارفها الذين سهروا إلى جانبها وجدوا في راحتها الأبدية مصدراً للقوة والإلهام. وشيعها إلى مثواها الأخير جميع

الأصدقاء وأفراد الأسرة، فقد وصل كلا أخويّ من الغرب في الوقت المناسب من أجل وداعها الأخير. أما والدي، فكما تعرف، بقي على قسوته حتى النهاية، ومن أجله، علينا الآن أن نرفع صلواتنا. أمّا عن صاحب الدراجة الشاب الذي صدم أمي، فقد غُرِّم بمبلغ خمسة وعشرين دولاراً، وقد بلغني أن الندم قد استبد بذاك التعس.

كنت أفكر في الأيام الأخيرة حول مسألة دايزي، التي أحبّتها أمي طوال هذه السنوات وكأنها طفلتها، بل شغفت بها حقا. لا بد أنك تشاطرني الرأي بأنه ليس من المناسب لصبيّة في الحادية عشرة من عمرها أن تساكن رجلا في مثل ظروفي، لا زوجة لديه وليس بإمكانه استئجار مربية للعناية بها. على كل حال، يبدو أنّي سأضطر إلى مغادرة وينبيغ قريباً، وذلك لمتابعة عملي مع معهد أبحاث الحبوب ولجنته في أوتاوا. هلا تلطفت وكتبت لي ما تراه مناسباً لدايزي وما هو الترتيب الذي يمكن لكلينا التوصل إليه كي نضمن راحتها وسعادتها المستقبلية.

المخلص

باركر فليت

بعد أن عرف أبي، سايلور غودويل، البهجة، لم يعد بمقدوره العيش بدونها.

وبعد أن استيقظت في داخله، أصبح ضعيفاً أمامها. إثر الموت المبكر لزوجته، كان من الممكن أن يعتنق الشعر ـ أو الويسكي أو أجساد النساء الأخريات ـ لكنه، بدلاً من ذلك، ومثل كثير من الرجال العاملين في زمنه، قد اهتدى إلى الله. في حالته، كان الله ينتظر على شكل قوس قزح، شرقيّ طريق

المقلع، ليس بعيداً عن البقعة التي ترقد فيها أمي.

وقع هذا الحدث في شهر تشرين الأول، في أحد الصباحات الباكرة، بعد ليلة غزيرة المطر.

في كيس من القماش تدلّى فوق كتفيه، حمل حجراً كلسياً مثمّن الأضلاع (بحجم الشمامة تقريباً) كان قد عقد العزم على وضعه كشاهدة فوق قبر زوجته الراحلة. يتسلق السور قرب زاوية تايلور، مختصراً الطريق عبر حقل محصود، فوق أرض مغمورة غير مستوية. عندما أشرقت الشمس فجأة، صفراء باهتة في البداية، ثم ازدادت قوة وبدأت حرارتها تخترق نسيج قميصه القطني الرمادي. نظر إلى الأعلى، وهناك رآه: قوس قزح .

سبق له أن رأى قوس قزح قبل ذلك بالطبع، وكان في كل مرة يقف بطريقة أهل الريف، ويتأمل منظر التلوّن القزحيّ المائي. فأقواس قزح،في النهاية، لا يتكرر ظهورها كثيراً في جنوب مانيتوبا كي تظهر وتختفي من دون أن يكترث بها أحد. "انظر إلى هذا" ، يهتف شخص أو آخر، مشيراً نحو السماء، وعندها قد تنبعث في النفس أمنية أو فكرة غامضة تعد بثروة طائلة أو تحّسن في المزاح على الأقل.

في تلك المرحلة من حياته، لم يكن سايلور غودويل قد بدأ انهماكه طويل الأمد في دراسة الإنجيل، ولم يكن بمقدوره أن يستشهد، إذا ما سئل، بوصية الله لنوح قبل الطوفان: "أنا أمنح قدرتي للغيوم، وسوف تكون رمزاً لميثاق بيني وبين الأرض" .

لكنه في الوقت نفسه، لم يكن جاهلاً أو مؤمناً بالخرافات

على الإطلاق (رغم ضآلة التعليم الرسمي الذي تلقاه)، ويدرك التفسير العلمي لظاهرة قوس قزح، وكيف أنّ بريقه ناتج عن انكسار الضوء وانعكاسه وتقزّحه عبر قطرات الماء.

كما يدرك أيضاً أنها ظاهرة مؤقتة محكوم عليها بالتلاشي السريع - فهو، قبل كل شيء، رجل يعمل بقطع الحجارة، يعمل بالحواف الحادة والأشياء الملموسة. وقوس قزح لا يمكن أن يُلمس؛ لا يمكن قياس أبعاده، كما أن ألوانه تبدأ بالتلاشي لحظة ملاحظتنا لها. هناك اعتقاد واسع الانتشار بين الناس البسطاء، بأن قوس قزح لا يمكن تصويره، وأن بنيته الشفافة السريعة التبخّر تقاوم العدسة النافذة والتحميض الأخير للورق.

لكن قوس قزح الذي ظهر أمام أبي في ذاك الصباح التشريني عام ١٩٠٥، بعد ثلاثة أشهر فقط من وفاة زوجته، كان مختلفاً، ألوانه أكثر وضوحاً وتألقاً، وكان شكله جلياً كرسوم الأطفال. بدا قوس القزح ذاك وكأنه مصنوع من زجاج أو رخام شفاف، من مادة صلبة، حارّة، ذات مغزى محدد. موجه إليه، ولأجله. لم يلاحظ حِزَم الألوان وهي تتّخذ شكلاً؛ بل لاحظه فجأة هناك، صلباً و تامّاً، وعبر بوابته النظيفة يشعّ كجزء متألق من الفردوس.

لحظة ظهور قوس قزح، كان أبي واقفاً على قدميه، وفي اللحظة التالية مباشرة أصبح جاثياً، قرب ضريح زوجته، ميرسي.

ولأنه قاطع حجارة محترف، ثبت شاهدة قبرها بنفسه، قطعة حجر مرقشة و مصقولة، وفي وسطها حفر بعمق اسم زوجته و تاريخ ميلادها ووفاتها:

ميرسي ستون غودويل

١٩٠٥ ـ ١٨٧٥

أحببناها حباً جماً

و

افتقدناها بعمق

وجد بعض السلوى في نقش الحجر خلال الأيام الرهيبة الأولى، لكنه سرعان ما أدرك أن هذا النصب غير وافٍ لدرجة تدعو للرثاء، هزيل ولا تليق ضآلته بالمخلوقة التي كانت حبيبته وزوجته، بل كنزه. الآن، كل يوم، يحمل حجراً أو اثنين من المقلع، يختارها بعناية من وراء أجمة من شجر الصفصاف في زاوية تايلور، ليس بعيداً عن المنعطف في شارع بايك. يختار الأحجار بعناية لأنه عقد العزم على بنائها من دون استخدام ملاط. وزنها الذاتي هو الذي سيثبّتها في مكانها، الثقل والتوازن، وانسجام شكل كل حجر مع شكل الحجر الذي يوضع فوقه. كل حجر من هذه الأحجار يتخذ موضعه بحسب الرسم الذي ملأ مخيلته مؤخراً مثل حلم يقظة: بناء مُتَخيل قِوامه الحزن الممزوج بالحيرة. و مرة بعد مرة، يسمع صوتاً، الصوت نفسه يطرح السؤال ذاته: لماذا لم تخبره زوجته أنها كانت تنتظر مولوداً؟

ارتفعت جدران البرج إلى مستوى الكتفين. بعض حجارته لا يزيد حجمه على حجم إبهامه أو قبضته، وبعضها الآخر يبلغ قطره العشر إنشات أو يزيد. في هذا الصباح، وتحت الضوء المتوهج لقوس قزح، بدت سطوح الأحجار ترقص بانسجام مع عناقيد أزهار نبات عصب الذهب الذي تفتح في كل مكان في

الأيام الأخيرة. الشمس والمطر، الغيم والضوء، الزهر والحجر ـ كل هذه الأشياء مرتبطة برباط وثيق، متحدة اتحاداً نبوئياً، لدرجة تثير لديه نوبة من السعادة إذ يجد نفسه في قلب تقاربٍ مقدس كهذا. ويمتلئ صدره بارتياحه الصاخب، ويطلق صرخة نشوى، صرخة وحشية، تعبيراً عن ابتهاجه.

كان يظن نفسه وحيداً في العالم، لكنه في الواقع ابنٌ لقوس القزح هذا، وللأشكال الخالدة التي يكونها الضوء والظل، ابن للمادة والفناء، ابن للأرض.

لكنه فقط في وقت لاحق، و بينما كان يمشي عبر الحقول المحروثة، يتذكر خالقه الذي منحه هذه السعادة، يتذكره ويبجّله، ويفوه باسم الرب الجليل جهاراً.

كان ينسى على مدى أيام متتالية أنه والد لطفلة، لفتاة صغيرة تدعى دايزي، ثم يصادف شيئاً ما فيدقّ ناقوساً يذكره بها. قد ينظر إلى الروزنامة المعلقة على جدار المطبخ فيلاحظ أن يوم الثلاثاء الرابع من الشهر يقترب بسرعة، وهو اليوم الذي يرسل فيه المال إلى السيدة كلارينتاين فليت في وينبيغ. أو، قد يلاحظ، عندما يصبح الطقس دافئاً، كيف أن الأطفال يحملون الزاد إلى آبائهم في المقلع، ويمكثون هناك لساعة أو يزيد، يلعبون بصغار الضفادع أو بقايا الأحجار المكسرة، فيجعله هذا المشهد يتساءل أي نوع من الأطفال هي ابنته.

أو قد ترسل السيدة فليت صورة للفتاة مع رسالة تصف فيها نموها المضطرد، شكل ذقنها، أو درجة ذكائها في المدرسة. تبدو دايزي في الصور طفلة مطيعة، تهتم بهندامها، ولها جسد نحيل متناسق ـ يشعر أنه يجب أن يحمد الله على

ذلك. ابتسامتها ليست منطلقة ولكنها ليست مترددة أيضاً، بل بين هذا وذاك. (ولسببٍ ما، يجد نفسه عاجزاً عن تكوين رأي حول ما إذا كانت جميلة أم لا، ويميل إلى الاعتقاد بأنها ليست جميلة). الصورة الأخيرة التي وصلته كانت تضم السيدة فليت والبروفيسور فليت أيضاً، يجلسان إلى جانبي دايزي فوق ما يبدو أنه مرج أخضر على ضفة نهر، ظهرت أشكالهم في الصورة بدرجات اللون الرمادي الخفيفة التباين، الأسرة في طمأنينتها، الأسرة مفتونة بنفسها، لا أثر للتنافر فيها.

وكان بين الفينة والأخرى يستيقظ من نومه وجسده يرتعش ورأسه غارقة في عرق الذاكرة. وهناك يراها، ترقص في العتمة، بوضوح كوضوح الحياة، يرى حلقة الوجوه المصدومة داخل جدران المطبخ الذي تعمه الفوضى والاضطراب، وجسد عزيزته ميرسي الساكن المغطى بالملاءات. يرتفع صوت دقات الساعة، وتستمر الدقات بلا توقف، ترن وراءه، تختصر جلبتها المسافة بين أحلامه وذكرياته. وبينما يقف الآخرون كالتماثيل، يركض هو عبر باب المطبخ ويرتمي أرضاً، يتدحرج، يبكي ويصرخ و يضرب الأرض بقبضتيه. "لم تخبرني"، يزأر تحت السماء الفارغة، "لم تخبرني أبداً".

هذا ما يجد نفسه عاجزاً عن فهمه: لماذا رأت زوجته ميرسي أنه من الملائم أن تحتفظ بسرها الخطير.

يرى أنه يجب اعتبار صمتها نوعاً من الخيانة، أو نوعاً من العدوانية حتى، لكنه دائماً يتذكر ضعف قدرتها على الكلام وعجزها أمام الأعراف التي يفرضها العالم الواقعي. يحاول أن يتخيل مشاعرها حيال الحياة التي كانت تنمو داخلها، وكيف

احتوت ذاك الجنين، كيف احتوت ساقيه وذراعيه الضعيفة، كيف احتوت قلبه الخافق، وهل أخافها تغلغله في أحشائها أم أنها أحبته بعمق كبير جعلها عاجزة عن ذكر اسمه أو إطلاع أحد على وجوده أو قدومه المرتقب. يعترف لنفسه أن حبه لزوجته الراحلة قد تبدل بسبب صمتها ذاك، وشيئاً فشيئاً، أخذت هفوتها تبدو على أنها عقاب له وليس مجرد إخفاء للمعلومات عنه، بل وسيلةً لإذلاله أمام الآخرين الذين ينظرون إليه الآن، كما يتصور، على أنه رجل جاهل أو لا مبالٍ، فأيّ نوعٍ من الأزواج هو من لا يعرف أن زوجته تنتظر مولوداً؟

نعم، يجب الاعتراف، كما اتضح لي بعد مرور سنوات، أن حبّ أبي لأمي قد أصابه الخراب، وفي بعض الأحيان، وخصوصاً عندما كان يستيقظ من أحد أحلامه الحية، كان يعجب إن كان سيتمكن من منح محبته للطفلة، دايزي غودويل، أحد عشر عاماً، التي ثبتتها عين الكاميرا في صورة فوتوغرافية. فتاة صغيرة ترتدي قبعة من القش. طفلة جالسة على ضفة نهر، وابتسامة راسخة صادقة عصية على القراءة تداعب شفتيها. ليس من الطبيعي ألا يحبّ والد ابنته، لكنّ ما يشعر به سايلور هو حبّ قَزَم ولّده تأثير الأعراف والتقاليد. إنّ لديه شعور عالٍ بالمسؤولية حيالها. وهو يرسل المال كي يغطي نفقاتها، ويحرر رسائل إلى السيدة فليت يعبّر فيها عن اهتمامه بصحة الصغيرة وسعادتها، ولكنه، في الواقع، قلّما يفكر في هذا. من تكون هذه المخلوقة؟ هل هي لحمه ودمه حقاً؟ (دايزي لم يكن الاسم الذي قد يختاره، ولكن الطفلة كان يجب أن تحمل اسماً ما، ولم يكن هو في حالة تسمح له باختيار الاسم المناسب بعد ولادتي). يتأمل صورتها. يفكر فيها

خلال أوقات غريبة من النهار. لديه القليل من الفضول حيالها، وينتابه الخوف عليها قليلاً، فبعد أن عرف بإصابتها بالحصبة مؤخراً، يعجب إن كان متوقعاً منه أن يستقل القطار إلى وينبيغ صباح أحد أيام الآحاد كي يُطمئن نفسه عليها.

لكنه ينكمش حيال هذا اللقاء المربك. وحيال عناء السفر ـ لم يسبق له زيارة المدينة من قبل، ولم يكن يرى سبباً للذهاب ـ كما أنه يتردد حيال تبديد يوم أحد كامل. فهو يمضي أيام الآحاد في قراءة إنجيله، الصلاة من أجل الغفران، والعمل على بناء برجه.

إنه صباح الأحد الآن، صباح حزيرانيّ جميل، والناقوس الفولاذي في برج الكنيسة الميثودية في تايندل يدعو المؤمنين إلى الصلاة، لكن صوت الناقوس هذا لا يجذب أبي.

فالتديّن لم يجعل سايلور غودويل واحداً من رواد الكنيسة. وخلال الأيام الأولى لاهتدائه، حضر القداس الصباحي في تايندل ثلاث مرات أو أربع. ومرة، مرة واحدة فقط، مشى مسافة سبعة أميال باتجاه الغرب إلى مستوطنة أوكميدن حيث جلس مرتبكاً أثناء الطقوس الغامضة لقداس لليونان الأرثوذكس. ضجيج العبادة الجماعية، التراتيل، الصلاة، الإنشاد والمواعظ ـ كل ذلك أشعره بالضيق. حتى الرداء الكهنوتي للقساوسة، حتى الياقات البيضاء التي تميز القساوسة الميثوديين تتنافى مع حسه السليم، تكاد تفقده إيمانه. كما أن فسحات الكنيسة النظيفة الخالية من الغبار، المسوّرة بعوارض خشبية، تهاجمه بلمعانها ورائحتها الزكية، تُقزّمه، تسخر منه. علاوة على ذلك، فإن فطرته الطبيعية يقيّدها نظام القداس

الديني، والواجب الذي يقتضي أن يصافح الآخرين من أفراد الحشد، أن يحييهم بوقار، وأن يلهج لسانه بالمجاملات الاجتماعية لهم - كل ذلك يضايق الرجل.

بدلاً من كل هذا، ويكاد يكون المصادفة، وقع على أسلوب ثابت للعبادة بمفرده، لا تختلف كثيراً عن تلك التي مارسها الآسيويون لقرون طويلة، التأمل الهادئ الذي انتشر في ما بعد بين أفراد حضارتنا في وقت لاحق من القرن، سنوات الحماقة في الستينات، السبعينات.

العبادة، في حالته، هي علاقة صوفية. يتوجّه إلى خالقه في أيام الآحاد باتّباع مجموعة خطوات حوّلها إلى شعائر، يستيقظ عند الفجر، يتناول إفطاراً مؤلفاً من الشاي والخبز، ثم يخرج - مهما كانت حالة الطقس - متوجهاً إلى المقبرة القريبة من طريق المقلع. يتلو لنفسه شيئاً من الكتاب المقدس أثناء المشي، يتلو مقطعاً واحداً عادةً، يعيد قراءته مراراً و تكراراً.

ليس قدّوس مثل الربّ
لأنه ليس غيرك(٤)

يعيد قراءته مراراً و تكراراً. تخفق الكلمات داخل صدغيه كنبض إضافي. يضرب حذاؤه سطح الطريق بإيقاع يتجاوب مع كلماته ويجذبه إلى ما هو أبعد من نسيج الوعي العادي. لا يلتقي بأي قادم أو غاد - فالوقت ما زال باكراً بالنسبة للناس والحيوانات. ينقل الحجارة التي ينوي استخدامها في بناء برجه في عربة يدوية صنعها بنفسه. توصّل إلى قناعة مفادها أن معادن

---

(٤) سِفْر صموئيل الأول، الإصحاح ٢

الأرض الصلبة ما هي إلا رمز لما هو روحيّ إلهيّ، ولهذا يمكن جمعها وتشكيلها تمجيداً له. يحمل أيضا مطرقة خشبية وعدداً من الأزاميل الصغيرة، يعلقها في حلقة حزامه. أدواته، موسيقاه وقربانه ـ يحمل على جسده كل ما يحتاجه.

حيث كانت شاهدة قبر أمي المفردة تقف يوماً، يرتفع الآن برج مفرّغ يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً وما زال في ازدياد. اختيرت الحجارة التي تشكل نسيجه بحسب قوتها وجمالها وتأثيرها على التصميم العام. هناك مجموعة أحجار ناتئة تلف البرج بشكل لولبي وتمكّنه من ارتقاء الجوانب المائلة للبرج بالسهولة التي تتسلق فيها حشرة أو ضب سطح جدار.

يميل أبي أكثر فأكثر إلى تزيين سطوح الأحجار بزخرفات متقنة، رغم أن حجر تايندِيل، بألوانه المرقشة، معروف بمقاومته للنحت الدقيق. إن الأشكال التي تُنحت على سطح هذا النوع من الحجر تراوغ البصر، على المرء أن يقف على مسافة محددة، تحت ضوء محدد، كي يتمكن من تمييزها. ويشكل هذا التمنّع جزءاً من فتنتها في نظره، فما ينحته سيبقى نصف مخبأ، نصف مكشوف، وهكذا سيعكس بالتالي الطبيعة المتقلبة للعالم المرئي. تجده يحفر هنا بضع كلمات من الكتاب المقدس، ويحفر هناك صورة طائر، زهرة، سمكة، وجه، شمس أو قمر. ملاك يعادل حجمه نصف حجم قبضته فوق سماء حجرية منحوتة. حصان حجري صغير يرعى فوق مرج حجري. تماثيل لكيوبيد، عرائس بحر، أفاعي، أوراق شجر، ريش، نبات كرمة، نحل، قطيع أبقار، قوس قزح، نسيج يشبه البشرة ـ البرج هو متحف لأشكال متنافرة، اكتشف بعضها في

تقويم المزارعين الكنديين أو على صفحات كتاب إيتون المصور أو على صفحات إنجيله المزود بالرسوم.

ينجز منحوتاته في الليالي الشتائية، في الكهف الدافئ المشوش الذي يشكل مطبخه، مطبخ الأرمل، حيث أقام منضدة عمل وملزمة ومصباحاً غازياً ساطعاً. الآن، بعد يوم عمل في المقلع، تناول عشاءه المكون من البيض المقلي والبازلاء المعلبة، وأصبح مستعداً كي يجعل الغبار يتطاير. أدواته بسيطة، وأسلوبه في العمل بعيد عن التقليدية بعض الشيء ـ فهو، في النهاية، نحّات علّم نفسه بنفسه، اكتسب مهاراته عبر فترات من التجريب في النحت النافر والرسم واكتشاف الخصائص الثابتة لهذا الحجر. بينما يعمل ببطء، يشعر أن العالم من حوله ينكمش ليصبح بحجم لقن عجين. يتصعد تركيزه بينما ينتقل من مجرد حك السطح إلى حفر أخاديد عميقة على سطح الحجر، ويجمع بين الخطوط المرسومة والخطوط المحفورة ليكوّن منها شكلاً لا يتجاوز في البداية حجم ذرة تلتمع داخل رأسه، يمنحه جميع الاحتمالات محافظاً على شكله العام، على جوهره ـ هذا، دائماً، هو الجزء الأصعب من عمله ـ ثم يستعد للحظة التي ستكتمل فيها المنحوتة الحجرية. أتمنى لو كان بمقدوركم، بصورة ما، أن تروا هذه الأسطح المنحوتة، وتلاحظوا كيف أنها تعكس إلى العين رعشةً من الإلهام الممنوح بسخاء، مليئة بجهد أبي وغرابته الحزينة وبراعته، وفي الوقت نفسه، بارعة في القبض على الضوء الشحيح. رغم موهبته، يبقى النحت عملاً مضنياً بالنسبة له ـ جسده كله ينهمك في إنجاز عمله، وتكتسي قسمات وجهه في تركيزها ذاك التعبير القِرَديّ الملتوي الذي نراه

على وجوه الفنانين الحقيقيين. (هو بالطبع لا يعتبر نفسه فناناً ـ براءته مفتوحة على مصراعيها كالهواء والماء). فقط عندما يكمل منحوتةً ويحملها إلى موقع البرج، ينتابه شعور بالتسامي والارتقاء (رغم أن التسامي، مثل الفن، كلمة ما كان لينطق بها أو ليفهمها حتى). وما يشعر به حين ينزلق الحجر الجاهز إلى مكانه الذي ينتظره، هو يد الخالق تربت على رأسه، والروح القدس تدخل جسده في صيحة ابتهاج.

إن الشعور الديني، كما يعلم الجميع ـ وكما أعلم أنا بالتأكيد ـ هو شعور يصعب تحديد ماهيته. هناك صوفيون، مثل أبي، يدمنون على جو الحميمية الروحية النقي، وهناك عقول أكثر اتزاناً تعتقد أن الدين موجود كي يحمينا من الشعور بلا معقوليتنا.

من وجهة نظر سايلور غودويل، وهو رجل لم يتلق تعليماً كهنوتياً رسمياً، الإنسانيّ والإلهيّ متوازنان عبر معادلة باهرة: فخلق الإنسان لله يساوي تماماً خلق الله الإنسان، وهما عقل موحد ملتف مثل أفعى حول الأرض والفردوس. (لقد احتاج إلى سنوات لبلوغ هذا التصور.) وأما من وجهة نظر الأشخاص السبعة المعادين للحرب الذين طُردوا من بين صفوف رجال الكهنوت الميثوديين في مدينة وينبيغ عام ١٩١٦، فالدِّين يجد قيمته الجوهرية بين صخرة الضمير الصلبة وبين البرنامج السياسي الذي لا يقل عنها صلابة.

أما من وجهة نظر هؤلاء المزارعين وأسرهم الذي يقومون الآن، في شهر حزيران، بإعادة بناء مبنى الاجتماعات (تشاين لايكس) بعد أن أحرقه تماماً هؤلاء الذين يدعونهم بالوطنيين ـ

من وجهة نظر هذه المجموعة من الأصدقاء، الدّين هو الاسمنت الذي يُحكِم إغلاق الباب بينهم وبين العالم.

من وجهة نظر كلارينتاين فليت، التي ترقد في غيبوبة بعد أن صدمتها دراجة عاديه عند زاوية بورتايج وماين، الدين هو هبّة من البتلات تنساق لتتراكم بسلام فوق أرذل عمرها. أما الصبي اللحام فالدي غودمانسون البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، الذي كانت دراجته هي المسؤولة عن الحادث بسبب تجاوزه السرعة المسموحة البالغة ثمانية أميال في الساعة، فيرى الدين على أنه حساء معبأ في زجاجة، يجرعه مثل رضيع جائع في منتصف الليل: اطلبوا المغفرة وسوف تُمنح لكم . أما إبراهام سكوتاري، الذي باع الدراجة للصبي (مقابل خمسة وعشرين دولاراً)، فالدّين من وجهة نظره هو نافذة مفتوحة، وهو، في الوقت نفسه، الستارة التي يغطي بها هذه النافذة.

بالنسبة لماغنوس فليت، من تاينديل، قاطع الحجارة البارع وزوج كلارينتاين فليت المهجور، الدّين هو وعاء الذاكرة وماؤها. هو يقدّس (أي يحتفظ دون أي مساس) بالأوراق الذابلة لإحدى نباتات الصالون التي كانت تعتني بها، وتُدعى نجمة بيت لحم، إلى جانب ذاكرته الحية عن ملمس طبقات الحجارة في جزر الأوكني، مسقط رأسه، وانطباع يتذكره عن أبيه وأمه، يجران معاً، عند الغسق، التبن إلى الحظيرة، ويتوقف والده ليخرج جسماً غريباً دخل في عين زوجته، ينحني ويخرجه بواسطة طرف لسانه.

من وجهة نظر ماكينتوش، مدير كلية ويزلي، الدّين هو

دواء يضمن التفكير الصحيح، العيش الصحيح، والصلاة العميقة الصادقة. "شيء واحد حققته الحرب، وهو أنْ خلصتنا من غرورنا وقرّبتنا من خالقنا"، هذا ما كتبه في رسالة إلى صحيفة فري بريس.

أما بالنسبة لـ بيسي بيرفيكت، وهي طالبة في كلية ويزلي وعاشقة ولهانة لأستاذ النبات في كليّتها، باركر فليت، فالدّين هو الغصة المؤلمة التي تسد حلقها عندما تهمس باسمه إلى وسادتها، وعندما تغني: "دعوا نار البيت مشتعلة بينما قلوبنا مشتاقة".

أما باركر فليت نفسه، البروفسور والباحث، الذي جمع سبعة عشر نوعاً مختلفاً من نبات خفّ السيدة، فيعتقد أن الدّين هو تعبير تمجيديّ عن رغبات الروح. ليس هناك أب وابن، ليس هناك أسرة مقدسة، ليس هناك قيامة، هناك الرغبة فقط. الرغبة بالمزيد. الرغبة بالكمال. الرغبة بمعرفة الذات .الرغبة بامتلاك الأنواع الخمسين المعروفة من نبات خفّ السيدة. الرغبة بالنوم والنسيان. الرغبة بالخير والشر. الرغبة بالاتّصال النشوان، الذي يمكن لموضوعه، في كثير من الأحيان، أن يعتمد على الخداع والتضليل. قرأ مؤخراً عن آلية للتلقيح تنجذب خلالها الحشرة المذكرة إلى زهرة أحد أنواع الأوركيد الصغير، التي تشبه الأعضاء الجنسية للحشرة المؤنثة. كرجل علم، يجد فليت هذه الظاهرة مثيرة للقلق بصورة غامضة، وبخاصة الإيماءات الجنسية التي يقوم بها الذكر المُثار على حافة البتلات البكماء. كما يقلقه أيضاً، رغم أنه لم يعترف لنفسه بهذا حتى الآن، يقلقه وجود دايزي غوديل ذات الأحد عشر ربيعاً في منزله،

حركات جسدها الجريئة العفوية، ذراعاها العاريتان اللتان يتكشف عنهما فستانها الصيفي، الشوق غير الطبيعي الذي أحس به مؤخرا عندما دخل غرفتها المظلمة أثناء مرضها ولاحظ حلاوة شكلها التي وشى به غطاؤها.

وينبيغ عام ١٩١٦ هي مكان مناسب للعيش، إذ يمكن للمرء أن يحيا حياة كريمة في هذه المدينة ـ رغم عزلتها الجغرافية، ورغم الحرب الجارية وراء المحيط. حتى شتاءاتها الطويلة القاسية يتحملها سكانها لطيفيّ المعشر المطيعين للقانون، بل ويضفي الشتاء سيماء لطيفة ونظيفة على أبنيتها الخشبية الفجة وتخطيطها العشوائي الذي لم تتدخل الحكومة فيه.

تتحول المدينة باطراد إلى مكان جميل، بعد شق سلسة من الشوارع العريضة التي تكتنفها الأشجار. وهناك أيضا مبنى رسمي هائل قيد الإنشاء، من النمط الكلاسيكي المحدث. حُفرت الأرض في العام ١٩١٣، كما أن كمية الحجارة الهائلة اللازمة لإنجاز هذا المشروع الطموح أبقت مقلع تايندل يعمل بطاقته القصوى وأبقت قاطعيّ الحجارة على رأس أعمالهم وبعيداً عن متناول يد القيصر. تقوم الكنائس الآن في كثير من زوايا المدينة، وأحياناً نجد كنائس تمثل اثنين أو ثلاثة من الطوائف المختلفة، قائمة جنباً إلى جنب في ساحة واحدة. ("دعونا نأمل أن الله يتمتع بروح الدعابة"، قال قس بروتستانتي محترم، ساخراً، في أحد الاجتماعات المدنية مؤخراً). هذه الكنائس مبنية من الحجر، كما هو حال الكثير من المصارف ومؤسسات التأمين، وكلية ويزلي الشهيرة أيضاً،

إضافة إلى مبنى المحكمة الجديدة. وبمجرد إلقاء نظرة شاملة على المنطقة، لن تتمالك نفسك من التفكير: أليس هذا مدهشاً! مدينة حجرية تنهض بين مروجنا الخصبة. (أعلن معماريّ بارز من شيكاغو، عند رؤيته المباني المشيّدة من حجارة تايندیل المنحوتة، بأن البنائين الأمريكيين سيتهافتون على هذه الحجارة لو وقعت أنظارهم على هذا الجمال).

خلال فصل الشتاء تُقدم وينبيغ عروضاً مسرحية متنوعة، حفلات تزلج، حفلات راقصة، وحفلات عشاء. وخلال الصيف، يهرب الأثرياء من الحر إلى "بحيرة الغابة"، ويكتفي الأقل ثراء برحلات يوميه إلى شاطئ فيكتوريا أو أيٍّ من المواقع الجذابة الأخرى في المنطقة. بين الشباب التي تراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، أصبحت رحلات القطار اليومية إلى قرية تايندیل رائجة جداً مؤخراً. كلفة بطاقة القطار معتدلة، والشباب الذين يقومون بهذه الرحلات، حاملين معهم طعامهم وشايهم المثلج، يبتهجون غاية الابتهاج أثناء رحلاتهم تلك. عدد الشابات يفوق كثيراً عدد الشبان في سنوات الحرب هذه، ولكن هذا الاختلال في التوازن بين الجنسين، وبدلاً من أن يثبط الهمم، يولد تأثيراً مثيراً للغاية. يحمل العديد منهم ملابس الاستحمام، إذ إن الجزء القديم المهجور من المقلع يوفّر مكعباً غارقاً من الماء الصافي البارد، مثالياً للسباحة. ولكن ما يجذبهم حقاً هو برج غودويل الذي يأتون راغبين برؤيته.

يتطلب الوصول إلى البرج نصف ساعة من المشي الحثيث على طريق ريفي، ثم اجتياز مسافة أخرى على طريق ترابي يتّجه شرقاً. لكن هذا الجهد هو جزء من متعة اليوم لهؤلاء

الشباب المفعمين بالحياة: فهم مليئون بالحيوية، ينعشهم الهواء النقي والارتياح الذي خلّفه هربهم لبضع ساعات من مسؤولياتهم الجدية في المدينة، ومن الرعب الذي تخلفه في نفوسهم الحرب الجارية وراء المحيط. يمكن رؤية البرج عبر الحقول المنخفضة. "ذاك هو"، سيصرخ أحدهم. (فهذه الزيارة للمنطقة هي الثانية أو الثالثة من نوعها بالنسبة لبعض هؤلاء الشبان).

عندما تعلو الشمس لتصبح عمودية فوق الرؤوس، يبدو البرج أبيض، وفي المساء يبدو لونه مائلاً نحو الرمادي المزرقّ.

في كل مرة، واحد أو اثنان من هؤلاء الشبان سينطلق راكضاً، البطل هو من يصل أولاً. يصلون إلى جدار المقبرة الحجري المنخفض، ويتسلقونه ـ دعونا من البوابة بمفصلاتها الصدئة ـ يتنقلون جيئة وذهابا فوق حجارة الأضرحة هربا من النباتات الشائكة، ها هو ذا، أخيراً! يربتون على جوانب البرج الكثيرة النتوءات، ويعجبون للدفء الذي استمده من أشعة الشمس، ثم يتسلقون الحجارة الناتئة التي تشكل سلّماً، ويهبطون ثانية ـ تحتاج الشابات عادة للإقناع اللطيف والمساعدة كي يتغلبن على خوفهن من الأماكن المرتفعة أو من تعريض ملابسهن الداخلية للأنظار، قبل أن يشرعن بتسلق البرج، لكنهن يتابعن التسلق رغم ذلك، فمشهد الريف المحيط يبدو رائعاً من أعلى البرج، ولديهن جميعاً فضول شديد للنظر داخل البرج العالي، ومشاهدة الدائرة المليئة بالأعشاب في الأسفل، حيث توجد شاهدة قبر ـ كما يُقال.

يتخلل هذه الرحلات قدر كبير من الصخب والمرح.

يحدد أحدهم موقع الحجر المنحوت على هيئة عروس بحر. وآخر يعثر على القطة المنحوتة، والحجر الصغير القريب من القاعدة، الذي يحمل كلمة واحدة منحوتة "واأسفاه". أكثرهم اطّلاعاً سيسرد تاريخ البرج: زوجة شابة جميلة قضت أثناء الولادة، وزوج شاب وسيم، أفقده الحزن صوابه ـ وهو رجل يمكن رؤيته أحياناً يعمل على بناء البرج في ساعات الصباح الباكرة، رغم أنه لم يعد شاباً، ولم يعد وسيماً بمقاييس هذه الأيام، ولم يعد ينحت ويبني بنفس حماسه القديم، لكنه يبدي استعداداً كبيراً للتوقف عن العمل وتكريس يومه للحديث مع الزوار. ماذا عن المولودة، ماذا حل بها؟ يبدو أن أحداً لا يعرف مصيرها. يا لها من قصة تنفطر لها القلوب.

والآن، لقد تأخر الوقت. على زوّار اليوم العودة إلى القرية، ومن ثم ركوب القطار. تميل الشمس نحو الغروب، يمشون ببطء متزايد، بعضهم يمشي بأيدٍ أو أذرع متشابكة. قد يلتفت واحد أو اثنان منهم، بدافع غامض لا يقاوم، لإلقاء نظرة أخيرة على البرج. تنطلق تعليقاتهم حول مظهر البرج الذي يشبه آثار القرون الوسطى، ومدى غرابة رؤية شيء كهذا وسط المروج الممتدة حتى الأفق. سينطلق تعليق حول جمال الحجر الكلسي، ومدى شبهه بالرخام الإيطالي. وضع أحد الشبان حجراً صغيراً منحوتاً في جيبه، يتحسسه بأصابعه بينما يتابع مشيه. كما أن واحدة من الآنسات، وهي أكثر الآنسات ولعاً بقراءة الكتب، همست شيئاً ما حول تاج محل في الهند البعيدة، وكيف أنه، هو الآخر، تذكار لحبيب مفقود.

كيف يعرف الشاعر أن قصيدته قد اكتملت؟ لأنها تبدو

محكمة، أنيقة؛ لا تحتمل إضافة أو تنقيحاً.

كيف تدرك امرأة أن زواجها قد انتهى؟ بملاحظتها أن حياتها بدأت فجأة تتوغل في اتجاهين اثنين فقط: الماضي والمستقبل، اسألوا كلارينتاين فليت عن ذلك.

نقول عن حرب إنها انتهت باستسلام أو هدنة أو معاهدة. ولكنها، في الواقع، تنهي نفسها، تفقد حافز استمرارها، تبدو فجأة تافهة، وجزءاً لا يتجزأ من فظاظة هذا العالم التي لا تنتهي.

أشياء تبدأ، وأخرى تنتهي. لحظةً يبدو لنا أننا وصلنا إلى مكان هادئ، نجد أنفسنا فجأة مشتتين بين نشاطات الجسد المتوقعة مسبقاً، وبين الحاجة إلى التعطل والفوضى. نقوم بأشياء لا عقلانية، بأشياء لا تحتمل. أو أن شيئاً ما سيتدخل، خصم لا يمكن تخيله. آبي سكوتاري، بعد سنوات وسنوات قضاها في البيع المتجول من باب إلى باب في ريف مانيتوبا، فقد مصدر رزقه بسبب شركة إيتون للتسوق عبر البريد. من كان يتوقع هذا؟ وماذا بوسعه أن يفعل سوى اقتراض المال من البنك الملكي ـ وهو أول قرض من نوعه يقدم إلى أحد اليهود ـ ومن ثم إنشاء مؤسسته الخاصة للبيع بالتجزئة في جادة سيلكيرك ـ وينبيغ، مؤسسة مختصة ببيع ملابس وأحذية العمل الرجالية، ومستلزمات الحدائق والدراجات. ما إن يوصد باب، حتى يُفتح باب آخر. هذه هي كلمات السيد سكوتاري حرفياً.

وصل البروفسور باركر فليت عام ١٩١٦ إلى نهاية فصل وينبيغ من فصول حياته. أمه متوفاة. إيمانه مستنفد. وجسده ذو الثلاثة والثلاثين ربيعاً، يرعبه بضلالاته. كما أن العالم ـ حتى

عندما يبتسم له بإشراق ويقدم له كل ما يشتهي ـ يثير الذعر في نفسه. عليه أن يقلب الصفحة الآن ويمضي قدماً، باتجاه الشرق، تحديدا إلى أوتاوا، عاصمة بلاده.

لقد أتمّ والدي، سايلور غودويل من تايندل ـ مانيتوبا، بناء برجه. كيف يعرف أنه تمّ؟ الأبعاد تخبره بذلك. التوافق التام بين الارتفاع، العرض والمحيط. ومن شأن إضافة صف واحد عند القمة أن تجعل البرج يبدو غير متوازن. ينظر إليه فيشعر بالرضا، ويكاد يشعر بالتكاسل. زاره عدد كبير من الزوار مؤخراً، وعدد كبير من الصحفيين. ـ (يخامره الشك بأن الزوار يأخذون بعض أحجاره المنحوتة، وكل ما يفعله عندما يسمع بهذه الإشاعات هو أن يهز كتفيه بلا مبالاة). لقد ألهاه هؤلاء الزوار لدرجة نسي معها الحافز الذي دفعه إلى بناء البرج. يتحدث إلى الزوار بتلقائية وحماس، لكنه يتحفظ على جذور دوافعه. لماذا ثابرت على بناء برجك سيد غودويل؟ حسناً، ما أن يشرع المرء في عمل ما، حتى يجد أن العمل يستمر تلقائياً. تقلص حضور الله في ذهنه، أصبح مجرد شبح. أما عن ميرسي ـ وقد غاص قبرها واختفى تحت البرج ـ فقد أصبح عاجزاً عن تذكر ملامح وجهها أو شكل جسدها. زواجه القصير الأمد، تحوّله ـ كل هذا يبدو مجرد نقطة تقاطع لافتة في حياة تمتد أمامه.

وصلت رسالة من البروفيسور باركر فليت في وينبيغ بخصوص انتهاء الترتيبات القديمة للوصاية على دايزي، وما يتوجب عليهم فعله بخصوص مستقبلها.

وصلت رسالة أخرى البارحة من مدير مؤسسة الحجر

الرملي في بلومينغتون، إنديانا، في الولايات المتحدة. فالحاجة ماسة هناك إلى نحاتيّ حجارة مهرة. حددت الرسالة أجراً مغرياً. تنتظره شقة مريحة في شارع كروس في فينيغار هيل (أياً كان هذا المكان). سيتولّون أمر نقله مع أسرته وأثاث منزله. هل لدى السيد غودويل عائلة؟ ننتظر رداً سريعاً. يرجى إرسال برقية.

أُلقي اللوم على بيسي بيرفيكت لأنها نقلت عدوى الحصبة إلى دايزي غودويل. كان على بيسي أن تلزم فراشها عندما كانت مصابة بالحمى والتهاب البلعوم، بدلاً من الوقوف على باب منزل آل فليت، وتسليمها لدايزي مذكرة في علم النبات كانت قد تأخرت عن تسليمها في الوقت المحدد، والاعتذار بدمدمة، على طريقة البنات، والعطاس في وجه الطفلة ذات الأحد عشر عاما، معرضة إياها للعدوى.

انطلق المرض يعشش في مجاري دايزي التنفسية، وسرعان ما ظهرت عليها جميع الأعراض. العمة كلارينتاين (كما اعتادت دايزي دائماً أن تناديها) نظرت إلى فم الطفلة وتراجعت في رعب حين رأت الطفح يغطيه. وضعت الطفلة المسكينة في فراش داخل غرفة مظلمة، بقي بابها مغلقاً بشكل دائم، حيث كانت العمة كلارينتاين زائرتها الوحيدة وممرضتها المتفانية. كانت تأتي للصغيرة بخرق مبللة بالماء البارد للتخفيف من حرارتها، ومحلول البوريك لمسح عينيها صباح مساء، وكريمات مستخلصة من الأعشاب صنعتها بنفسها لتهدئة الحكة، وصوان مليئة بالأطعمة اللينة: بيض مسلوق ، فواكه مسلوقة ـ ثم تناشد دايزي بعد تناولها لتنظف فمها بأصابعها بعد لفها بالقطن ، بدأت تتحسن، وفي الوقت نفسه، بدأت تشعر

بالملل. عندها، وبصورة مفاجئة، ساءت حالتها كثيراً.

الطبيب ـ الذي لا أعرف اسمه أو لا أريد التصريح به ـ شخّص إصابتها بنزلة شعبية، وليوضح الأمر للعمة كلارينتاين، رسم شجرة الشعب الهوائية. في هذه الأيام، يكفي العلاج بمركبات السلفا أو المضادات الحيوية للقضاء على الإصابة سريعاً، أما في تلك الأيام، فكان العلاج الوحيد المتوفر هو ملازمة الفراش، تناول السوائل، ورفع حرارة مكان وجود المريض. استمر ذلك طوال أسابيع، ولأن أحداً لم يتذكر فتح الستائر أو إنارة الغرفة، قضت دايزي فترة مرضها في العتمة. علاوة على ذلك، الروائح والغبار المحبوسة في الغرفة والوسائد المصنوعة من الريش سببت لها نوعاً من الخناق الذي كان البداية لحساسية لازمتها طوال حياتها.

لا بد أنها نامت كثيراً ـ وإلا كيف لطفلة نشيطة أن تتحمل كل هذا القدر من وقت الفراغ؟ ومتى مشت، كانت مشيةً بجسد متيبس ورأس أضعفه قلق لا تعرف له اسماً. كان لهذا علاقة بالخواء الذي شعرت به، فجأة، في وسط حياتها. كانت تشعر بأن حياتها تفتقر إلى شيء ما. استغرقها أمر فهمه أسابيع قضتها في تلك الغرفة المعتمة، أسابيع مع الأغطية الثقيلة وصورة تلك الشجرة المقلوبة رأساً على عقب داخل صدرها . إن الشعور بجوهر ذاتها هو ما كانت تفتقر إليه. تلك الخامة الداخلية النفيسة التي يبدو أنها بحوزة كل من حولها: العمة كلاريناتين بخطواتها الخفيفة في القاعة العلوية، نشيطة، مرحة، تنفجر ضاحكة بلا سبب وتتحدث بصوت مرح عن مدى امتنانها (لله الذي يغمر العالم بحبه) لأنه اختار أن يدعها تختار طريقها.

والعم باركر، كما اعتادت دايزي أن تناديه في تلك الأيام، الذي ينطلق إلى الكلية، وفي يده عصاه الصفصافية ذات المقطع المعين، وحذاؤه القديم البالي يضرب الرصيف بثقة، يملؤه العزم والتصميم الرجولي الشاب حتى عندما يعبّر عن تردده. كان الآخرون جميعهم قادرين على الصمود بسبب قدرتهم على الاتساق مع العالم والتأثير فيه، ولكن، ولسبب ما، كانت دايزي غودويل عاجزة عن ذلك.

كانت عاجزة عن التحديق في هذا الفراغ داخل ذاتها لأكثر من دقائق. فالأمر يشبه التحديق بالشمس.

حسناً، قد يتبادر إلى أذهانكم أن تقولوا بأنه من المؤكد أن الحمى هي التي أفقدتني معرفتي بهويتي الذاتية، وهذا صحيح، فقد كابدت أوهاماً غريبة في ذاك المكان المظلم، كما أن عيناي المتورمتان في تلك الغرفة الغامضة شجعت حضور الرؤى المفزعة.

الأيام الطويلة التي قضيتها في عزلة وصمت، عذاب الضجر، كل هذا أثقل كاهلي، كاهل دايزي غودويل الصغيرة، وتركها خاوية. سيرتها الذاتية، إذا أمكننا تصور شيء كهذا، ستكون، إذا ما كُتبت، مجموعة من الفراغات المعتمة والفجوات التي لا يمكن جسرها.

كانت تشعر بالحياة مستمرة من حولها، بينما هي تلازم فراشها، وهذا ما زاد من شعورها بالفجيعة. كانت الأصوات تتناهى إلى أذنيها: الكلاب تنبح في الجوار، والعصافير تتدفق غناءً، وبائع الحليب يبدأ جولته في شارع سيمكو، بينما يصهل حصانه عند الزاوية، ويضرب بقوائمه القوية، ويفرغ مثانته

ورّوثه. أبواب تفتح وتغلق، رسائل تصل، أناس يروحون ويغدون في المنزل، أصوات تهمس، غلاية الشاي تغلي، ساعة الردهة تدق بلا انقطاع.

وبأسلوب تفكير الأطفال المغرق في أنويّته، استغربت الفتاة كيف أمكن استمرار كل هذا بدونها. فمدرسة أبردين لن تغلق أبوابها بسبب مرضها ـ كلا، لن تفعل ـ وستبقى ساحة المدرسة مفعمة بالحياة كعهدها دوماً، وسيقرع الجرس بلا انقطاع وبنفس الشدة، وفي مواعيده. أدركت أيضاً أن حديقة العمة كلارينتين ستمتلئ في الصيف بأزهار فم السمكة، حتى لو صادف أنها لن تكون هناك لتقطف رؤوسها، وتجعل الأزهار الصفراء "تعضّ" على أصابعها. طوال فترة استلقائها في تلك الغرفة الحارة المظلمة، ألحّ عليها الشعور بأن هذا المكان، هذه الغرفة بالتحديد، ستكون المكان الذي ستعيش فيه طوال ما تبقى من حياتها، بل إنها المكان الذي عاشت فيه طوال أيامها الماضية ـ عاجزة عن الرؤيا، مختنقة، وممحوة عن سجل وجودها ذاته.

أدركت أنها إذا أرادت التمسك بحياتها على الإطلاق عليها أن تنقذها بفعل من الأفعال الأساسية للمخيلة، عليها أن تكمل وتحوّر وتستجمع جميع الروابط اللازمة، أن تستحضر الريف أو البطولات أو أي شيء، أن تشيّد في خيالها برجاً من الحجر الرملي. في سياق ذلك، كانت تخطئ وتسيء تقدير التفاصيل أحياناً، وتبالغ أو تكذب بلا تحفظ، وتخلق رسائل أو محادثات أو نبالة محتملة، أو تترك لحدسها أن ينطلق بحرية. (عندما توفيت العمة المحبوبة كلارينتاين في أواخر حزيران، بعد أن

أمضت أسبوعاً كاملاً في غيبوبة، أرسلها حدس دايزي إلى الجنة فوق فراش من البنفسج، وفي الوقت نفسه، عزت نظرات العم باركر وتحديقه الجنسي فيها إلى أنه مصاب بنوبة عسر هضم).

صممت على أن تكون قوية، وعندما قابلت والدها الحقيقي، سايلور غودويل - وصل إلى باب بيتها في شارع سيمكو والعرق يتصبب من حاجبيه، مرتدياً بزة ليست على مقاسه، وبدا قصير القامة غامق اللون بصورة مخيبة للأمل - استعدت لتلقّي قبلته، لكنها لم تأتِ، ليس في ذاك اللقاء الأول. ولم يتمسك بيدها كثيراً. كما بدت على وجهه سيماء العجز والضعف، لكن فمه كان لطيفاً. جلسا في قاعة الاستقبال في الطابق الأرضي، هو على الكنبة الجلدية، وهي فوق الصوفا، غريبان في غمرة الصمت. كانت دايزي مرتدية فستاناً أصفر مقلماً من القطن المصري. تنحنح والدها بصورة مهذبة، وكان هذا كافياً لحل عقدة لسانه. انطلق يتحدث بلا انقطاع، فأخبرها عن مسار رحلة القطار التي يوشكا أن يقوما بها، والمكان الذي سيعيشان فيه عند وصولهما إلى بلومنغتون - إنديانا: إنها شقة، هكذا يسمونها. لفظ الكلمة بتقدير ظاهر، وكأنما ليقنعها بقيمتها .

كانا يشربان الليمونادة من كأسين طويلين.

من صنع هذه الليمونادة؟ لا بد إن أحداً ما قد عصر الليمون وذوب مكعبات السكر فيه ثم أضاف الثلج المكسر، لكن دايزي لا تدري من يمكن لهذا الشخص أن يكون. ورغم ذلك فإن أصابعها ستتذكر دوماً ملمس تلك الكؤوس، والحلقة

النافرة الباهتة اللون فوق الزجاج الرقيق، ولكنها، في المقام الأول، ستتذكر الشمس، بلونها الأصفر كلون الذرة، تخترق الستائر الصيفية الرقيقة وتملأ الغرفة. فقد كانت هذه أشياء يمكن، على الأقل، الإيمان بها: أثر أشعة الشمس على ذراعها العارية، الشراب البارد الحلو المذاق ينزلق عبر حلقها، الأزرار على قميص والدها تتألق كخيط من قطرات الدمع.

شكلت ركبتاها هضبتين صغيرتين، بارزتين تحت فستانها الأصفر. أتت كلمات أبيها إليها مثل عاصفة من النقاط.

في ذاك اليوم أحبت العالم .

الفصل الثالث

الزواج، ١٩٢٧

أقامت السيدة حرم جوزيف فرانزمان حفل غداء البارحة على شرف الآنسة دايزي غودويل من بلومينغتون. كان عدد المدعوين عشرة .

أقامت السيدة حرم أوتيس كلاين حفل عشاء على شرف دايزي غودويل، العروس التي ستُزفّ في حزيران. تخرجت الآنسة غودويل من مدرسة ثيودور هول وكلية لونغ الخاصة بالنساء.

أقامت السيدة حرم الفريد وايلي وليمة بعد ظهر يوم الخميس على شرف دايزي غودويل، العروس التي ستزف في حزيران. كانت الصالة مزينة بأسلوب جميل بأزهار الوستارية، والأجراس، وأوراق الزينة. وكان من بين الضيوف السيدة حرم آرثر هود، السيدة حرم ستانتون ميريل، السيدة أ. كابوتو، السيدة ب. غريندل، السيدة حرم فريد انطوني، الآنسة لابينا أنطوني، الآنسة إلفريدا هويت، والآنسات ميري آن وسوزان كولتشستر.

وقدمت الآنسة غريس هيلي مختارات من الغناء والعزف على البيانو خلال الأمسية.

أقيم عشاء "أبيض" في نادي المقلع ليلة البارحة على شرف العروسين المرتقبين دايزي غودويل وهارولد. أ. هود. تضمنت لائحة الطعام: محار الخلجان، شرائح سمك موسى، وشرائح الدجاج مع كريم البصل. وكانت الحلوى هي مثلجات الفانيليا مُقَولَبَةً على شكل يمامتين. وكان من بين الضيوف حرم آرثر هود وأبناؤها لونز هود وهارولد هود، السيد هورتون غراف وزوجته، السيد هيكتور ماكيلرايث وزوجته، الآنسات لابينا آنطوني وإلفريدا هويت، السيد ديك غرين، السيد ستانتون ميريل وزوجته، والسيد أوتيس كلاين وزوجته. المائدة الغنية التي توسطها الكثير من أزهار الربيع وأضاءتها الشموع النحيلة، نظمها السيد صاحب الدعوة لهذا المساء، والد العروس المنتظرة، السيد سايلور غودويل. السيد غودويل، ذو اللسان الفصيح، وأحد الشركاء المساهمين في شركة لابيسكان، اختتم الاحتفال المسائي ببضع كلمات بليغة مثيرة للتأمل، حول الزمن والصدفة.

قال سايلور غودويل مخاطباً جمهوره المؤلف من خمسة عشر شخصاً، وهم أناس لطفاء انتهوا من تناول عشائهم ويجلسون الآن بارتياح بعد أن أبعدوا كراسيهم عن المائدة بمقدار إنش أو اثنين، ويضفي ضوء الشموع على ملامحهم مسحة رقيقة:

"يقترن الزمن دوما برفيقته العجيبة التي تدعى الصدفة، كي يلدا معاً معجزات كثيرة" . ـ هنا يرفع السيد غودويل إصبعه

موضحاً ـ "لقد صادف أن وُجِد البحر الدافئ، الصافي، القليل العمق، منذ حوالى ثلاثمائة مليون عام مضت. فقط فكروا بهذا يا أصدقائي، تلك العناصر متحدة أنتجت الحجر الرملي الرائع في إنديانا، الذي أفدنا منه جميعاً هنا فائدة جمة".(وهنا يعلو التصفيق تقديراً وإعجاباً).

"لو أن تلك المياه"، يكمل السيد غودويل، "لو أنها كانت أبرد قليلاً، ربما لَمَنع ذلك ملايين، بل مليارات المخلوقات البحرية من الحياة والتكاثر، وعندها، ما كانت أصدافها لتتراكم في قاع البحر كما حصل. ولو إن الماء في ذاك المحيط القديم الهادئ، كان أقلّ صفاء، كانت عملية الترسيب ستتأثر بالغضار والملوثات الأخرى. وأخيراً، أصدقائي الأعزاء، لو أن تلك المياه البحرية القديمة كانت أعمق بمقدار إنش أو إنشين، لما كان هناك أي أمواج لتفكك مادة الأصداف إلى أحجام متماثلة وتنثرها فوق مساحة كبيرة من الأميال المربعة في قاع البحر. باختصار، سيداتي سادتي، حجر سالم، الأبيض الجميل، هدية الأرض الرائعة إلينا، هو معجزة، وأظن أنكم توافقون على أن كل تلك العوامل التي ذكرتها لتوّي قد تواجدت مجتمعة لتمنحنا ثالوث الابتهاج بالنصر، المؤلف من "التحدي" ـ يتوقف لبرهة منفعلاً، "والرفاه" ـ توقف آخر ـ "والسعادة".

انخفضت سوية الشراب الكحولي في كؤوس الحاضرين الآن، وبدأ ضوء الشموع اللطيف يخفق ـ بتأثير نسائم الليل الذي دخل من النافذة التي فتحت ، يشد السيد غودويل كتفيه الصغيرين إلى الوراء ويتحمس لنظريته.

"بضربة حظ مشابهة، يا أصدقائي الأعزاء، ومنذ أحد عشر عاماً تماماً، وصلتُ وابنتي دايزي إلى بلومينغتون. كثيراً ما أفكر بصحة توقيتنا ذاك، نظراً لأن هذا العقد الأخير، كما نعلم جميعاً، شهد توسعاً لا سابق له في الصناعة المتعلقة بالحجر الرملي. ولكن ما يبدو أروع من ذلك هو الترحيب الذي لقيته وابنتي" - وهنا يرفع ذراعيه بحركة رحبة توحي بالعناق "الترحيب والصداقة والفرص التي أُحطنا بها. وشرفني، بالطبع، حين عرض عليّ السيد غراف والسيد ماكليلريت، الحاضرَين معنا هذه الأمسية مع زوجتيهما الفاتنتين، حين عرضا عليّ منذ سنوات مشاركتهما في مشروعهما الجديد، وأظن أنكم جميعاً تشهدون على الحظّ الذي ابتسم لمغامرتنا. لا أعني أننا نستطيع الادعاء بأننا صنعنا نجاحنا، بل علينا أن نشكر الزمن على ذلك" . وهنا يتوقف، وينظر حول المائدة ببطء، يلتقي بكل زوج من الأعين بدوره. "الزمن والصدفة: توأم القدر الرائع ذاك. ذاك التوأم الرائع هو الذي رفد مصيرنا" .

يحوم الندّل في العتمة، متلهفين إلى انتهاء الأمسية ليتمكنوا من الذهاب إلى الفراش، ولكن السيد غودويل لم ينتهِ بعد.

"انظروا إلى الخطيبين الشابين في هذا المساء - دايزي وهارود - كيف يمكن لأي منا أن يعتقد بأن الصدفة والزمن لم يكونا إلى جانبهما. نحن الآن في عام ١٩٢٧ الرائع. والعصر الحديث قد بدأ فعلاً، وإن كان لدى أي منا شكوك حول المستقبل، فقد خلصنا من شكوكنا السيد تشارلز ليندبيرغ الإبن" . هذا التلميح الذي جاء في حينه تماماً يلمس مشاعر

الحضور العميقة، ويقود السيد غودويل نفسه عاصفة من التصفيق الحماسي، أيادي السيدات البيضاء الجميلة تصفق مرفوعة بحيوية، أما الرجال فيضربون على سطح الطاولة. "علاوة على ذلك، يا أصدقائي"، يتمهل الآن، إيقاعه الذي ينفذ إلى وجدانهم محسوب بشكل جميل - "في هذه اللحظة من التاريخ يكاد الهيكل العظيم لبناء عظيم أن ينهض في الدولة الإمبراطورية لأمتنا - وهي شهادة نبيلة على قوة حجر سالم الرملي وعلى الإبداع البشري، ما كنا لنحلم بها. بدءاً من هذه اللحظة، لا نملك إلا إن نمضي قدماً".

اسمعوا! .... اسمعوا ..!!

"والآن، هلا تكرمتم بالوقوف، لنشرب نخب سعادة الخطيبين الشابين. فالصدفة جمعتهما معاً والزمن ابتسم لكليهما".

كيف اكتسب أبي، سايلور غودويل، لسانه الفصيح ؟

إنه في الخمسين من عمره، لكنه نشيط الحركة، مليء بالحيوية، يطفح فعالية وكياسة. يرتدي قمصاناً رائعة ناصعة البياض مصنوعة من القماش الانكليزي، تُغسل وتكوى في الأماكن المختصة بهذا. يغير قميصه في كل يوم من أيام الأسبوع. بدلاته مصنوعة على مقاسه في إنديانا بوليز أو شيكاغو، لا ألبسة جاهزة من أجله: لقد طرح عنه هذا الحرج المعيق جانباً كما تطرح الأفعى جلدها، وهذا لا يعني أن هناك أي مكر أو شبه بالأفعى في السيماء الطلقة المليئة بالحيوية لرجل الأعمال غوديل. لم يطرأ على ملامح وجهه سوى تغير طفيف طبعاً. سيكون دوماً رجلاً قصير الساقين وضيق الأكتاف،

لكن ما يعلق في أذهان الناس ليس هذا الجسد المختزَل. ينظرون إلى وجه سيلور غوديل الأسمر الصغير الموجز، الدقيق كالساعة، الطافح بالتحفز والقوة، ويقولون لأنفسهم: هنا يقف رجل حيّ حقاً.

تنبعث الطاقة من عينيه ـ اللتين احتفظتا بحيوية بياضهما وحدة تركيزهما. إنه شخصية بارزة في المجتمع، تحظى بالاحترام والإعجاب. ولكنه فقط لحظة يفتح فمه ويتحدث، يصبح فاتناً.

ذاك اللسان الطليق ـ كيف اكتسبه؟ ألا يوافق الجميع على أن هذا السؤال هو خروج عن الموضوع، حيث أننا جميعاً نبدأ حياتنا مجردين من اللغة؛ ومن المتوقع تماماً أن بعض الموهوبين سيصبحون أكثر طلاقة من الآخرين، ومن بؤرة الطلاقة هذه ستظهر مجموعة من أصحاب المواهب الباهرة. سمّه تدبيراً من تدابير الطبيعة إذا شئت ـ تفجّراً وراثياً يضع قيثارة في الحلق، وطلاقة في اللسان؛ ولا يمكن للطفولة الباهتة أن تعيق ما هو مرتبط بالسليقة. من الغرور أن نعتقد بهذا؛ يمكن، في الواقع، للطفولة الباهتة أن تدفع بالذكاء الظمآن إلى بئر اللغة وتجعله يفرط في الشرب.

سايلور غودويل ذاته يعتقد (رغم أنه لا يشيع هذا الاعتقاد، أو يعترف به حتى لنفسه) أن ملَكة الكلام أتت إليه خلال زواجه القصير الذي استمر سنتين من ميرسي غودويل. هناك في فراشهما العريض المصنوع من الريش والمغطى بالملاءات، حيث بشرته الذكورية الخشنة تستكشف جسد زوجته الناعم وافر اللحم، تطويقه لهذا الجسد، ولوجه فيه ـ

تلك كانت اللحظة التي أزاحت الحجر من حلقه. انفجار من نسيان الذات حرر لسانه، أو بالأحرى مجموعة من الانفجارات تشتعل على مدى المنحني الفصلي: أيام الآحاد الخريفية في قرية تايندايل الصغيرة في مانيتوبا، الهواء المنعش. أو سلسلة الليالي الكانونية الباردة. والمساءات الربيعية، رطوبة الهواء، والشمس لا تزال طالعة في غرب السماء، تنحدر عبر النافذة على أغطية الوسائد المطرزة وعلى تكوّرات جسد الزوجة ـ عزيزته المطواعة ميرسي. حينها تجمعت الكلمات في فمه، كلمات لم يكن يعلم أنها جزء من وجوده، وأخذت تقفز من بين شفتيه: امتنانه ، حرارته الملتهبة، رغبته العميقة ـ همس بها جميعاً في أذن حبيبته، وهي في هدوئها وحياديتها، أبدت تشجيعاً صامتاً. على الأقل، هي لم تُبدِ انزعاجاً، ولم تبدِ استغراباً، كما أنها لم تجده أحمق أو غريباً في أسلوب تعبيره.

لكنّ اعتقادي الشخصي هو أن أبي وجد صوته، وجده فعلاً وإلى الأبد، في الموسيقى البلاغيّة للكتاب المقدس. خلال السنوات التي تلت تحوّله قرب قبر أمي ـ قوس قزح المفاجئ ذاك، ذاك التكريس في تشرين الأول، إذ كرس نفسه لإنجيله صباح مساء. قصص الإنجيل حيرته بصراحة ـ وذاك العرض للملوك الملتحين والأنبياء، والحماس الغريب. تلاشت التحذيرات واللعنات الإنجيلية أمام فطرته السليمة. لكن الإيقاعات الشعرية للكتاب المقدس دخلت جسده مباشرة، بتركيبات جمله وتلاوينها ونغماتها الإيحائية. وإلا كيف نفسر تعابيره القديمة التي تُعنى كثيراً بالشكل، وأسلوبه القائم على التوازن والتلاعب بالألفاظ، وتغييره الغريب في مواقع الكلمات، واستعاراته المتطرفة. إن اللغة هي التي تكلمت عبره،

وليس العكس ـ كما هو مألوف.

هناك نظرية أخرى تعتبر أن الرجل أصبح مفوّهاً نتيجة للحشود الكبيرة التي كانت تسافر شمالاً لرؤية البرج الذي بناه كتذكار لزوجته، برج بناه بيديه. فنسبة لا بأس بها من هؤلاء الزوار كانت من الصحفيين. صحفيون وقفوا إلى جانب سايلور غودويل وبيدهم دفتر ملاحظات وقلم رصاص، بعض الأسئلة فقط سيد غودويل، إذا كنت لا تمانع. جاؤوا إليه شباباً، بعيون صافية، مستعدون للاندهاش. جاؤوا من جميع أنحاء القارة، ومن أماكن بعيدة، مثل لندن ـ إنكلترا، حاملين معهم حزم تساؤلاتهم الصحفية، وكل ما لديهم من: كيف، متى، ولماذا؟ أصبح سايلور غودويل شخصية عامة. ربما كان صحيحاً أنه غريب الأطوار، ومجرد حِرَفي ساذج، لكنه لم يكن أبداً ممن يصعب التحدث إليهم. بل على العكس، كان رجلاً يسهل استدراجه إلى الحديث إذا مُنح مجالاً. تلك كانت فرصته، وقد أدرك ذلك جيداً. حينها تعلم لسانه الرقص، تعلم التعاطي مع تعقيدات المراوغة والدراما، الخيال واللهو. ويمكنك القول إن صوته قد أصبح المكان الذي يحيا داخله، تماماً كما يحيا الآخرون في مفروشاتهم وإيماءاتهم. واكتسب، في الوقت نفسه، قدرة الخطيب على الثبات والجلد، يتحدث ويتحدث بلا كلل. ولكن، يمكننا الاعتراف، بأن حديثه لم يكن دائماً جوهرياً.

ازدادت مؤخراً قدرته على الاحتمال فوق المنبر أكثر فأكثر: رئتاه، أعضاء التقديم تلك، ذاك الصدر المليء بالحماس. ترقص يداه بنشاط، مرافقةً حديثه. في حفل الغداء

الذي أقامه رجال أعمال مقاطعة لورانس في الشتاء الماضي، تحدث لمدة ستين دقيقة من دون الاستعانة بملاحظات مدونة، صوته الصادح لا يتعب أبداً. واستغرقت خطبته أمام حلقة التدخين السنوية التي تعقدها غرفة التجارة في بيرفورد، ساعة وربع الساعة، بحسب ما ورد في صحيفة ستار ـ فوينكس. ومنذ عام مضى، وفي إحدى الصباحات الحزيرانية الجميلة، قدم خطبة بارعة أمام خريجات كلية لونغ للنساء، على ضفة نهر أوهايو، وبينهن ابنته دايزي تتسلم إجازة البكالوريوس. كان عنوان محاضرته "ميراث حجري"، رباط أسطوري بين التجارة والجيولوجيا، استغرقت خطبته زمناً قياسياً تجاوز الساعتين، وقيل بعدها إن عدد من غلبهنّ النعاس لم يتجاوز النصف دزينة طوال ذلك الوقت. "يا للحبال الصوتية التي بحوزة هذا الرجل"، علق مدير الكلية أثناء الاستقبال الذي تلا الخطبة، حيث قدمت حلوى الفريز للضيوف. "يا لحيويته، يا له من مفوّه".

لكن أطول خطبة لسايلور غودويل حتى الآن، كانت عام ١٩١٦، على متن قطار مسافر بين وينبيغ ـ مانيتوبا، وبلومنيغتون ـ إنديانا، وهي مسافة قدرها ١٣٠٠ ميل. اقتصر جمهور المستمعين إليه عندئذ على شخص واحد، ابنته الصغيرة دايزي ذات الأحد عشر ربيعاً. سافرا، خلال النهار، في عربة من الدرجة الأولى، وهو كرم غمرتهما به شركة إنديانا للحجر الرملي، حيث سيعمل سايلور غودويل حال وصوله. كانت المقاعد المخملية الخضراء اللون مريحة ومترفة، ويمكن تحريك ظهرها إلى الأمام والخلف لضمان الراحة، أمام كل منها لوح من خشب الماهوغني يمكن رفعه ليشكل منضدة.

ويمكن للمرء أن يطلب شاياً فيأتيه إلى هذه المنضدة، شاي مع شريحة ليمون على طرف الصحن. جلس الأب وابنته جنباً إلى جنب، لا يفصل بينهما إلا ذراع خشبي صغير. كان كل منهما غريباً فعلياً عن الآخر، ولهذا تحاشى كل منهما وضع ذراعه على الحاجز الخشبي المصقول. استغرقت الرحلة ثلاثة أيام كاملة تخللها تغيير للقطار في فارغو وشيكاغو، ثم في إنديانا بوليس. وطوال ذلك الوقت، تحدث الوالد وتحدث وتحدث.

وكأن مفتاحاً كهربائياً قد ضُغط داخل دماغه، ربما بفعل التوتر العصبي المحض، في البداية على الأقل. لم يسبق له أن "سافر". المناظر الطبيعية في العالم، كما بدت عبر نوافذ القطار، كانت أكبر مما توقع، وأشد كثافة وتضامّاً. ملأه المشهد بالتوتر، بالإثارة أيضاً. غابات وحقول شمال داكوتا، مينيسوتا، وويسكونسين، جميعها بدت له مفعمة، تقف خضراء كاملة النموّ قبالة الغيم المشرق. كانت الأرض تثير قلقه بكل انخفاضاتها وارتفاعاتها، وأذهلته رؤية درس القمح في هذا الوقت المبكر من السنة. كانت المدن تظهر للعيان واحدة بعد الأخرى، فاجأه قصر المسافات التي تفصل بينها، وأسماؤها غير المألوفة له.

أحسّ بالإحباط حيال السهولة التي كان الرجال والنساء أيضاً ينتقلون بها من القطار إلى أرصفة المحطة، ومن الرصيف إلى القطار، بيسر، بخفة، وهم يضحكون ـ يتحدثون ويتبادلون التحيات وكأنهم غافلون عن الانتقال الجغرافي الخطر الذي كانوا يقومون به، لا يظهرون أي احترام للمسافات والفوارق التي تخطّوها .

كان الكثير منهم بلا قبعات، يرتدي ملابس زاهية الألوان. والطريقة التي يحملون بها حقائبهم توحي بأن هذه الحقائب بوزن الريشة، مصنوعة من القش وقماش القنب، تسخر من حقيبته بنيّة اللون التي استلمها قبل أيام فقط، والتي لم تبل.

توغل القطار جنوباً، كسهم فضيّ يخترق المنظر الطبيعي الذي لا يبالي. الشمس رائعة السطوع. وبينما كان القطار يطوي الأميال، بدا لغودويل أن جديّة العالم تتقهقر. تناهى إليهم صوت الغناء من العربة ـ النادي: ترددت أغنية "أليست حلوة"، مرة بعد أخرى، بينما كانوا يعبرون حدود إيليانويز إلى إنديانا. أنهار، هضاب مستديرة، طرق معبدة، حقول مسوّرة. ظهرت إعلانات للتبغ الذي يُمضغ، على جوانب الحظائر. وبدت المدينة أكبر حجماً وأكثر قذارة. أسلاك الكهرباء تقطع الأثير وكأنها أمواس للحلاقة.

كان اليوم الأول هو الأسوأ. تحدث بحماسة، لعلمه أنهم سيدعونه وابنته بعد قليل إلى مطعم القطار لتناول الوجبة الثانية، وكان يخشى بعمق هذه الإثارة الجديدة. بعد ذلك بوقت قصير ستغيب الشمس عن الأنظار، وعندها ستواجهه غرابة فراش البولمان، وضرورة أن يسوّي جسده ضمن مكعب محاط بالستائر، ويستسلم لذرّات الزمان والمكان الغريبين.

لمواجهة كل هذا الرعب، تحدث وتحدث.

أخبر الطفلة عن صباه في ستونوول، راسماً لها شوارع البلدة، موقع منزل والديه بالقرب من أفران أحجار الكلس. ورائحة الكلس المحروق في الصباحات الشتائية، وكيف أنه كان بائساً أحياناً وسعيداً في أحيان أخرى. اعترف لها بتسلياته

البسيطة، محبته للعمل، واعتياده السريع على عمل المقالع، وارتباطه الغريب بالصخور والأرض.

تحدث بلا انقطاع، حلّ موعد العشاء وانقضى. انتاب الصبية الصغيرة شعور بالغثيان بسبب تمايل القطار، وثقل وجبة الدجاج التي استقرت في معدتها. في العربة ـ المطعم، دلقت مرق اللحم الأصفر اللون على غطاء الطاولة الأبيض، فسحب والدها منديله عن مقدمة قميصه حيث كان قد وضعه، وغطى البقع، من دون أن يتوقف سيل كلماته ولو للحظة، كان يتحدث الآن عن زوجته الراحلة، والدة الطفلة ، كان اسمها ميرسي ـ ميرسي غودويل، كانت شابة موهوبة في صنع الفطائر والمربيات وفي تدبير المنزل .

استوعبت دايزي الصغيرة بعض حديثه ولم تستوعب بعضه الآخر. كان الوقت متأخراً، كانت تتأرجح بين النوم واليقظة، ولكن حتى في يقظتها كانت مخيلتها تبحر عائدة إلى منزل شارع سيمكو في وينبيغ، حيث أمضت كل حياتها، نوافذه وأبوابه المحكمة، وشواحط أدراجه الخشبية، وصولاً إلى القبو أو الحديقة الجانبية حيث نمت أزهار العمة كلارينتاين في صفوف منتظمة. يطفو وجه العمة كلارينتاين، مبتسماً. (يجب أن يعود هذا الوجه الآن إلى التراب، تريحها هذه الفكرة، فالتراب أليف، ودود، كليّ الوجود، ولا يشكل خطراً على الإطلاق) .
لا بد أن العم باركر الآن يحزم أدواته وعيّناته ويستعد للرحلة إلى أوتاوا، رحلة قطار أخرى، ولكن باتجاه الشرق بدلاً من الجنوب. لقد أشار لها إلى موقع أوتاوا على الخريطة، نقطة سوداء صغيرة ضمن مجموعة من الطرق المائية.

بينما كانت تحلم بطريق العودة في الوقت المناسب، وتبعث الحياة في خيالاتها، أدركت الفتاة الصغيرة بدهشة، أن الغائبين هم حاضرون دوماً، وأنك لا تتخلى عنهم لمجرد صعودك إلى قطار وانطلاقك باتجاه ما. أحيت هذه الملاحظة آمالها حول مستقبلها مع والد لم تكن تعرفه، والد تخلى عنها ووضعها في رعاية آخرين عندما لم تكن قد تجاوزت الشهرين من عمرها. أثقل النعاس أجفانها، لكن أباها استمر في حديثه. بدا لها أن صوته استمر الليل بطوله، لكن هذا مستحيل، لأنها أفاقت مرة أو مرتين لتجد نفسها فوق ملاءة قطنية باردة ناعمة وفراش رائع السماكة، يخيم عليها الظلام.

في الصباح، بدأ كل ذلك مرة أخرى، وهما يتناولان فطورهما في العربة ـ المطعم (بيض مسلوق ومثلثات من الخبز المحمص المدهون بالزبدة)، استرسل والدها في حديثه. وبلغ قلقه الذروة الآن، وما كان لشيء أن يهدئه. كانت الطفلة بحاجة إلى أن تغلق أذنيها، كانت تحتاج إلى ما يهدئ روعها بدلاً من هذا القصف العشوائي من الذكريات. تصَنْدَقَتْ، وأخذت تستعيد في مخيلتها توزيع المساحات الخضراء المغطاة بالأعشاب والحجارة، وراء مدرسة أبردين في وينبيغ، والأجمات الملتصقة بسور المدرسة الخشن. كان والدها يتحدث حول تعقيدات النحت على الحجر، وأهمية انتقاء الإزميل المناسب، وضرورة الانتباه أثناء هذا العمل، وكيف أن الضغط في المكان غير المناسب يمكن أن يشطر الحجر ويخرّب قطعة جيدة، وكيف أن لكل قطعة حجر في العالم مركزها الخاص بها وسرّها الخاص المخبأ داخلها.

كانت الحقول التي مرّا بها مليئة بالذرة الخضراء، بدت خطوط الذرة منتظمة تماماً وهي تغيب عن النظر تباعاً أثناء تقدم القطار. كل ساق تشبه شاباً مهذباً أو سيدة مهذبة، بأوراق طويلة، تميل نحو جارتها، وتهذر هناك تحت النسيم، طويلة ولطيفة. كان والدها يشرح الفرق بين الحجر الرملي والحجر الكلسي، بين الغرانيت والرخام. أحست بصوته يرشح إلى أوردتها وشرايينها، وينتشر في ذاكرتها.

غاص أعمق فأعمق في بئر حياته: قوس قزح، شاهدة قبر، وسطوع نور صباحٍ ما.

تحدث ليملأ الصمت المخيف وليكبح لجام قلقه المخيف من المستقبل، لكنه تحدث بالدرجة الأولى كي يستعيد طفلته. فقد شعر، وكان محقاً في شعوره، أنه كان مديناً لها بقصته كلها طوال سنوات غيابه عنها. مدين لها بتاريخه كله، بانتشال حياته من حقول الصخور إلى الضوء. مدين لها بكل لحظة، بكل خلجة شعور. كان لديه الكثير. لن يتمكن أبداً من التعويض لها بصورة كاملة.

عندما نفكر بالماضي نميل إلى الاعتقاد بأن أناسه كانوا أبسط سلوكاً، تتكون شخصياتهم من عناصر أساسية بسيطة. ونعتبر، بديهياً، أن أسلافنا كانت لهم غايات أكثر نقاء مما لدينا الآن، وقدرات عقلية استثنائية، ونعتقد، على سبيل المثال، أن العلماء في الماضي سعوا إلى أهدافهم "بتفانٍ" متواصل وأن الفنانين عملوا في ظل وهج "إلهام" دائم سرمدي. لكن هذا بعيد كل البعد عن الصحة. فهؤلاء الذين سبقونا كانوا، في تمردهم وغموضهم وتقلب تشوّفاتهم، يشبهون تماماً أناس هذا

العصر. وكان بمقدور أقل انفعال، سواء أكان جنسياً أو نفسياً ـ وبمقدور حتى النسيم الذي يحمل معه انتعاش الأوكسجين والطاقة ـ أن يحوّلهم عن سبلهم. سايلور غودويل، على سبيل المثال، انتقل خلال حياته من تجلٍّ إلى آخر. في العشرينيات من عمره كان أسيراً لإيروس[٥]، وفي الثلاثينيات أصبح انتماؤه إلى الله، ثم إلى الفن. الآن، في الخمسينيات من عمره، أصبح بارعا في التجارة. وفترات الانشغال هذه هي فترات تقريبية بالطبع، فهناك قدر لا بأس به من التداخل، فبعض مخلفات الروحانية تشوب نشاطاته العملية "التجارية"، وبعض الذكريات عن الحب الشهواني يلطف فنّه. ولكن إجمالاً، كل اهتماماته تلك، نجد أنها نمت عن الجذر الملتوي ذاته الذي يمثّل سيرته، ثم تفرعت وتكاثرت، مصحوبة بالتقشف عينه: "كل شيء على حدة"، هي القاعدة التي يتبعها سايلور غودويل. إنه يشبه الأطفال من هذه الناحية.

وهو لا يميل إلى تبرير تحولاته العديدة، ونادراً ما يلتفت وراءه، ولا يستسلم لحظة واحدة لحماقة الحنين إلى الماضي. "الناس تتغير"، هذا ما يقوله، أو "كذا وكذا كان مجرّد فصل من حياتي". يهز كتفيه وجسده الصغير الصلب بلا مبالاة وابتسامة تغطي وجهه الصغير المتغضّن. ففي حياته كرجل مقالع، شهد آلة الحفر البخارية تحل محل المثقب اليدوي، والمنشار الآلي يحل محلّ المنشار اليدوي. وفي عام ١٩١٦ عمل كنحات في شركة إنديانا للحجر الكلسي وهو الآن شريك

(٥) إيروس: إله الحب عند الإغريق.

رئيسي في شركة التعهدات ذاتها. كما شهد الحجر الكلسي يحل محل الحجر الرملي الناعم كمادة بناء مفضلة لدى الجميع. (في العام الماضي، ١٩٢٦، أنتجت المقالع وباعت ١٣ مليون قدم مكعبة من حجر إنديانا الكلسي، معظمها استخدم في بناء النصب الجديدة الرائعة في نيويورك ومدينة واشنطن. أمر يقود إلى آخر، هكذا هي الحياة.

يجب أن تعلموا أن سايلور غودويل عندما يتكلم، وكثيراً ما يفعل هذه الأيام، حول "الحياة في بلد متقدمة" أو حول "أن تكون مواطناً من أمة عظيمة حرة"، إنما يعني بكلامه ذاك الولايات المتحدة الأمريكية وليس كندا، حيث ولد وأصبح رجلاً. كندا الآن بالنسبة له، بغاباتها وبحيراتها ومساحاتها الفسيحة بهوائها الطلق، تقع في الجهة الأخرى من القمر، شأنها في ذلك شأن تاريخه الفقير الخاوي الذي يسكنه الصقيع. هناك أشخاص متعلمون في بلومينغتون ـ يقابلهم كل يوم ـ لم يسمعوا أبدا بإقليم مانيتوبا، وإن فعلو فإنهم عاجزون عن تهجئة الاسم أو تحديد موقعه على الخريطة. يظنون أن أوتاوا هي بلدة من جنوب وسط ايلينويز، وأن تورنتو تقع في مكان ما من ريف أوهايو الشمالي. وكأن ممحاة عملاقة سقطت من الفردوس ومسحت الجزء العلوي من القارة. لكن أبي، المشغول بعقود النحت وباستثماراته وجدول خطاباته، لم يبدد لحظة واحدة للحداد على بلده المفقود.

ليست تلك البلاد مفقودة بالطبع، على الإطلاق، رغم أن أخبار المملكة قلّما تصل إلى جرائد شيكاغو وإنديانا ـ بوليز اليومية. ولا يُنْتَظر من جمهور قراء الجرائد في أمريكا،

المشغول بشعبه المفعم بالحيوية، أن يهتم بجاره الشمالي المهذب وتطوره البطيء، مهما بلغ حجمه، وبملكه المسنّ ذو النزوات (الذي سيبلغ الثانية والخمسين من عمره هذا الأسبوع) وبالانصهار البطيء بين سكانه كبلد بوتقة. إن كندا هي مكان يبدو أن لا شيء يحدث فيه. بلد مرتدٍ لملابس أيام الأحد على الدوام. بلد لن يطلب المرء منها رقصة فالس ثانية. بلد نظيف. مسيحي. باهت. ساكن. لكنه ينمو. أجل، علينا الاعتراف بذلك، كندا بلد ينمو.

وصل إلى مونتريال في الأسبوع الماضي سبعمائة مستوطن، يمثلون جميع الجنسيات الأوروبية تقريباً، وصلوا على متن أربع سفن بخارية مختلفة: ليتيتيا، أثيونيا، بينلاند وبيرغنفورد. ولكن ما هو أثر وصول هؤلاء السبعمائة شخص في كلّ ذاك الاتساع؟ إنهم مجرد حبة رمل تضاف إلى صحراء. ملعقة من الماء تسكب في المحيط. بالإضافة إلى الهجرة المضادة التي يجب أخذها بالحسبان، هؤلاء المستوطنون الذين يخفقون في التكيف، وبعد عام أو عامين، وأحياناً بعد عشرين أو ثلاثين سنة، يقررون العودة إلى بلدانهم الأم. من هؤلاء ماغنوس فليت من تايندیل، مانيتوبا، عامل المقلع المتقاعد، وهو الآن على طريق العودة إلى جزر الأوكلاند، "بلده الأم". يا لبؤس الحياة التي عاشها هذا الرجل ـ قيلت هذه الكلمات بحرفيتها من قبل عدد كبير من معارفه، إذ لا يوجد في حياته من يمكن أن يدعوه صديقاً: يا للرجل البائس، يا لحظّه السيئ، يا لحياته المأسوية المليئة بالوحدة. إنها حياة تحمل في دمها فتوراً رومانسياً، أو هذا ما قد يظنه البعض.

ولد الرجل عام ١٨٦٢، مما يجعله في الخامسة والستين الآن - محزون الروح، بلا أسنان، مريض بالتهاب المفاصل، أصم في أذنه اليسرى، يعاني من قرحة الإثني عشري، قامته المديدة انحنت، شعره شاب، جلده جف، عضلاته ضمرت، خصيتاه تقلصتا واصفر لون قدميه. أقام في كندا مذ كان مجرد صبيّ، جاء إلى هنا بجسده القوي الذي كان كلّ ما يملك، ومهارته في قطع الأحجار. وهنا سعى وراء الثروة. وتعرف إلى كلارينتاين باركر من بلدة لاك دي بونيت، وهي ابنة مزارع، وتزوجها في ما بعد. وهنا أنجب أبناءه الثلاثة، باركر(وهو الآن موظف لبق الحديث في أوتاوا)، سايمون (ميكناكيكي في إدمونتون، يتعاطى الخمر)، وأندرو (قس معمداني يقيم في كلايماكس، ساسكاتشيوان، وهو أب لطفلة صغيرة). قد يظن المرء أن ماغنوس فليت المسنّ متجذّر في بلده الجديد، وأن الروابط العائلية والعمل تشد وثاقه إليها، وأنه يتمنى، حين تحين ساعته، أن يدفن في تربة مانيتوبا القليلة المالحة تحت كومة من حجر تايندل المرقش. بدلاً من ذلك، بدد مقداراً كبيراً من المال الذي وفّره كي يعود إلى موطنه الأصلي في جزر الأوكني، حيث لا أقارب له على قيد الحياة، والقليل جداً فقط من الذكريات.

لا يعرف بعد ماذا سيفعل بنفسه عند وصوله. استجمع شجاعته كي يغادر كندا، لكنه ينتظر مناظر الأوكني الطبيعية الجرداء كي تعلمه، تنصحه، بالخطوة التالية التي عليه اتخاذها. لا بدّ أن ينبعث شيء ما من ماضيه، هو واثق من ذلك، فكرة ما لإنقاذ أيامه الأخيرة. يأتيه هذا اليقين من الفراغ، من غياب الذكريات، ولو أنه يذكر بشكل ضبابي الهضاب والوديان

الجرداء في موطنه الأصلي، بانحداراتها الخفيفة المفاجئة، ونشاط الرياح التي تهب في كل الأنحاء، وبقيةً من أحاسيس أخرى أيضاً، ليست أكثر من تذكر انحباس الدخان والهواء في مطبخ والديه، والسقف المسودّ وانحباس النفس في الحلق، واعداً بالأمان والخطر في نفس الوقت. حدثت شجارات كثيرة تحت ذاك السقف الواطئ، هو واثق من هذا، استمر ذلك لسنوات، ولكن حول ماذا؟ والداه وأخاه الأكبر مدفونين في ساحة الكنيسة في ساندويك، وهو يتصور أنه سيلحق بهم إلى هناك عاجلاً أو آجلاً. من التراب، وإلى التراب سيعود. ستلتقي أرواحهم. إنه شيء ما ليتطلع إليه على كل حال.

سافر أوّلاً بالقطار إلى مونتريال لمدة أربعة أيام، ثم على متن سفينة لمدة ثمانية أيام عابراً إلى ليفربول. يحمل معه المال الذي وفره، وهو مبلغ محترم. لديه صندوق مليء بالثياب الدافئة، يكفيه لما تبقى من أيامه، كما يحمل معه بعض التذكارات عن السنوات الست والأربعين التي قضاها في كندا: بعض عيّنات الحجارة، حجر تايندبل الدولوميتي، حجارة رائعة الجمال، ملفوفة بعناية بثياب داخلية صوفية. عدّته. غليونه. خمسة أرطال من تبغه المفضل. وربطة كتب لا يفترق عنها أبداً - يحميها غلاف من الجرائد ثلاثي الطبقات. بعض الأوراق الرسمية للعائلة أيضاً، وثيقة هجرة، شهادات ميلاد (لأبنائه الثلاثة، ذريّته، أثره الوحيد في هذا العالم الواسع)، ورسالة الوداع التي تركتها له زوجته تحت مكبس مناديلها عام١٩٠٥. وداعاً، هذا كل ما جاء فيها، بعد زواج دام خمسة وعشرين عاماً، وداعاً. مجرد خربشة بقلم رصاص.

وهناك بعض الصور أيضاً. صورة زفافه، ١٨٨٠، عروسه الشابة جالسة على كرسي منحوت في استديو تصوير، يداها متوتّرتان في حجرها، شعرها مسرح إلى الوراء، وجهها جامد بلا تعبير. وهو، بقامته الجميلة ـ يستحيل نكران ذلك ـ طوله ستة أقدام وخمسة إنشات، يقف وراءها، يده اليسرى مرفوعة إلى شحمة أذنه، يمرزها بصورة ما، أو يحكّها. هل كانت تلك نصيحة المصور له أن يلعب بأذنه بهذا الشكل، وإن كان كذلك، لماذا أطاعه؟

صورة أخرى: أولاده الثلاثة. باركر، في السادسة من عمره، يحدق في العدسة متجهماً؛ سيمون، في الرابعة من عمره (يرتدي سروالاً قصيراً من القطيفة السوداء، غريب هذا الشورت، من أين أتى؟)، يجلس على مقعد بوسائد، إحدى ساقيه فوق الأخرى؛ وأندرو، في الثانية، يتلوى ـ واضح أنه يتلوى ـ عند قدميّ سيمون. أبناؤه. أبناؤه الأعزاء. الذين أضاعهم.

وصورة أخيرة.

إنها صورة لمجموعة، لا تحمل تاريخاً، لكنه يعتقد أنها صُوِّرت عام ١٩٠١أو ١٩٠٢. قبل أن تصبح زوجته "غريبة الأطوار". قبل أن يتبدل كل شيء. مكتوب على خلفية الصورة ـ بخط لا يعرف صاحبه ـ الكلمات التالية: "نادي الإيقاع والحركة للسيدات". تضم الصورة ست نساء. يتعرف بينهن على زوجة الطبيب، السيدة سبيرز. كما يتعرف على مودي ليتل ومامي هيفتنز، واقفتان في الصف الخلفي. يتعرف على كل واحدة من تلك السيدات المحدّقات. أوه، كم تُبدين اعتداداً

بالنفس. النظر إليهن يثير الضحك. بلباسهن الموحد المؤلف من بلوزة وتنورة، حواف الياقة ملونة، ووشاح عريض يتدلى من الكتفين إلى الورك. يكسو وجوههن تعبير مرح لكنه متوتر أيضاً. أسنانهن، شفاههن وأكتافهن المنتصبة وكل ما فيهن يقول: ألسنا رائعات، ألسنا شيئاً آخر مختلفاً. زوجته، كلارينتاين باركر فليت، تقف في الصف الأول، أقصر قامة بقليل من الأخريات، رشيقة، جميلة، لعوب وعابثة. من الصعب التصديق أنها في بداية الأربعينات من عمرها، أنها أنجبت ثلاثة أبناء، فهي تبدو كفتاة صبية. تعضّ على شفتها السفلى وكأنّ الحياة مرح متصل. سعيدة، أجل، تبدو سعيدة بلا تحفظ.

نظر ماغنوس فليت إلى هذه الصورة لنادي الإيقاع والحركة للسيدات ألف مرة، متفحصاً الوجوه من وجه إلى آخر، من اليسار إلى اليمين، من الأعلى إلى الأسفل، وقاده ذلك دائماً إلى الاستنتاج نفسه: سعادة زوجته كحقيقة ثابتة.

الرسم قد يكذب، لكن الكاميرا تلتقط الحقيقة، سبق له أن سمع ذلك مرة. شريكته المطوقة، بعظامها الصغيرة المكسوة باللحم الطري، شغلت مكاناً ما في العالم تلك الأيام، لا يمكن لأي شخص يرى هذه الصورة أن ينكر هذه الحقيقة. يبدو واضحاً أنها مرت بلحظات شعرت فيها بأهميتها الشخصية أو بلحظات مرح، الأمران متشابهان. زوجته، بابتسامتها الجريئة، وركبتيها المنحنيتين، وحزامها الذي يلتقط الضوء، لا تبدو كزوجة رجل قاسي. لا شيء يوحي أنها تعرضت للقمع وسوء المعاملة أربعة وعشرين ساعة في اليوم لمدة خمسة وعشرين عاماً، لا يمكن مجرد التفكير بذلك. تواسيه هذه الفكرة.

يتذكر أيضاً أنها كانت تتحلى بنوع من الكبرياء، الاحترام الفائق لجهودها، مما جعلها ترفض، على سبيل المثال، إخراج النواة من الخوخ الذي تستخدمه لصنع المربى، تاركة لهؤلاء الذين يأكلونه عناء إخراج النواة من أفواههم. وكان هذا يثير إعجابه، هذا النفور الغريب من إرهاق نفسها.

وهو ينكر ويكرر إنكاره، أنه منعها من زيارة الدكتور سبيرز لاستشارته حول سنّ يؤلمها في خريف عام ١٩٠٥ ـ ولكن من يوجد قربه كي ينصت إلى إنكاره؟ ـ لا، ليس هذا صحيحا، بل كان سيدفع مبلغ الدولارين ونصف الدولار بطيب خاطر. هو فقط ذكّرها، عندما داهمها ألم الأسنان بصورة مفاجئة، كيف أن إصابة أذنه في الربيع المنصرم شفيت من تلقاء نفسها من دون الحاجة إلى الاستشارات الطبية المكلفة. (هذا صحيح، ولكن صحيح أيضاً أنه فقد نصف قدرته على السمع في تلك الأذن نتيجة ذلك).

خلال سنوات اتحادهما الزوجي وفّر لها بيتاً محترماً، وانتبه دائماً إلى تكديس الخشب اللازم وحمل إليها الضُّرم الجاف كل صباح قبل ذهابه إلى المقلع. وبخلاف الكثيرين من الرجال الصالحين، كان يسلمها مبلغاً من المال أسبوعياً لشراء المؤن. واهتم دائماً براحتها، وبرغباتها الأنثوية. جلب لها من وينبيغ وعاءً زجاجياً مزيناً بشريط ملون،لوضع دبابيس الشعر فما كان منها إلا أن قدّمته لجارتها البدينة ميرسي غودويل. أي زوجة هذه؟ فأجأها مرة بثلاجة، أحدث موديل، شيء جميل، فغضبت منه واتهمته بالإسراف.

أبدى استعداده مرتين لقبولها تحت سقفه ثانيةً مهما كان ما

سيقوله الجيران، ومن دون الاهتمام بالنظرات التي سيتلقاها. استقل القطار مرات عدة إلى وينبيغ في السنوات التي تلت مغادرتها، وتسلل كمجرم محترف قرب زاوية سيمكو ستريت وطريق أبردين، ليلمحها غادية آتية، تعمل في حديقتها حانية ظهرها ومنكبة على عملها بطريقة النساء السكوتلنديات. رآها مرة تظهر على عتبة ذاك البيت ـ لم تزل رشيقة في مريولها الأبيض ـ وسمعها تصرخ، تنادي الفتاة دايزي، قائلة إن العشاء على المائدة وإن عليها أن تأتي بسرعة إلى الداخل. كان صوتها حاداً، مرحاً، ومحباً، لقد تغير جذرياً ـ والطفلة ليست من لحمها ودمها حتى، إنها ابنة الجيران التي توفيت والدتها.

كي تهجر المرأة زوجها وبيتها يجب أن يكون لديها الأسباب لذلك، وعليها أن تذكر هذه الأسباب، ولكن كل ما قالته زوجته هو أنه بخل عليها بالمال. وأنه يفتقر إلى اللطف في أقواله وأفعاله. حسناً، لقد كانت تعرف عندما تزوجته أنه ليس ممن تروقهم حماقات النساء.

كان قد مضى على مغادرتها عام كامل حين قام بتنظيف قاعة الاستقبال، نظف السجادة والكراسي، وعرّضها للهواء، وهناك في أسفل سلة الخياطة، وجد أربعة كتب صغيرة. كتب رومانسية، كما يعتقد أنها تدعى، كتب نسائية ذات أغلفة رقيقة. سعر الواحد منها تسعة سنتات، كان السعر مطبوعاً على مؤخرة كل كتاب، مكتبة السنتات التسعة. لم يعرف كيف حازت على هذه الكتب، لكنه خمّن أنها اشترتها من اليهودي العجوز المتجول، اشترتها وقرأتها سراً كما لو أنه سينكر عليها هذه المتعة البسيطة.

بدأ يقرأ هذه الكتب في ليالي الشتاء. كان ذلك أفضل من مراقبة الساعة والإنصات إلى دقاتها. أو الاستماع إلى صوت تساقط الثلج من فوق الأغصان على السطح. وكان الآن قد وضع في الردهة موقداً صغيراً ثابتاً يعمل على الخشب كي يقضي على الصقيع، وهو شيء طالما طالبت به زوجته. قرأ ببطء، لأنه، والحق يقال، لم يسبق له أن أكمل قراءة كتاب، ليس من الغلاف إلى الغلاف. سَرّه أن يعتقد أنه يفهم معنى معظم الكلمات، يقلّب الصفحات واحدة تلو أخرى، بانتباه: "صراع على قلب" تأليف لورا جين ليبي، و"ما لا يمكن للذهب أن يشتريه" تأليف السيدة ألكساندر، "تحت رحمة العالم" تأليف فلورنس واردن، و"جين آير" لشارلوت برونتي. هذا الأخير كان المفضل لديه؛ كانت في هذه القصة أحداث ملأت حلقه بألم حلو واخز، وفي تلك اللحظات كان يشعر أنه لا يفصله عن زوجته أكثر من دزينة من دقات القلب، أحسها قريبة جداً لدرجة تكاد تمكّنه من مداعبة باطن فخذها الناعم. أدهشه ازدحام هذه الكتب بالناس. كل واحد منها كان يشبه عالماً صغيراً، مفروشاً ومسكوناً. والطريقة التي يتكلم بها الناس داخل هذه الكتب! يتحدثون ويتحدثون، وكأنهم يعيشون داخل ألسنتهم. جلّ ما تفوهوا به كان سخيفاً لكنه صائب أيضاً. أبقاهم الكلام في مأمن من الغضب. يتبادلون الحديث كما يتبادل التجار النقود. بعض المقاطع كانت تشبه الشعر، لا تشبه في شيء الحديث الذي يتبادله الناس في الواقع، ورغم ذلك كان يقرأها بصوت عالٍ ويودعها في ذاكرته، كي يكون على أهبة الاستعداد إذا ما قررت زوجته العودة إلى بيتها وملء مكانها مرة أخرى. إذا كانت هذه الثرثرة السخيفة هي حاجتها الماسة

سيكون مستعداً للقائها، مضخة مليئة بالكلمات التي تطفح بالرقة والاعترافات: يا لعينك الجميلتين، يا للمحيّا الحبيب، يا للبشرة البيضاء. أو بالمقاطع التي تتحدث عن القلب الطافح بالحب، ولادة الرغبة في الصدر، الوضوح المفاجئ لجسد يحيّي الآخر، أو حتى الاعتراف البسيط بالحب. أحبك، سوف يهمس في أذنها المنتظرة. أعبدك.

وإذا ثبت أن هذه التعابير صعبة عليه، وهو يعتقد أنها كذلك فعلاً، سيحدّق في عينيها ويلفظ اسمها: كلارينتاين. حاول ذلك في جو الدرهة الدافئ المحمّل برائحة الخشب، وشعر بحمرة الخجل تغطيه من رأسه حتى أخمص قدميه: كلارينتاين. قالها برقة في البداية، بنفس الطريقة التي تهدئ فيها مخلوقاً متوتراً، مجبِراً صوته على أن يبقى لطيفاً، متحدثاً مباشرة إلى ذاك الوجه الذي كان انتماؤه دائماً إلى نادي الإيقاع والحركة للسيدات، وليس إليه، ذاك الوجه العزيز المحدق. كلارينتاين. كلارينتين.

وفي ما بعد ـ كان هذا بعد أن صدمها سائق دراجة متهور في مدينة وينبيغ ورماها على جدار الأساس لمبنى المصرف الملكي ـ أصبحت الكلمة بكاء منكسراً: كلارينتاين، عودي، عودي، عودي يا عزيزتي، يا حبي الوحيد.

قبل موعد زفاف دايزي غودويل في بلومينغتون ـ إنديانا بأسبوع واحد، خطر لأم العريس، السيدة آرثر هود، فكرة لطيفة. سوف تدعو العروس إلى الغداء، ستجلسا بمفردهما على مائدة صغيرة في الشرفة الجانبية: ستستخدم الأواني الصينية العادية، غطاء طاولة ومناشف من الكتان، وربما زهرة فاوانيا

واحدة وردية اللون عائمة في وعاء زجاجي صغير. وستأتي لوبيليا ـ ماي، المرأة التي أتت يوم الأربعاء الماضي وقامت بالتنظيف وإعداد الخبز، لتقدم لهما واحداً من أطباق سلطة سمك التونا التي تشتهر بها، بالإضافة إلى إبريق من الشاي المثلج، وبعدها تنسحب المرأة الطيبة بلباقة، تاركة الكنّة وحماتها وحدهما كي تناقشا تلك الأشياء التي يتوجب على النساء تسويتها بينهن .

لم تشأ السيدة هود أن تربك الفتاة، فارتدت ملابس غير رسمية للمناسبة، ثوب شرفة مزهر وخفين أبيضين من جلد الأيل.

"آمل ألا تعتبري حديثي غير لائق يا ديزي. مشاعري تجاهك يملؤها الحب، ومشاعري هذه تذكرني بأنك نشأت في أسرة بلا أم، ويمكن لهذا، كما تعلمين، أن يشكل عائقاً على طريق الحياة. والدك سيد رائع، لا يمكن للمرء أن يأمل بأفضل منه، ولكن هناك ميادين في الحياة النفوذ فيها للمرأة. أولاً، دعيني أقول إنك نلت التعليم الجامعي، واكتسبت درجة معينة من الاطلاع على الفنون العقلية، ولكني آمل أن لا تسمحي لهذه الميزة أن تؤثر على الانسجام الزوجي الطبيعي. أعني أني آمل أن ذلك لن يغريك باستعراض علومك أمام هؤلاء الذين لم يختاروا السبيل نفسه. كانت خيبة أمل كبيرة لي شخصياً عندما قرر هارولد أن يترك دراسته للهندسة بعد سنة واحدة، ولكنه كان دائماً يميل إلى الاهتمامات العملية. ومن الواضح أنه وجد مكانه في متابعة تجارة العائلة، وبخاصة بعد موت والده المبكر. بالمناسبة، دايزي، يفضّل دوماً أن نقول "مات"، بدلاً من أن

نقول "انتقل" أو "ارتحم". وفي السياق نفسه ـ أشعر أنه يتوجب علي الإشارة إلى هذا: نحن ندعو أناس إلى العشاء، ليس من أجل تناول العشاء. عندما ترتبين المائدة، سواء مائدة إفطار، غداء، أو عشاء، تأكدي أن نصل السكين يتجه نحو الداخل. نحو الداخل. وليس نحو الخارج. الشوكة الخاصة بالسلطة توضع، بالطبع، بعد الشوكة الخاصة بالعشاء. يتناول هارولد العنب والمكسرات على وجبة الإفطار. إنها مسألة تتعلق بالهضم والصحة العامة. أشعر أن علي أن أكون واضحة حول هذه النقطة. أنا أتحدث هنا عن حركة الأمعاء. لديه اضطرابات في هذا المجال منذ كان صبياً صغيراً، مما يجعل العنب والمكسرات ضرورة ملحة. وهي أيضاً طعام اقتصادي. علينا ألا نخجل من الاقتصاد، دايزي. بالمناسبة، عصير البندورة لا يقدَّم على مائدة الإفطار أبداً، بل قبل الغداء أو العشاء فقط. أما على مائدة الإفطار، فيفضِّل عصير البرتقال. ولا بأس بالعصير المعلب إن لم يتوفر البرتقال الطازج أو الوقت اللازم لتحضيره. هارولد نيّق جداً في ما يخص فرشاته ومشطه، يجب تنظيفها بانتظام. يفضل استخدام مشط مطاطي قاسي. أحتفظ دائماً بواحد أو اثنين في حال أضاع مشطه. ترى هل اكتشفت سائل فينيتيان فيلفا للعناية ببشرتك. لا أظن أنك تفكرين ببشرتك كثيراً، ليس في مثل سنك، لكن بشرة الوجه تصبح خشنة سريعاً في العشرينات والثلاثينات من العمر. استخدميه قبل النوم، دلكيه بعناية بحركات دائرية. ولا تستخدمي الصابون أبداً، أبداً. لماذا، قد تتساءلي، لأن الصابون يسبب جفاف البشرة. أما عن بودرة الحمام، أنصحك ببودرة (ليلاس). لبعض أنواع البودرة رائحة قوية. والعطور القوية تزعج الرجال. لاحظت أنك لم تأكلي

حبات الزيتون في صحنك، دايزي. إذا وجدت يوماً شيئاً لا تستسيغينه في صحنك، حاولي أن تتفادي إزعاج الآخرين وخبئي ما لا تحبينه تحت شيء آخر. ورقة خس، على سبيل المثال، تنفع كثيراً في هذه الحالة. هل تعلمين أنه يمكن شراء الملاءات غير المفصلة، وأن خياطة الحاشية لا تكلف شيئاً؟ يمكن ارتداء الأحذية البيضاء بين يوم الذكرى (أي ٣٠ أيار) وعيد العمال. انتبهي إلى تعبير الطبق الأول. إنه ليس الطبق الرئيسي كما يظن غالبية الناس، بل هو ما يسبق الطبق الرئيسي. لدى هارولد حساسية خاصة تجاه تاريخ والده. أعني موت والده المبكر، أعتقد أنك تعرفين ما يكفي عن ذلك. ينزعج هارولد من تذكيره بذاك الحدث الحزين. أعتقد أنه من الأفضل ألا تأتي على ذكر أبيه أبداً. فنحن لا نأتي على ذكره أبداً. نقضي أمسيات الآحاد دائماً داخل البيت، إنه تقليد عائلي قوي جداً لدينا. نحن لا نخرج أبداً أيام الآحاد. تأكدي من إرسال بطاقات الشكر على هداياك خلال شهرين من الزفاف. يعطي البعض لنفسه مهلة ثلاثة أشهر، لكن امرأة محافظة مثلي تتمسك بفترة الشهرين. البطاقات البسيطة هي الأفضل، أو بطاقات محاطة بإطار نافر حول أطرافها. كاد هارولد يختنق مرة بينما كان يأكل البوشار. لذا أنا أراقبه عن كثب عندما نقيم أمسيات بوشار. أخيراً، أود إن أكلمك عن شهر العسل. أنت لم تزوري أوروبا من قبل، وهكذا ربما تستغربين وجود أدوات غريبة في غرفة الفندق. أعني في فرنسا وإيطاليا، وليس إنكلترا بالطبع. هذا الحوض الصغير من البورسلان ليس كما يبدو للوهلة الأولى، بل يستخدمه الأوروبيون من أجل النظافة الشخصية. عليك ألا تلمسي هذه الأشياء أبداً، حيث أنها مغطاة بالجراثيم، مغطاة

تماماً. وهي من أخطر الجراثيم. أي الجراثيم التي يمكن أن تتسبب بمعاناة ترافقك طوال العمر، معاناة يمكن أن تنتقل من شخص إلى آخر، وحتى إلى الأجيال القادمة. عندما تتزوج المرأة، عليها أن تكون حذرة دائما من احتمالات الأذى. ولا يقتصر اهتمامها على شخصها. في اللحظة التي يتبادل فيها العروسان القسم فوق المذبح، يصبح زوج المرأة وديعتها المقدسة.

"تعني بحديثها البيديه"، قالت إلفريدا هويت لدايزي. "وعاء يغسل فيه الجزء السفلي من الجسد. تملأينه بالماء ثم تجلسين القرفصاء فوقه وتغسلين مؤخرتك حتى تصبح نظيفة".

قبل أيام عدة من الزفاف قامت هي ودايزي ولابينا أنطوني بتشكيل غرفة خلفية بستارة في محل ماريشال لخياطة ألبسة السيدات من أجل القياس الأخير لفساتينهن. ذهبت الخياطة إلى المستودع لتجلب ورقة كرتون جديدة لتثبيت الدبابيس. إنه مساء حار، لكن مروحة كهربائية صغيرة كانت تنفخ الهواء داخل تنانيرهن المنفوخة، وتخفف الحر عنهن. إلفريدا (فريدي) ولابينا (بينز)، الإشبينتان، سترتديان فستانين متشابهين تماماً مصنوعين من الكريب الصيني الأزرق بلون البودرة ومزينين بدانتيلا عاجيّة اللون على أطراف الأكمام وحول العنق. أما فستان دايزي فمن الكريب المبطن بالساتان، مذيّل، مطرّز بحبات اللؤلؤ والماسات المتألقة. الخمار من الشيفون والدانتيلا. باقة الأزهار التي ستحملها ستتكون من زنبق الوادي، الأوركيد، وسرخس التزيين.

سافرت فريدي إلى أوروبا في الصيف الماضي. وعاشت

قصتي حب على ظهر السفينة، واحدة في الذهاب وأخرى في الإياب. وبين هذه وتلك درست تاريخ الفن في فلورنسا لمدة خمسة أسابيع، وفي إحدى المرات، زارت أحد صفوف الرسم الحيّ حيث وقف رجل كموديل، عارٍ وممدد فوق المنصة. بالإضافة إلى ذلك، سافرت إلى باريس وتسلقت إلى قمة برج أيفل ووقفت بجانب الشعلة الخالدة عند قوس النصر وأكلت نبات الأرضي شوكي في مطعم فرنسي، كانت تنزع كل ورقة من أوراقها على حدة وتغمسها في صحن صغير مليء بالخل ثم تكشطها بأسنانها السفلية. "ما يجب أن تعرفوه عن الفرنسيين"، قالت لدايزي وبينز، "هو أنهم قذرون في مسائل معينة، مفرطون في نظافتهم في مسائل أخرى. وهم يرون أن البيديه ضرورة ملحة. قبل البدء. وبعد الانتهاء.

"قبل ماذا؟" سألت بينز"، وبعد ماذا؟"

"قبل وبعد ممارسة الجنس".

"أوه".

"يمارسن الجنس بكثرة، أكثر بكثير من النساء الأمريكيات، والنساء الإنكليزيات أيضاً".

"لماذا؟" سألت دايزي، "لماذا يفعلن هذا؟".

"لديهن رغبات جنسية أقوى. يظنن أن الجنس جزء هام جداً من كونك امرأة. يتحمسن له كثيراً، وهن مبدعات في ممارسته".

"ماذا تعنين بـ مبدعات؟".

"يمارسنه بطرق أخرى".

"ماذا؟"

"أعني طرقاً أخرى تختلف عن الطريقة الطبيعة. في الصيف الماضي، وفي أحد الفنادق حيث كنت أقيم ـ داخل درج صغير ـ وجدت كتاباً، كتيب، يحتوي على صور لزوجين يمارسان الحب بطريقة مختلفة".

"لم تخبرينا بهذا من قبل".

"لم تسألن".

"ماذا كانا يفعلان بالضبط؟".

"من؟".

"الزوجان في الصورة".

"أجل، ماذا؟".

"حسناً"، تنظر فريدي إلى طلاء أظافرها الطري. "في الصور. داخل هذا الكتاب الصغير، ظهرا وكأنهما" ـ تتردد ـ "وكأنهما يقبلان بعضهما هناك".

"أين؟"

"هنا". وتشير إلى حجرها.

"أوه، يا إلهي!".

"تعنين أن الرجال يقبلون النساء هناك أم النساء تقبلن الرجال؟"

"كلاهما".

"أوه، يا إلهي".

"لا يمكن أن أفعل ذلك".

"سأشعر بالغثيان، سأتقيأ".

"اشعر بالغثيان في هذه اللحظة لمجرد التفكير بالأمر".

"إنه أمر طبيعي تماماً بالنسبة لهم. هم معتادون عليه. وهي إحدى طرق منع الحمل كما تعلمون".

"آمل أن ديك لا يعرف شيئا عن هذه الأمور"، قالت بينز التي ستتزوج من ديك غرين في السبت الأول من تموز.

"يا إلهي، هل تظنين أن هارولد سيجرب".

نظرت دايزي إلى فريدي ثم إلى بينز. تسود لحظة من الصمت التآمريّ، ثم ينفجرن ضاحكات.

كلهن عاجزات عن فهم سبب هذا المرح الصاخب، فهو شيء يهبط عليهن أحياناً، مثل تقلبات الطقس. "توقفي عن إثارة ضحكي"، تلهث بينز، "وإلا تمزقت خياطة ملابسي".

"وأنا على وشك أن أبلل سروالي الداخلي"، تصرخ فريدي.

هنّ دائماً ضاحكات، هؤلاء الثلاثة، يضحكن حتى الإنهاك ـ على حد تعبير أمّ فريدي. أحياناً تشعر دايزي أنها وفريدي وبينز مثل شخص واحد وجسد واحد، يتنفسن الهواء نفسه. وتخطر لهن الأفكار المرحة نفسها. كان هذا هو حالهن دوماً، على مدى السنين التي قضينها في مدرسة ثيودور هول ـ إنديانا، ثم في كلية لونغ معاً، رهينات نادي الفتيات نفسه، ثم حصولهن معاً على الدبلوم في ذاك الصباح الحزيراني ذاته. وكلما فكرت دايزي بشهر العسل الذي ستقضيه، وبوقوفها أمام برج أيفل أو المدرج الروماني، تتخيل أن فريدي وبينز ستكونان هناك أيضاً، واقفتان إلى جانبها، يمرحن ويضحكن ويصخبن كالممسوسات.

ولكنها، هذا المساء، وهواء المروحة يعبث بتنورتها الداخلية الحريرية، تدرك أن هذا ليس صحيحاً. ستقف في تلك الأماكن الأجنبية الغريبة وحدها. هي وزوجها هارولد آ. هود.

الألف في اسم هارولد آ. هود هو اختصار لاسم آرثر الذي كان اسم والده، الوالد الذي أطلق على نفسه النار عندما كان هارولد في السابعة من عمره، في قبو قلعته الحجرية في شارع إيست فيرست.

إنه الشارع الذي يسكنه مالكوّ المقالع ذوو الشأن، شارع معقول بارد مستقيم تظلله الأشجار، منازله بعيدة عن ناصية الشارع. منزل آل هود، الذي يقع مقابل منزل كينزي على الجهة الأخرى من الشارع، مشيّد على النمط الانكليزي المحلي في عصر النهضة، بسقف شديد الميلان ومدخنة مستدقّة. المبنى مشيد من الحجر الصلد وليس فقط مكسواً بالحجر المربع. نوافذه من الزجاج المؤطّر بالرصاص. باب المدخل الكبير مصنوع من خشب البلوط، والنحت الدقيق حول الباب هو من إبداعات هورتون غراف، أشهر نحاتيّ بلومينغون، الذي أصبح في ما بعد شريكاً في شركة لابيسكان، إضافة إلى هيكتور ماكلرايث وسايلور غودويل. قام غراف بهذا النحت عندما كان شاباً صغيراً، وتعد الأوراق المضفورة ونبات الكرمة وعناقيد العنب مثالاً جميلاً عن تكييف الفن الحديث.

بعد الانتحار في القبو، في مساء أحد أيام الآحاد، جمعت السيدة هود ولديها، لونز وهارولد الصغير، حولها وأخبرتهم بما أصبح معروفاً للجميع في ما بعد. "استشار والدكما المسكين أخيراً أخصائياً فأخبره أنه سيفقد بصره عما قريب. لم

يتحمل أن يصبح عبئاً عليّ فاختار هذه النهاية".

كيف عرفت بالعمى الوشيك؟ هل أكد أخصائي هذا التشخيص؟ هل ترك الرجل الميت رسالة إيضاح للعائلة ؟ (لم تخطر هذه الأسئلة على ذهن هارولد إلا بعد مرور سنوات على الحادثة) ولكن لا. يبدو أن آرثر هود ترك رحيله غائماً "لأسباب تتعلق بالتأمين". لكن السيدة هود أقسمت دائماً بمعرفتها لما كانت تعرف. وأكدت أنها قدرت وسامحت. وهذا ما على ولديه الشابان أن يفعلاه أيضاً.

في ما بعد، خلال نشأته في هذا البيت نفسه، (لأن مقلع العائلة استمر في الازدهار إلى أن حل الكساد الاقتصادي)، تناهى إلى مسامع هارولد همساً حول مخالفات والده المالية وعن (صديقة) له في بيدفورد، ولم يعجب كثيراً لأي من تلك المعلومات القاسية. فقد تجذّرت في قلبه كلبيّة فطرية لن تفارقه أبداً. ويعتقد جازماً أن حياته ستكون بمثابة انتظار طويل للكشف عن الحقيقة الفظيعة التي سيرحب بها ويخافها في الوقت نفسه.

في الوقت الراهن، يتوق إلى معرفة التفاصيل. التفاصيل التي ينكرونها عليه أو التي لا يعتقد أن له الحق في المطالبة بمعرفتها. يريد أن يعرف، على سبيل المثال، العذر الذي أعلنه والده للهبوط إلى القبو في مساء ذاك الأحد. نوع المسدس الذي استخدمه، وهل اشتراه لهذه الغاية في تدمير الذات؟ كم كان حجم الفتحة التي خلفتها الطلقة وأين كان مكانها تماماً؟ الرأس؟ الصدر؟ وماذا عن الدم، كم كانت كمية الدم ومن الذي كُلف بتنظيفه؟ هل ضغط الزناد المهلك وراء الفرن أم في مخزن الفاكهة أم قرب مرجل الغسيل أم تحت النافذة المجللة

بستارة؟ هل مات والده في اللحظة نفسها، أم بقي على قيد الحياة لمدة ساعة أو ساعتين، نادماً على قراره، ويطلب النجدة بصوت ضعيف؟

ما هي أحداث تلك الليلة بالضبط؟ يحتاج لأنْ يعرف، لكن هذه الحاجة تشعره بالعار. أي مخلوق تعس هو؟ أليس هذا السعي الشاذ والبشع وغير اللائق وراء الوثائق عملاً جباناً لا يليق برجل؟ الجبن ـ كان السؤال دائماً ينتهي إلى الجبن.

سرعان ما حولت أمه انتحار أبيه إلى فعل تضحية ـ زوج وأب محب يجنب أسرته الألم. وبالطريقة نفسها أكدت بإصرار على أن ابنها لونز له ميول "فنية" بدلاً من الاعتراف بأنه يعاني درجة خفيفة من الإعاقة، وهي تعزو أسباب طرد هارولد من كلية الهندسة (بسبب الغش) إلى أن أحد الأساتذة كان حاقداً عليه. تفسيراتها الإبداعية تجعل هارولد يشعر بأنه ثمل على الدوام. إن التفكير بوضوح أصبح أكثر فأكثر صعوبة بالنسبة له بعد أن كبر وأصبح رجلاً، وقد دُفع في العشرينات من عمره إلى تعاطي المشروبات الكحولية القوية، الويسكي والصودا في فترة ما بعد الظهر، زجاجة نبيذ في المساء، وأحياناً زجاجتان، ثم البراندي. يوم زفافه على دايزي غودويل في حزيران ١٩٢٧ في كنيسة سانت لوك الأسقفية البروتستانتية في سيكوند ستريت، جاء إلى الحفل ثملاً ـ وفوجئ أنهم سمحوا له بالدخول. إشبينه، ديك غلرين، سنده طوال مراسم الزواج. كان المدعوون إلى حفل زفافه، تلك البقعة الكبيرة المائلة إلى اللون الوردي، ينظرون إليه بتثاؤب من على مقاعد الكنيسة، وبعضهم زرفوا بعض دموع التأثر من عيونهم الغبية.

يا له من شاب وسيم، الأكثر وسامة في إنديانا، هذا ما رددوه. مثال رفيع عن الشباب الأمريكي. شاب ناجح واعد. الحب والأسرة. الله والواجب. نِعَم وعطايا من الله.

هناك فصول في حياة كل شخص نادراً ما تُقرأ، ولا تقرأ بصوت عالٍ بالتأكيد.

عندما يتلقى باركر فليت في أوتاوا رسالة من دايزي غودويل حول زواجها الوشيك من شاب يدعى هارولد، يشعر بألم خفيف في صدره، ويحس أنه شبيه بالألم الذي ينجم عن القلق أو الشعور بالذنب. يتذكر بوضوح المرة الأخيرة التي رآها فيها، فتاة في الحادية عشرة من عمرها، تعتمر قبعة قش وتصعد إلى قطار، لكنه يرفض الاعتراف ـ ولماذا يفعل؟ ـ برغبته الجامحة حينها بأن يضم جسدها الصغير إليه، كتفيها الصغيرين وثدييها المتبرعمان. لقد حبس ذاك الإحساس بالعار بعيداً، أقفل عليه باباً صغيراً داخل جمجمته.

يُقال عن باركر فليت، الذي عُين مؤخراً مديراً لمعهد الأبحاث الزراعية، بأن روحه، شخصيته، هي لاتينية. إنه في الثالثة والأربعين من عمره، ويعتقد أن لديه تحفظات صارمة في ما يتعلق بالجنس والحميمية والعلاقات الشخصية. في بعض الأحيان، أثناء نزهات الموظفين أو حفلات العشاء، يبدي نشاطاً وحيوية سرعان ما يقمعهما. "لقد اختبرت المرارة"، كتب في مذكراته بلغة طنانة، "واكتشفت أني أستسيغها". سلوكه الاجتماعي أخرق، لكنه يبدو حلواً بصورة غريبة، رجل جاد يحاول واعياً أن يبدو أقل جدية مما هو، ووجهه الشاحب المجوَّع تجده النساء وسيماً. يستطيع الاسترسال في الحديث

عن مجموعته من نبات خفّ السيدة، ٢٧ نوعاً، كل منها محفوظة بشكل جميل، لكنه لا يفقه شيئاً عن أهمية رقصة الفوكستروت في أمريكا، وهو مشغول لدرجة أنه لا يذكر شيئا عدا انطباع غائم عن بطولة تشارلز ليندبيرغ الأخيرة. تجواله الطويل في الريف خلال عطل نهاية الأسبوع أبقى على لياقة جسده على الأقل، وحتى في الأربعينات من عمره ما زال شعره كثيفاً وغامق اللون. (تحت بنطلونه وردائه الداخلي الصوفيين تختبئ عانة تشبه حديقة خاصة). سادت همسات في المدينة على مدى سنوات بأنه شاذ، وهي إشاعة لم تبلغ أذنه أبداً، لحسن الحظ. لأن ادعاء كهذا كان سيحيره. لأنه لا يشعر بأي شيء تجاه أجساد الرجال. وحيال أجساد النساء يشعر بتبجيل عميق ونفاد صبر صريح في الوقت نفسه، ومن خلال قراءاته العشوائية حول الموضوع، يفهم أن نفاد صبره ناجم عن الشعور بالاستياء حيال أم قاسية مضعِفة تحبس عطاءها، الأم التي تعطي الثدي ثم تسحبه.

لكنه عندما يتذكر أمه النشيطة نحيلة الصدر، انتباهها لسعر الأشياء، واحتيالها على مصاعب حياتها، لا يشعر حيالها إلا بالدفء. كانت كلارينتاين فليت ضعيفة من ناحية الأمانة والاستقامة. نعم، لقد شوهت تاريخها وأعادت تكوينه، حين تخلت عن زوجها وعن واجباتها كزوجة. توقف نموها الروحي منذ الطفولة، مع كراهية خفيفة لإله سِفْر التكوين، الأب النكد الذي يتخبط في الحديقة، ويطأ أزهارها المفضلة. ولكن...

أوه، نعم، هو يفكر بأمه في أحيان كثيرة، ودوماً بحنان. تماماً كما يفكر بدايزي الصغيرة والسنوات الضبابية السعيدة

حيث تولى هو وأمه العناية بها.

اليوم، حين يجلس ويكتب رسالة لدايزي، يضمِّنها تمنياته لها بمستقبل سعيد، يرسل مع الرسالة حوالة مصرفية قيمتها ١٠٠٠٠ دولار، ويشرح لها أن هذا المبلغ هو الثمن الذي تقاضاه عندما باع مشروع الأزهار الخاص بأمه عام ١٩١٦، بعد أن زاد إلى أربعة أضعاف نتيجة الاستثمار الحكيم. "هذا مالك، يا عزيزتي دايزي"، هذا ما كانت ستفعله لو كانت موجودة، لأنها تؤمن أن كل امرأة، سواء كانت متزوجة أو عازبة، يجب أن يكون لديها القليل من المال الخاص بها وحدها. مصروف جيب، كانت ستسميه، بطريقتها البسيطة".

أما كهدية زفاف منه شخصياً فيرسل لدايزي نسخة كاملة ملونة تلويناً يدوياً من كتاب كاترين بار: الأزهار البرية في كندا. لا يستطيع تصور هدية أفضل لامرأة شابة على وشك أن تبدأ حياتها.

هدايا الزواج معروضة للمشاهدة في غرفة الطعام في بيت سايلور غودويل، شارع هوثورن درايف. أربعة أطباق إحماء[٦]. طقم كريستال لاثني عشر شخصاً. طقمان من الخزف الصيني. طقم من الفضة الخالصة وآخر مطلي بالفضة. محمصة كعكات الوَفل. بياضات. بطانيات سميكة. أصيص كبير من الخزف الصيني. أطباق للحلويات. أطباق للمكسرات، أطباق للمقبلات، شمعدان، طقم قهوة، طقم شاي. ومن سايلور

(٦) طبق الإحماء: جهاز مؤلف من طبق معدني تحته مصباح أو مسخِّن. (المترجمة)

غودويل لابنته، تمثال مصنوع من الحجر الكلسي، لتزيين المرج، ارتفاعه ثلاثة أقدام، على شكل قزم.

لقد صنع هذا المخلوق بنفسه، أول قطعة نحت ينجزها منذ سنوات، ويبدو أنه لا فكرة لديه عن تفاهتها وفجاجتها المربكتين ـ هذا من اليد نفسها التي نحتت عروسة البحر الرشيقة التي أصبحت جزءاً من برجه في مانيتوبا، الذي أصبح متآكلاً الآن، والملاك المصنوع من حجر سالم، الذي يسند الدعامة الأساسية لمبنى برلمان ولاية أيوا. لقد فارقته موهبته في النحت. وفقد حساسيته. أصبح رجل أعمال ناجحاً، هذا صحيح، لكنه فقد مهارته، ولا يحسن استخدام الآلات الحديثة في مجال النحت. "المعجزة التي تخص هذا الحجر"، قال منذ عام مضى في خطابه بمناسبة حفل التخرج في كلية لونغ للبنات "هي أنه يمكن رفع كتلة صلبة جامدة منه عن الأرض ومنحها أجنحة".

نعم، لكن ذلك يتطلب معجزة المخيلة الفنية. والبصيرة المتجددة.

لا علاقة للمخيلة أو البصيرة النافذة بهذا القزم السخيف الخاص بتزيين الحديقة. على وجهه تكشيرة خبيثة ـ فمه على شكل دائرة، عيناه المبتهجتان تلتمعان فوق خدان حجريان مجعدان ـ ورأسه المخنثة الكبيرة متوازنة فوق جسد يوحي بعاهة جسدية متوارثة. علاوة على ذلك، السطح الخارجي لهذا التمثال صقيل جداً وكأنه صُبّ من الإسمنت. هذا "العمل الفني"، على وشك أن يصبح واحدة من هدايا الزفاف المضحكة التي لا تدل على ذوق سليم، مثل طبق الخزف

الخاص بتقديم الكركند، أو اللوحة الجدارية البغيضة المصنوعة من الخزف المزجج، المنقوش عليها كلام للذكرى، تلك الهدايا التي سرعان ما تُودَع في القبو أو الكراج، وتصبح في النهاية موضوعاً لسخرية العائلة وتندّرها.

لا بأس. لقد صُنع بدافع الحب، وببراءة محببة. تغرورق عينا سايلور غودويل بالدموع حين يقدم هذا القزم الصغير القبيح لابنته الحبيبة.

وتغرورق عينا دايزي بالدموع أيضاً من فرط التأثر، لكنها تتنهد، لأنها تدرك أن والدها على وشك أن يلقي واحدة من خُطَبه الطنانة الفارغة.

ما لا يدركه هو أن موهبته الخطابية قد استنفدت أيضاً. لقد دخل حقبته الباروكية(٧). فالطلاقة التي طوّرها تنقلب ضده، تماماً كما ستفعل شرايينه في وقت لاحق من حياته، أصبحت ابتكارات لسانه نوعاً من الخدع. حتى خطابه في كلية لونغ منذ عام مضى قد ملأ دايزي بالارتباك والحرج، لدرجة أنها كانت تتلوى وتحك جلدها تحت رداءها وقبعتها الرماديين - إيقاعاته الوعظيّة، جمله المتزاحمة المضجرة وملاحظاته المبتذلة. لا يتحدث عن الحجر فقط من موقع الشخص المحب للفن والجمال - فهذا يمكن احتماله - بل يتناوله من موقع الأستاذ في علم الأخلاق. تنسكب الكلمات من فمه بالآلاف، بعشرات الآلاف، مثل الكُريمة، دسمة جداً، ناعمة جداً. ألا يرى

---

(٧) الباروكية: أسلوب تعبير فني ساد في أوروبا في القرن الـ١٧تميز بدقة الزخرفة وغرابتها في العمارة، وبالصور الغريبة الغامضة في الأدب. (المترجمة)

الوجوه المتثائبة أمامه، ألا يسمع التنهدات الضجِرة، أو يلاحظ شعورها اللاذع بالخزي؟ انظروا إليه، يلوح بيديه في الهواء. شخص محدَث النعمة ضئيل الحجم، مغرور، أجوف. كيف يحدث مثل هذا التلف؟ هي تعرف الإجابة. عدم الارتباط. عدم الإصغاء.

استرسل لوقت طويل في ذاك الصباح الحزيراني، واقفاً على أطراف أصابع قدميه كي يتمكن من الرؤية من وراء المِقْرَأ، يقدم للجمهور استعاراته المفضلة ويتوسع فيها. حجر سالم، يقول لجمهوره الأسير، هو شيء نادر واستثنائي، هو حجر حرّ ـ أي أنه يمكن أن ينفلق في كلا الاتجاهين، وليس فيه أي ميل لاتجاه أكثر من الآخر. "وأنا أقول لكن، أيتها الشابات اليافعات، بينما تنطلقن إلى العالم، فكرن بمادة هذا الحجر الحر على أنها المادة المصنوعة منها حياتكن. أنتنّ من ينحت هذه المادة. أدواتكن هي الذكاء الذي بحوزتكن. يمكنكن أن تجعلن حياتكن تتخذ هذا الشكل أو ذاك. يمكنكن أن تصبحن حلاوة أو مرارة، نوراً أو ظلاماً، قوة نشطة أو كسلاً، إقداماً أو تقاعساً. يمكن أن تخفقن بصورة مأسوية أو تحلقن بصورة متألقة. الخيار، أيتها المواطنات في هذا العالم، هو لكن.

"لا تفعل"، تتذكر أنها قالت له.

"لا أفعل ماذا؟".

"لا تفعل ذلك".

دايزي غودويل وهارولد آ.هود كانا يتمشيان في حدائق بلومينغتون العامة قبل حفل زواجهما بأيام. "لا تفعل ذلك

بعصاك"، قالت له.

كان يلوح بقضيب صفصاف في الهواء بلا هدف، مطيحاً برؤوس أزهار العايق (الدلفينيون)[٨]، والقرنفل الملتحي، الأزرارية[٩]، السوسن.

"ومن يهتم لذلك"، قال، ناظراً إليها شزْراً، ووجهه الكبير المرن منهمك.

"أنا أهتم"، قالت.

لوح بعصاه على نطاق أوسع وأطاح بثلاثة أزهار في لحظة واحدة. أزهار شقائق النعمان. تبعثرت بتلاتها على الممر الإسفلتي.

"توقف عن هذا"، قالت، فتوقف.

يدرك جيداً كم هو بحاجة إليها. إنه يتوق إلى إصلاح حاله، فالحب مثل مبضع، مثل سوط، شيء يكبح نزواته الجامحة وميوله المرضية.

هي تعتقد بصدق أنها قادرة على تغييره، على تولّي قياده وتحويل طبيعته الجامحة إلى شيء نبيل. يتوق إلى من يكبح جماحه ويفرض عليه انضباطاً ما، هي تعلم ذلك. فمه الذكوري اللطيف يشير إلى ذلك، ومظهره الدامع القانط. هذا، في الواقع، هو سبب زواجها به، هذا وحقيقة أن "الوقت قد حان" كي تتزوج - فهي، في النهاية، في الثانية والعشرين من عمرها. تشعر أن حياتها بدأت تتخذ شكلاً وتجّمع نفسها حول

---

(٨) عشب له أزهار زرقاء جميلة. (المترجمة)

(٩) أيّ من نباتات متعددة(كالأقحوان) أزهارها شبيهة بالأزرار. (المترجمة)

رغبة شديدة في المثول أمام من يحكم عليها. تريد أن ترغب بشيء ما لكنها لا تعرف ما هو المسموح لها. ترغب بأن تكون مستعدة، أن تكون قوية.

لكنها تعجز عن منع زوجها من احتساء الكحول في ليلة زفافها. يسرسق الجن من الزجاجة مباشرة طوال الليل بينما يحملهما القطار إلى مونتريال، يشرب وينام ويشخر، ويتقيأ في الحوض الصغير داخل مقصورتهما المخصصة للنوم والتي من الدرجة الأولى. يتوقف عن تناول المشروبات الكحولية أثناء الأيام الثمانية التي استغرقها قطع المحيط الأطلسي. ولكن السبب الوحيد لذلك هو أنه كان مصاباً بدوار البحر طوال الوقت، وهي أيضاً كانت مصابة بدوار البحر. إنه وقت متأخر من شهر حزيران، لكن الطقس في شمال الأطلسي رديء هذا العام. أمواج البحر ترتفع وتتراجع، والأمطار تتساقط بشكل غزير. يصلون إلى باريس يرتعشان. ما تعلمته من الفرنسية في الكلية يثبت أنه بلا فائدة، لكنهما يتمكنان من العثور على فندقهما في شارع فيكتور هوغو، وهناك فوق فراش عريض صلب ينامان لمدة ستة وثلاثين ساعة. عندما يستيقظان، كل منهما منهك الجسد وجافّ الفم، يخبرها بأنه يكره باريس اللعينة ويشمئز من هؤلاء المتوسطيين الذين يرطنون بالفرنسية ويتبولون في الشارع. يتمكن خلال ساعة من استئجار سيارة كبيرة الحجم، ديليج توربيدو، سوداء كعربة الموتى ولها نوافذ خلفية مربعة تشبه عيوناً محملقة. ينتعش فور إمساكه بالمقود، ويبدأ غناء نشازاً بصوت عالٍ، وكأن خطراً كبيراً قد زال، رغم أن صوته يهمس بتأثير الجِن: دايزي، دايزي، أجيبيني بصراحة. أنا نصف مجنون بحبك. ينطلق مسرعاً عبر ضواحي باريس إلى

الريف، يطلق زموره على الأشخاص الذين يقطعون الشارع، على الأبقار، على الدجاج، على مظهر فرنسا الباهت. اندفعا بسرعة عبر طرق مشجرة كثيرة، قرب حقول من شقائق النعمان الفاتنة والوزّال الذهبي، وفي النهاية، بعد ساعات وساعات، وصلوا إلى الجبال.

تتوسل إليه طوال الوقت كي يتوقف، متذمرة ثم صارخةً بأنه يجب ألا يقود بهذا التهور ويشرب النبيذ في الوقت نفسه، وأنه يعرض حياتهما للخطر. يكاد يتأوه من شدة استمتاعه بما يسمعه، بعروسه العزيزة التي تعنفه وهي عاقدة العزم على إصلاحه.

يتوقفان أخيراً في بلدة كوربس النائمة في منطقة الألب، تغوص عجلات سيارتهما في الرمل المتراص فتتوقف، وينزلان في فندق دي لا بوست. حمّال محني الظهر يحمل أمتعتهما عبر درج ضيق إلى غرفة متقشفة بسقف مائل ونافذة واحدة مغطاة بستارة سميكة.

تستلقي دايزي على سرير فيه بعض الكتل. ثوبها المصنوع من قماش الكريب جورجيت، المبقع والمتغضن، مفروش تحتها. لا تستطيع أن تتصور سبب وجودها في هذه الغرفة البالية المظلمة، لكنها تشعر في الوقت نفسه أنها جاءت إلى هنا من قبل، وأن كل السطوح والتصدعات مألوفة بالنسبة لها، جزء من المناظر المرسومة في صحيفة مشكوك في صحتها. يداهمها النعاس بقوة، لكنها تقاوم النوم، ناظرة حولها إلى الجدران علها تعثر على إشارة تبعث الآمال. تلاحظ أن ورق الجدران مغطى برسوم أزهار، وأنه يضفي على الغرفة جمالاً وردياً بالياً.

هذا أيضاً يبدو مألوفاً. إنها السابعة مساء. هي مستلقية على ظهرها في غرفة فندق في وسط فرنسا. العالم يتدحرج فوقها، مرة بعد أخرى. زوجها الشاب، هذا الغريب، فتح النافذة بعنف، ثم دفع مصراعيها نحو الخارج، وأصبحت الغرفة مشرقة مع دخول أشعة الشمس.

ها هو ذا، جاثم فوق أسكفة النافذة، يوازن نفسه هناك، شبح كبير من اللحم يمنع أشعة الشمس من الدخول. يحمل بإحدى يديه زجاجة من النبيذ يجرع منها بين وقت وآخر؛ ويحمل بيده الأخرى قبضة من السنتيمات التي يقذف بها عبر النافذة لمجموعة من الأطفال الذين تجمعوا في الساحة المرصوفة بالحصى. إنه يضحك، ضحكته هي قوقأة مجنونة مكونة من نغمة واحدة.

تسمع الرنين الموسيقي للقطع النقدية عندما تصطدم بالحجر، وصيحات الأطفال كغناء حاد. ينجرف جزء من وعيها نحو النوم حيث ستكون آمنة، لكن شيئاً آخر يجذبها بقوة، قوة ستفكر بها لاحقاً، تدريجياً، على أنها التزام المأساة، وإصرارها على التقدم نحو الأمام. تحدق متجهمة في السقف، في ورق الجدران، منتظرةً.

تشعر بحاجة إلى العطاس لا يمكن مقاومتها ـ حساسيتها القديمة من الوسائد المحشوة بالريش. تعطس بصوت عالٍ، بقوة، وبصورة مفاجئة، انفجار يسد حلقها ويجبرها على إغلاق عينيها لجزء من الثانية. عندما تفتح عينيها ثانية. تجد أن هارولد لم يعد على أسكفة النافذة. كل ما تراه هو مستطيل فارغ من الضوء الساطع. تمضي برهة من الزمن، أقصر وأسرع من أن

يسجلها الدماغ؛ تطرف بعينيها غير مصدقة، ثم تسمع صوت ضربة عنيفة، صوت اصطدام قوي وكأنه صوت بطيخة تنفلق، ضجة بليلة مؤذية يتبعها صياح الأطفال وصوت أشخاص يركضون في الشارع.

تذكر أنها بقيت مستلقية فوق السرير لمدة دقيقة على الأقل قبل أن تنهض وتستطلع الأمر.

الفصل الرابع:

الحب، ١٩٣٦

يكمن سر الخلل الحقيقي في هذا العالم في تكريس عدم المساواة بين الرجال والنساء ـ كان هذا هو رأيي دائماً، رأيي المتواضع، كما تعلمت أن أقول منذ وقت طويل.

ولكن، كم نحب أن نكنس هذا الجور جانباً. لقد تعودنا على تحمل الأشياء كما هي، تعودنا على قبول فكرة أنّ الرجال يتصرفون بأسلوب والنساء بآخر. ربما تقولون إن هذه مجرد مسألة ثانوية نبالغ في أهميتها من أجل أنفسنا، مجرد طريقة نتّبعها للتعامي عن السلوك البشري، مجرد شكل من أشكال التواطؤ. تأمّلوا فقط كيف نبتسم ونطرف بأعيننا ونومئ برؤوسنا بتسليم، أو نهز أكتافنا بدهشة صريحة! حسناً، نقول، ونغمة العارف ترنّ في أصواتنا، هكذا هم الرجال. أو هذه هي طبيعة النساء. ونقبل كطُرفةٍ كونيةٍ، اختلاف سلوك الرجال عن سلوك النساء، واختلاف مستوى حماقاتهم. هذا على الأقلّ ما كنا نعتقده عام ١٩٣٦، الصيف الذي بلغت فيه الواحد والثلاثين من عمري.

فالقصص التي تحدث في حياة الرجل، كما بدا لي في تلك الأيام، هي مصدر فخر وشرف بالنسبة له، بينما القصص التي تمر في حياة المرأة من المرجح أن تخنق أنفاسها. لماذا؟ لماذا يحدث هذا؟ لماذا يمكن للرجال أن يختالوا بمغامراتهم ويحملونها كأوسمة على صدورهم بينما تنوء النساء تحت ثقل قصص حياتهن بصمت وكآبة؟ تنتفخ القصص التي تحدث في حياة النساء كالبالون ليسيطر على حياتهن اليومية، ينتفخ ويضغط بقوة تجعل الزمن ـ الساعات، الأسابيع، الأشهر ـ التي تفصلهن عن تلك القصص، تختفي عن الأنظار. إن سخرية القدر هذه تلازم دايزي غودويل هود، الأرملة الشابةِ من بلومينغتون، التي يلوح عيد ميلادها الحادي والثلاثين في الأفق ـ هي التي لا تزال تعاني آلام حكايتها الأولى، أمّ تموت أثناء الولادة، ثم فصل مروّع آخر من حياتها، زوج يموت خلال شهر عسله. بل شهر عسلهما، كما يتوجب علي أن أقول.

من المؤكد أن قلبها محطم، يقول الجميع، لكن هذا ليس صحيحاً. فهذه التجربة اعتصرت قلبها لفترة من الزمن فقط، وجعلته جافاً كبساط قديم.

ومع ذلك، تتقدمها قصتها أينما حلّت. تعلن عنها. توطّد ذاتها الحقيقية ثم تمحوها. كم ترغب أن تكون سعيدة، ولكن ما هي خيارتها، وهي تمشي على إيقاع تاريخها المؤلم ذاك؟

يمكن قول الشيء نفسه عن التوائم الخمسة بالطبع، التوائم الذين ولدوا لعائلة دِيون، لزوجين عاديين من المزارعين الكنديين منذ عامين فقط. علينا أولاً التفكير في الأصل المتواضع لهؤلاء الأطفال. وإذا أضفنا إلى كل ذلك معجزة

بقائهن جميعاً على قيد الحياة، سنحصل على قصة قوية مؤثرة لدرجة أن هؤلاء الفتيات الصغيرات سيبقين مُضَيَّعات داخل طيّاتها، وسيكنّ دائماً كذلك، هذا ما أعتقده.

إليكم مثال آخر، أقلَّ إثارةً للمشاعر ولكن أكثر حدّة. امرأة تدعى بيسي بيرفيكت ترمبل (١٨٩٦ ـ ١٩٣٦م) قتلت في منتصف الليلة الماضية. نشر خبر موتها على صفحات جرائد الصباح، وحتى على صفحات بلومينغتون فوينكس، فقد كان الوقت صيفاً والأخبار الحقيقية نادرة. يبدو أن هذه المرأة قفزت أو سقطت من عربة قطار أثناء تحركها فوق الخطوط الحديدية، كناديان باسيفيك، على بعد ميل واحد من ترانسكونا، مانيتوبا. ماذا كانت تلك المرأة تفعل هناك في تلك المحطة المهجورة لتحويل الخطوط الحديدية؟ كانت ذراعها وساقها اليسرى مقطوعتان تماماً. لفظت أنفاسها الأخيرة بعد دقائق من الحادث، وكانت آخر كلماتها "أنا دامية جداً".

جمالها، ذكاؤها، السنوات التي قضتها في التعليم الملهم في مدارس ترانسكونا، وزواجها من رجل إطفاء في ترانسكونا، بيرني ترمبل، كل هذا ضاع إلى غير رجعة. وستبقى دوماً "تلك المرأة التي قفزت أو سقطت" (يا للشك المعذّب) وفي منتصف الليل، تلك الساعة غير المتوقعة، ساعة السحرة، وذراعها وساقها ـ تخيلوا ـ ثم تصريحها الأخير المبهم الرهيب "أنا دامية جداً". تحولت حياتها كلها إلى مجرد كومة من الصمت. نومئ باتجاهه لكن عيوننا تبقى معلقة بالحادث، بنقطة الوميض تلك.

يا للجَور وعدم العدالة كل هذا ـ جَور أن يكشط حدث مثير واحد الزغب الناعم كله عن حياة المرأة. ولكن العالم يفتنه

احتمال التحول المفاجئ لمجرى الحياة، يفتنه الدم، تفتنه الحاجة الملحة إلى إعادة تشكيل الترتيبات البسيطة. وهكذا نجد أن مأساة شهر عسل دايزي غودويل هود، غير المتوقعة، الغريبة في انعطافاتها، تغشي الأبصار عن المسار الطبيعي لحياتها التي ما زالت مستمرة، وهي حياة طبيعية لا تختلف كثيراً عن حياة أي شخص آخر، إذا ما أردنا قول الحقيقة. استمرت في الإقامة مع والدها منذ وقوع تلك الحادثة المأسوية في فرنسا، وهو الأخر أرمل أيضاً، في البيت الكئيب ذاته في فينيغار ـ هيل، البيت ذي الدرب الدائري والأعمدة الحجرية وتمثال ذاك القزم المشوه في الحديقة يكشر أمام المرج الأمامي قرب شجيرات الويبرنوم(١٠) الكثيفة.

قد تميلون إلى الاعتقاد أن دايزي قد فقدت البهجة ولكن هذا غير صحيح، فهي تحيا خارج قصتها بقدر ما تحيا داخلها. تتعاقب فصول حياتها: الغولف، التنس، أصدقاؤها، الحديقة ـ هذا بالإضافة إلى الحب البائس السري الذي كانت تمنحه لجسدها. هناك جانب مؤثر، في الواقع، في الطريقة التي اكتسبتها للتعبير عن الألم ورفضه ـ في اللحظة ذاتها، إذ يمكنك القول إنها قادرة على الاختفاء من حياتها ذاتها. لديها موهبة في إلغاء الذات. لقد مرت تسعة أعوام الآن، تسعة أعوام مضت على "ما حدث"، وأصبحت أكثر انفصالاً عن تموّجات وأصداء وإيقاعات الروايات المختلفة لقصتها. لكنهم ما زالوا يواصلون:

---

(١٠) الويبرنوم: نبات ذو عناقيد من زهر أبيض. (المترجمة)

"أليست هذه من ـ ؟".

"في ذاك الفندق الفرنسي الصغير، أم أنه كان سويسرياً؟ الطابق الثاني، على أي حال ـ ".

"صيف عام١٩٢٧. أذكر ذاك الزفاف وكأنه حدث البارحة".

"كان رائعاً".

"رجل رائع، في أوج صحته، وسيم كنجم سينمائي".

"يعادل ثراؤه ثراء الأخوين كرويسوس معاً. كان هذا قبل الكساد الاقتصادي بالطبع. ولكن ما نفع المال إذاً ـ ؟"

"لقد سمعتُ ما حدث. رأسه. انفلق. كبطيخة ناضجة، كما قالت. أم أنها قالت كثمرة قرع؟ جرى تحقيق في الحادثة بالطبع، أو مهما كانوا يدعونه هناك".

"يا إلهي، لا بد أنها كانت في أوائل العشرينات حينها ـ؟".

" ـ وفي بلد أجنبي".

"لم تكن تعرف أحداً هناك. ولم تكن قادرة على النطق بكلمة واحدة من لغتهم".

"كان يوزع مالاً على أطفال الشارع الفقراء، كان يقذف القطع النقدية عبر النافذة ـ ".

"عندما حدث ما حدث ـ ".

"لم يكونوا قد أفرغوا حقائبهم بعد. كانت حقائبهم على حالها ـ "

"كانت تستريح هناك. فوق السرير. عندما سمعت فجأة ـ".

"ها هي ذي".

"هل تلك هي؟"

"تخيلوا الكوابيس التي لا بد أنها تنتابها".

"بعد مرور كل هذا الزمن".

"لا يمكن للمرء أن يشفى من شيء كهذا ـ ".

"يا للمسكينة".

عدا دايزي، هناك شخصان في هذا العالم، هما فريدي هويت وبينز أنطوني غرين، يعلمان أن هارولد أ. هود لم يدخل عليها فعلاً: "كان ثملاً طوال الوقت"، هذا ما أخبرتهما به صراحةً بعد عودتها من أوروبا بفترة قصيرة، "أو مصاباً بالغثيان. أو، ببساطة، كانت تعوزه الرغبة".

روت التفاصيل الحميمة لشهر عسلها جالسةً على حافة سرير فريدي، وهي تدعك غطاء السرير المطرز برسوم الأناناس بين أصابعها. (كانت فريدي المسكينة مصابة بزكام الصيف). روت دايزي كل شيء لصديقتَيّ دارستها القديمتين المؤتمنتين. كل شيء عدا حقيقة أنها عطست قبل لحظة واحدة من سقوط هارولد من الشرفة، وحقيقة أنها مكثت جامدة فوق السرير لدقيقة أو أكثر بعد ذلك، عيناها تحدقان إلى السقف، تشعر بنفسها تنجرف إلى النهاية القصوى لهذه الفاجعة.

هذه الأسرار التي يتبادلنها قرب فراش فريدي هويت أثارت ضحكهن القديم ـ الذي جاء بطيئاً في البداية، على شكل قهقهات عصبية، ثم انفجر. تبادلت بينز وفريدي نظرات قلقة في ما بينهما، وكان مبهجاً بعد ذلك انطلاق صخبهن الصبيانيّ الجامح. أزاح هذا الضحك الثقل عن قلب دايزي ـ أو، بالأحرى، عن معدتها، فهناك، في الجزء الأوسط في البطن،

كانت قد أودعت صدمتها وأساها.

أساها؟ ولكن الأسى من أجل ماذا؟ من أجل هارولد؟ لا، في الحقيقة. بل الأسى بسبب خراقتها. بسبب ما سمحت بحدوثه. بسبب القصة التي تركتها تتضخم حتى أغرقتها.

"يا إلهي، هذا يعني أنك عذراء بتول"، قالت بينز غرين التي لم تعد عذراء، وهي تحملق ضاحكة.

"العذراء الوحيدة في وسطنا"، قالت فريدي التي جربت مؤخراً الاتصال الجنسي مع بروفيسور مشهور في كلية الفنون الجميلة في بلومينغتون، وهو رجل متزوج بعمر والدها.

كم هي نعمة أن لا تعرف دايزي بأنّ آخرين في بلومينغتون هم على علم بسلامة غشاء بكارتها، عدد لا بأس به من الآخرين: أحد هؤلاء هو الطبيب مالديف، الذي فحصها بعد عودتها إلى بلومينغتون، وبعد ذلك بوقت قصير، قام هذا الطبيب مالديف نفسه، ووفقاً لما أملاه عليه ضميره، بنقل تلك الحقيقة الغريبة إلى والد دايزي، سايلور غودويل، (بدا له أن هذا هو السلوك المسؤول، حديث رجل لرجل)، كما قام الطبيب الفاضل، من دون الرجوع إلى ضميره هذه المرة، بإخبار زوجته غلايد، التي بدورها سرّبت الحقيقة، بعد تأطيرها بنظرة تأمل، رافعةً حاجبها، إلى رفيقتها في نادي البريدج، السيدة آرثر هود، التي استنتجت، وأعلنت استنتاجها في كل مناسبة اجتماعية أتيحت لها في بلومينغتون، بأن دايزي غودويل الشابة هي امرأة غير طبيعية وتتسم ببرودة جنسية عميقة، وقد صدّت رغبة ولدها، الرجل الشاب سليم الجسم، وأحبطتها، وربما دفعته إلى ارتكاب فعل سيبقى مبهماً إلى الأبد.

كل ما تعرفه دايزي هو أن حماتها تعاملها بفتور، وهما نادراً ما تلتقيان. لا تلتقيان أبداً، في الواقع. شُجّعت دايزي على التخلي عن المطالبة بميراثها من هارولد هود، ففعلت ذلك بطيب خاطر. ليس بها حاجة إلى المال. فهي ميسورة في ظروفها الحالية؛ لم تزل شابة؛ كما أنها ليست تعيسة بصورة خاصة.

في أيام الحرب الكبرى، شهدت عمّتي كلارينتاين فليت ازدهاراً في عملها في بيع الأزهار بالجملة، على عكس كل التوقعات. والآن، عام ١٩٣٦، في الوقت الذي تعاني منه صناعة الحجر الكلسي من الكساد، وتغلق فيه معظم المقالع، يزدهر فن النّحت على الحجر. يبدو الأمر وكأنّ الناس في الأوقات الصعبة يحتاجون إلى الأشياء المزخرفة الجميلة كي تخفّف عنهم عناء الحياة. يا لها من مفارقة أن يكون أبي، سايلور غودويل، وشركاؤه في شركة لابيسكان، في قمة انشغالهم في زمن بلوغ الكساد الاقتصادي قمته في العالم بأسره. تتدفق عليهم العقود الهامة يومياً. مكتبة جامعة ولاية أوهايو الجديدة. النصب التذكاري العملاق الخاص بالحرب في ليتل روك، أركانساس. إفريز مخزن الحبوب في شيكاغو. ويمكننا الاستمرار طويلاً في التعداد.

يتذمر السيد غودويل بصورة دائمة قائلاً إنه لا يوجد عدد كافٍ من النحاتين الجيدين. فالمسنون منهم ينقرضون، هكذا يقول، والشبان الصغار هم قليلوّ الاحتمال. سافر غودويل في الفترة الأخيرة إلى إيطاليا بحثاً عن المواهب الجديدة، وعاد إلى بلومينغتون بثلاثة حرفيّين من أجل شركة لابيسكان وبعروس جديدة لنفسه.

اسمها ماريا. وما عساها أن تدعى عروس شابة من نابولي غير ذلك ؟ ولكن إلى أي حد بالضبط هي شابة؟ لا أحد يعرف بشكل قاطع، لا أحد يعرف كيف يطرح هذا السؤال. أوراق هجرتها تقول إنها في الثامنة والعشرين من عمرها، ولكن من يثق بمعلومات رسمية كهذه، وبخاصة عندما تبدو الأوراق ذاتها مزيفة ـ متغضنة جداً ومثقلة بالأختام والتواقيع. ربما يتراوح عمرها بين الخامسة والثلاثين والأربعين، وهو بالتأكيد لا يتجاوز الخامسة والأربعين، ولكنها في جميع الأحوال أصغر سناً بكثير من زوجها الذي يقارب الستين.

إنه يعبدها، هذا واضح وضوح الأنف في الوجه. منذ وفاة زوجته الأولى أثناء الولادة عام ١٩٠٥، كان قد استغنى عن بهجة الجنس. هو نفسه عاجز عن شرح كيف أو لماذا اختار أن يعيش طوال تلك السنين بعيداً عن سلوى النساء. كان مشغولاً، قد يجيب إذا سئل. كان ذهنه مشغولاً باهتمامات أخرى: عمله، بلوغه الشهرة، وحقيقة أن لديه ابنة صغيرة عليه تنشئتها. لو سألتموه، سيهز كتفيه، يبتسم، ينظر مطرقاً إلى أعلى بطريقته اللطيفة المرتبكة. أكثرية من يعزلون أنفسهم عن الحب يستسلمون للكذب، النفاق، والوهن، ما عدا سايلور غودويل الذي يبدو واحداً من تلك الكائنات النادرة التي يكفيها أن تذهب حيث تذروها الريح. والآن، رياح الحظ السعيد جلبت إليه ماري.

هي امرأة جسدها مليء بالتعقيدات والألغاز. عريضة الصدر، نحيلة الكاحلين، ضيقة الخصر ،ثقيلة الردفين. إنها طفرة حقيقية، تمشي في شوارع بلومينغتون إنديانا اللطيفة

المغطاة بالأوراق. تمشي دوماً مسرعة، بصورة هادفة. إنها لا تتنزه، كلا، بل هي في طريقها إلى التسوق، تحثها الغرائب والصفقات التي يمكن أن تكتشفها، تعود إلى البيت، وكيس من القنب معلق بذراعها، كيس مثقل بكنز ـ بصل أحمر، بقدونس طازج، قرنبيط، بندورة. تحمل كل هذا وكأنه حِمْل ذراع من الريش. توحي ربلتا ساقيها القويتان بالاعتياد على طرق الريف الوعرة. وجهها، من ناحية أخرى، جميل القسمات. عينان صافيتان، أنف كبير لكنه رفيع، وفم جميل الشكل. الجانب الأيسر من وجهها يحمل ندبة قبيحة، تختفي تقريبا عندما تبتسم. هي تحتقر أحمر الشفاه. فالمومسات فقط يضعن أحمر الشفاه. لكن لون الحنة واضح على شعرها الأسود الكثيف. يصف سايلور غودويل لقاءه بماريا لمن يتلطف ويسأله ـ في مطعم يقدم ثمار البحر في نابولي حيث كانت تعمل كنادلة. "نظرة واحدة"، يقول لأصدقائه في بلومينغتون، "وحصل ما حصل".

تثرثر وتثرثر، ولا أحد يفهم كلمة واحدة مما تقول ـ عدا زوجها الذي يدّعي أنه يستطيع عادةً أن يفهم "فحوى" ما تعنيه. وهذا يكفيه كما يبدو. يهدأ لسانه فجأة. ينظر إلى عروسه، يهز رأسه بحيرة، ويبتسم ابتسامة رجل سعيد، خصوصاً عندما تنحني ـ فهي أطول قامة منه بثلاثة إنشات كاملة ـ وتطبع قبلة شديدة على البقعة الصلعاء في أعلى رأسه. تقوم بهذه الانحناءة والقبلة المدوية حتى في الأماكن العامة، في نادي المقلع حيث يذهبان لتناول العشاء، في مؤسسة بلومينغتون أثناء استقبال رسمي، وماذا يفعل في هذه المناسبات المربكة عدا أن يبتسم و يبتسم، وكأنّ هذا السلوك هو سلوك طبيعي بين الأزواج والزوجات.

كورا ماي ميلتون، مدبرة المنزل التي اهتمت بآل غودويل، بالأب و ابنته، طوال هذه السنين، تعلمهم بعزمها على المغادرة. وهذا ليس لأنها لا تحب ماريا، تقول، بل لأنها تشعر أن لا حاجة لهم بها. ماريا، بفاعلية الطفل المرحة والمرهِقة التي تتمتع بها، تستيقظ في السادسة والنصف، يروقها أن تمسح أرض المطبخ قبل حضور الآخرين لتناول الإفطار. ثم تجوب المكان بالمكنسة الكهربائية لمدة ساعة، مرتدية مبذلاً من الحرير الأحمر يكشف عن الخط الفاصل بين ثدييها الطويلين المسمرّين. ولاحقاً أثناء النهار، في وقت متأخر جداً، قد تغير ملابسها لترتدي ثوباً منزلياً قطنياً ومئزراً، وكثيراً ما تفتح الباب الخارجي مرتدية هذا المئزر، متشبثة أحياناً بسكين تقشير أو لقّاطة الكناسة، أو فرشاة التواليت أو أي شيء صادف أن كان في يدها، أسنانها التي تملأ فمها متأهبة للترحيب بأي شخص يأتي، وهذا لا يعني أنها قادرة على النطق بكلمة انكليزية واحدة. "مرحباً"، تصرخ، دافعةً يديها إلى الأمام والأعلى في إيماءة خرقاء. تحتسي القهوة السوداء الكثيفة طوال النهار، تغليها على ظهر الموقد، وفي المساء تقدم لزوجها وابنته دايزي، أطباقاً مليئة بطعام ساخن طهته على مهل. يتناولون هذه الوجبات في المطبخ وليس في غرفة الطعام، لأن مائدة غرفة الطعام الآن مغطاة بالأقمشة ونماذج التفصيل الخاصة بأثواب هي دائماً في وسط صنعها. تتحدث وتتحدث، ويداها تلوّحان، وتومئان: أتريدون المزيد؟ تحرد عندما يرفضان تناول المزيد من الطعام، وتشرق ابتسامتها كملاك عندما يقبلان. مجرد امرأة خرقاء، يقول أحد زملاء غودويل في نادي المقلع، بفجاجة وقسوة.

بين دايزي وماريا تنشأ قصة تنافس معقدة لا يُعلنُ عنها أبداً.

يتوقع المرء أن تشعر بالوحدة، تقول دايزي لفريدي وبينز، أو أن تشعر بالضياع في بلد أجنبي تجهل لغته وليس لها فيه صديق واحد. "لديها والدك"، تقول فريدي، "ربما كان ذلك كل ما تحتاج إليه".

"أوه، يا إلهي"، تقول ديزي، وعيناها تدوران باستنكار، وتفكر بالأصوات التي تصل إلى مسامعها في الليل، تأوهات الحب الجامحة. تأوهاته وتأوهاتها.

"تختلف متطلبات الناس من شخص لآخر". كان هذا تعليق بينز. تعليق السيدة ديك غرين. "إنها لا تتوقف أبداً"، تقول دايزي لهما. "تطهو، تنظف وتخيط. تعبر عن رغبة ملحة في خياطة ثوب لي. تجذب تنورتي، تجذبها، وتصدر هذه الأصوات التي تشبه النباح و تجعّد أنفها ثم تخرج نماذج الفساتين، من تصاميم باتريك، و تعرضها أمامي".

"ربما عليك أن تدعيها تخيط ثوبا لك إذا كان ذلك سيسعدها"، تقول بينز، التي أصبحت تتحدث دائماً عن إسعاد الآخرين بعد أن استقرت حياتها الزوجية مع طفلين.

"ربما عليك التفكير بإيجاد مكان تقيمين فيه مستقلة"، تقول فريدي. "أنا شخصياً لا أحتمل العيش وسط أوبريت مستمرة".

"وهي دائمة التقبيل لي، صباحاً، ظهراً، ومساءً، تقبلني".

"فوق الفم؟".

"أجل".

"يك" رجفة اجتماعية تصدر عن بينز.

فريدي تحدق. "حسناً، أخبريها أنك لا تريدين أن تتلقي القبل صبحاً، ظهراً ومساءً".

"إن التعبير الفيزيائي عن الحب هو أمر طبيعي لدى بعض القوميات"، تقول بينز بطريقتها الجديدة التوضيحية اللطيفة التي تثير لدى فريدي رغبة في الإقياء.

"أقترح أن تنفصلي عنهم. آن لك أن تفعلي. لقد تجاوزت الثلاثين، لم تعد الشكوى تليق بك".

سيجرح ذلك مشاعرهما".

"سيتجاوزان الأمر. استسلمت أمي للبكاء طوال شهر كامل حين انتقلت للإقامة في شقتي الخاصة بي، ولو عدت الآن، لأزعجتها عودتي كنكشة أسنان مضاعفة الثخانة".

"حسنا، في الواقع ـ".

"ماذا؟".

"في الواقع" ـ تنقّل دايزي نظراتها بينهما، تلتمس الاستحسان والتشجيع، وتريد أن تفاجئهما أيضاً ـ "كنت أفكر في القيام برحلة".

"وحدك؟".

"نعم".

"يا لك من محظوظة".

"إلى أين؟".

"إلى كندا"، تجيب.

فاجأت نفسها. جلست إلى كومةٍ من جداول مواعيد رحلات القطارات وكتيبات السفر وخطّطت لرحلة مدتها أسبوعان. كان خط رحلتها تعوزه الاستمرارية إلى الأمام، ويميزه قدر كبير من الارتدادات إلى الوراء ومن ثم الانطلاق مجدداً إلى الأمام: شلالات نياغرا في البداية، ثم كالاندر، أونتاريو، كي تلقي نظرة على التوائم الخمسة، ثم إلى تورنتو، كي تزور، نيابة عن والدها، موقع بناء ضخم لمصرف جديد، ثم إلى أوتاوا في النهاية، لزيارة العمّ باركر الذي لم تره مذ كانت طفلة. كانت استعداداتها البسيطة، تكاد تكون سياحية، ولكن، رغم ذلك، نظرت إلى جدولها بتطلع غريب، وكأنّ رحلتها الصغيرة هذه هي رحلة خرافية ـ ربما كانت كذلك، حيث أنها لم يسبق أن زارت كندا، موطن مولدها وطفولتها المبكرة، إلا إذا اعتبرنا الساعات القليلة التي قضتها على متن سفينة في مونتريال أثناء شهر العسل، زيارةً إلى هناك. "أشعر وكأني عائدة إلى وطني"، كتبت في دفتر يوميات رحلتها، ثم شطبت هذه الفكرة العاطفية واستبدلتها بعبارة: "أشعر بأن شيئاً ما سيحدث لي في كندا".

كان الوقت صيفاً. انطلق قطارها شمالاً عبر البلدات الصغيرة المشرقة شرق ميتشيغان. امتدت الهضاب المحروثة وأيكات الأشجار بين تلك البلدات. وراء تلك الهضاب، قالت لنفسها، تماماً وراء تلك الأشجار والغيوم، يمتد الدومينيون[١١] الكندي، الدومينيون، رددت الكلمة لنفسها بمهابة، دورتها على

(١١) الدومينيون: كل دولة مستقلة من دول الكومونولث البريطاني. (المترجمة)

لسانها، دو ـ مين ـ يو ـ ن.

أضرع إلى الله أن يحدث شيء ما هناك.

مكان نظيف بارد، هكذا تتصور كندا، ملك و ملكة وفرسان يرتدون السترات الحمراء وأناس يحتسون الشاي ويتحدثون في ما بينهم بأسلوب مهذب، لا يهمّ أن هذه التصورات لا تنسجم مع ذكرياتها الحقيقية عن الهرج والمرج في باحة المدرسة في وينيبيغ، والغبار وروث الخيل في شارع سيمكو. بدا لها في ذلك اليوم الحزيراني، بينما كان القطار ينزلق عبر حدود ولاية ميشيغان ويدخل كندا، أنها وصلت أخيراً إلى مملكة الشفاء.

لا يمكن لأحد في كندا أن يخمّن حالتها. لا أحد هنا يعرف قصتها. هي هنا مجرد امرأة شابة أخرى ترتدي ثوبا كتانياً وسترة منسجمة معه، وتقف قرب درابزين شلالات نياغرا، وتتلقى الرذاذ الخفيف على خديها.

كانت يقظة لدرجة التوتر وهي تحاول استيعاب هدير وجلال هذه الأعجوبة الطبيعية. ولكن، لماذا يجعلها كل هذا الجمال الساحر حزينة؟ سؤال وجيه. لأن المشهد لم يكن جميلاً بما فيها الكفاية، لم يكن بالضخامة التي تصورتها. علاوة على ذلك، كانت الصخور المنثورة في أسفل الشلال تعطي انطباعاً بالفوضى. بدا لها أن التصميم العام يفتقر إلى شيء ما. لم "تتملكها النشوة" كما وعدتها الكتيبات السياحية. ولكن الفرح انتابها في اللحظة التالية، حين لاحظت رجلاً يقف إلى جانبها، قريب جداً لدرجة أنها أحست بقماش سترته يحتك بذراعها العاري. "رباه"، قال بمرح، بلهجة نيويوركية، "هذا

الكم الهائل من الماء، ألا يثير لديكم شعوراً بالعطش؟"

حدقت ببهجة إلى أعلى ذراعه وكتفه، حيث طَفَت وراءه الغيوم وفسحة من السماء الزرقاء. قاومت رغبة في أن تميل نحو صدر الرجل، وتحتمي هناك، وتصرخ تعبيراً عن فرحتها بهذه الحميمية التي وقعت عليها من دون توقع. بدلاً من ذلك، وجهت اهتمامها إلى خفة روحه، متأملةً كم يمكن للعالم أن يصبح مرحاً إذا سمحنا له بذلك. كانت بهجة هذه المصادفة، والنظرات والابتسامات السرية التي رافقتها، والمشاهدة المشتركة، أكثر التصاقاً بذاكرتها من كرونولوجيا[١٢] شهر عسلها التراجيدي، فهناك كلمات ترافق مشهد الشلالات هذا، هناك النسيم العليل، هناك المرح المختلط بخيبة الظن، وهناك بلاغة الاحتكاك، من دون قصد، لكمّ سترة رجل على بشرتها.

بعد ذلك بيومين ،في كاليندار، أونتاريو، اصطفت تحت حر الشمس مع مئات من السياح الآخرين. وعند اقترابهم أخيراً من مكان المشاهدة، أُمروا بالمحافظة على الهدوء كي لا يزعجوا التوائم الخمسة اللائي كنّ يلعبن في حديقة مسيّجة. لمحت فساتين بيضاء صغيرة وقبعات شمس فوق العشب الأخضر الناضر. واحدة على الأقل من التوائم كانت تصرخ. بدأ الواقفون وراءها بدفعها إلى الأمام. أحست بأنها جزء من قطيع من مخلوقات سخيفة تراقب مخلوقات أخرى، وفكرت، بجزء من عقلها فقط، بضرورة الابتعاد عن جميع هؤلاء الناس الذين يتحدثون بمرح، عن تلك النسوة بملابسهن القطنية وستراتهن

(١٢) كرونولوجيا: التسلسل الزمني للأحداث.

الصوفية الملقاة على أكتافهن، عن هؤلاء الرجال بستراتهم الكتانية الأنيقة، المصممين على التسلية. هناك جانب هزلي في كل هذا، جانب مخزٍ بصورة عميقة. ولكن، لماذا تشعر بالدهشة، فقد جاءت لمشاهدة هذا العرض وهي تعرف أنها ستغادره بشعورٍ مُرْضٍ من السخط ـ وهذا ما حصل؟

في تورنتو، في قاعة اجتماعات مهيبة ككنيسة، سلمت حزمة من الأوراق الزرقاء المطبوعة من شركة والدها، وتفضّل عليها مدير البنك قائلاً "كم أنت فتاة لطيفة كي تسافري كل هذه المسافة من أجل هذا" ـ كما راودها نائب المدير قائلاً ـ "ها نحن الاثنان، شخصان وحيدان في مساء صيفيّ جميل".

"ولكني مغادرة"، قالت له، "سأستقل قطار الساعة الرابعة".

"ولكنك وصلت لتوّك".

"أنا في طريقي إلى أوتاوا"، قالت، "لرؤية أحد الأصدقاء القدامى".

"صديق أم صديقة؟".

حدقت إليه بقسوة. أرادت أن تصفع وجهه الكهل المشعّ الأحمق. ولكنها، في الوقت نفسه، أرادت لهذه المحادثة أن تستمر، أرادت أن تكتشف إلى أين يمكن أن تأخذها. "صديق"، قالت بجرأة.

"خمنت ذلك، خمنت".

"وكيف عرفت؟" كان من غير اللائق الاستمرار في هذا الحديث. كان حديثاً مرعباً.

"وجهك، عطرك، الطريقة التي قلت فيها "أحد الأصدقاء". لديّ حاسة قوية لمثل هذه الأشياء".

"أي أشياء؟".

"أعتقد أنك تعرفين ما أعنيه".

"كلا، لا أعرف"، قالت، وهي تستدير.

"أعتقد أنك تعرفين".

ذهب باركر فليت بالطبع لملاقاة قطار دايزي. وقام في الواقع بغسل وتلميع سيارته الهادسون الجديدة من أجل هذه المناسبة، وقادها ببطء إلى المحطة، وكأنها على وشك أن تنفجر تحته، وكأنها كانت تحمله نحو عقوبة ذات طابع إنجيلي.

كانت ليلة حارة، رغم أن نسيماً منعشاً هب عبر القناة ودخل نوافذ السيارة. هو عادةً يكره قيادة السيارة، لكنه تعلّم، كما قال لدايزي لاحقاً، أن يقدّر ملمس عجلة القيادة المصقول بين يديه، كما أحب الإحساس بهذه العربة الكبيرة الهادئة تشق طريقها عبر الغسق الصيفي وسمائه الملونة بمسحة بنفسجية تنتهي من الأعلى بلون أرجواني أغمق، والذي يختلف تماماً عن أجواء طفولته، عن ضوء المساءات الحار في مانيتوبا.

إن التفكير بدايزي وبطريقة مخاطبته لها جعل شجاعته ترتفع ثم تنخفض، وافترض أن ذلك هو صدىً لعملية كبح الذكريات وإطلاق العنان لها. تذكرها بوضوح كطفلة رضيعة، تنام لعدة أشهر في درج قديم مفروش بحشية من القطن، وتذكر تندّرهم حول هذا الإجراء كطرفة رقيقة، الطفلة الرضيعة ومأواها المرتجل. بعد ذلك، هناك هوة كبيرة مسطحة وقاتمة في ما يتذكره، حيث دايزي فجأة في الحادية عشرة من عمرها،

مستلقية في غرفة مظلمة، تتماثل للشفاء من مرض خطير (الحصبة؟ أم ماذا؟) ترنو إليه بعينين لم تعودا عينا طفلة. من ناحية أخرى، ربما كان قد تخيّل ذاك الموقف بصورة كاملة، إذ إنه يعرف جيداً الأذى الوجوديّ للذاكرة الواهنة ـ لكنه لا يستطيع التصديق أن تلك كانت الحالة: جسد دايزي الفتي، والعاري ربما، تحت الغطاء ـ لا يتمكن من إبعاد هذا عن ذهنه. يستعيد تلك اللحظة مرة بعد مرة، ليس بصورة داعرة، بل على أمل أن يكتشف بأنه كان مخطئاً. إنه في الثالثة والخمسين من عمره. وقد مضت تسعة عشر عاماً مذ رأى الطفلة آخر مرة. لا، ليست طفلة. إنها امرأة في الحادية والثلاثين من عمرها، أرملة.

"عزيزتي دايزي" كتب إليها منذ أقل من شهر مضى، "مضى وقت طويل ويسرني جداً أنك تخططين لزيارة أوتاوا".

ماذا كتب أيضاً؟

لا يستطيع أن يتذكر، وهو ليس بالرجل الذي يحتفظ بنسخ كربونية عن رسائله الشخصية ـ لا يسمح لنفسه بفعل ذلك ـ لعله دبّج لها المبادئ المشوشة للسلوك المهذب، التي لطالما فرضها عليها. التعبير عن المشاعر اللطيفة، السؤال عن صحّتها، عن نشاطها، إضافة إلى موجز مملّ عن أحواله وعن الطقس في أوتاوا (وهو إما حار جداً أو بارد جداً)، الإرباكات الناجمة عن البيروقراطية، وأحياناً، أفكار سامية عن الطبيعة، الحياة، الارتقاء، القرن العشرين، بالإضافة إلى المقاطع التي أصبح يكثر منها مؤخراً، والتي تعجّ بالنصائح العميّة المنافقة. نصائح يقدمها هو، هو الذي يسافر مرة كلّ شهر إلى مونتريال كي يخلص جسده من توتره الجنسي، هو، البالغ من العمر الثالثة

والخمسين، والذي لم يزل أحياناً يذرف الدمع على وسادته أثناء الليل، هو الذي يحتاج أن ينعش نفسه بكأس من الكحول بعد يوم بين الأوراق والاجتماعات وإصدار التعليمات الإدارية، هو الذي يحتفظ بحاجز من الخشية بينه وبين النساء، مدّعياً الوقار، بينما هو في الحقيقة يحتاج إلى الحماية. هو الذي يجاهد في كتابة رسائله إليها، إلى دايزي غودويل، قريبته الوحيدة على هذه الأرض، وهي مخلوقة لا تربطه بها قرابة الدم، وقد دخلت حياته نتيجة حادث غريب، (وفاة أمها، انتقال أمه للعيش معه)، ويرفرف وجودها المسلّي دائماً في زاوية من زوايا خياله.

ما من أحد يتواصل معه عدا دايزي. يكتب لإخوته مرة كل عام، في عيد الميلاد. سايمون في إدمونتون قلما يرد على رسائله، أما اندرو فيردّ على رسائله بانتظام، وعادة يسأله العون المالي .أما عن والد باركر فليت، ماغنوس، فقد سقط عبر حفرة في أديم الأرض. وإن صادف أن كان كبش الفداء العجوز ما زال على قيد الحياة، سيكون في السبعينيات من عمره الآن، ولكنّ سنوات قد مضت على رحيله عن كندا وعودته إلى جزر الأوكني، ولم يسمع منه أحد ولو كلمة منذ ذلك الحين، لم يتلقّ أحد أي أخبار عنه أو حتى عنوان إقامته. لا أحد، إذا تكلمنا بصراحة، يهتم لمعرفة مكان وجود ماغنوس فليت أو حالته العقلية أو ما إذا كان المتذمر العجوز حيّاً أم ميتاً.

قيل دوماً أنّ ماغنوس فليت قد عاش حياة منحوسة. تبعه الحظ السيّئ في زواجه وعلاقته مع أبنائه، كما اقتفى الحظ العاثر خطاه إلى (لويزا)، وهي السفينة التي أقلته من مونتريال

إلى ليفربول في صيف عام ١٩٢٧.

الجميع يعرف أن الأطلسي يكون هادئاً في بدايات الصيف ـ ويمكن الوثوق به ـ ولكن فترة الأيام الثمانية التي استغرقتها رحلة ماغنوس فليت كانت مليئة بالعواصف غير المتوقعة. لم يكن بمقدور الرجل العجوز أن يأكل أو ينام، كما قضى كل لحظة ممكنة على ظهر المركب، يتقيأ في حوض مصقول مطلي بالميناء. اندمجت أيامه بلياليه في شقاء متصل. لو أن أحداً سأله عما يتمناه في ذلك الوقت، لأعلن أنه يتمنى الموت. كان يتقيأ من فوق الدرابزين عندما حضرته صورة المقلع في تايندل، حيث ضوء الشمس يغمر الصخر المرقش و يدفئه، وحيث كانت تنتظره أيام عمل طويلة، عندها أدرك حماقته في مغادرة كل ذلك. لقد تقيأ ذاكرته، محاها. تقيأ خلاصة ألمه وخيبته، أبناءه الثلاثة، وزوجته الغادرة، تقيأ خزيه كله، وهكذا عندما وصلت السفينة لويزا أخيراً إلى ليفربول، غادرها إلى اليابسة بخفّة صبيّ صغير. اجتاز مسرعاً الرائحة النتنة لأحواض السمك، ثم تناول وجبة جيدة من لحم البقر والبطاطس، وبعدها نام ليلة طويلة في فراش نظيف، واستيقظ مستشعراً نشاطاً لم يشعر بمثله منذ سنوات، وحماساً أكبر للحياة.

أرسل حقائبه إلى ثورسو على متن القطار، محتفظاً ببدل ملابس، وبعض النثريات، ورواية (جين آير). وفي أحد مخازن ليفربول ابتاع حذاءً متيناً عالي الرقبة وموقد كحولي، بعد أن صمّم على الذهاب إلى سكوتلندة مشياً على قدميه عبر شمال انكلترا وبراري اسكتلندا. بدا له ذلك في البداية تحدياً، ثم ضرورة، وبعد ذلك بدا أمراً طبيعياً كما الهواء. ومع ذلك،

توترت كل عضلة من عضلات جسده حين فكر بما يوشك على القيام به.

كان الطقس إلى جانبه، نهارات وليالي لطيفة، والأرض جافة مرنة تحت الأقدام. اتخذ احتياطاته تجاه أشعة الشمس فقط. الوطن. كان وقع هذه الكلمة في أذنه أحلى من أغاني العصافير المتناثرة، وقد منحته شعوراً بالامتلاء كوجبة جيدة من الخبز والزبد وهو يمشي على الطرق الريفية باتجاه الشمال. في مجرىً مائي وجد قضيباً من الخشب الأملس الذي يناسب يده تماماً، وأخذ يضرب سطح الطريق الأغبر. نما شارباه ناعمان وأبيضان.

هضاب انكلترا المستديرة المهذبة أصبحت أكثر ارتفاعاً بعد أن خلّف كارلايل وراءه، ولكنه كان يستلقي للراحة تحت شجرةٍ ما كلما أحس بقدميه تخذلانه، ويفتح كتابه ليقرأ وينسي نفسه الآلام والتقرحات. هل يمكن لهذا أن يكون أي شيء ما عدا جزيرة، هكذا سأل نفسه، متطلعاً باتجاه السماء، متجاوزاً بنظره مراعي قطعان الأغنام والأبقار المسيجة. يا لهذه الأرض الواسعة الخضراء المليئة بالأحجار، يا لهذا الغنى بالنور والظل، فكر مبتهجا بكل الشتاءات غير المؤرخة التي مرت على هذه الحقول، الثلج، ثم الحلول التدريجي لدفء الربيع. في ما بعد، عند وصوله إلى المستنقعات الخالية من الأشجار بعد إنفرنس، بدا له أنه يتسكع فوق جبهة الله المغضّنة. تلا ذلك هدوء النفس، وشعور بهيج بالانتماء، فهدأ باله وأصبح خليّاً.

أبدت الفنادق الريفية ترحيباً شعبياً صريحاً، ورغم أنه لم يكن رجلاً يحب الخمر، أصبح يستمتع بتناول كأس جعته في

نهاية يوم طويل من المشي. ينحني برأسه فوق كأسه، يستنشق رائحته ثم يبدأ باحتسائه.

ازدهرت المحادثات الهادئة في الفنادق ـ "اخبرنا عن الحياة في كندا إذاً"، سأله المزارعون بوجوههم الحمراء الفظة ـ ومرة، في بلدة جيدبرا، انضمت إليه في الفراش صاحبة نزل صغير لعدة ساعات، كانت بشرتها خشنة ومليئة بالتجاعيد، لكن رائحة الصابون المنعش فاحت منها. لحق به الأطفال بعض الأحيان إلى خارج البلدات التي قطعها، صاخبين يملؤهم الفضول. وانضمت إليه في مشيه لبعض المسافة امرأة شابة تسعل سعالاً حاداً، تحدثه عن المسيح حديثاً مفككاً غير مترابط. دفعه تأثره إلى نفحها بضعة شلنات قبل افتراق طريقيهما.

عند وصوله إلى ثورسو، المكان ذي المطر الغزير والسماء الواطئة التي تطبق بشدة على الأفق، وجد الأمتعة التي كان قد شحنها مخزونة في زاوية كوخ تابع للمحطة. قرر فوراً ألا يطالب بتلك الأمتعة ـ فما هي إلا سقط متاع يمكنه تدبر أموره بدونها. ألم يثبت ذلك؟ استقل السفينة (سانت أولا) إلى ستورمنس، رحلة قصيرة فوق بحر هادئ، ووجد نفسه في وطنه. عبّ الهواء ملء رئتيه، و تشكلت في تلك اللحظة فكرة في ذهنه مفادها أن الحياة يمكن أن تكون حلوة رغم كل شي. سيجد لنفسه بيتاً بسيطاً في الأرض العالية قرب الحقول الواسعة شرقي بيغينغ، حيث أمضى طفولته، وسيجعله دافئاً أليفاً باقتناء مدفأة فحم، فراش دافئ، ومصابيح كهربائية، إن استطاع تدبر أمر ذلك. وكوة مخفية ليخبئ فيها نقوده. سيحيا كملك في هذا

العش الدافئ، وسيستمر في العيش إلى الأبد.

استمر باركر فليت في الكتابة إلى دايزي غودويل الشابة طوال تلك السنين، مرة كل شهرين.

حسناً، ذلك يعني أن عدد رسائله بلغ ستّ رسائل سنوياً، على مدى اثنان وعشرين عاماً، مما يجعل العدد الإجمالي لرسائله إليها مائة واثنتان وثلاثون رسالة، أو ما يقارب ذلك. يقول لنفسه، وللآخرين أحياناً، أنه يشعر بمسؤولية تجاه الطفلة. لا يستخدم كلمة واجب، كما كان سيفعل لو أنه ولد في الجيل السابق لجيله. لكنه، مع ذلك، رجل واجب. وهو رصينٌ أيضاً، يميل إلى التأمل ونقد الذات. يدرك جيداً ما يكمن وراء طبيعته الملتزمة، إنها الرغبة في الهرب مما لا يمكن إدراكه، والتماس الأمان في اغتراب لا مخرج منه. إنه يدرك تماماً، ويفخر بإدراكه هذا، يدرك كيف استطاع النسّاك أن يحيوا حياتهم في كهوف، والرهبان في صوامع متقشفة، حتى أثناء زيارته لمونتريال، مستلقٍ بين ذراعي النساء اللائي أفرغ رغباته في أجسادهن، كان يتوق إلى البساطة، سرير ضيق وعزلة ممضّة. هذا ما عليه أن يقاومه، هذا الاستسلام، هذا التشويش. عندما لا يقاوم، يصاب بدوار جراء التشاؤم من هذا العالم المتدهور. وأحياناً، ليس دائماً، وبعد حضور حفل عشاء في أوتاوا، يستلقي في فراشه فاقداً الحس، جاف الفم، ويفكر: يا لسخافة موقفي في هذه المناسبات، ألقي خطباً ببهجة كاذبة، مثل ممثل عجوز، ثم أواجه العالم بعد ذلك بكأس من الويسكي، محاولاً الهرب منه.

إنه بالغ الجدية، هو يعرف ذلك، يعرف استعداده البالغ للتصديق ـ ويصمّ أذنيه عن ملهاة الأزواج الذين يعوزهم

الانسجام. وكي يعزي نفسه، يتخيل أن دماغه مكوّن من طبقات منفصلة، وتوجد فراغات وفجوات تفصل بين قوى العمل وقوى الجنس. ماذا يفعل بهذه الفراغات الثابتة؟ الآخرون يعرفون الإجابة. أما هو فلم يعرفها أبداً.

كان والده، ذاك الرجل الصارم، القاسي والجاهل، يصرّ على أن يمسح أبناؤه أحذيتهم كل مساء. تعلّم السيد فليت أن يكون ممتناً على هذا الانضباط المبكر. فقد ساعده هذا على الاستمرار في الحياة، زوده بنبض وحيوية، وأضفى نظاماً على فوضى غامرة. ثمّ اهتدى إلى طرق أخرى في ما بعد. لا يتذكر متى تعلم أسماء النباتات في حديقة أمه، لكنه يذكر الارتياح الذي خلفته دقة المصطلحات في نفسه. قبل هذا، عرف أنه واحد من هؤلاء الذين لا يؤمنون بالأخلاقيات السائدة ويحتاجون إلى تنويت دقيق، للنباتات، للحيوانات، والمجموعات الفلكية. سرعان ما تعلم الحياة النباتية للحقول والغابات، بعد تعرفه على أزهار أمه المعروفة. حفظها كلها عن ظهر قلب، بأسمائها الشائعة وأسمائها اللاتينية. اجتاحه شعور بالقوة كلما تمكن من مطابقة عينة نباتية مع رسمها التوضيحي في مرجع علم النباتات الذي لديه.

العالم الأخضر بأشكاله المتنوعة ولّد لديه قدرة غريبة على التحمل وغمر نفسه بالسكينة. كما أن اكتشافه في سن الثالثة عشرة من عمره أن العالم الطبيعي ككل هو عالم مصنّف، وأن شخصاً آخر غيره قدّر الحاجة إلى هذا التنظيم، غمر نفسه بالسعادة. أعجبته بصورة خاصة الأقسام ضمن القسم الواحد، اكتشاف الفئات النباتية الضخمة وتفكيكها إلى فروعها الصغيرة،

والى أبسط أشكال الحياة، المستمرة ببسالة في منعطفات التطور. أصبحت المعالم المنمنمة، الفطور الغروية، الطحالب، أصبحت لسانه المختار ـ علم وراثة النبات، جمالها الغريب المقنّع. ومن بين مجموعته من نبات خفّ السيدة ـ وهي من أكثر المجموعات كمالاً في العالم، كما يروق له أن يعتقد ـ أحب أكثرها ندرة، ومن أجزاء هذه الزهرة، ثمّن أكثر ما ثمّن، البتلات الأصغر، يلاحظها باحترام تحت مجهره، ويحفظ في ذاكرته أشكال أكثر الخلايا صغراً، ويبدي احترمه لموضعها ووظيفتها، ويمنحها جلالة اسمها اللاتيني.

مثل جدول معلق على حائط، يتدلى التنظيم الكامل للعالم النباتي في لاوعيه. لا يملك سوى أن يعتقد أن رؤوس الرجال الآخرين مليئة بأنظمة مشابهة، بفلسفات، بعلوم التاريخ، بجداول لوغاريمية، بنصوص، بآراء أو اهتمامات منظّمة تدفعهم إلى الأمام، كما تفعل سلسلته من الصفوف، الرتب، العوائل، الأنواع وتحت الأنواع الحية. إلى هذا النظام، الذي لم يكن منطقياً أو منظّماً بالقدر الذي اعتقده، تسللت حقيقة دايزي. تجلس بعيداً على نهاية أحد الأفرع، تضحك وتدعوه. يغمض عينيه أحياناً متمنياً أن تختفي، لكنها تبقى هناك بإصرار جزءاً من الطبيعة، مختلطة مع التشابكات الخفية للذاكرة الجنسية. لم يعد بمقدوره تجاهل وجودها إلا بقدر استطاعته إلغاء أحد تحت ـ أنواع الأوركيد أو البرديّ. يرعى صلته بها عن بعد بالكتابة إليها بانتظام، وانتظار ردودها. أصبح هذا الإيقاع ثابتاً في حياته الآن ـ أصبح مساندة وإلهاء، هذه هي طريقته في تعزيز أكثر مشاعره إنسانية.

لكتابة الرسائل لديه أبعاد طقوسية. يمسك بقلمه، وهو قلم ووترمان أحمر اللون، بعد ظهر أيام الآحاد، الأحد الأول من كل شهر ذي رقم زوجيّ، شباط، نيسان، حزيران، وهكذا. ويمكن للمراقب أن يلاحظ أنّ انحناءة ظهره وكتفيه تذكر بالوضع الجنبي. يغمر الهدوء مكتبه ذا النافذة الطويلة. يمكث قرب مرفقه كوب من القهوة الخفيفة سرعان ما يبرد. تفور ذاكرته بأفعال ذاتية محرجة وكوابيس مزعجة، لكنه يكنس كلّ هذا جانباً الآن. فهو رجل يكتب رسالة، يؤدي واجباً. يدون تاريخ اليوم على الزاوية العلوية اليمنى من الصفحة، ويزمّ شفتيه بينما يضيف، كطرفةٍ عمّيّةٍ، كلمة ميلادية بعد التاريخ، بين هلالين.

يأخذ نفساً عميقاً ويكتب: عزيزتي دايزي. هذه الياء في عزيزتي تثير قلقه، لكنه سيثير الانتباه إذا حذفها الآن. ثم يتابع كتابة مقاطعه الفاترة المليئة بالتفاصيل، وينجح الفتور والتفاصيل في تمويه الشوق الذي يشعر به. يكمل صفحة ويبدأ أخرى، متثاقلاً، يشعره هذا التثاقل بالاطمئنان لأنه يعتبره مؤشراً على التحفظ. فالشعور بالوحدة، الكامن في أشياء مثل قلمه الووترمان أو صحن فنجانه، يجب أن يبقى خفيّاً. لكنّ وجهه المنكب فوق الصفحة مستعد للهرطقة. يتوق إلى أن يغمر الصفحة بالقبل وأن يوقّع: محبك باركر. المخلص إلى الأبد، لك فقط.

ولكن ما يكتبه هو عبارة بسيطة: المخلص باركر فليت. على الأقل، لم تبلغ به الحماقة أبداً أن يوقع: العم باكر. رغم أنها تخاطبه بهذه العبارة في رسائلها الجوابيّة.

تأتي إجاباتها على رسائله بسرعة، مع البريد العائد. يبدو أنها تشاركه شعوره بالمسؤولية وإحساسه بالواجب.

يخفق قلبه مضطرباً في صدره وهو يفتح مغلفات رسائلها زرقاء الزوايا. أوراق رسائلها زرقاء اللون أيضاً، تغطّي حوافّها أزهار رقيقة لن يتفضّل أي مرجع في علم النبات بالاعتراف بها. عمي العزيز باركر، تتابع ثرثرتها، صفحة بعد صفحة، بأسلوب بنّاتيّ عابث لعوب. نصف جملها على الأقل غامضة غير تامة، تفصل بينها الخطوط الأفقية الصغيرة والنقط المثقلة بالاحتمالات، مما يجعله راعشاً، قلقاً، مستثاراً ومغضباً. بناء جملها لاهث، أسلوبها متقطع. حتى بعد مأساة شهر العسل التي مرت بها، تكتب (بشجاعة؟) أنها "تشعر بالكآبة" لكنها تأمل أن "يعاودها مرحها" في وقت قريب. يشعر بالانقباض دوماً بعد قراءة إحدى رسائلها، بكل سخافاتها وحماقاتها. تلازمه خيبة الأمل أياما، لكن الأسابيع تمضي، شهر، شهران، وعندما يحين موعد الكتابة ثانيةً، يكون قد استعاد إخلاصه. من المحتَّم أن يُساء فهم كل واحد منا. يبدو أن هذه سمة من سمات القرن العشرين.

يجب أن نذكر بأن دايزي غودويل احتفظت بكل رسالة من رسائل باركر فليت، ولم تزل هذه الرسائل بحوزتها، رغم أنه سيكون من الصعب عليها أن تتذكر مكانها. في أحد الأدراج في مكان ما. أو في صندوق كرتوني.

أما رسائلها إليه فلم تبق.

وليس هناك أي صورة شخصية لها تعود إلى هذه الفترة.

مع ذلك، يمكنك أن تتصور كيف كانت تبدو وهي تقترب

من نهاية رحلتها في القطار إلى أوتاوا ـ رغم أنها من المحتمل أن تقوم بتنقيح كبير لهذه الصورة لأنها هي التي تكتب قصتها بنفسها ـ ترى نفسها، على سبيل المثال، وقد أزاحت قبعتها عن رأسها وهي تعرف تمام المعرفة أن النساء لا يسافرن بلا قبعات ـ والشيء التالي الذي نعرفه هو أنها تسدل شعرها البنّي المحمرّ الذي تشوبه شُقرة ذهبية. أشعة الشمس المائلة للغروب تدخل عبر نافذة القطار وتتجمع فوق طيات ثوبها الكتاني. (وهو مفصّل بصورة مائلة، ويعتبر أنيقاً بحسب مقاييس بلومينغتون ـ إنديانا). تشبك يديها بقوة فوق حجرها كما فعلت باربرا ستانويك في فيلم (المرأة ذات الرداء الأحمر)، مما يوحي بتصميم أنثويّ مفعم بالحيوية. وتأمل أن تعبير وجهها يشي بالموقف بنفسه، تماماً كما بدا وجه غريتا غاريو في الفيلم.

ماذا ستقول له؟ ماذا ستكون كلماتها الأولى؟

ويخطر ببالها مشهد بصورة طوعية: هي تصافحه بوقار وتبقى بعيدة قليلاً كي لا تزعجه. تتحدث بهدوء وصدق عن رحلتها. لا، ليست متعبة جداً. كانت رحلة ممتعة. كانت حقاً رائعة. مرت الأميال بسرعة. تتلهف إلى إظهار نوايا حسنة، وتنتظر بصبر إلى أن تنشأ الصراحة بينهما.

ماذا لو لم يجدا ما يتحدثان عنه، لا شيء مشترك؟ عليها أن تجد شيئاً ما. ستركز تفكيرها كله في الأمر.

مرة أخرى تضغط يديها معاً. يداها العاريتان من القفازات، واللتان لا تحملان خاتماً. قد يظن أي غريب يراها أنها ترفع صلوات صامتة، وهي كذلك فعلاً، بمعنىً من المعاني، فلتركيزها شدة الورع. إنها ذاهبة إلى باركر فليت وكأنها تلجأ

إلى ملاذ. هذه هي حقيقة الأمر. فهي لن تطيق العودة إلى (فينيغار هيل) لتلتزم بدور الابنة بالنسبة لسايلور غودويل وماريا، لن تتمكن من العيش في ذلك البيت أو في بلومينغتون، ليس في مثل سنها، هذا غير وارد على الإطلاق. لقد واجهت خلال هذه السنة الأخيرة خطر أن تصبح غريبة الأطوار، أو واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين (لا يضعون صحناً تحت فنجانهم). تحضرها التسمية المجازيّة المملة (الحجر الحرّ) التي أطلقها والدها على الحجر، مرفَقةً بكل ذاك الحمل الثقيل من نصائحه الكنسيّة: يمكن لكل شخص أن يشطر حياته بهذا الاتجاه أو ذاك، تماماً كما ينشطر الحجر الكلسيّ، فالخيارات مفتوحة أمامه، هذا ما يقوله.

ولكن لا خيارات أمامها في هذه المرحلة من حياتها، كامرأة تقف على مشارف خريف العمر ـ أو هذا ما تعتقده هي. إنها شخص سُمِّيَ بصورة اعتباطية، شخص احتل موقعاً غير موقعه. كيف حدث هذا؟ إنها عالقة في أحد روايات حياتها، مسمّرة هناك.

تخطر فكرة في رأسها: إنها لم تعد تسأل نفسها عما هو ممكن، بل تتساءل عما تبقى لها من خيارات. ويتضح لها في تلك اللحظة أنها في رحلة لا عودة منها، رغم أن بطاقة القطار لطريق العودة تمكث بأمان في جيب حقيبة يدها الجلدية. ومن اللافت أنها ليست خائفة، فهي تدرك جيداً أن الحب، في المقام الأول، يعني تفادي الألم، وهي معتادة على الصعاب وكيفية تخطّيها عن طريق تعديل نظرتها أو حشر همومها في ركن منسيّ.

تغمض عينيها للحظة ـ ليست عيناها كعيني غريتا غاريو، لا، ليستا عينان بتلك الشجاعة والرهبة ـ وتفكر بهذه الأيام الأخيرة التي قضتها مسافرة. ما رأته وسمعته يثير النشوة والطرب. محادثاتها المتعددة مع غرباء تدور وتدور في رأسها، مبهِجة ولكنها منهِكة أيضاً ـ وذاك الرجل قرب الشلالات، ألم يتخطّ ذلك كل التوقعات؟

بين الاكتفاء والحرمان مسافة قصيرة. لا، لا يمكنها أن تعود أدراجها. سيكون عليها وضع خطط جديدة. تنمو هذه الخطط جامحة في رأسها، تتولد عنها مجسات، مشاهد، ومحادثات كاملة.

كم تسعدني رؤيتك ثانيةً يا عم باركر.

تتحرك شفتاها بصمت أمام نافذة القطار. وتمتد ذراع نحيلة لتصافح الهواء.

تسعدني رؤيتك بعد مرور كل تلك السنين.

ربما حان الوقت الآن كي أخبركم أن لدى دايزي صعوبة في إدراك الأشياء كما هي، لديها صعوبة في سرد الحقائق كما هي.

لقد عاشت طفولة ذهبية، كما يسعدها أن تقول للجميع. مع "عمتها" المحبة كلارينتاين، وعمها الشغوف باركر. الدفء، الأمان، النزهات على ضفة النهر. حديقة مليئة بالإزهار. ثم عثورها، في الحادية عشرة من عمرها، على والدها الحقيقي، وهو (كما أكّد الجميع) رجل عصامي بارز، غمرها بحبه وبحياة مادية رخيّة.

في الواقع، ليست الطفولة سوى ما يريد المرء أن يتذكره

منها. فهي لا تترك أي أثر إلا في الخيال، ربما. ولهذا، علينا أخذ رواية دايزي للأحداث بشيء من الشك، بل بكثير من الشك.

فهي ليست دائماً موثوقة عندما يتعلق الأمر برواية تفاصيل حياتها. معظم ما تذكره هو تخمينات مبالغ فيها، بعيدة الاحتمال. (لا بد أنكم أدركتم أنه لا يوجد في هذا العالم شخص يضاهي بقسوته وتبلد أحاسيسه حماتها، السيدة آرثر هود، بحسب الصورة التي رسمتها لها. إن قدرة دايزي غودويل على رؤية الأشياء وفقاً لعلاقاتها الصحيحة أو أهميتها النسبية هي قدرة معطّلة. علاوة على ذلك، هي تفرض صوت المستقبل على أحداث الماضي، مسبّبة كل أنواع التحريف والاضطراب. تقوم بقفزات كبيرة عبر الزمن، ناسية أموراً هامة (كتعليمها الخاص الباهظ الثمن، على سبيل المثال ـ في مدرسة تيودور هول، وكلية لونغ). تشكّل فصول حياتها سلسلة متعاقبة من التحديدات، هذا ما تقوله لنفسها. عندما تكتب الرسائل لعمّها باركر، تختار لغة الطفولة، لغة ساذجة بصورة متعمّدة، كئيبة، ولا مسؤولة بصورة صبيانية، لغة آمنة. أحياناً تنظر إلى الأشياء نظرة متفحصة، وأحياناً تنظر إليها من مسافة، ولا تسمح بإبداء أي قدر من الهواجس الكئيبة التي تنتابنا جميعاً. كم هي مصابة بلعنة الخيال الرومانسي الذي يصيب النساء الوحيدات، مما يجعلها، بالتالي، لا تقبل سوى بالنهايات السعيدة.

ومع ذلك، لا رواية لدينا سوى روايتها، مكتوبة على الهواء، مكتوبة بحبر المخيّلة الخفيّ.

بعد قراءته لبرتراند راسل، نبذ باركر فليت إيمانه

بالأخلاقيات السائدة منذ أمد بعيد، ولكنه، كموظّف رفيع المستوى في حكومة جلالة الملك (مدير تنفيذي للأبحاث الزراعية)، مضطر للالتزام بسوية معينة من الآداب العامة. امرأة شابة تحت سقفه؟ كيف سيبدو ذلك؟

يمكنه أن يقول إنها ابنة أخيه، ولكن دايزي ليست ابنة أخيه، كما أنها لم تكن تحت وصايته كطفلة. فوصايته عليها لم تأخذ شكلاً قانونياً أبداً. ماذا سيفعل ؟ كيف سيبرر وجودها لديه؟

خطر له أن مدبرة منزله، السيدة دونالدسون، التي تأتي يومياً كي تنظف المنزل وتعدّ له وجبة عشاء باردة، قد تقبل بالبقاء في منزله طوال زيارة دايزي التي ستدوم أسبوعين. لقد سألها، عارضاً المشكلة بلطف، لكنها رفضت بفظاظة. فهي أيضاً لديها أسرة عليها العودة إليها، وما يطلبه منها مستحيل.

يتنهد بارتياح شديد ثم يعاوده القلق من جديد. حياته مع دايزي لم تبدأ بعد، مع ذلك تواجهه جميع هذه المشاكل المحيّرة التي تتطلب حلاً.

"بعد ساعة واحدة سأكون هناك"، كتبت دايزي في دفتر يوميات سفرها، واضعةً ثلاثة خطوط تحت كلمة "هناك".

إن الحرّ في القطار لا يحتمل، لكنها تمكّنت، بمساعدة قاطع التذاكر، من فتح النافذة. ونتيجة لذلك، يتطاير شعرها بشدة الآن، يتخلّله ضوء أشعة ضوء الذي بدأ يخبو، مما يجعلها تبدو وكأنها تعتمر هالةً من نوع ما، أو قبعة مصنوعة من الفراء المحترق.

في محاولة لتهدئة خفقان قلبها الشديد، تركن دفتر يومياتها

في مكان أمين، أو هذا ما تعتقده حينها، وترتدي قفازاها ثانية. تجلس منتصبة، صلبة. تجلس بهدوء يطهّر. تبدو مثل بربارة ستانويك، ولكن برأس يكسوه شعر ثعلبيّ.

في بعض الأحيان، كما هو حالها الآن، تغمرها رغبة في طلب المغفرة.

يهبط الظلام تدريجياً، وتمتلئ سماء أونتاريو بغبار ماسيّ. تشعر أن لا علاقة لها بهذه الجسيمات الدقيقة.

القرى التي تمرّ بسرعة تبدو غريبة قاسية، تبدو وكأنها تدير لها ظهرها. في نهاية حافلة القطار، في الجهة الأخرى من الممرّ، يشترك أربعة رجال في لعبة ورق صاخبة ـ هي، على الأرجح، لعبة الروميّ ـ وهم من الاستغراق في تسليتهم اللاهية ومتعة الرفقة الخشنة لدرجة أنهم لن يعيروها أي التفاتة حتى لو خطفت فجأة من وسطهم، ولن يلتفتوا باتجاهها. تدرك أنه ما أن يصل القطار إلى أوتاوا حتى يسرع هؤلاء الرجال إلى العودة إلى الإيقاع المعهود لحيواتهم الحقيقية، في الوقت الذي توشك هي أن ترمي بنفسها إلى ما تهيؤه لها مصادفات الحظ مهما كانت. ستقبل (بذلك) من دون أي احتجاج أو مساءلة، وهل لديها أي خيار آخر؟

إنها ضعيفة، بلا ملاذ، ولينة العريكة ـ إنها امرأة. ربما كان هذا هو كل ما في الأمر، أنها امرأة. نعم، بالطبع.

خطر لها أن تدون ومضة الإلهام هذه في دفتر يومياتها ـ من المؤكد أنها ستنساها إن لم تفعل، لأنها شخص دائم التعلم ودائم النسيان لما يتعلمه، مما يضطره إلى أن يتعلم من جديد ـ لكن عملية التدوين تقتضي أن تنزع قفازيها وتنقّب داخل حقيبة

يدها بحثاً عن قلمها ودفتر اليوميات ذاته. هذا أمر فوق طاقتها. وهكذا تقسر نفسها على الجلوس بهدوء، يتسارع خفقان قلبها مع اقتراب القطار من المحيط اللطيف الظليل لأوتاوا، عاصمة كندا.

وصل إلى المحطة قبل موعد وصولها بعشر دقائق كاملة. فعل هذا عمداً، لمعرفته بأنه سيحتاج إلى فترة من الهدوء كي يرتب أفكاره، وجسده أيضاً. "حسناً، حسناً"، يعتزم أن يقول لها، كي يفرغ اللحظة من انفعاليتها، "إذاً فعلتيها دفعةً واحدة، أليس كذلك؟".

أو سينطق بتعليقٍ ما عن الحَرّ. أو ربّما؟ ـ لا يعرف ماذا. كل شيء يبدو فجأة مليئاً بالمخاطرة. حتى ساقاه الطويلتان اضطربتا.

لكنه، مع ذلك، لن يحلم بالجلوس فوق أحد تلك المقاعد الطويلة المصقولة. لا، بل يشد كتفيه وعنقه نحو الأعلى، يداه متشابكتان وراء ظهره، ويذرع الساحة الرخامية جيئةً وذهاباً. يقف، متأمِّلاً القبة. بناء جميل بالفعل. يتفحّصها باهتمام، يتأمّل أفاريزها المزيّنة وأعمدتها الغرانيتية المخدَّدة بقوصراتها الكلاسيكية. يحفظ هذه السطوح الحجرية في ذاكرته، يحدّق فيها وكأنّ فرصة الرؤية بهذا الوضوح لن تسنح له ثانية أبداً.

يوشك التغيير أن يلامس حياته. فالحبّ، ذاك الذوبان المفاجئ للفنّ والطبيعة، للغة ذاتها، يوشك أن يسيطر على حواسّه. يتنفس بعمق ويلقي نظرة عجلى على ساعة المحطة. نعم، يصل القطار في موعده المحدد تماماً. تثير هذه الحقيقة

رضاه بقدر ما تثير قلقه.

ها هي ذي، قادمة باتجاهه.

يُوصَف بعض الرجال بنفاد البصيرة. لكنّ باركر فليت ليس واحداً من هؤلاء. إنه بلا بصيرة على الإطلاق. لا فكرة لديه عن مكنوناته الداخلية أو ما يرغب به حقّاً. فهذه اللحظة، هذا اللقاء، كان مقدّراً منذ سنوات.

ها هي ذي، يدها المكسوّة بالقفّاز ممتدة أمامها وهي تتقدّم نحوه، ظنّ للحظة أنه حقّاً سيأخذ تلك اليد ويصافحها، بلباقة اجتماعية، متمتماً: كم تسعدني رؤيتك ثانية، وهل كان القطار مزدحماً؟ هل عثرت على مكان قرب النافذة؟ هل أنت متعبة؟

لكنه يعانقها بدلاً عن ذلك. ليس عناقاً حقيقياً، فليس من الوارد تلامس جسديهما. لا. بل تمتد يداه وتمسكان كتفيها برفق، ثم تنزلقان فوق الجزء الأعلى من ذراعيها (تلك الذراعان الرطبتان قليلاً والعاريتان بدءاً من المرفق)، ثم ترتفعان ثانية إلى وجهها، تلمسانه بأطراف الأصابع، تحتويانه. نسي كل ما كان قد عقد العزم عليه، واشتعلت النيران في دمه.

ركبتاها متداعيتان بعد رحلة القطار الطويلة تلك. يختل توازنها نتيجة الضوء المفاجئ للمحطة، ولا تسعفها الكلمات.

"دايزي؟" يهمس عبر شعرها المسرّح، صائغاً من اسمها سؤالاً، بل نشيجاً. وينسى كلماته التي تلت ذلك.

يعجز في سنّه هذا عن تحمّل عناء جلبة حفل زفافٍ كامل، ولهذا تزوّجا بسرعة، بلا ضجيج، في مكتب قضائيّ. في السابع عشر من آب، عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثين.

البرقية التي أُرسِلت إلى سايلور وماريا غودويل في بلومينغتون قبل مراسم الزواج بدقائق اتخذت صيغة الماضي: "تزوّجنا لتوّنا، الرسائل ستتبع لاحقاً".

دايزي وباركر أحسا بالجبن تجاه هذا الإعلان وانتظرا الرد عليه بارتباك.

إن عالم الرغبة الجنسية هو أقرب طريق لفهم الجانب الوحشيّ من طبيعتنا. هذا ما يعتقده باركر فليت. هناك جزء من النفس البشرية غير قابل للتصنيف. هذا ما يجب عليه أن يتعلم قبوله. عليه أن يكون منفتحاً أمام حرارة الرغبة التي تنتابه من دون أن يتسلل إليه الشعور بالخزي عبر كل نافذة. لماذا يتوجب علينا أن نسطّح كل شيء بمكواة الخير والشرّ، لماذا؟

يعترف لدايزي أنه في ما مضى لجأ إلى النساء اللواتي يبعن أنفسهن. وهي، بدورها، بينما كانت يدها تعبث بشعره، اعترفت بحالتها الحقيقية: أي بأنها لم تُمَسّ (هذه هي كلمتها)، وأن خللاً ما قد أصاب زواجها القصير الأمد من هارولد هود. هي لا تعرف تماماً ماهية هذا الخلل، لكنها تعتقد أنها مسؤولة عنه بصورةٍ ما. لا يرغب بسماع هذا، ففي هذه المرحلة من حياته، يحتاج لمشاعر دايزي الجيّاشة كلّها لنفسه.

هذا النوع من الاعترافات، أو مسائل الضمير هذه، غالباً ما تبدو هزلية عند النظر إليها عن قرب ـ وهزلية بالدرجة نفسها عند النظر إليها عن بعد. كل هذا القدر من المذلّة والصدق المتأنّق، والندم الذي يتبعه. هل هو ضروري حقّاً؟ بالطبع لا.

شيء واحد يحيّر باركر فليت: كيف قضت دايزي سنوات

ترمّلها التسعة (تماماً كما تعجز دايزي عن تصوّر كيف قضى والدها شبابه في ستونوول ـ عاماً بعد عامٍ بعد عام). يمكنه أن يتخيل دايزي تجوب بلومينغتون بحيويةٍ، أنيقة، تنتعل حذاء أنيقاً، ترتدي قفازات جميلة، فتاة أمريكية تملؤها الحيوية، تسبح، تمشي، ترقص، وتلعب الغولف. ولكن ما هو العمل الذي كانت تقوم به؟

"لا بدّ أنكِ تابعتِ دراسةً ما، أو حضرتِ محاضرات".

تهز رأسها بالنّفي.

"أكنت تشغلين وقتك بالقراءة؟".

هزّة رأس أخرى.

"كان عليك طبعاً الاهتمام بشؤون منزل والدك".

"في الواقع" ـ تصمت قليلا ـ "كانت كورا ـ ماي ميلتون تدبر شؤون المنزل طوال تلك السنوات. ثم جاءت ماريا".

"لا بد أنك ملأت وقتك بعملٍ ما"، يقول، حاثّاً إيّاها على الكلام. "الأعمال الخيرية؟ الصليب الأحمر؟"

ترتبك، ثم تبتهج. "الحديقة"، تقول. "كنت أعتني بالحديقة".

"الحديقة؟".

"أجل".

"آه"، يقول، "آه". بعد ذلك بأسبوع يقدم عرضاً لشراء بيت كبير على درايفواي، قرب بحيرة داو.

المنزل المبني جيداً من الحجر والقرميد يقع ضمن قطعة أرض مثلثة، ومحاط بحديقة مرّت عليها أيام أفضل.

ما قاله الآخرون عن ارتباط فليت ـ غودويل.

رئيس وزراء كندا، وهو نفسه عازب، قال عندما سمع بزواج باركر فليت من دايزي غودويل: "الزواج هو المهمّة الأسمى، وتليه الأبوّة، وبعد ذلك تأتي إدارة الأمة".

وزير الزراعة قال لزوجته متعجّباً عندما قرأ إعلان الزواج في الصحيفة: يا إلهي، لقد تزوج فليت، لطالما ظننت أن الرجل شاذ".

السيدة دونالدسون، مدبّرة منزل باركر فليت، قالت، بنفور: "قفز من المقلاة إلى النار".

سيمون فليت في إدمونتون أرسل إلى أخيه ورقة نقدية مهترئة من زمرة الخمس دولارات مع كلمة واحدة: "برافو". أندرو فليت من كلايماكس ساسكاتشيوان، كتب: ليبارككما المسيح بأنواره".

السيدة ديك غرين من بلومينغتون، إنديانا، قالت، في رسالة تهنئة دافئة لدايزي: "إليك وصفتي التي تضمن السعادة في الزواج: (تحملي واصبري)".

فريدي هويت قالت (لنفسها): "لقد فقدت عقلها وليس قلبها. ظننت أنها أكثر حكمة. زوجة شابة وزوج كهل ـ وصفة تقود إلى كارثة، إذا صدقنا حكمة الحكايات الشعبية".

السيدة آرثر هود قالت: "هذا مقرف، سفاح قربى. هذا فاحش. لا شكّ أنه رجل ثري".

وجاء في برقية عائلة سايلور غوديول: "تهانينا وأفضل تمنياتنا لكما وأنتما تنطلقان على طريق الحياة السعيد".

وقال سايلور غودويل لنفسه: يكاد يضاهيني سنّاً. سيتغيّب

عن البيت كثيراً. كما أن نظرة أو كلمة ستكون كافية لإخماد عشقه. يا لدايزي المسكينة".

"بامبيني، بامبيني"، صرخت ماريا، وهي تشكّل ذراعيها على شكل مهد، وفهم الجميع ما تعنيه هذه المرة.

أما أفكار دايزي غوديول ذاتها عن زواجها فلم تُدَوَّن لأنها تخلت عن عادة الاحتفاظ بدفتر مذكرات. فضياع دفتر مذكرات رحلتها الذي لم يُعثر عليه أبداً سبّب لها قدراً لا بأس به من الأسى السرّي. ترتعد كلما تساءلت عن اليد التي وقعت فيها تلك المذكرات، تلك الخربشات الذاتية التي تنتمي بدقة إلى عالم الصبا، العالم الذي لم تعد هي تنتمي إليه.

الفصل الخامس

الأمومة ١٩٤٧

وقت العشاء

يروق للناس في كلّ أنحاء العالم أن يعتبروا كندا أرضاً للجليد والثلوج. تلك هي الصورة التي يفضلون التمسك بها حتى عندما يعرفون خلاف ذلك.

لكن الواقع هو أنه يمكن لأوتاوا في شهر تموز أن تكون بحرّ الجحيم ـ ولهذا حُضِّرت مائدة عشاء عائلة فليت الليلة على الشرفة. وستحتوي هذا المائدة على شطيرة لحم العجل، شرائح البندورة، وسلطة البطاطا، أما الحلوى فهي توت العليق المحلى بالسكر، في زبديات زجاجية صغيرة.

يجب إن تعرفوا أنّ توت العليق هو من حديقة أسرة فليت، قطفه أطفال العائلة منذ ساعة مضت. أحد الأطفال الثلاثة، وارن، وهو في السابعة من عمره، لوّث صدر قميصه القطني ببقع توت العليق، مما دعا أمه إلى إرساله إلى الطابق العلوي كي يستبدل ملابسه بأخرى نظيفة. "بسرعة البرق" ، قالت له" ، سيصل والدك في طرفة عين" .

الفتاتان، أليسْ في التاسعة، وجوان، في الخامسة، قطفتا باقة أزهار للمائدة، واستخدمتا إبريق الحليب المعطوب كمزهرية. مظهر باقتهما غير متوازن، اختلطت فيها الأنواع القصيرة الساق بالأنواع الطويلة الساق، كما أن بعض أزهارها يبدو ذابلاً قليلاً. "جميلة جداً"، تهتف السيدة فليت، لكن اهتمامها ينصرف فوراً إلى شطيرة لحم العجل التي التصقت بقعر الإناء، فلا تتمكن من نقلها سليمة إلى الطبق الزجاجي الذي أعدّته لهذا الغرض. "سُحقاً"، تقول هامسة كي لا يسمعها الأطفال، لكنهم يسمعونها بالطبع. "سُحقاً، سُحقاً". حصلت على هذه الوصفة في عدد الشهر الماضي من مجلة التدبير المنزلي للسيدات، من مقالة بعنوان "وصفات مناسبة للطقس الحار". وقد اتّبعت التوجيهات المعقدة بأدق تفاصيلها، وصولاً إلى شرائح الفلفل الحلو وشرائح الزيتون المحشي التي تُستخدم للتزيين. "لماذا لم أشتر بعض شرائح اللحم البارد"، تتساءل بصوت عالٍ.

"أنا أحب شرائح اللحم الباردة"، يقول وارن حالماً، وهذا صحيح. فأكثر ما يحبه هو أن يأخذ شريحة من اللحم المسلوق ويطويها بين أصابعه ثم يحشوها في فمه كي يشعر باللحم الطري وكأنه جزء من لسانه وبطانة خديه.

غطاء المائدة قطنيّ تغطيه مربعات بالأزرق والأبيض. مكان الأم معدّ عند نهاية المائدة، ويقابله مكان الأب عند النهاية المقابلة، فهذه أسرة تميل إلى التمسك بالتقاليد والعادات. أمام كل كرسي، فوق ملعقة توت العليق تماماً، وُضع كأس لتناول الشاي المثلّج - الليلة سيُسمح حتى للأطفال بتناول الشاي

المثلج كمكافأة لهم على سلوكهم الحسن طوال النهار.

السلوك الحسن ـ ماذا تعني بالضبط عبارة السلوك الحسن في حياة عائلة فليت؟ كان سلوك أليس ووارن جيداً لأنهما رتبا سريريهما هذا الصباح من دون الحاجة إلى تذكير. إضافة إلى ذلك، ساعدت أليس أمها بمسح الغبار عن الدرج، عن الجوانب الخشبية التي لا يغطيها السجاد. استعانت العائلة قبل الحرب بامرأة لتساعدها في التنظيف مرتين في الأسبوع (امرأة تدعى السيدة دونالدسون، المعروفة بكسلها وتهكمها، والتي اختُزلت منذ ذلك الحين إلى بعدها الهزليّ)، ولكن مساعدة كتلك ـ عدا السيدة مانرلي التي تساعد في العناية بالحديقة ـ لم يعد من الممكن الحصول عليها بأي وسيلة من الوسائل، أو هذا ما سمع وارن أمه تقوله.

أما جوان فكان سلوكها حسن لأنها أتت على جلّ غدائها المكوَّن من البيض، وذهبت إلى قيلولتها من دون نحيب، والأهم من ذلك أنها تذكرت قول (لو سمحت، وشكراً) في حديثها. كما كان العراك في حده الأدنى اليوم. السيدة فليت، أم الأطفال، تحدثت بحدة مرة واحدة فقط إلى أليس. في بعض الأيام تشعر أليس أن أمها تحبها، وفي بعض الأيام الأخرى تشعر أنها لا تحبها. تريد أليس دائماً أن ترضي الكبار، لكنها لاحظت أن إصرارها على ذلك يولد لديها شعوراً بالأرق وازدراء الذات.

وأخيراً. يسقط الجزء العلوي من شطيرة لحم العجل في الطبق الزجاجي، محدثاً صوتاً خفيفاً. تنزع الباقي بالملعقة بواسطة مِلوَق ـ "سحقاً، سحقاً" ـ خبّأت الشرخ الذي في

الشطيرة تحت شرائح من الجبن المفلفل وطوق من خسّ الحديقة. ثم غُطي الطبق بعدها بورقة مشمع وأعيد إلى الثلاجة كي تبقى الشطيرة متماسكة حتى يحين موعد العشاء. تلقي السيدة فليت نظرة عجلى على ساعة المطبخ، وهي ساعة على شكل إبريق شاي له فم صغير مبتسم، وترى أن الساعة قد بلغت الخامسة والربع. تسحب نفساً عميقاً. "عليكم وضع دراجاتكم في مكانها في الكوخ"، تقول لأطفالها الثلاثة. "سيصل والدكم خلال لحظات".

حان الوقت الذي تختفي فيه عادةً "لتتأنق" قبيل العشاء. يثير اختفاؤها هذا دهشة وارن دائماً. ويعجب كيف أنها تختفي دائماً من دون أن يلاحظ اختفاءها الذي يبدو له وكأنه قضمة مسروقة من النهار. في لحظة تكون أمه واقفة هناك بثوبها المنزلي ووجهها المتعرّق، ثم في اللحظة التي تليها يراها في درندلها الأبيض والأحمر مع بلوزتها النظيفة البيضاء ذات الرباط المحيط بالعنق. شعرها مسرح ويعلو شفيتها أحمر شفاه بلون قرنفلي غامق لامع كثمرة عناب تمّ لعقها. تبدو كما لو أنها خرجت لتوها من صفحة إعلان، أو هذا ما يعتقده وارن ـ أنيقة، يملأ الوميض عينيها، شفتاها الحمراوان باسمتان، ويتخذ صوتها رنة انسيابية طليقة. ترتدي أحيانا أقراطاً فضية اللون تضغطان بشدة عن شحمتيّ أذنيها. لا يملك وارن إلا أن يفخر بها عندما تبدو هكذا، هابطةً الدرج المغطى بالسجاد بكامل أناقتها.

"التأنق" هو أحد التعابير التي تعود إلى صباها، وهو أحد تعابيرها المحلية الخاصة بإنديانا، كما يقول والدها. لديها أيضاً عدد من التعابير الغريبة الأخرى، كقولها "الاستلقاء قليلاً" بدلاً

من قول "قيلولة". في صوتها نبرة خاصة، أبطأ ولكنه أكثر صفاء من أصوات الأمهات الأخريات.

"عشاؤنا خفيف الليلة"، تقول لزوجها، وكأنها تريد أن تحدّ من توقعاته، "حواضر بسيطة فقط".

يأخذ صبيانيّتها حرفياً أحياناً، وأحياناً لا يفعل. يقبّل خدها، شاعرا بنظافته، ثم يقبّل رؤوس الأطفال، كلٍّ بدوره. هل ترتبط هذه الأجساد الصغيرة الوضّاءة بجسده حقاً؟ هل حقّاً يجري دمه الكهل في عروقهم الغضة؟ هل حقاً يتطابق نقيّ عظامهم مع نقيّ عظامه؟ يفوح من شعورهم المسرَّحة عبق أشعة الشمس والغبار. ابتساماتهم رقيقة لكنها مترددة. يتأثر بتعبير الخجل الذي يكسو وجوههم والذي لم يكن موجوداً عند تناول الفطور. يلمس عقدة ربطة عنقه الكتّانيّة، يفكر بنزعها قبل العشاء، ثمّ يقرر ألا يفعل.

إن عقود العزلة الجافة التي عاشها في الماضي جعلت منه متفرِّجاً داخل حياته ذاتها، حتى في هذه اللحظة، يراقب نفسه بعين ناقدة: ربّ أسرة، رجل يحيّي عائلته في نهاية يوم حافل بالعمل، يحدق في وجوه أطفاله ثم في الشرفة المزوّدة بحجاب منخليّ وراءهم، حيث أُعِدت مائدة العشاء. يسقط شعاع من ضوء الشمس على لوح الزاوية للباب المطوي للشرفة الخلفية، وهو يلاحظ ذلك بعين تكاد تكون إقطاعية، فهذا باب شرفته هو، ومثلثه الخاص به من الضوء الذهبي. "هل غسلت يديك؟" يسمع نفسه يسأل طفلته الأصغر سناً، فتمدّ يديها بصورة فورية كي يعاينهما، الراحتان نحو الأعلى. صغيرته جواني، ذات الخمسة أعوام ـ التي يحبس ترقّب اللحظة

أنفاسها، تلوي رسغيها، مستعدة للانفجار. "رائع"، يقول لها باستحسان، جاعلاً من عبارته إعلاناً، وسرّاً في الوقت نفسه، فتثب نحو الأعلى والأسفل على ساق واحدة ثم تقذف بجسدها في حركة دورانية لا مركزية، مما يذكّره بتلك الدمى التي كانت تأتي من اليابان قبل الحرب، ذات الزنبرك الذي يدار باليد.

"اهدئي يا حبيبتي"، يقول.

هل الصوت الذي يجري نحوها هو صوته؟ "ستصدمين رأسك بالمدخل".

"كلا، لن أفعل".

بالطبع لن تفعل.

إن المحادثة على مائدة عشاء آل فليت ليست متطلّبة. إذ لا يُطلب من الأطفال تقديم تقرير عن يومهم، أو مناقشة "الأحداث الراهنة" أو التكلم فقط باللغة الفرنسية، كما هو الحال لدى واحدة من أسر تورّينغتون كريسّينت، بل ينساب الحديث عفوياً، كم بلغت درجة الحرارة عند الظهر، ما الذي يتوجب فعله حيال المنّ الذي أصاب شجيرات الورد، ودور من اليوم في رفع الأطباق عن المائدة. تفلت تنهيدة خافتة من شفتيّ السيدة فليت (دايزي)، التي تشعر فجأة بالإنهاك، والتي تلاحظ رغماً عنها أنّ أحداً لم يطلب المزيد من رغيف لحم العجل، رغم أن هناك الكثير منه. "متعبة؟" يسألها زوجها (باركر) بسرعة. "إنه الحرّ"، تقول، وهي تحرك يدها المبسوطة كمروحة، وكأنّ ذلك سيفيد ـ وكأنّ ذلك سيعود بأي قدر من الفائدة ـ ويذكّرها بأنه من المتوقع أن يتحسن الطقس غداً، هذا ما تقوله جريدة المساء، بوصول رياح باردة من الغرب.

"ولذلك قد أؤجل جزّ عشب المرج حتى مساء الغد"، يقول.

ترمقه بنظرة تتعذّر قراءتها. هل هي رقّة؟ سخط؟

إنه فجأة أكبر سنّاً مما توقع أن يصبح يوماً. فبعد أشهر فقط سيبلغ الخامسة والستين من عمره ويُجبَر على التقاعد من إدارة معهد الأبحاث الزراعية. يتم الإعداد الآن لحفل وداع له، بخطابات وهدايا وكل أنواع الشّغب المرح ـ كما يُرَجَّح أن تسميها زوجته. ماذا سيفعل بعد ذلك؟ الفكرة تثير رعبه. فحين بلغ والده الخامسة والستين من عمره أصبح غريب الأطوار، إذ حزم أمتعته من دون أن ينطق ببنت شفة لأيّ شخص، وعاد إلى مسقط رأسه في جزر الأوكني، قاطعاً كل صِلاته بأسرته ـ هذا لا يعني طبعاً أنّ هذه الصِّلات كانت وثيقة يوماً. سيكون ذاك البائس المسنّ في الخامسة والثمانين من عمره الآن إذا كان ما يزال على قيد الحياة، لكن ذلك مشكوك فيه. لا شكّ أن رياح الشمال قد قضت عليه، أو سموم ذهنه، رغم أنهم يقولون إن الغضب يمكن أن يضمن استمرار نشاط الجسد. كيف تبدو هيئته الآن؟ لا يستطيع باركر فليت منع نفسه من التساؤل. لا يفصل بينهما سوى واحد وعشرين عاماً، مجرد واحد وعشرين عاماً. وما بدا يوماً هوةً سحيقةً تقلص الآن ليصبح بلا أهمية. لا شكّ أنّ بنيتيهما الجينيّة، هو ووالده، متطابقتان تقريباً، أطراف طويلة، شعر خشن داكن اللون، وفم حزين. لا شيء يفصل بينهما الآن سوى الجغرافيا، ولولا عرض المحيط الأطلسي، لتَمَكَّنا من الوقوف جنباً إلى جنب في شيخوختيهما، أشبه بشقيقين منهما بوالد وولده، وقد رقّ قوام دمهما ليصبح كالماء، وضعفت أطرافهما بفعل البطالة والكسل .

البطالة: الفكرة تثير رعبه، بقدر ما تثير رعبه ميوله القديمة: العزلة، الصمت.

ماذا يحدث للرجال عندما يُجَرَّدون من عملهم؟ يفكِّر باركر فليت بحميه، سايلور غودويل، الذي، رغم أنه في صحة جيدة، اختُزِل إلى فراغ وتفاهة السفر، والحماس المزيف لمشاريع الفناء الخلفيّ. لا، لن يسمح لنفسه بالانزلاق إلى هذا النوع من الخرف. اقترح عدد من الأصدقاء اللطفاء أن يكتب سيرته الذاتية، ولكن، لا، فقد مُهِّدَت سطوح حياته وصُقِلت بفعل السنين لدرجة أصبح القبض عليها شبه مستحيل. فمن أين يبدأ؟ بدلاً من ذلك، سيعمل على مجموعته من نبات خفّ السيدة، فهو لم يُضف عينة جديدة منذ سنوات. وهناك أيضاً مقالات عدة يرغب بكتابتها منذ زمن، وهناك أيضاً أمر آخر ـ أقل أكاديميةً بكثير ـ فقد طلب منه رئيس تحرير أوتاوا ريكوردر بأن يساهم بمقالة أو اثنتين، أو ربما بعمود أسبوعيّ، حول البستنة في منطقة أوتاوا ـ كارلتون. سيعود إلى عادته القديمة في اصطحاب الأطفال في جولات على الأقدام في عطل نهاية الأسبوع، وامتحانهم وهم يتجولون في الشوارع الهادئة، حول الأسماء الشائعة للأشجار والشجيرات. لا يعرف لماذا تعجز ذريّته هذه عن تذكر هذه المعلومات البسيطة حول عالم الطبيعة.

يعجب، في الواقع، بماذا يملأون رؤوسهم. ويعجب، أيضاً، ما إذا كان الخجل ينتابهم عند ظهورهم مع والد مسنّ مثله. رجل مسنّ بما يكفي ليكون جدهم، رجل عاصر حربين عالميتين ولم يخض أيّاً منهما. رجل لا يشارك أبداً في أي لعبة كرة يد في الفناء الخلفي. ونادراً ما يؤرجحهم عالياً في الهواء

أو يملأ آذانهم بالهراء ساعة يأوون إلى الفراش. رجل متعب لدرجة تمنعه من جزّ مرجه في نهاية النهار.

سينتهي هذا اليوم في الساعة الحادية عشرة بالنسبة لعائلة فليت. سيأوي الأطفال إلى فراشهم قبل ذلك بوقت طويل، بالطبع، وستغطيهم ملاءات خفيفة فقط، لكنّ بطانيةً ستمكث مطويّةً على شكل مروحة عند قدميّ كل منهم، جاهزة كي تقيهم برد ساعات الصباح الباكر. وسيكون القمر قد ارتفع، درّاقةً مستديرة شاحبةً في نوافذهم. أغصان الدردار تمسّ الحجاب المنخليّ، سينفذ الصوت الشبيه بالهمس إلى أحلامهم مباشرة. يا لعذوبة الهواء. يا للفردوس، هذه المدينة الشمالية في منتصف فصل الصيف. يا للنعمة التي تغمر أفراد عائلة فليت، رغم فارق السنّ بينهما، رغم أفكارهما المخبّأة، وحقيقة أنه لا يوجد الكثير من الأشياء المشتركة بينهما.

يستقر السيد والسيدة باركر فليت في سريرهما المزدوج ذي اللوحة الرأسية من طراز هوليوود، هو مع العدد الأخير من بوتانيكال جورنال (مجلة عالم النبات)، وهي تقلّب صفحات مجلة بتر هومز آند غاردنز (من أجل منزل وحديقة أفضل). الطمأنينة، الاحتشام والانسجام. بعد ذلك بنصف ساعة، وكأنّ جرساً يدعوهما إلى ذلك، يستديران كلاهما، يطوق كل منهما الآخر بحرارة، ويمد ذراعه نحو المفتاح الكهربائي. ويغفوان بسهولة رغم الحر، وكل منهما تملؤه الثقة بالآخر، ولكن هذا متوقع، أليس كذلك؟

نومهما، يروق لباركر فليت أن يعتقد، مصنوع من مادة أكثر كثافة ونعومة من نوم الآخرين. يترك انطباعاً بالنظافة مثل صوف

مغسول. هل هذا هو الحبّ، يتساءل، هذا الجوهر الذي يتمدد حارّاً بينهما، لونه حياديّ لكنه محسوس لدرجة أنه لا حاجة للإشارة إليه أبداً؟ أم أنّ الحب شيء أقل من ذلك، شيء غامض وعديم الرائحة، غاز شفاف يجوب العالم على ظهر نسمة، أو أنه ـ وهذا ما يعتقده أكثر فأكثر ـ مجرد كلمة تحاول تذكّر كلمة أخرى.

يحلم بطحالب متشابكة على حافة بحيرة، بثدييّ فتاة صغيرة، بذروتيهما الصلبتين، بحيوان أشعث هائل الحجم يطارده عبر شوارع مدينة مجهولة.

اليس

لقد شرحت أم أليس لها أسرار التناسل. هذه أخبار فظيعة، مثيرة للاشمئزاز بكل حذافيرها، عضو الرجل يقتحم فرج المرأة. الشرح، الذي قدِّم خلال جلسة متوترة طويلة الأمد على طاولة المطبخ، أكثر إثارة للاشمئزاز من التفسير الذي سمعته أليس من بيلي رابي الذي يسكن في المنزل المجاور، فبحسب رواية بيلي، الرجل يتبول داخل السيدة.

"كلا"، تقول والدة أليس بحزم، فهذا ـ تتوقف للحظة ـ "هذا الأمر لا علاقة له بالتبول. السائل المعنيّ يحتوي على البذور التي تحتاجها الأم كي ينمو طفل في أحشائها".

التطبيق العملي لهذا التبادل يبدو بغيضاً لأليس.

"الأم والأب يستلقيان في سريرهما"، تقول أمها لها، بتنهيدة، "وذراعا كل منهما تطوقان الآخر".

"متى؟" تسأل أليس. لصوتها وقع أجشّ على أذنها.

يكسو وجه السيدة فليت تعبير غاضب عند سماع هذا

السؤال، وتظهر الخطوط الثلاثة بين عينيها كمروحة، لكنها تتنحنح ثم تقول، "حسناً، يحدث ذلك عادة أثناء الليل".

"في الليل؟ هنا؟ في بيتنا؟".

"أليس!" أمها الآن تحدق في البشرة المحيطة بأظافرها. الساعة الصغيرة على شكل إبريق الشاي، المعلّقة فوق الموقد، تشير إلى الثالثة والنصف. ويمكث قالب حلوى جوز الهند، أبيض اللون زُيّن لتوه، فوق طبق زجاجي وردي اللون.

"حسناً؟" أليس تريد جواباً، لا تريد أن يقف الحديث عند هذا الحد.

"لا أعرف ما يتوجب علي أن أقول يا أليس. ولا تروقني الطريقة التي تتكلمين بها، ولا يعجبني موقفك، وعبوسك".

يصبح الأمر أسوأ فأسوأ. لكن أليس تعجز عن منع نفسها. "إنه أمر مقزّز. ما الذي يجعل أي شخص يفعل شيئا مقزّزاً كهذا؟"

"أليس..".

"إنه أمر بغيض".

"كلا. ليس أمراً بغيضاً. إنه شيء جميل بين رجل وامرأة".

"هذا يثير الغثيان في نفسي".

"حسن، عليك فقط أن تصدقيني، إنه شيء جميلٌ جميل".

تشعر أليس بتشنج في أحشائها لكنها تنجح في السيطرة على صوتها. لقد أُفسد النهار الصيفي الصافي. لا شيء سيعود إلى سابق عهده بعد الآن. أصبح البيت مدنّسا، وبخاصة غرفة

نوم والديها في الطابق العلوي برائحة البودرة الغامضة المبتذلة التي تنبعث منها والفراش الكبير بحشيته الصلبة ولوحه الرأسيّ المزخرف بعناقيد. الرجال والنساء نجسون، كل هذا غريب وبشع، أمها التي ترتدي ثيابها في غرفة الملابس، تاركةً الباب مفتوحاً قليلاً من أجل دخول الضوء، بينما تسحب سروالها الداخليّ ومشدّها نحو الأعلى، ظهرها نحو الباب، وتثبّت جوربيها الشفافين. أمها، في الواقع، تفتح جسدها في الليل أمام ذاك الجزء المشعر القاتم من جسد والدها ـ لمحت أليس هذا الجزء القاتم مراراً ـ وتسمح بحدوث هذا الأمر الذي لا يوصف. الأمر برمّته يشبه نكتة بذيئة، النكتة الأكثر بذاءة التي سبق لها أن سمعتها.

جميل، تصف أمها هذا الفعل، ولكنها تحدثت مطولاً أيضاً حول التماثيل العارية في المتحف الفني، واصفة إياها بأنها جميلة أيضاً.

ولا بد أن الآخرين يفعلون ذلك أيضاً ـ السيدة رابي، السيدة هاسل، معلمتها السيدة سترونغ. ماذا عن إيثر ويليامز، أو ديبورا كير أو ملك وملكة بريطانيا؟ ربما حتى جدتي غودويل في إنديانا. هي وجدي.

"هل"، تسأل أمها بحذر، "تستمر السيدات في فعل ذلك حتى عندما لا يرغبن بالمزيد من الأطفال؟".

"في الواقع"، ـ توقف طويل الأمد ـ "في الواقع، البعض يستمر في فعل ذلك والبعض لا يستمر".

تشعر أليس بأن الغرفة تدور بها. جلست ووالدتها إلى الطاولة برغبة صادقة من كلتيهما، وهما مصممتان على سبر

غور ما كان بيلي رابي ينشره في الحي. ولكن يبدو أن المناقشة الآن تقترب من نهايتها. أمها تنكش حول ظفر إبهامها، وتنتزع نثرة من الجلد، ثم تلقي نظرة سريعة على النافذة حيث تتلاعب الريح بالستارة وتدفعها نحو الداخل. تشعر أليس بأنه سيسمح لها بطرح سؤال واحد آخر.

" وهل ما زلت أنت ـ وبابا ـ تفعلان ذلك؟ " .

"في الواقع ـ "

تحبس أليس أنفاسها وتنتظر.

"في الواقع، نعم"، تسمع، ثم تنطق أمها بإضافة محكمة شجاعة تبدو وكأنها شُدت بإحكام مثل خيط إغلاق كيس، "أحياناً" .

أليس ستتقيأ حساء كريمة الهليون الذي تناولته وقت الغداء، هي واثقة من ذلك. وتتساءل ما إذا كان عليها الوقوف قرب حوض المطبخ كي تتفادى إثارة الفوضى.

"ولكن، أليس، يجب أن تعديني بأن لا تخبري وارن وجوان بأي شيء حول ما تكلمنا عنه. ليس قبل أن يصلوا إلى عمر يؤهلهم لفهم ذلك" .

وارن وجوان يلعبان ملوك وملكات في الحديقة الخلفية. أليس تسمع وارن عبر باب الشرفة وهو يصرخ على جوان كي تحضر تاجه وتسمع جوان تصرخ، "سمعاً وطاعة يا صاحب الجلالة، ها هو ذا، يا صاحب الجلالة" .

اليوم هو دور أليس كي تكون الملكة، لكنها لا ترغب في الخروج من البيت هذا المساء. ليلعبا ما يروق لهما من ألعاب.

إنها تحبهما، تحب أخاها وأختها، لم تدرك قبل الآن كم تحبهما. إنهما صحيحا الجسد، جميلان، رائعان، لم تُخدش مشاعرهما بمعرفة معلومات فظيعة. وسيتمكنان من الاستمرار في النظر إلى وجهَيّ أمهما وأبيهما، سيتمكنان من النظر إلى وجهيهما مباشرة والابتسام والحديث والاستمرار كما لو أن شيئاً لم يحدث.

وارن

"كم عمركِ؟" يسأل وارن أمه.

إنها الآن تطوي الملاءات وأغطية الوسائد ومناشف المطبخ فوق طاولة غرفة الطعام. "أنا أعرف ولكن عليك أن تستنتج ذلك بنفسك".

"حسناً، في أي عام وُلِدتِ؟".

تتفكّر قليلاً، ثم تقول، "١٩٠٥".

"ونحن الآن في العام ١٩٤٧".

"نعم".

يفكر في الأمر قليلاً. "في أيّ عام وُلِدتُ أنا؟" سبق له أن طرح هذا السؤال، مرات كثيرة، لكنه دائماً ينسى الجواب.

"ولدتَ عام ١٩٤٠. في الأيام الأولى للحرب". الآن يتذكر لماذا يستمر في مضايقة أمه بتكرار طرح السؤال نفسه. كي يسمع ذاك التعبير الراعش ـ في الأيام الأولى للحرب. صورة شمس ساعة الشروق تسبح أمام عينيه، لونها أحمر دامٍ مثل العلم الياباني الذي يعلقه بيلي رابي على جدار غرفة نومه. ويتخيل، أيضاً، صمتاً ليلياً متوتراً مترقباً، يقطعه الصوت

المرتفع لإطلاق النار المتكرر، ويعزز كل هذا الضجيج المتقطع هدير المدافع البعيد المدوّي. إنها الحرب. الحرب العالمية الثانية.

"هل كان ذلك عندما وقعت حادثة بيرل هاربر؟" يحب الكلمات: بيرل هاربر. ويحب نفسه لأنه يتذكرها، لأنه يلفظها بصورة صحيحة.

"كان ذلك قبل بيرل هاربر، قبلها بعام كامل".

"لماذا وُلِدتُ حينها؟" يسأل.

"لأنكَ فعلت".

"ولدَت أليس قبل الحرب".

"نعم".

"وجوان، ماذا عن جوان؟"

تقلص رأس أمه بشدة اليوم بصفوف من لفافات الشعر. دبابيس الشعر تلتقط وميض الضوء عبر المشربيّة. إنها تحصي أغطية الوسائد. يرى لسانها يعلن الأرقام بينما ينتقل إبهامها نزولاً عبر كومة مرتبة ـ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. "جوان؟" تقول، شاردة الذهن، "ولدت جوان في منتصف الحرب".

الحرب تشبه نهراً فاتراً عريضاً بنّي اللون يسبح فيه العالم، أما الآن، ومنذ النصر، ليس هناك من شيء. لا يبدو السلام مختلفاً كثيراً بالنسبة لوارن. فجسده هو الجسد نفسه الذي كان له دوماً، نفس الذقن المحكوكة والركبتين المكشوطتين والقدمين النحيلتين، ووجهه كما يبدو في مرآة الردهة ما زال له

ذاك المظهر الدائريّ المشدوه، لكنه يستيقظ أحياناً في الليل على آلام في بطنه ويستنجد بأمه، التي تقدم له كأساً من شرابٍ غازيٍّ ما وتقول له بأنه يعاني من عسر الهضم، وبأنه لولا ازدراده لطعامه بتلك السرعة، لكان الآن بأفضل حال، لكنه يعلم أن الحرب هي التي تسبب له آلاماً في البطن، وحقيقة أن الحرب قد انتهت ولم يبق من شيء يدعمه ويبقيه مبتهجاً ونشطاً.

هو وأليس وجوان متصلون ببعضهم كاتصال الدمى التي تقصّها أليس من أوراق الجريدة ، هكذا يرى نفسه وأختيه. هو مستقر هناك في الوسط، دوماً في الوسط، الشخص الذي وُلِد في أول أيام الحرب، تلك هي الفكرة التي عليه أن يتمسك بها. هناك ما هو مثير حول هذه الحقيقة، وفيها تقدير وإجلال أيضاً، مكان مُدَّخَر من أجله، من أجل وارن ماغنوس فليت، الذي ولد أثناء الفجر الدّامي للحرب .

يكاد لا يفكر بالمستقبل أبداً، رغم أنه يدرك بصورة غير واضحة انه سيكبر في النهاية، وسيمشط شعره إلى الوراء بعد ترطيبه، وسينضم إلى الفتيان الكبار الذين يلعبون بيغي موف أب في الزقاق الخلفي. ويخطر له فجأة أن طفلاً آخر قد يولد لعائلته، طفل ما بعد الحرب، لا يستطيع أن يتخيل لماذا لم يفكر بهذا الاحتمال من قبل، وينتابه شعور بالغثيان كما يحدث عادةً قبيل شعوره بآلام البطن التي تنتابه. يفكر بأن يسأل أمه حول احتمال قدوم طفل جديد، لكن السؤال يبدو مضحكاً. لا يهتدي إلى طريقة لمقاربة الموضوع، أو إلى الكلمات التي يمكن أن يستخدمها. قد تسخر أمه منه، وقد تضع المناشف

التي تطويها جانباً وتقول، نعم، سيكون هناك طفل جديد في العائلة، ما الذي كان يتوقعه!

من شأن طفل جديد أن يفسد كل شيء، أين سينام؟ ما الاسم الذي سيطلقونه عليه؟ سيولد ضعيفاً، بلا عضلات، سيكون من الضعف والمرض والضياع بحيث أنه لن يبقى على قيد الحياة.

يبدو أن أمه تقرأ أفكاره. لقد فعلت ذلك من قبل وهي تفعل ذلك مجددا في هذا المساء الصيفي الذي يثير النعاس. "أنا ووالدك مسنّان لدرجة تجعلنا غير قادرين على إنجاب المزيد من الأطفال"، تقول.

بعد سماعه ذلك، يستولي عليه شعور بالسعادة، ليس بسبب تأكيدها بأنه لن يكون هناك أي طفل ما ـ بعد ـ الحرب، بل لأن أمه قدمت هذه المعلومات بلهجة هادئة جادة لم يسمعها منها من قبل. لقد اختفى صوتها الساخر، اختفى توبيخها وتملقها المعتاد، واختفت نبرتها المتغنية، المهمهمة والمسَقسِقة. ينبثق هذا الصوت عبر الأصوات الأخرى، انحراف عن المألوف، لكنه مع ذلك يدرك تواً بأنه يسمع، ربما للمرة الأولى، ذاتها الحقيقة تتكلم. "ماذا؟" يقول.

"تقصد (عفواً؟)".

"عفواً".

تنظر إليه باهتمام، تقدِّره، وتكرر ما قالته. "أنا ووالدك مسنّان لدرجة تجعلنا غير قادرين على إنجاب المزيد من الأطفال".

جوان مليئة بالأسرار لدرجة تجعلها تعتقد أحياناً بأنها على وشك الانفجار. تنحني أمها أثناء وضعها في الفراش، وتقبلها على كلا الخدين وتقول، "حبيبتي"، ولا تتخيل أبداً كل تلك الأسرار التي تملأ رأس ابنتها الصغيرة.

منذ الآن، في الخامسة من عمرها، تدرك جوان أنه مقدَّر لها أن تحيا حياتين، كينونة مرئية لمن حولها وأخرى تزهر سرّاً داخل رأسها.

إنها تعرف حقائق من كل نوع، حقائق لا يمكن لأحد أن يتخيلها.

الراديو، على سبيل المثال. تمكنت في أحد الأيام في غرفة الجلوس من أن تحشر نفسها في ذاك المكان الضيق المليء بالغبار وراء خزانة راديو نورثرن إلكتريك، وهو راديو يصفه والدها بأنه من زمن ما قبل الحرب، وألقت نظرة عبر الشبك الذي يظهر الأضواء الحمراء الغامضة لقرية تقع على سفح تلّ. وهي، بالطبع، لم تخبر أحداً عن هذا، عدا همسة أو أكثر في أذن أمها.

لقد اكتشفت كيف تملأ لحظة فراغ، إذا صادفتها واحدة. عندما لا يكون لديها ما تفعله، بمقدورها دوماً أن تمشي إلى المنعطف حيث يلتقي شارع تورّينغتون كريسّينت مع درايف واي، وهناك، أمام المنزل الكبير البنّي للسيدة بريغمان، تستطيع أن تتدحرج على سفح التل المكوّم المعشب الذي يمتدّ عبر الزقاق الأمامي. لم ينهها أحد عن فعل ذلك، يبدو أن الأمر لم يخطر على بال أحد. يتفق أنها قلّما تذهب إلى المنعطف كي

تتدحرج على سفح التل، لكنها تحبّ أن تحتفظ بهذه الإمكانية. أو يمكنها أن تثب على ساق واحدة عبر الممر الجانبي أمام منزلها. منحها تعلّم الوثب شعوراً بالسيطرة على حياتها. فكلما شعرت بالحزن تتحوّل إلى طريقة المشي البهيجة هذه، حيث تنزلق، ثم تثب، ثم تنزلق مجدداً. أثناء قيامها بذلك، يبدو رأسها وكأنه منفصل عن جسدها، مما يجعلها تشعر بالدوار وبأن رأسها قد أُفرِغ من الأفكار. هل يوجد شخص آخر في العالم كله يعرف هذه الحيلة، تَعجَب. ربما لا، رغم أن أمها تلوح لها أحياناً عبر النافذة، تلوح وتبتسم.

هناك رسم من نوع ديكال ـ بجعة سوداء تسبح عبر قصبٍ أخضر ـ منقول إلى غطاء سلة الغسيل في غرفة الحمام. تتذكر أنها رأت أمها وهي تضيف هذه الزخرفة، تنقع أولاً رسم الديكال في الماء، ثم تنزع البطانة الخلفيّة الشفافة بإتقان، وتضع البجعة في مركز الغطاء المفصل، ثم تمسحه بقطعة قماش رطبة. أحست جوان بأنها كانت لحظة جميلة. لكنها، مع ذلك، وكلما وجدت نفسها وحيدة في غرفة الحمام، تحكّ البجعة بظفر إبهامها. تمكنت حتى الآن من تحرير الحواف كلها، وتتوقع أن تواجه الاتهام في أي لحظة، رغم أنها في الوقت نفسه تعرف أنها مفعمة بالطاقة، وقادرة على الإفلات من أي خطر.

ابنة اخ زوج السيدة فليت

يبدو أن أطفال السيدة فليت في شجار دائم ـ أو هذا هو انطباعها على كل حال. تقول أن هذا يحطم قلبها، هي التي نشأت دون أي إخوة أو أخوات تلعب معهم.

ولكن، في الواقع، أليس، وارن، وجوان يمرون بفترات

طويلة من الانسجام، وخصوصاً في أوقات الصيف، عندما يذهب أطفال الحي لقضاء العطلة بعيداً. ينهمك الأطفال الثلاثة في ألعاب ومشاريع بناء معقدة ـ ففي الأسبوع الماضي فقط علقوا البطانيات كستائر لتعريشة العنب وفرشوا الفراغ الداخلي للخيمة التي تشكلت بألواح كرتونية و صناديق البرتقال وقطع من القماش من خزانة الخياطة الخاصة بوالدتهم. هنا، في الضوء المفلتر الخافت، يستهلكون بسكويت غراهام المملح وفناجين من الماء المثلج ويسقطون في حنين سلميّ، وهم الثلاثة راكعين حول صندوق برتقال قلبوه رأساً على عقب وحولوه إلى طاولة.

يا لروعة حنينهم هذا، كلٌّ منهم يستشعر عمقه وصفاءه، يسترسلون في حديثهم، وتنقضي فترة ما بعد الظهر وهم يتناوبون على ترديد ومقارنة ذكرياتهم المشتركة، تنتابهم متعة تجعلهم يرتعشون كلما انكشف جزء جديد من الماضي. يرون أن العيش داخل هذه المغامرات القديمة أمر ممتع. أتذكرون السباحة في بحيرة بوفالو، أتذكرون كم كان القاع رملياً وكم كان الماء دافئاً كماء حوض الاستحمام وكيف ذهبنا بعد ذلك إلى نافورة غازية للسباحة في حوضها ذي المياه الغازية. أتذكرون ركوبنا قي القلّيبة (الدولاب العملاق) في مدينة الملاهي بعد ذلك، وكيف تحول لون جوان إلى الأخضر. ("هل حدث ذلك لي حقّاً؟" تَعجَب، سعيدةً بالفكرة). أتذكرون زيارتنا للسيد رايتمان الذي كان يتنفس بمساعدة مَنفَسة، واللعاب يسيل من فمه من دون أن يلاحظ حتى. هل تتذكرون عندما سقط بيلي رابي عن دراجته الهوائية في الزقاق الخلفي وفقد سنّه الأمامي، ونقلته والدته بسيارتها إلى

المستشفى، كيف غطى الدم مقعد السيارة الخلفي ولم يتمكنوا من إزالة آثاره أبداً؟ هل تذكرون عندما خضنا حرب قشور ثمار ضد آل جاكسون، وكيف اضطرت السيدة جاكسون إلى قصّ شعرها للتخلص من قشور الثمار، شعرها الذهبيّ الطويل الجميل، الذي يليق بأميرة.

على حافة كل تجربة يكمن ضوء الذاكرة المنكسر، عالق هناك مثل صورة في مرآة مائلة.

أليس هي التي تستهلّ عملية استرجاع الذكريات، متحمسةً ونزّاعةً إلى السيطرة، ووارن وجوان يضيفان بعض التفاصيل، يصادقان على ما تقول، ويعززانه، ويختلقان بعض التفاصيل أيضاً. حرارة قصصهم وتوهّجها تثير القشعريرة في أجسادهم، وازدواجية ذكرياتهم تشيع الرهبة في نفوسهم. لسيطرة هذه الذكريات عليهم غموضُ خطوط الهاتف أو الهالة المحيطة بهامة عيسى المسيح الطفل. كان بمقدورهم ثقب الذاكرة بعود، وتذوقها في أفواههم وكأنها شراب غازيّ، من دون أن يشعروا أبداً بالاكتفاء.

هل تذكرون عندما جاءت ابنة عمنا، بيفرلي، لزيارتنا؟ كانوا دوماً يصلون في النهاية إلى زيارة ابنة عمهم، بيفرلي، وهي زيارة وقعت في الماضي البعيد، منذ عام مضى، وربما عامين.

لم يكن أحد يعلم بأنها قادمة. وصلت بصورة مفاجئة في مساء يوم خريفيّ، مرتديةً زيّها الرسميّ، قرعت الجرس، جرس الباب الخارجي، وقالت، "مرحباً، أنا ابنة عمكم، بيفرلي، من ساسكاتشوان".

كانوا قد سمعوا عن بيفرلي بالطبع، وهي واحدة من بنات عمّهم الستّ ـ أسماء الخمس الأخريات هي: جوانيتا، روزالي، آرلين، ليليان ودافني. يُقِمن في مكان يُدعى كلايماكس، ساسكاتشوان. أمهنّ هي الخالة فان المتزوجة من العم أندرو، شقيق والدهم، وهو قسّ في كنيسة معمدانيّة. في عيد الميلاد من كلّ عام، تعدّ السيدة فليت، والدة الأطفال، طرداً بريدياً كبير الحجم من أجل بنات العم في ساسكاتشوان ـ لعبة جديدة، قمصان نوم مصنوعة من الفلانيلة، قفازات صوفية، قالب حلوى مستدير كبير الحجم محشو بالفواكه ـ وفي كل مرة، أثناء لصق البطاقات الصغيرة التي تحمل الأسماء، تهز رأسها وتقول، "تلك الأسرة، يبدو أنها لا تحقق أي تقدم".

والآن، ها هي بيفرلي، فتاة راشدة ـ أطفال عائلة فليت لم يتوقعوا ذلك. جلست في وسط الصّوفا واحتست كوباً من الشاي. "هذا لذيذ"، قالت لزوجة عمها بصوت أنيس مرح، وكأن كلا منهما تعرف الأخرى جيداً، وكأنهما كثيراً ما جلستا معاً لاحتساء الشاي كما تفعلان الآن. جلست أليس ووارن إلى جانبيها. (أين كان والدهم في ذاك المساء؟ ربما في تورنتو، أو مونتريال ـ كان دائماً، على ما يبدو، يصعد إلى قطار ويختفي لعدة أيام).

مكثت قبعة ابنة العم بيفرلي فوق شعرها، لكن ذلك لم يمنعهم من ملاحظة أن رأسها محاط بشعر قصير ملتف كالنوابض، ربما كان مُسَرَّحاً بهذه الطريقة، وربما كان طبيعياً مثل شعر شيرلي تيمبل. لقد عادت لتوها من إنكلترا حيث كانت "في قلب المعمعة". ضحكت بصوت عالٍ عندما قالت ذلك، عن كونها في قلب المعمعة. "يا إلهي"، قالت وهي لا تزال

تضحك، "هل حظينا بلحظة كي نغمض أعيننا".

سمحت لأليس أن تقيس قبعتها. كان عليها تثبيتها بدبابيس الشعر، لكنها لم تمانع ذلك على الإطلاق. "تبدين فاتنة"، قالت لها، "دمية حيّة حقيقية".

"هل أنقذت حياة أحد؟" سألها وارن. قال ذلك همساً في البداية ثم كان عليه أن يكرر سؤاله بصوت أعلى.

ضحكت مباشرة. "في الواقع، أنقذت نفسي أكثر من مرة". هل كان هذا جواباً بارعاً؟ لم تكن أليس متأكدة من ذلك.

لكن وجه ابنة العم بيفرلي سرعان ما فقد مسحة البراعة تلك. وانتابها الحزن لدقائق عدة، وهي تخبرهم عن الجنود يوم الهجوم، وعن مهمات الطيران في الظلام، ورمي القنابل على الأعداء. ثم أخبرتهم عن رجل أسقِطت طائرته فوق القناة الإنكليزية. "يا للمسكين"، قالت، "لم يتمكن من العثور على رباط مظلته لسببٍ ما، وعندما عثروا على جثته وجدوا أنه فتح ثقباً في سترته الجلدية، كان يبحث عن الرباط بجهدٍ بالغ".

يدٌ بشرية تفتح ثقباً في سترة جلدية! خلال دقيقة أو اثنتين من اليأس أثناء السقوط عبر السماء! كيف نفسر شيئاً كهذا؟ في الواقع، كان ذلك معجزةً من نوعٍ ما، قالت ابنة العم بيفرلي، رغم أنها ليست معجزة سعيدة مثلَ معظم المعجزات. رجل آخر فقد كلتا ساقيه في انفجار، لكنه على الأقل بقي على قيد الحياة، على الأقل لم يتناثر رأسه كالثريد كما حدث لشاب آخر كانت تعرفه.

كانوا على استعداد للإصغاء طوال اليوم إلى ابنة العمّ بيفرلي وهي تتحدث حول الحرب، لكنّ أمهم قاطعتها.

"أخبريني عن أحوال والديكِ"، قالت، "وأحوال أخواتك في الوطن". ثم أضافت، قولي لي، متى يغادر قطارك؟ نريد أن نضمن وصولك إلى المحطة من دون تأخير".

لم تتمكن أليس بعدئذٍ من التوقف عن التفكير بابنة العم بيفرلي. واستمرت زيارة ابنة العم بيفرلي في عرض متواصل في ذهنها مثل فيلم سينمائي. جمالها. شعرها ذو الالتفافات. فمها الأحمر. جوربها البرونز وحذاؤها الملمّع. زيها ذو التنورة القصيرة، قهقهاتها السريعة، طريقتها في هزّ كتفيها الصغيرين أثناء حديثها عن سقوط الطيار عبر السماء، وعن فتحهِ لثغرة في سترته الجلدية. كانت ابنة العم بيفرلي شخصاً في جعبته قصص فظيعة، ومع ذلك هي قادرة على أن تتجول في العالم وتكون مرحة وذكية. لقد وصلت من دون إعلان، ومشت على طول شارعهم وقرعت جرس الباب الخارجي لمنزلهم وقالت: ها أنا ذي. ولكنها، خلال وقت قصير جداً ـ ساعة أو ساعتين ـ كانت قد غادرت. ("وداعاً يا أولاد، أراكم في الأفلام"). كم تبعد ساسكاتشوان من مسافة؟ يبدو أن أليس، وهي مستلقية في فراشها ليلاً، تسمع أزيز المسافات الطويلة، فراغ متذبذب. تتخيل أنها تشتمّ رائحة موجة متدفقة من هواء ساسكاتشوان، عبق التوابل والبرد.

"هل ستعود ابنة العم، بيفرلي، لزيارتنا يوماً؟" سألت أليس أمها مرة. ولسببٍ ما، استغرقت وقتاً طويلا لفتح هذا الموضوع.

"لن أراهن على ذلك"، قالت السيدة فليت ببطء.

"أليست رائعة"، همست أليس.

"في الواقع، قالت السيدة فليت أخيراً، "تتميز بقدر كبير من الفتنة والحيوية على كل حال" . قالت ذلك، ثم نظرت نحو الأعلى مثل شخص يحاول أن يتذكر نهاية قصة قديمة، ثم تنهدت تنهيدة طويلة.

عندما تنظر أليس إلى تلك التنهيدة، أو حولها، تشعر أنه صوت مؤدِّب، وأن هناك جانباً قد بقي محجوباً، معلومة هامة تمّ الاحتفاظ بها إلى حين "بلوغها العمر المناسب" . الكوابيس، الخزي، تكشّف الأشياء، المحاكمة العقلية، ضغوط الإخفاق ـ كل ذلك في انتظارها. لا تستطيع تحمل التفكير بالمستقبل. يشبه الأمر تركيز انتباهك على تنفسك: فحالما تبدأ بالتفكير حول الهواء الذي يدخل إلى صدرك ويخرج منه، سيتعثر تنفسك داخل حلقك، إلى حد سيجعلك تدرك كم هو أمر سهل أن تقع أرضاً وتموت.

رسالة مطوية داخل درج خزانة السيدة فليت

عزيزتي دايزي،

أكتب كي أُعلمك أن ابنتنا بيفرلي وصلت بعد ظهر البارحة بعد رحلتها الطويلة في القطار، كان القطار مكتظاً بالجنود المتجهين إلى مَواطنهم ثم تعطلت التدفئة قرب وينبيغ فأصيبت بزكام شديد، سيلان في الأنف والتهاب في الحلق. يجب أن أخبرك بأن المعاملة التي لاقتها في منزلك قد جرحت مشاعرها، حيث أنها لم تُدعَ للبقاء حتى موعد العشاء ولم يُعرض عليها المبيت حتى الصباح، بل تمّ استعجالها للمغادرة وكأنها سكّير متطفل، أو هذا ما شعرت به على كل حال. ربما كانت الأحداث ستتخذ مساراً مختلفاً لو كان عمها حاضراً، من

يدري. ربما لو أنها استقلت قطار الصباح لما انتهت مريضة كما هي الآن. إنها تعجز عن فهم الأمر، فقد ظننت أنك ستكونين في غاية السعادة بلقاء ابنة أخ زوجك القادمة من الغرب والتي لم يسبق أن وقع نظرك عليها من قبل، وبخاصة أنها قد خدمت وطنها. أنا ووالدها نعجز أيضاً عن فهم ما حصل، ربما كانت العادات في شرق البلاد مختلفة عن عاداتنا هنا حيث نرحب بالجميع.

المخلصة، امرأة أخ زوجك

فان فليت

والد السيدة فليت، المسن

يبلغ سايلور غودويل السبعين من عمره، العمر الذي يتميز بالتعلق الشديد، وزوجته ماريا (وهي زوجته الثانية) قد احتفلت لتوّها بعيد ميلادها ال...في الواقع، لا أحد يعرف عمر ماريا الحقيقي. السيد غودويل، ناحت حجارة محترف، ثمّ، بعد ذلك، رجل أعمال شهير في ولاية إنديانا، هو الآن متقاعد. باع وزوجته مؤخراً بيتهم القديم الجميل في بلومينغتون واشتريا منزلاً صغيراً في ليك ليمون (بحيرة الليمون)، على بعد خمسة وعشرين ميلا عن تخوم المدينة. لماذا باعا منزلهما المريح واستبدلاه بهذا المنزل الريفي الصغير على ضفاف البحيرة؟ لأن ماريا أرادت أن تقيم في الريف حيث يمكنها زراعة الخضار في حديقتها الأمامية من دون أي شكوى من الجيران. ولأن سايلور غودويل أراد أن يكون لديه حديقة خلفية واسعة حيث يمكنه أن يبني هرماً.

يخطط لبناء هرمه منذ عام كامل، منذ عودته وماريا من إبحارهما عبر النيل. أثناء وجوده في مصر، كان يرسل بطاقات بريدية كل يوم تقريباً إلى أحفاده في أوتاوا، كندا. "عزيزتي أليس (أو وارن أو جوان)، يجب أن تروا الأهرامات التي لديهم هنا. الهرم الأكبر مكون من مليونيّ قطعة من الحجر الكلسيّ، وتزن كل قطعة طِنّان ونصف.

كتب رسالة لابنته، دايزي، أخبرها فيها أن الشكل الكلاسيكي للهرم يقوم على مبدأ انتشار أشعة الشمس أثناء سقوطها على الأرض.

"هراء"، قال زوج دايزي، "أشعة الشمس تسقط مباشرة نحو الأسفل، ولا تسقط مائلة".

"حسناً، لا بأس"، قالت دايزي بطريقة غامضة، "إنه شيء يشغل وقته على كل جال".

ستكون مساحة الهرم ياردتان مربعتان، نسخة مصغرة عن الهرم الحقيقي. لقد استنبط التناسب بين الأبعاد بالاعتماد على الهرم الأكبر كنموذج له. حجم الأحجار التي سيستخدمها مختزل جداً (أصغر من رأس إصبعه، ثلاثة أثمان الإنش المربع) لدرجة أنه قادر على حمل ستة أو سبعة منها في راحة يده. الكسوة الخارجية ستكون من حجر إنديانا الكلسي ذي اللون الأبيض النقي، لكنه ينوي استخدام الحجر الرملي، الرخام، الغرانيت، الأردواز، وأي شيء آخر من أجل الجزء الداخلي. هل سيستخدم الملاط؟ نعم، قرر أن يستخدم ملاطاً، خليطا رقيق القوام، أشبه بالغراء في الواقع. تمكن المصريون من بناء الأهرامات من دون ملاط، لكن أحجاره صغيرة جداً، وبالتالي

خفيفة الوزن جداً. يسعى إلى استخدام أحجار من كل أنحاء العالم. لقد أحضر معه أحجاراً من الحمم البركانية من جزر الهاواي حيث أمضى وماريا عطلة عيد الفصح، كما تلقى عينات حجرية من مانيتوبا، أونتاريو، تينيسّي، ميشيغان، فيرمونت، فرنسا (برغندي)، إيطاليا، فنلندة والجزر البريطانية. سمع بوجود طبقات من الحجر الكلسي في جنوب أفريقيا، وهو ماريا يقضيان عطلتهما هناك الآن، يعاينون المواقع ويبحثون عن مقالع جديدة وأنواع جديدة من الحجر. سطوح أرفف الأحجار التي دفأتها أشعة الشمس والتي لم يلمسها بعد تشعّ في فكره وفي أحلامه أيضاً. هنا، في هذه المواقع المكتَشَفة حديثاً، يتوق إلى النقر بمطرقته والحصول على عينة سيلفّها داخل صحيفة مطوية ويحملها إلى موطنه. (دعابته المفضلة تتعلق بحمّال يعمل في الخطوط الحديدية، سأله إن كان لديه صخور في حقيبة سفره، فهي ثقيلة جداً).

"إنه مهووس"، تقول ابنته دايزي، لكنها تقول ذلك بفرح. فهي تعتقد، إجمالاً، أنه من الأفضل للشخص المسنّ أن يكون مهووساً بأمر ما من أن يكون متبطّلاً خاوياً.

ما الغاية من الهرم؟ أشخاص كثر يطرحون هذا السؤال على دايزي، وهي لا تعرف بماذا تجيب. هل ينوي أن يجعله شاهدة قبره؟ لا، فقد ابتاع وماريا موقعاً في مقبرة في بلومينغتون. هل هو نصب تذكاريّ لشيء ما؟ في الواقع، ربما. لم يطرح أحد عليه هذا السؤال.

له ثقة رجل يتوقع من الآخرين أن يصفقوا لأكثر مشاريعه غرابةً. وهو يتأنّى أيضاً. فهذا مشروع بناء كبير، يتطلب أن

يوضع أكثر من مليونيّ قطعة حجرية في أماكنها المناسبة. في المركز تماماً، تحت الأساس، سيضع علبة صغيرة تحتوي على ما يعبّر عن عصره. كتب لأحفاده الثلاثة في أوتاوا طالباً منهم المساهمة. شيء صغير، قال، ويعبّر عن زماننا. جوان الصغيرة، بتشجيع من والدها، أرسلت طابعاً بريدياً قيمته بنسين، يحمل صورة الملك. وأرسل وارن ورقة قيقب مجففة. أما أليس، وبعد التفكير مليّاً، فأرسلت عنواناً قصّته من جريدة: **ستتزوج الأميرة إليزابيث من الأمير فيليب في تشرين الثاني.**

هذه الأشياء ـ الطابع، ورقة النبات، والعنوان من صحيفة ـ وضعها سايلور غودويل في صندوق معدنيّ مختوم. ماريا، زوجته الثانية، ساهمت بمغلّف يحتوي على بذور الشمّار. غودويل نفسه، ذاك الأحمق المسن، غريب الأطوار، أضاف، في اللحظة الأخيرة، خاتم زواجه الذي يعود إلى زوجته الأولى.

الخاتم مصنوع من الذهب الأصفر بحوافٍ مصقولة ناعمة. تاريخ الزفاف، ١٥ حزيران، ١٩٠٣، محفور داخله، إضافة إلى الأحرف الأولى من اسم العروس واسم العريس. يتذكر غودويل تماماً الثمن الذي دفعه للخاتم، وكان أربعة دولارات وخمسة وعشرين سنتاً. ذهب عيار ثمانية عشر قيراطاً، طلبه من خلال كاتالوغ إيتون. يتذكّر أنه عندما توفيت زوجته الشابة أثناء الولادة بعد ذلك بعامين، قد خاض صراعاً داخلياً مؤلماً حول ما إذا كان عليه أن ينزع الخاتم من إصبع زوجته قبل دفنها أم لا. ما هو السلوك العام المألوف؟ ماذا يفعل الناس في مثل هذا الموقف؟ لم تكن لديه أدنى فكرة.

كانت زوجة الدكتور، السيدة سبيرز، هي التي حثّته على الاحتفاظ بالخاتم كتذكار. وساعدته أيضاً على نزع الخاتم، فمسحت إصبع زوجته المتوفاة بقليل من الدهن، ثم سحبته. وكان صوت السيدة سبيرز في غاية الرقة وهي تقوم بهذه المهمة. "احتفظ به، يا سيد غودويل"، قالت، ووجهها خال من أي حسابات، "كي تعطيه لابنتك عندما تكبر".

وهذا ما نوى فعله دوماً، أن يقدمه لابنته العزيزة، أن يحوّل الأمر إلى طقس، إلى لحظة استنارة سيقوم فيها، لمرة فقط، بجمع الخيوط المنفصلة لحياته، والاعتراف بوفرة النِّعم فيها.

لكنه يشعر، في الفترة الأخيرة، أنه ضلّ طريقه في الحياة. جعله التقدم في العمر أخرق على مستوى الجسد والروح، وهو غير قادر على تنفيذ ما كان ينويه على أرض الواقع أو، منذ عهد قريب، على تخيّله حتى. ما هي الكلمات التي سيعثر عليها كي يضفي الأهمية والمعنى على تلك اللحظة؟ وما هي الكلمات التي يمكن لابنته أن تردّ بها؟ قول شكراً لك لن يكون كافياً. الامتنان بحد ذاته لن يكون كافياً. الكلام والإيماء لن يفي بالغرض، ليس في الأثير الرقيق للعالم الذي يسكنه الآن. من الأسهل بكثير دفن هذا الكنز تحت حِمل من الحجر ـ تحت هرمه، البناء الثقيل، الكثيف، المليء بالأسرار، الأشبه بآلة ما. إعلانه للغائية، للنهائية. إما ذلك، أو هزة كتف لا مبالية تعلن الاستسلام.

صديقة السيدة فليت منذ أيام المدرسة

ارتادت فريدي هويت ودايزي غودويل المدرسة معاً في إنديانا. جلستا على الشرفة الأمامية لمنزل آل غودويل في بلومينغتون وتقاسمتا أكياساً من شرائح البطاطس. كما ارتادتا

الجامعة معاً أيضاً، وشجّعتا النادي ذاته، ألفا زيتا، وبقيتا على اتصال منذ ذلك الحين. وهذا يعني أنهما تواصلتا ثلاث أو أربع مرات سنوياً، وتبادلتا، الهدايا المضحكة في عيدَيّ ميلادهما وأعياد الميلاد. في الواقع، لم تر كل منهما الأخرى منذ سنوات، ولكن، أخيراً، في آب ١٩٤٧، وضعت فريدي نفسها في قطار وذهبت إلى أوتاوا لزيارة مدتها أسبوع.

وأثناء وجودها هناك، قالت لنفسها: ها هي ذي دايزي غودويل مع زوج هو شخصية مرموقة، ومنزل كبير مُعتنى به وثلاثة أطفال رائعين. لدى دايزي كل ما حلمت به أيّ منا. بينما فاتني كل شيء، لا زوج، لا أطفال، لا منزل حقيقياً، فقط شقة صغيرة تافهة، بلا حديقة حتى. يا لحديقة دايزي! تلك الحديقة شيء مختلف. يمكنها أن تنهض في الصباح وتمضي النهار بطوله إذا رغبت، في التقليم وإزالة الأعشاب الضارة والتطعيم وإضفاء الجمال على العالم. بينما أكون أنا جالسة في عملي. مُقيّدة إلى مكتبي وإلى الساعة. مفتقدة أن أحيا حياتي كامرأة. غافلة عن ذلك تماماً.

أو ربما قالت فريدي لنفسها: يا لدايزي المسكينة. يا إلهي، لقد أصبحت بدينة. ومحترمة. رغم أنه، من يمكن لها أن تكون محترمة وهي تتجول في واحدة من تنوارات الدرندل الشنيعة تلك ـ هل يتوجب علي أن أقول شيئاً؟ أن أعطي تلميحاً صغيراً آخر؟ البشرة المحيطة بأظافرها. لا أعتقد أنها قرأت كتاباً منذ عشر سنوات. وغرفة ضيوفها، يا إلهي، أنظروا إليها. مخرمات بشعة وردية الحوافّ في كل مكان. أكاد أختنق. أربعة أيام أخرى. وغطاء الفراش المطرّز هذا، الذي تتباهى به، لم

يعد أحد يطرز أغطية الفراش هذه الأيام، إن مجرد لمسه كافٍ كي يجعلك تعاني الكوابيس. أودّ أن أحل خيوط التطريز هذه، وأنا قادرة على ذلك أيضاً، يكفي أن أشد طرفاً واحداً. هؤلاء الأطفال يثيرون جنوني، ينتحبون وينسلّون إلى كل مكان طوال النهار، ثم يتأنقون مثل دمىً متحركة صغيرة قبيل عودة الرجل العظيم في نهاية النهار. يؤدون مسرحية صغيرة في كل يوم من أيام حياتهم المليئة بالنفاق.

ر: ماذا يسعني أن أقول لها؟ ماذا تبقى كي يقال؟ أرى أنك ما زلت تتنفسين يا دايزي. أرى أنك ما زلت تذرين بودرة وودبري النسائية على أنفك. أرى أن زوجك متغيب دوماً لحضور "اجتماعات" في تورنتو أو مونتريال، وأعجب إن كان لديك أدنى فكرة عما يحدث له في تلك الأماكن. لاحظت أنك مستمرة في الاستيقاظ في الصباح والخلود إلى الفراش في الليل. أليسَ هذا مثيراً للاهتمام؟ أظن ان حياتك ما زالت مستمرة، ما زالت تجري من دون تدخل منك، أليست كذلك؟ يا للعجب.

العلاقة الحميمة بين السيدة فليت وزوجها

لدى السيدة فليت رغبة عميقة صادقة شديدة الحرارة بأن تكون زوجة صالحة وأماً فاضلة، ولهذا تقرأ كل عدد من مجلة تدبير منزلي جيد.

إضافة إلى مجلة مك ـ كول ومجلة دليل المنزل الكندي. ومن حين إلى آخر، بين إعلانات مواد التجميل وصفحة وصفات الطبخ، تصادف مقالات حول الطرق التي يمكن للمرأة فيها أن تُسعد زوجها في الفراش. وهناك أحياناً رسائل من نساء

يطلبن نصائح خاصة حول مشاكل جنسية محددة. كتبت إحداهن أخيراً، "يرغب زوجي دوماً بأن تكون لحظاتنا الحميمة في ليالي الاثنين، بعد عودته من نادي البولينغ. لسوء الحظ، أقوم بغسيل الثياب في أيام الاثنين، وأكون متعبة جداً مع حلول المساء بحيث يتعذر علي أن أكون شريكة متحمسة. النصيحة التي قُدمت لها كانت موجزة وفي الصميم: "اغسلي الملابس أيام الثلاثاء". مما جعل السيدة فليت تبتسم. لقد ضحكت بصوت عال في الواقع، وتمنت لو أن صديقتها فريدي كانت هنا كي تسمع ضحكتها. وكتبت امرأة أخرى: "يتمتع زوجي بنشاط جنسي، ويتوقع إقامة علاقة حميمة كل ليلة. هل هذا طبيعي؟" الجواب: "ليس هناك ما يعتبر سلوكاً جنسياً طبيعياً أو غير طبيعي. ما يجري داخل غرف نوم الأشخاص المتزوجين هو أمر مقدس". وجدت السيدة فليت هذه النصيحة غير مُرضية. في الواقع، لم تدرك تماماً ما الذي عنته.

لكنها تعتقد، مع ذلك، أنّ "كل ليلة" هو أمر يصعب تحمله.

مع ذلك، هي تُعد نفسها دوماً، تحسّباً ـ الواقي النسائي دائما في موضعه، رغم أنها تشعر بالنفور من لونه المصفرّ والبقع التي عليه، والهلام البارد ذو الرائحة الحامضيّة الذي تضعه على محيطه. إنه أمر مزعج، وتسع مرات من عشر لا يكون هناك من حاجة إليه، ولكن يبدو أنه أمر عليها تحمله. "حاولي أن تجعلي زوجك يشعر بأنك مستعدة دوماً لملاطفاته، حتى عندما تكون المرات التي يمارس فيها الحب متباعدة ولا يمكن التنبؤ بها".

"لا يمكن التنبؤ بها، نعم، رغم أن هناك موعدان تستطيع السيدة فليت أن تكون متأكدة من حدوث تقارب حميم: قبل مغادرة زوجها للمدينة (كنوع من التلقيح، كما تعتقد أحياناً) وعند عودته. والليلة، ليلة أربعاء في أواسط أيلول، سيعود بالقطار في ساعة متأخرة بعد أن أمضى أياماً عدة في وينبيغ. البيت مرتب، الأطفال نائمون، وهي نفسها مستحمة، متبرجة، مزودة بواقيها النسائي، وترتدي ثوب نوم خفيفاً. "كثيراً ما أدى ارتداء الزوجات للبيجامة إلى دفع الأزواج للبحث عن الحب في مكان آخر".

تعجب كيف ستكون حالته النفسية.

إنه مكتئب في الفترة الأخيرة. هذا لا يعني أنه تحدث عن الأمر، لكنها تشعر بذلك. عيد ميلاده الخامس والستين يقترب، تدرك أن التقاعد يثير قلقه، وقت الفراغ الذي ينتظره وكيف سيتحمله. لكن الأسوأ من البطالة هو الشعور بالانقطاع عن العالم. أخيراً أصبح يتحدث أكثر عن أخويه في غرب كندا، ويذكر اسميهما دائماً بنبرة أسى. سيمون في إدمونتون، وهو سكّير، انقطعت اتصالاته منذ سنوات، كما ساد الفتور بين باركر وأخيه أندرو. في السابق كان أندرو يكتب إليه باستمرار، صحيح أنه كان عادةً يطلب معونة، ولكنّ العامين الأخيرين لم يجلبا منه سوى رسالة قصيرة في المناسبات، أو بطاقة معايدة.

تدرك السيدة فليت، أيضاً، أن زوجها كثيراً ما يفكر بوالده في جزر الأوكني. يتساءل ما إذا كان عليه أن يكتب ويتقصى أخباره، لكن الشهور تمضي وهو يؤجل الكتابة، وكأنه لا يستطيع تحمل معرفة ما حدث. هي، أيضاً، كثيراً ما تفكر

بحميها، ماغنوس فليت، الذي لم تقابله أبداً، والذي يتمثل في ذهنها كشخصية مأسوية، رجل هجرته زوجته، وانصرف عنه أبناؤه الثلاثة، محاط بالازدراء، ليس له صلة بشيء. بطريقةٍ ما، تحبه بحنان أكثر مما تحب زوجها، باركر. ما الذي فعله ماغنوس فليت بالضبط كي يستحق هذه العقوبة؟ هذا السؤال يخز حسّها الأخلاقي وحبها للخير، ولا يختفي أبداً عن الأنظار.

نعم الآن، بعد أن فات الأوان، يتوق ولده باركر إلى اجتماع الشمل معه. مؤخراً، واحدة أخرى من علاقات باركر الأسرية تم بعثها من جديد، العلاقة الأهم في الحياة ـ تلك التي تقوم بين ابن وأمه. خلال الأيام القليلة الأخيرة لم يكن يذهب باركر إلى وينبيغ لحضور جولته المعتادة من الاجتماعات الزراعية، بل لحضور مراسم التكريس لبيت كلارينتاين فليت الزجاجي للبستنة، وهو منشأة كبيرة لها قبة زجاجية أقيمت في وسط حديقة أسّينيبوين. المتبرع هو فالدي غودمانسن، المليونير الشهير الذي يعمل في مجال تعليب اللحوم. (كلارينتاين فليت، والدة باركر، قضت نحبها بعد أن صدمتها دراجة عادية مسرعة عام ١٩١٦، وكان سائق الدراجة المسرعة هو فالدي غودمانسن نفسه، الذي كان مجرد فتى في السابعة عشرة من عمره حينها).

"الشعور الفظيع بالذنب، الذي انتابني حينها، لم يفارقني أبداً"، قال السيد غودمانسن للسيد فليت أثناء تناول العشاء في نادي مانيتوبا. "لحظة واحدة من الطيش أدت إلى موت إنسان. لو أنني فقط ترجلت عن الدراجة عند المنعطف. لو أنني فقط قدت دراجتي بسرعة معقولة. سترافقني تلك الصورة طوال

حياتي. ستبقى تؤرقني في أحلامي وفي ساعات يقظتي، صورة جسد أمك المسكينة وهو يقذَف فوق أساسات مبنى رويال بانك، ويصطدم رأسها بحافة حجر الزاوية. لو أن حافة تلك الحجر كانت مستديرة، ولكن، ويا للأسف، كانت حادة مثل نصل سكين. لقد تبدلت حياتي نتيجة ذلك. لقد صليت للرب، وحاولت خدمة الآخرين بطريقتي، وفكرت ملياً بنصب تذكاري مناسب". (هنا يسحب منديلاً ناصع البياض ويتمخط بين طياته المنشاة، بصوت أشبه بصياح إوز فخور. "كان تفكيري يقودني دوماً إلى حقيقة أن أمك كانت تحب الأزهار. يمكنك القول بأنها كانت مسؤولة عن جلب الأزهار إلى مدينتنا العظيمة، كي تجعلنا ندرك نِعَم الجمال الطبيعي في مناخ قاس. لن أتمكن أبداً بالطبع من التكفير عما فعلت، لكني آمل أن إقامة شعائر بسيطة من شأنه أن يعبر عن مدى ندمي الشديد والمستمر في ما يتعلق بوفاة والدتك. في النهاية، يؤسفني أن زوجتك، اسمها دايزي على ما أعتقد، لم تستطع أن تكون معنا اليوم، بالطبع، أنا أدرك تماماً كم هو صعب عليها أن تترك أطفالها الصغار وتسافر عبر القارة، وأدرك، أيضاً، نعم أدرك تماماً، بأن الحضور سيكون تجربة مثيرة للمشاعر بالنسبة لها. إذ أننا نبقى على صلة عميقة بهؤلاء الذين يعتنون بنا في سِنيّ طفولتنا المبكرة. ولا يمكن لأي شيء أن يعوضنا عن فقدانهم. كما لا يمكن فصم عرى ارتباطنا بهم".

لكن السيدة فليت في أوتاوا، المستلقية في فراشها بانتظار عودة زوجها، لا تفكر بكلارينتاين فليت، عمتها العزيزة كلارينتاين، التي تبنّتها، بقدر ما تفكر بأمها التي توفيت بعد دقائق من ولادتها. كم تبدو تلك العلاقة واهية وهزيلة الآن، كم

تكاد تبدو اعتباطية، إذ ما الذي تبقى للسيدة فليت من أمها سوى صورة زفاف غير واضحة وقطعة نقد أجنبية، بالية لدرجة يتعذر معها فك مغالقها، والتي، بحسب رواية والدها، وُضعت فوق جبهتها عند ولادتها ـ لا تستطيع أن تتصور من وضعها على جبهتها حينها، أو لأي غاية. لم يسبق لها أن شعرت بتلك المتعة اليومية التي يعتبرها الجميع أمراً بديهياً، متعة لمس شيء ما سبق لأمها أن لمسته. ليس هناك من دفتر يوميات، أو طرحة زفاف، أو رداء تعميد جميل مطرز يدوياً، ليس لديها أي تذكار صغير من أي نوع. سبق لوالدها مرةً في العام الماضي أن ذكر لها خاتم زفافٍ سيؤول إليها في يوم من الأيام، لكنه لم يعد إلى ذكره منذ ذلك الحين. ربما قدمه لزوجته، ماريا. أو ربما نسي الأمر تاماً. الليلة، وهي مستلقية تحت بطانية خفيفة بانتظار عودة زوجها، وهو رجل يدعى باركر فليت، تشعر بافتقادها للخاتم، وافتقارها إلى أي صِلة مع هذا العالم. أطفالها منسيون في هذه اللحظة، ووالدها المسنّ منسيّ أيضاً، حتى اسمه اختُزِل إلى الأحرف الأولى منه. إنها ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها وكأنها أُصيبت بعدوى مفاجئة.

سبق أن عانت من نوبات الحزن والأسى. إن المرض الذي تعانيه هو اليتم ـ تميّزه كما يميّز المرء اقتراب نوبة شقيقة: ها هو ذا مرة أخرى ـ وهي مستلقية، تائهة، وحيدة، لا تنتمي إلى جنس محدد، سرمدية، وحيدة.

تسللت الدموع إلى عينيها فربتت عليها بحاشية البطانية. يطبق ظلام الغرفة عليها.

هذه أوقات مرعبة بالنسبة للسيدة فليت، حيث الشعور

بالوحدة يسربلها، بكامل ثقله. تعود بأفكارها إلى اللحظة التي وقفت فيها كشابة، تحدق في شلالات نياغرا، ولامس كمّها كمّ معطف رجل، رجل غريب، كان واقفاً إلى جانبها. قال شيئاً أثار ضحكها، ولكن ماذا قال، ماذا؟

فقدانها لذاكرتها يثير موجة جديدة من الذعر.

ولكنها، مع ذلك، تحمل داخل قلقها القدرة الرائعة والغريبة على رؤية العالم بطريقة حية من وقت لآخر، تخبئها هناك في مأمن وكأنها حجر كريم. يهلّ الوضوح عليها، كرذاذ من النجوم الصغيرة. تدرك هذا، وتنظر إليه على أنه خدعة من خدع الوعي. هناك جانب يكاد يكون مترفاً لكل هذا. أن تنفتح أمامها متاهة القصّ وتسمح لها بأن تقاسيها. ربما كان صحيحاً أنّ الازدحام يدفعها خارج حياتها ذاتها ـ هي تعرف هذه الحقيقة، وقد عرفتها دوماً ـ ولكنها تمتلك، كموهبةٍ تعويضيةٍ، القدرة على رسم نسخٍ بديلة. إنها تشعر، على سبيل المثال، بقوة الأسرار الجامحةَ لدى أولادها، بقوة الصفقات الخرقاء التي يعقدها والدها مع العالم المحيط به، بقوة مزيج الازدراء والحسد لدى فريدي هويت (التي لم ترسل ولو رسالة شكر بسيطة بعد زيارتها أثناء الصيف). الليلة، تستشعر السيدة فليت خيطاً رفيعاً من مشارع يربطها بأمها المتوفاة، ميرسي ستون غودويل. صحيح أن ذلك لم يستغرق سوى لحظة خاطفة، ولم يتعدّ انطباعةً أولى عن نَفَس، أو إيماءة أو أثر من ضوءٍ ليس له مكان مخصص في الذاكرة، يعكس نفسه الآن، بصورةٍ مفاجئة وغريبة، فيكشف عن التماعةِ تحريف ـ عن فكرة أن السيدة فليت هي التي وَلَدت أمها وليس أمها هي التي ولدتها.

أما عن زوج السيدة فليت ـ حسناً، ماذا عن زوجها؟ سيصل زوجها إلى البيت خلال ساعة من الآن، بأن يستقلّ، كالمعتاد، سيارة أجرة لتقله من محطة القطار. سينزع عنه سرواله في غرفة النوم المظلمة، ويضعه بعناية فوق مسند الكرسي. هذا السروال يحمل رائحة الطهارة، إضافة إلى تجعّدات متناظرة على شكل شوارب الهرة على جهته الأمامية. ثمّ ربطة عنقه، ثم قميصه وملابسه الداخلية، ثمّ، غافلا عن دموعها التي تبلل حاشية البطانية وعن عمق شعورها بالوحدة في هذه الليلة من ليالي أيلول، سوف يستلقي فوقها، وسيحذر من أن يجعلها تتحمل الكثير من الوزن ("الرجل المهذب يستند دوما إلى مرفقيه"). سيغمض عينيه، ويخرج عضوه الحارّ ويوجهه إلى داخلها، ثم يبدأ دقائق عدة من الاهتزاز الإيقاعي المتواتر.

سيستمر ذلك بلا انقطاع بينما تحاول السيدة فليت جاهدةً، عبر دوامة من الارتباك والمطبوعات المتنوعة، أن تتذكر تماماً النصيحة التي وردت في العدد الأخير من مجلة مك ـ كولز، شيء ما حول مسؤولية الزوجة عن إظهار تصاعد في المتعة، تلك كانت النصيحة ـ التعبير عن المتعة والاستسلام معاً عبر إيماءة واحدة خفية من الجسد. ولكن، كيف يمكن تحقيق ذلك؟

يحاول دماغ السيدة فليت وقلبها وحوضها معالجة هذا التناقض.

ينهمر حطام زواجها حولها، الأعياد السنوية لزواجها، الحمل المتعاقب، العُطَل، الوجبات، المرض، الشفاء،

ويهيمن كل ذلك على أصل علاقتها ـ العلاقة التي قد يقول البعض إنها محرمة ـ بشريكها في الزواج، معبودها منذ أيام الطفولة. يبدو لها أن هذه السنين قد تكلّست إلى قرار حاسم: لن تدع شيئاً يدهشها بعد الآن. لقد أصبح ذلك قراراً، أو كاد. أليس هذا ما وعدها به الكتاب المقدس في حديثه عن الحب الذي يعوضنا عن كل شيء؟ هياج فخذيّ زوجها النحيلين، ردفاها ـ مثل فاكهة طرية منتشرة تحتها على الفراش المتماسك ـ ألا يوحي كل ذلك ببعض المصداقية والثقة؟ فنباتات الصالون، رغم كل شيء، تنمو وتزدهر في حيّز خاو من التقلبات المناخية والجغرافية ـ فلماذا لا تفعل هي الشيء نفسه؟

ومن المحتمل تماماً، بينما لا يزال باركر فليت يتأرجح إلى الأمام والخلف فوقها، أن تنجرف نحو فيلم ذهبت لمشاهدته أثناء زيارة فريدي لها في الصيف الماضي، أفضل سنوات حياتنا، وهي قصة من قصص ما بعد الحرب، يعود فيها جنديّ من المعركة بخطّافَين فجّين قد حلا مكان يديه.

كيف سيكون شعورها إذا لُمِست بمعدن ملتوٍ بارد بدلاً من نهايات الأصابع البشرية؟ كيف ستشعر حيال الإحساس بالوزن الكامل لرجل فوق جسدها، يُسَمِّرها بقوة إلى العالم؟ ستتفكر في كل هذا، مستمتعة بخيط الاحتمال اللولبي الواهي، ولكنّ انفجاراً للسوائل سيقاطع خيط أفكارها، يتبعه انفجار ثانويّ ـ من الامتنان هذه المرة. امتنان زوجها سيكون مشوباً برعشة ارتباك بسبب لون الشحم الحيواني لجسده المسنّ وبسبب كلمات الحب القليلة التي يتلفظ بها بلا تفكير. أن يكون الرجال والنساء مرتبطان ببعضهما بهذه الطريقة! يا لسوء تنظيم هذا الواقع!

"نوما هانئاً، يا عزيزتي"، سيقول لها، لكنه يعني، "سامحيني، سامحيني على هذا".

بيت السيدة فليت وحديقتها

البيت الكبير المربع في ٥٨٣ ذي درايفواي يغمره نوع من التشويش. الأثاث، الستائر، السجاد، أرضية المطبخ ـ كلها أصبحت رثة بالية أثناء سنوات الحرب. والآن، خلال اضطراب ما بعد الحرب، هناك نقص عالمي في مشمع فرش الأرضيات، ولكن من المتوقع حل هذه المشكلة في وقت قريب. (السيدة فليت تحلم منذ الآن بأحد نماذج آرمسرونغ، مكون من مثلثات متداخلة حمراء، بيضاء وسوداء). ستارة غرفة الطعام أصبحت بالية بسبب الغسيل المتكرر، لكنها (أي السيدة فليت) تتحدث حول طلب ستائر جوخية تُفتح وتُغلق بطريقة السحب، من نسيج مزين بالأزهار، شيء من شأنه أن ينعش الغرفة، أن يمنحها بعض الحيوية. كما أنها سئمت ورق الجدران نجمة الصباح في غرفة الجلوس، بأقلامه الزرقاء والصفراء والوردية. تخطط لاختيار ورق جدران بلون واحد في المرة القادمة، أخضر ويليامزبرغ، ربما، مع أشغال خشبية مطلية بالأبيض من أجل التباين. وتلك السجادة البالية تثير الكآبة في نفسها، باهترائها على طول الدرزة، ما يجعل البطانة ظاهرة للعيان، منظر قبيح، يشبه النظر إلى فروة رأس شخص ما من مسافة قريبة من الأعلى. في الواقع، الغرفة كلها تبدو بحاجة للعناية والاهتمام، رغم أنها لا تتمالك نفسها عن الشعور بقليل من الفخر بالطاولة المنخفضة التي عدّلتها أخيراً بتغطية قشرة الجوز بلوح زجاجي، ووضعت تحته صوراً لأطفالها الثلاثة، ونسخة

مصفرّة قليلاً، من إعلان زواجها:

السيد والسيدة باركر فليت

يوذّان إعلان زواجهما مؤخراً

في أوتاوا، ١٧ آب، ١٩٣٦

اقتبست فكرة تعديل الطاولة المنخفضة من مجلة البيت الكندي والحقيقة الكندية، من مقالة بعنوان "التعبير عن ذاتك الحقيقية من خلال ديكور منزلك".

كل غرفة في البيت، حتى غرف النوم في الطابق العلوي، يوجد في نوافذها أصص لنبات السرخس، كزبرة البئر، سرخس قدم الأرنب، السرخس المقدس، سرخس عش العصفور. (هذه السراخس التي تحيا داخل المنازل، في عام ١٩٤٧، كانت تعتبر مظهراً نيّقاً عتيق الطراز، رغم أنه كان من المقدّر لها أن تصبح موضة رائجة وتحقق درجة عالية من الانتشار، في أواسط الستينات). في الحقيقة، عدا النباتات الخضراء والطاولة المنخفضة، السيدة فليت ليست مهتمة جداً بمنزلها. وتشعر أن قصوراً ما لديها ينعكس في تقشفه وكلاحته. غرفه الثمانية العالية السقف، أربعة في الطابق العلوي وأربعة في الطابق الأرضي، تتّسم ببساطة ريفية، فهي مربعة الشكل تماماً بنوافذ جوفاء كبيرة الحجم أكثر مما ينبغي. الضوء الذي ينفذ عبر هذه النوافذ حاد قاسٍ لدرجة مدهشة، وفي الشتاء تكون الجدران باردة وزوايا غرف الطابق السفلي معرضة لتيار هوائي.

تعيش من أجل الصيف، من أجل حر الشمس ـ من أجل حديقتها، في الحقيقة. ويا لها من حديقة!

يقوم بيت آل فليت الذي يميل إلى البشاعة في صحن

الحديقة: فهي تحيط به من الأمام والخلف والجانبين، حديقة ثلاثية، وهو أمر نادر في هذا الجزء من المدينة، وفي الربيع تندفع خراطيم الزعفران المدوّرة في كل مكان. وقد نما الآن لبلاب بوسطن وازدهر ليغطّي ثلاثة أرباع المبنى الآجرّيّ (لم يزدهر على الوجه الشمالي للبيت، ولكن ما الهمّ في ذلك؟) وهناك أصص النوافذ أيضاً، التي تنبض بالألوان، وإضافة إلى ذلك، حجبت السيدة فليت قاعدة المنزل الحجرية القبيحة ببراعة بأن زرعت شجيرات الطقسوس* الياباني، العرعر*، المجهو*، الراتنج القزم*، البَقس الكوري*، إضافة إلى ليلكها! بعض الأشخاص، كما تعلمون، يكتفون بالخروج لشراء أي نوع من أنواع الليلك ثم يغرزونه في الأرض، أما السيدة فليت فقد اهتمت بالحجم الكلي للنبات وبألوان الأزهار، فمزجت بين ليلك "مدام ليمون" الأبيض اللون والليلك الفارسي بلونه الوردي المريح للنظر وليلك "الرئيس لينكولن" بلونه الأزرق الأردوازي. لم "تُرم" هذه الأنواع عشوائيا بل "أُلِفت في مجموعات". ويمتد على جانب البيت تخم من القرنفل الملتحي تناثرت ضمنه رشة من أزهار البقّ بلونها الأصفر الزاهي، ويُعَدّ الجمع بين هذين اللونين، من دون أدنى مبالغة، لمسة فنان حقيقي. وُضعت أجمات من نبات القلب الدامي - وُضعت عمداً ولم تتواجد هناك بالمصادفة - قرب الزرقة الشاحبة لأزهار كومبانيولا، النتيجة تقارب حدّ الكمال. تُرَش أشجار التفاح في الحديقة الخلفية فصليّاً لحمايتها من دودة ثمار التفاح مما يضمن استمرار أوراقها في إسقاط زخرفات من الضوء والظل على المرج الشاحب الجميل. هنا تتململ الشمس المتأخرة بين شقائق النعمان. وأزهار الأضاليا!

يطلق زوج السيدة فليت الدعابات حول حجم أزهار الأضاليا التي لديها، مدّعياً أنه لا يمكن إدخال الزهرة عبر الباب إلا بشكل جانبي. هناك ممر حجريّ تحفّه عشبة الفتيّة من الجانبين يقود إلى تعريشة العنب ثم يستمرّ ملتوياً نحو حديقة الصخور المزروعة بنباتات قزمة دائمة الخضرة ونباتات ألبيّة خاصة استُقدِمَت من أوروبا. تجمع حديقة السيدة فليت هذه بين الخضرة المزدهرة، الفخامة والحميمية ـ إنكليزية بجمالها وسحرها، فرنسية بنظامها وترتيبها، يابانية باقتصاديتها وتدبيرها ـ ولكن، هناك شيء آخر أيضاً، مليء بالذكاء الوقور وحتى، يمكننا القول، بنوع من الظَّرافة، في الممرات المتعرجة، المساكب المنحنية، قزم الحديقة المبتسم المنحوت من حجر إنديانا الكلسي والجدار المنحوت عشوائياً من نبات اللُّيلَج. وتوت العلّيق. يجب التنويه بتوت العليق. هل تدرك السيدة فليت المعجزة التي خلقتها في مدينة أوتاوا في قارة أمريكا الشمالية في هذه المدينة الشمالية القاسية المناخ خلال سنوات أواسط قرننا التي اتسمت بالشحّ والإعاقة والأذى؟ نعم، هذه المرة كانت تدرك ذلك تماماً.

يا للروعة، يقول أصدقاؤها المخلصون ـ ولكن يبدو أننا لم نشر إلى أصدقاء السيدة فليت الطيبين الكثر، وكأنها غامضة ولا فائدة تُرجى منها لدرجة أنها لا تستحق الصداقة. (كتابة سيرة حياة شخص، أو حتى كتابة السيرة الذاتية، تكون عادة مليئة بالأخطاء التنظيمية، مليئة بالثقوب التي تتصل ببعضها مثل كتلة متشابكة من الجداول الجوفية). الحقيقة هي أن هناك الكثيرين في هذه المدينة ممن يكنّون مشاعر المودّة الصادقة للسيدة فليت، ممن يحبونها لتواضعها ويقدرون مهاراتها،

يقدرون إبهامها الأخضر الخصب على وجه التحديد. يقول هؤلاء الأصدقاء إن دخول حديقتها الخضراء، الشذيّة، الهادئة، الساحرة، بمظهرها الراسخ وحركة ملاطِفة فيها، تجعل المرء ينسى مشاكل العالم وإزعاجاته ويخلفها وراءه. يشعر الزوار أثناء وقوفهم في هذه الحديقة أن قلوبهم تتعلق بالمكان بصورة فورية، وتتكشف لهم رؤىً بدائية ضبابية حول الخلق ـ هذه هي الجنة بعينها، الفردوس الحقيقي.

إنها، يمكنك القول، طفلتها، الأجمل بين ذريتها، مطيعة لكنها تمتلك امتلاء مساحاتها، تمتلك إرادتها النباتية الصلبة. ربما كانت تتوق إلى معرفة الحالة الحقيقية للحديقة، لكن ما ترغب به أكثر من ذلك هو أن تصبح جزءاً من أسرارها الغامضة. هي تفهم، ربما، ربع أسرارها الخضراء، ليس أكثر. وهي بالمقابل لا تفهم شيئاً عن ذاتها، لا تفهم تاريخها، اسمها، رغباتها، لا شيء ـ ولهذا تتمكن من أن تحبها بكل هذا النقاء، ولهذا فتحت ذراعيها لها، وقبلتها كما هي، كل ورقة، كل ساق، كل جذر وعلامة.

الفصل السادس

العمل، ١٩٥٥ ـــ ١٩٦٤

و. و. كلينهارت، محامي.

أوتاوا، ٢٥ نيسان، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة فليت

يسعدني أن أقول بأن وصية زوجك الراحل قد حُفظت بعد تنفيذ كل ما ورد فيها. تمّ البت في كل شيء بسرعة نسبياً لأن الوصية، كما شرحت عبر الهاتف، كانت واضحة في نواياها وضوحاً لافتاً ولم يُرفق بها أي شروط صعبة. أعتقد أنك سترين كل شيء منظماً.

أرجو ألا تترددي في الاتصال بي إن كان لديك أي استيضاح. أرسل ربطاً مع تقريرنا النهائي مغلّفاً محكم الإغلاق كان زوجك السابق قد أوصى، كتابةً، أن أسلمه لك.

المخلص

واللي (كلينهارت)

أوتاوا، ٦ نيسان، ١٩٥٥

عزيزتي،

لم يبق سوى القليل من الوقت. يقول الدكتور شورتكليف إنها مسألة أيام، أليس كذلك؟ ليس هذا ما يخبرني به، بالطبع، بل ما سمعته يقول لك همساً ليلة البارحة، في الممر، بعد نقلي إلى القسم العام. من الغريب أن سمعي ما زال حاداً.

أما ذهني، ورغم أنه أقل حدة، لكنه مطمئن للموارد المالية من أجلك أنت والأولاد. ملكية البيت ثابتة، بالطبع ـ لأني شعرت بأنك ستترددين في مغادرة البيئة المألوفة، وبخاصة حديقتك ـ وهناك رصيد مالي كافٍ من أجل تعليم الأولاد.

لكنك سترغبين ببعض المال من أجل السفر ـ لماذا لم نسافر أبداً، أنت وأنا؟ ـ ومن أجل بعض الرفاهيات، كما خطر لي أنك قد ترغبين في عرض مجموعتي من أصناف نبات خفّ السيدة، للبيع. أنا واثق بأنها ستعود عليك بسعر جيد. أقترح أن تتصلي بـ د.ليونارد ليماي من جامعة بوسطن، وستجدين عنوانه في مفكرة الجيب الخاصة بي. أتوقع أن تتنفسي الصعداء لدى قراءة هذا الاقتراح، إذ إنني أدرك جيداً بأن نبات خفّ السيدة ليس بالنوع الذي ينال إعجابك، وخصوصاً الصنف العديم الساق. ستتذكرين كيف تشاجرنا ـ شجارنا الوحيد على ما أذكر ـ حول الاشمئزاز الذي تشعرين به حيال مورفولوجيا أو شكل نبات خفّ السيدة، ساقه المثيرة للكآبة (بحسب ادعائك) وتويجه الذي يشبه الكيس والتي أعلنتِ أنه بشع ومضحك. فأشرتُ ـ من دون حاجة لذلك ـ إلى البراعة الوظيفية للتويج، حيث يمكن لحشرة ما الدخول فيه بسهولة ولا يمكنها الخروج

منه إلا بصعوبة. حسناً، هكذا جرت محادثاتنا عبر تلك السنوات المديدة، صوتي التعليميّ يسحق بشدة كل ما هو لطيف وخياليّ. أنا، نفسي، أتنهد حسرةً وأنا أخطّ هذه الكلمات، نادباً ضياع الكلمات بيننا، وكل ما كان بقدورنا مناقشته لو أننا كنا أكثر صراحة ـ هل سبق لك أن شعرت بهذا، يا عزيزتي، محادثاتنا الهامشية وما كان يمكن أن يحل محلها؟

بالطبع، قادني تذكر نقاشنا حول "نبات خفّ السيدة" إلى التساؤل ما إذا كنتِ تنظرين إلى زواجنا بالطريقة نفسها، وتعتبرينه فخّا لم يكن الإفلات منه بالأمر السهل. لم ننطق أبداً بكلمة حب في ما بيننا. عجبت أحياناً ما إذا كان فارق السنّ الذي يفصلنا هو الذي يجعل الكلمة تبدو حمقاء مضحكة، أم أنّ جانباً متكبراً وحيياً في طبيعتنا هو ما منعنا من التلفظ بها. هذا ما يثير أسفي وندمي. أحب أن أعتقد بأن أطفالنا سيسرفون في استخدام تلك الكلمة، والأهم أنهم سيكونون أكثر انفتاحاً أمام قواها. (لكنّ أليس تثير قلقي، بسبب شدة واتقاد مشاعرها).

هل تذكرين ذاك اليوم في أواخر تشرين الأول عندما عانيت أول نوبة صداع مريع؟ وجدتك في المطبخ مرتدية واحداً من تلك المآزر البلاستيكية المروعة. أحطتني بذراعيك فوراً ومددت يديك ولمست صدغَيّ. شعرت بحب جارف نحوك في تلك اللحظة. بدا صوت طقطقة مئزرك على جسمي وكأنه استجابة أوبرالية للأشواق التي شعرت بها إليك حتى في تلك اللحظة. كانت أشبه بشيء يهمس لنا كي نسرع، كي نتوقف عن إضاعة الوقت، أود لو أنني رقصت معك عبر المدخل الخلفي، إلى الحديقة، عبر الشارع، وصولاً إلى الأفق. آه، يا عزيزتي،

ظننت أننا سنحظى بوقت أطول.

المحب

باركر

أوتاوا، ٢٠ أيار، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة فليت،

أرجو أن تتقبلي تعازيّ الصادقة بمصابك المحزن بفقدانك لزوجك. خلال الأعوام القليلة الماضية نلت شرف التعرف على زوجك الراحل، وسرعان ما قدرت عالياً مساهمته الأسبوعية في مجلة ريكوردر. تأكدي أن قرّاء عموده الكثر ـ وهم حشد كبير ـ سيفتقدون بشدة "السيد الإبهام الأخضر". لقد أضفت نبرته الجليلة حسّاً تعليمياً نادراً على هذه الصفحات، ولكن من دون أن يوحي للقراء أبداً بشعور فوقيّ.

بدافع العرفان لزوجك ومساهمته، جمع العاملون هنا في مجلة ريكوردر مقالاته في نسختين مجلّدتين على نحو خاص، سنُودِع إحداها في الأرشيف الوطني، إذا أذنتِ لنا بالطبع، ونقدم الأخرى لعائلتك أثناء مراسم غير رسمية نخطط لإقامتها إحياء لذكراه في مكاتبنا هنا في شارع ميتكالف. هلاّ تكرمتِ بإعلامي إن كانت الساعة الرابعة والنصف من مساء الأول من حزيران موعداً مناسباً لك؟

تقبلي تعاطفي العميق

جِاي دبليو. دَدلي، رئيس التحرير

ملاحظة: يبدو رحيل السيد فليت مؤثراً على نحو خاص في هذا الوقت من العام، حيث تتوهج المدينة كلها بأزهار

التوليب. كانت مقالاته حول مهرجان التوليب السنوي من أكثر مقالاته حماساً.

كلايماكس، ساسكاتشيوان، ٢٤ أيار، ١٩٥٥

خالتي العزيزة

أحزننا بالتأكيد تلقي رسالتك حول رحيل العم باركر. أمي وأبي وأخواتي يبلغونك عميق تعازيهم ويؤكدون أنهم سيذكرونكم جميعاً ويذكرونه في صلواتهم. ولكن كما تقول أمي، لم يكن رحيله بالمفاجأة الكبيرة لك بالتأكيد، لعلمك بأنه يكبرك بسنوات كثيرة. خطر لي في الآونة الأخيرة أنه لن يكون من السهل عليك العناية بثلاثة أطفال صغار وبذاك البيت الكبير، وهو قصر حقيقي إن لم تخنّي ذاكرتي، ولكني لم أره سوى مرة واحدة. تبدو لي تلك الزيارة عندما أحاول تذكرها وكأنها مجرد حلم. إذا شعرت في الفترة القادمة بأنك بحاجة إلى من يعينك في البيت، أرجو أن تعلميني بذلك. أحاول الانتقال إلى الشرق الآن، بعد انفصالي عن زوجي. إسرافه في احتساء الكحول هو سبب الخلاف بيننا. وكسله بصورة عامة. من شأن شخص يضطجع بكسل طوال الوقت أن يثير جنون شخص يتمتع بحيويتي ونشاطي. أنا مستعدة للعمل لديك مقابل طعامي وإقامتي وأربعين دولاراً شهرياً. أنا مدبرة منزل لا بأس بها، هذا ما أزعمه أنا، وأعشق صنع قوالب الحلوى والفطائر والكعك وما إلى ذلك. كما أجيد الغسيل والكي، إلخ. أستطيع الطباعة على الآلة الكاتبة أيضاً، كما ترين، بمعدل خمسة وثلاثين كلمة في الدقيقة، تعلمت ذلك من خلال دورة

بالمراسلة، لولا ذلك لكنت ربما وصلت إلى ستين كلمة في الدقيقة.

ابنة أخ زوجك المُحِبّة،

بيفرلي

ملاحظة: أمي لا تعرف أني أكتب لك حول هذا الأمر، ولهذا، إذا أجبت على رسالتي، أرسلي الرد إلى صندوق البريد ٤٢٢، كي لا يصل الرد إلى منزل أهلي.

بلومينغتون، إنديانا، ٢٩ أيار، ١٩٥٥

عزيزتي دايز،

أتمنى بعمق لو أن باستطاعتي أن أسكب بعض البهجة العذبة في هذا المغلف. أعرف حالة البؤس واليأس التي لا بد أنها تسيطر عليك هذه الأيام. في الواقع، لا، لا أعرف ذلك بالضبط ـ كيف لي أن أعرف؟ ـ لكني أتصور مدى البؤس الذي تشعرين به بسبب وحدتك بعد كل تلك الفترة التي قضيتها مع باركر. كم تبلغ تلك الفترة؟ ـ عشرون عاماً على ما أعتقد. يا إلهي، إنه فعلاً يمضي بسرعة، أعني الزمن، ذاك اللص القذر. وأليسْ ستغادر إلى الجامعة في الخريف القادم! كل هذا يحدث بعد وفاة والدك بوقت قصير.

على كل حال، لن أثرثر حول "تذكّرك في صلواتي" (ها!) وحول "بلسم الزمن الشافي" وكل ذاك الهراء ـ سيصلك الكثير من ذلك من العزيزة بينز ـ التي تزداد زيفاً وابتذالاً كل يوم. عندما رحلت أمي أمطرتني بما كان كافياً من الكليشيهات المعطّرة كي يسبب احتقاناً في جيوبي الأنفية دام شهراً كاملاً. غاية هذه

الرسالة هي أن تذكرك، يا صديقتي، أنه ما زال أمامك سنوات طويلة. أنا شخصياً، اكتشفت أن بلوغ الخمسين من العمر ليس بنصف السوء الذي يزعمون ـ قد يكون ذاك المحيّا القديم مترهل قليلاً ومجعد قليلاً ـ ولكن "كل ما يهمّ حقّاً" ما زال في حالة جيدة وسليمة، ولا يستحق اللعنة. فلا تتسلقي طحالب ترمّلك وتذبلي هناك، ليس بعد، أيتها الصغيرة! ما قولك في أن ندلّل أنفسنا بزيارة شيكاغو لمدة أسبوع هذا الشتاء. يمكننا أن نشاهد العديد من العروض، الإقامة في بالمر هاوس، والتهام الكثير من الطعام كالخنازير. كانون الثاني يناسبني ـ يخطّطون لإغلاق صالة العرض هنا خلال الأسبوع الأخير من الشهر، و"يشجعوننا" على الانصراف خلال تلك الفترة. يا إلهي، هل تذكرين الوقت الرائع الذي أمضيناه في نيويورك منذ ثلاث سنوات؟ ـ ذاك النادل الجذل وكركنده الصغير الوثّاب ـ أتساءل، هل أخبرت باركر بكل ذلك، بالتفصيل؟ نعم أم لا؟ ليس عليك أن تجيبي ـ يمكنني أن أخمّن.

إذاً دعينا نغزو شيكاغو ونضفي بعض الحيوية على حياتنا، ما قولك؟ لا بدّ أن هناك من يمكنه العناية بوارن وجوان لعدة أيام. فكري بالأمر.

مع محبتي،

فريدي

أوتاوا، ٢٩ أيار، ١٩٩٥

السيدة فليت العزيزة،

يسعدنا أنه سيكون بمقدورك حضور حفلنا التكريميّ الصغير لذكرى زوجك الراحل. عليّ أن أضيف بأنه سيسعدنا حضور أولادك أيضاً.

أشكرك جزيل الشكر على اقتراحك حول تغطية مهرجان التوليب. سيشرفنا بالفعل تلقي بضع كلمات منك، حوالى خمسمائة كلمة هو العدد المثالي. أتمنى لو أنّ ذكائي قد أسعفني كي أقترح ذلك عليك بنفسي وبخاصة أن الشائعات تؤكد بأنك بنفسك جنائنية ذائعة الصيت.

مع أطيب وأخلص التمنيات

جِاي دبليو. دَدلي، رئيس التحرير

بلومينغتون، إنديانا، ١ حزيران، ١٩٥٥

صديقتي القديمة العزيزة

يعتصر الألـم قلوبنا بصورة دائمة من أجلك هذه الأيام. فالعبء الذي تنوئين تحته ثقيل جداً، بفقدان والدك في نيسان، رحمة الله على روحه، وفقدانك شريكك المحبوب الآن. أنا متأكدة أن ذكرياتك السعيدة الكثيرة عن حياتكما معاً سوف تساعدك على تحمل الأيام المظلمة القادمة، كما سيساعدك وجود أحبائك وصلوات أصدقائك الأعزاء. الزمن يشفي كل الجراح، هذا ما عليك تذكره على الدوام، رغم أننا في الحقيقة لا ننسى أبداً هؤلاء الذين لعبوا دوراً كبيراً في حياتنا. ديك يشاركني عزائي لك بهذه الكلمات القليلة المواسية. (بعد الكثير من الضغط، وافق على نقله إلى مكتب الإدارة في كليفلاند، وعلينا الآن تحمل الحزن الناجم عن عرض بيتنا العزيز للبيع ـ لسوء الحظ، السوق ليست مزدهرة. يبدو أن الحجر الكلسي أصبح شيئاً فاشلاً).

مع محبتي،

"بينز"

أوتاوا، ٥ حزيران، ١٩٩٥

عزيزتي السيدة فليت،

أكتب لك كي أعبر عن شكري على الملاحظات اللطيفة التي ساهمت بها في احتفالنا الصغير البارحة. أعتقد أنّه يمكنني القول بأننا جميعاً تأثرنا بتعليقاتك، وبخاصة تلك المتعلقة باحترام زوجك الراحل لمجلة ريكوردر وكل ما تمثله لمحيطنا الاجتماعي.

وباسمي شخصياً أقول بأني سعدت جداً بلقائك ولقاء أطفالك الثلاثة الساحرين، وأرجو ألا تظني للحظة واحدة بأني شعرت بالانزعاج بسبب ما قالته ابنتك أليس عن ربطة عنقي. أعرف جيدا نزعة المراهقين إلى التعبير عن أفكارهم باندفاع ومن دون تفكير، ثم الندم على ذلك في ما بعد. أتطلع بحماس إلى مقالتك حول مهرجان التوليب. خمسمائة كلمة ستكون كافية، كما سبق أن أشرت على ما أعتقد، ولكن لك مطلق الصلاحية بالتوسع أو الاختصار، إذا شعرت بالحاجة إلى ذلك. بين قرائنا عدد كبير من الجنائنيين المتحمسين الذين سيرحبون بأفكارك.

المخلص،

ج.و.د.، رئيس التحرير

أوتاوا، ٩ حزيران، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة فليت،

أكتب لأخبرك بأن تحليقك الأول، كما أسميتِه بنفسك، سوف يحطّ يوم السبت المقبل في قسم الرياضة وشؤون المنزل. وجدنا القطعة التي أرسلتِها ممتازة بأفضل المقاييس الصحفية، ومليئة، في الوقت نفسه، بالتعابير الرائعة، وأفضلها في نظري

هو وصفك لنباتات التوليب المغروسة بشكل متباعد بأنها تبدو كـ "مجموعة مغفلين يسيرون في نزهة". فعلاً.

إذا كنت لا تمانعين، سننشر مقالاتك موقعة باسم "السيدة ذات الإبهام الأخضر". أشعر بالارتباك حيال هذا الاقتراح، وأخشى أن يبدو عديم الإحساس، وهذا ليس هدف اقتراحي بالتأكيد، لذا أرجو أن تعلميني إن كانت لديك أي تحفظات حياله.

المخلص،

جِاي ددلي.

أوتاوا، ١٥ حزيران، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

أهنئك على تغطيتك لمهرجان التوليب السنوي الجميل في مدينتنا، وأجد هذه التغطية واضحة، شاملة، وأشعرتنا بالإطراء. لماذا أشعرتنا بالإطراء؟ لأنك أشرت إلى حديقة أمامية معينة في جادّة فينتون على أنها جديرة بالإعجاب، حيث تقولين إنك رأيت "منصة للنباتات الورقيةويظهر في خلفيتها سياج ملطخ باللون الرمادي" (الفقرة الرابعة). منذ قراءتنا - أنا وزوجتي الصالحة - لهذا، أقنعنا أنفسنا بأن هذا يشير إلى نباتات الزينة الورقية الخاصة بنا، وإلى سياجنا المدهون حديثاً، والذي لفت انتباهك وحقق الخلود بدخوله عالم النشر.

هل لديك نصيحة يمكن أن تفيدينا بها حول استخدام المبيدات الفطرية لتعقيم التربة بعد الإصابة بآفة اللفحة النارية؟

مع جزيل الشكر

ألفِن أ. ماكينتوش

أوتاوا، ١٨ حزيران، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

يسعدني أن أرى مهرجان التوليب عبر عين أنثوية على سبيل التغيير. أعجبني ما قلته حول التوليب الزنبقي. يجب أن يعبر المزيد من الأشخاص عن آرائهم حول هذا الموضوع. آمل أن تستمري في كتابة هذه الزاوية لمجلة ريكوردر. بصراحة، كثيراً ما وجدت الكاتب السابق لزاوية العناية بالحدائق، السيد الإبهام الأخضر، غير ملتزم عندما يتعلق الأمر بموضوع الأنواع الناجمة عن طفرات. كما كان ضعيفاً في مجال الأسمدة أيضاً.

المخلصة،

دوريس غريسوولد

ملاحظة: أوافقك الرأي مائة في المائة حول مسألة خلط الألوان الفاتحة والألوان الأساسية.

كلايماكس، ساسكاتشيوان، ٢٥ حزيران، ١٩٥٥

عمتي العزيزة،

أتطلع منذ زمن إلى تلقي رسالة منك، لكن الأيام تمضي من دون أن يحالفني الحظ حتى اللحظة. أظن، كي أقول الحقيقة، أن القلق قد بدأ يسيطر عليّ، والسبب هو، عليّ أن أخبرك بصراحة، أنني في طريقي إلى الإنجاب، لكنّ أحداً هنا لا يعرف هذه الحقيقة، وبخاصة والداي اللذان سيفقدان صوابهما إن اكتشفا الأمر. إنها قصة طويلة، كيف حدث ذلك، أعني، لكن أعراض الحمل قد بدأت تظهر وعلي أن أفعل شيئاً قبل أن يدرك الجميع حقيقة الأمر. ما أريد فعله هو الابتعاد عن

هذا المكان والبدء من جديد. وعندما يحين الوقت سأبحث عمّن قد يرغب في تبني الطفل ثم أجد عملاً باستخدام مهارتي في الضرب على الآلة الكاتبة. أنا واثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام في النهاية، لكن المشكلة أني لا أعرف كيف أبدأ، إن كنت تدركين ما أعنيه. وكأن هناك عجلة هائلة الحجم علي أن أجعلها تبدأ في الدوران لكني لا أملك القوة العضلية اللازمة لدحرجتها. ولهذا كنت آمل أن تمدي لي يد المساعدة لعدة أشهر. كنت قد أبديت استعدادي للعمل لديك مقابل الطعام والمأوى وأربعين دولاراً شهرياً عندما كتبت إليك في المرة السابقة، لكن الطعام والمأوى هو في الواقع كل ما أحتاج إليه. في الحقيقة، سأكون ممتنة على ذلك.

مع محبتي،

ابنة أخ زوجك، بيفرلي

أوتاوا، ٢٩ حزيران، ١٩٥٥

السيدة فليت العزيزة،

كما ترين من خلال الرسائل المرفقة، حققت مقالتك حول مهرجان التوليب نجاحاً كبيراً. ويبدو أن الجميع، بمن في ذلك أنا نفسي، يتجاوب مع مطالبتك بتنسيق أكثر جرأة ومع عبارتك الختامية: "الجمال يتطلب الشجاعة. الشجاعة ذاتها تحتاج إلى شجاعة". لقد أحسنت التعبير!

نأمل ـ أتحدّث باسم كل فريق العمل ـ بأنك ستكررين هذا الأداء. في الواقع، هل يمكن أن تتدبري أمرك كي تزودينا بعمود شهري، أو حتى بعمود أسبوعي؟ أدرك أن هذا الطلب يأتي بعد مضي وقت قصير جداً على رحيل زوجك، وأنك قد

لا تشعرين الآن أنك مستعدة للالتزام في الوقت الراهن. ولكن، ومن خلال التجربة (توفيت زوجتي منذ ثلاثة أعوام فقط)، أعتقد أن العمل هو الوسيلة الأكثر فعالية لتجاوز فقدان الأعزاء.

أعيد إليك ثانية الشيك الذي كنت، بمبادرة فاتنة، قد أعدتِه إليّ. ولكننا، بالطبع، نصرّ على أن يتقاضى جميع كتّابنا مكافآت على عملهم. أتمنى فقط لو أنها كانت أكثر سخاء.

المخلص،

جِاي

كلايماكس، ساسكاتشيوان، ٧ تموز، ١٩٥٥

عمتي العزيزة،

كتبت هذا على عجل، أتطلع بفارغ الصبر إلى رؤيتك ورؤية الأولاد، وأعجز عن التعبير عن شكري الجزيل على إرسالك بطاقة القطار إلي.

محبتي الجمّة للجميع. ينتابني شعور غريب بأن حياتي تبدأ من جديد. إلى اللقاء يوم الأربعاء القادم.

بيفرلي

جامعة بوسطن، ١٢ تموز، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة فليت،

أقدّر كتابتك إليّ حول عرضك للبيع مجموعة زوجك الرائعة من نبات خفّ السيدة، والتي سبق لي أن رأيتها وأبديت الإعجاب بها، لكني أخشى أن المجموعة ليست كاملة بما يكفي كي نفكر بشرائها، كما أنها ليست محفوظة وفق معايير يمكن أن نقبلها في متحفنا، وبخاصة العينات الأقدم، مثل

المونتانيوم، والكالسيولوس أيضاً.

مع أفضل التمنيات وأحرّ التعازي،

ليونارد ليماي، رئيس متحف النبات

أوتاوا، ١٧ آب، ١٩٥٥

السيدة الإبهام الأخضر العزيزة،

لقد فعلت كما قلتِ في عدد الأسبوع الماضي من الصحيفة، فحرثت الأرض حول نباتات الشاي الهجينة والنباتات الهجينة الدائمة الإزهار، كما اتبعت نصيحتك المتعلقة باستخدام سماد مصنوع من مسحوق العظام. والنتائج جيدة حتى الآن.

الآن أتساءل ما رأيك حول سند النباتات المعمرة بأوتاد في هذا الوقت المبكر من السنة.

المخلص،

س. ج. بروفوست

أوتاوا، ١٨ آب، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة ف.،

شكرا جزيلاً على إرسال عمود رائع آخر إلينا ـ ومطبوع بصورة حِرَفيّة أيضاً! لديك أسلوب جميل في الكتابة: "نضارة وهشاشة أوراق التفاح". تعبير جميل بالفعل.

آمل أن موجة الحر هذه ليست مصدر معاناة كبيرة لك.

أفضل التمنيات،

جاي

بيرث، أونتاريو، ١٢أيلول، ١٩٥٥

السيدة الإبهام الأخضر العزيزة،

إليك فكرة مفيدة من أجل قرائك. إذا قلّمت نبتة الوهج الذهبي سوف تحصلين على موسم إزهار ثاني. في الواقع أحاول تحقيق ذلك في شهر آب. أشكرك على النصائح المتعلقة بزنبق السيدة. سلّمت زنابقي للأرض، باركتهم بجلال برشة من السماد، آمل الحصول على أفضل النتائج.

مع التحيات،

السيدة دونالد فورتير

كلية سميث، نورثامبتون، ماس.، ١٥أيلول، ١٩٥٥

أعزائي،

وأخيراً اجتزت التسجيل، وأشعر الآن أني قادرة على اجتياز أي شيء. قُبِلت في برنامج الأدب الروسي في النهاية. البروفيسور ـ والجميع يدعوه باسم زيوس ـ قال إنه لا يستطيع التصديق بأني تمكنت من الوصول إلى هذا المستوى خلال عامين فقط من تعلم الروسية في المدرسة الثانوية.

نعم، هذا صحيح، الجميع هنا يرتدون شورتات برمودا في جميع الأوقات، في قاعات المحاضرات وفي كل مكان. يمكنني الإفادة من زوجين إضافيين منها إذا كانت بيفرلي تبحث عن شيء تخيطه. (مرحباً، بيفرلي، أرجو أن تكوني بخير). كنت أفكر بزوج من قماش التويد باللون البني (بلون التبغ) سينسجم تماماً مع كنزتي الصوفية، وآخر من قماش تزينه مربعات من اللونين الأبيض والأزرق الفاتح، ولكن ليس مربعات كبيرة.

أتصوّر أن "السيدة الإبهام الأخضر" تصبح أكثر شهرة كل يوم. وذلك لا شك رائع. أنا أعني ذلك حقاً. أنا بصدق لم أعنِ ما قلته حول الحلول مكان أبي ونسيان ذكراه وما إلى ذلك. بل كنت في مزاج سيئ بسبب البقاء في البيت طوال الصيف، والحرّ والقلق حيال السفر بعيداً وما إلى ذلك. أعتقد بصدق أن كتابة هذا العمود ربما تولد شعوراً بتحقيق الذات، إن كنت تدرين ما أعنيه، نظراً لأنك لم تفعلي شيئاً من قبل، إذا لم ندخل في الحسبان تطبيق وصفات بيتي كروكر الطهوية. ربما كنت تتمتعين حقاً ببعض القدرات الكامنة، أعني في حقل الكتابة.

علي ان أسرع قبل ان تقفل المكتبة أبوابها. أشعر حقاً أني أكتشف تشيخوف الحقيقي الآن، أعني بلغته الأم، لأنه فجأة بدأ يتكشّف عن جوهر وعمق لا يظهران أبداً في تلك الترجمات البائسة التي يتحملها عامة الناس.

مع محبتي،

أليس

أوتاوا، ٥ تشرين الأول، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

يا للروعة، كم أبهجني عمودك الأسبوع الماضي حول الآفات التي تصيب الحديقة، بما في ذلك "صبيان الحي الصغار الذين يغيرون على أشجار التفاح". أشكرك أيضاً على اقتراحاتك حول ما يجب فعله بالتفاح البري. أكثر ما راقني هو اقتراحك الأخير ـ تخلصوا منه فقط. فكرة رائعة.

بيتّي سينغر (معجبة حقيقية)

بلومنغتون، إنديانا، ٦ تشرين الأول، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة فليت،

نأمل أن نتمكن في وقت قريب من تسوية الشؤون المالية لوالدك الراحل، ولكن، كما تعلمين، كانت محفظة سندات والدك أكثر تعقيداً من غيرها. حاولت طوال أيام عدة الاتصال تلفونياً بأرملته، لكنني لم أتلق أي جواب. لقد اتبعنا تعليماتها المتعلقة بتوزيع الممتلكات، ونال هرم والدك الحماية الكاملة باعتباره "نصباً تذكارياً باقياً" لحياته. نتوق إلى الحصول على توقيعها على عدد من الوثائق المتعلقة بالوصية. هل تعرفين إن كانت مسافرة في الوقت الراهن، وإذا كان الأمر كذلك، متى ستعود إلى منطقة بلومينغتون؟

المخلص،

كالفن ك. كوبس

(من مكتب بريغمان وكوبس)

بلومينغتون، إنديانا، ١ تشرين الثاني، ١٩٥٥

عزيزتي دِايز،

رسالة سريعة موجزة. لم يحالفنا الحظ في اقتفاء أثر ماريا. قدنا السيارة أنا وجورجيو (صديقي الجديد) إلى ليك ليمون يوم الأحد ووجدنا المكان مقفلاً بصورة محكمة مثل طبل. يقول الجيران إنهم لم يروها منذ شهر كامل. إلى أين نتوجه من هنا؟ أخبريني.

أصبحت على أتم الاستعداد للذهاب إلى شيكاغو، لقد حجزت غرفتنا، وهي أنيقة أيضاً، ولم لا بحق الجحيم؟ ـ هل

حصلت على بطاقات القطار؟

مع خالص الحب

فريدي

أوتاوا، ٤ تشرين الثاني، ١٩٥٥

عزيزتي السيدة ف،

مقالتك المقترحة حول محمية شيكاغو النباتية تبدو مناسبة جداً لشهر كانون الثاني، ومَشجَر مورتون أيضاً. أنا لم أزر المدينة الشهيرة ، لكنني أدرك أنها مدينة جميلة جداً، رغم اشتهارها برجال العصابات والكسب غير المشروع. أريد أن تعرفي بأنك إذا عجزت في أي وقت عن تزويدنا بمقالة (بسبب المرض أو أي إعاقة أخرى) نستطيع أن نكلف بينكي فولهام، وهو أحد موظفينا، بأن ينوب عنك. فرغم أنه يغطي عادة الأحداث في المدينة، لكنه جنائني ممتاز، كما اتفق أنه من أشد المعجبين بزاويتك.

المخلص،

جاي

نورثامبتون، ماس.، ٨ تشرين الثاني، ١٩٥٥

أمي العزيزة،

دعيني أقول منذ البداية أنك قد فقدت رشدك في ما يتعلق بمسألة الطفل هذه. ظننت أن الفكرة هي ان بيفرلي ستبحث لطفلها عمن يتبناه ثم تبدأ حياة جديدة. ها قد بلغ وارن السادسة عشرة، وبلغت جوان الرابعة عشرة، وآخر ما أنت بحاجة إليه هو صراخ طفل يتردد في أرجاء البيت. خلال وقت قصير سيغادران إلى الجامعة مما سيمنحك الحرية للقيام برحلات مع

صديقاتك القدامى، كما رغبت دوماً. بصراحة، أعتقد أن بيفرلي تستغل طبيعتك الخيّرة. أعرف أنها مصدر عون، وخصوصاً أنك ذاهبة إلى شيكاغو، كما أنها تطبع مقالاتك وما إلى ذلك، ولكن تأمّلي فقط في ما تحصل عليه بالمقابل. الطعام والمأوى وحياة سهلة. كما أني لا أفهم لماذا يجب أن يحل الطفل في غرفتي. ماذا سيحدث عندما أزوركم في أعياد الميلاد؟ اين يُفترض أن أنام بالضبط، إن لم يكن هذا السؤال خارجاً عن الموضوع؟ أما عن اسم فيكتوريا، بما أنك سألتني رأيي، أعتقد أنه طنّان. هناك فتاة تدعى فيكتوريا في مهجعي، وهي شخص بغيض.

أرسلي إليّ سترتي الصوفية الحمراء في أقرب وقت ممكن من فضلك.

مع محبتي،
أليس

أوتاوا، ١٤ كانون أول

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

كانت تلك مقالة رائعة عن نباتات عيد الميلاد، وقد ضحكت حتى البكاء حول صراعك مع نبات البونسيتة[١٣] الطويلة الهشة. إليك بعض النصائح التي قد ترغبين بنقلها إلى قرائك: أبقِ هذه النباتات اللعينة بعيداً عن الغاز، التيارات الهوائية، ومشعّات التدفئة فتبقى مزدهرة طوال الشتاء. في الواقع ستبقى طويلة لدرجة ستجعلك تملين منها. إضافة إلى ذلك، انكشي تربتها بشوكة مطبخ من وقت إلى آخر.

---

(١٣) البونسيتة: نبات مكسيكي.

أتمنى لك عطلة سعيدة، وأشكرك على كلماتك الأسبوعية الحكيمة.

هوليس ساندرسون

بلومينغتون، إنديانا، ٢٩ كانون الأول، ١٩٥٥

دايز ـ

أعلِمك أنك ستتلقين رسالة من بينز التي قررت بأنها تريد أن تأتي معنا إلى شيكاغو. يجب أن تصدقيني عندما أقول بأني لم أعثر على أي طريقة كي أقول لها لا. لقد أحرجتني، لكنك ستستمعين إلى القصة بتفاصيلها ـ أعتقد أنه من الأفضل أن أترك لها إخبارك بالتفاصيل.

أريد أيضاً أن أؤكد لك بأننا حصلنا على مفتاح منزل ليك ليمون من المحامي وتفحّصنا البيت بدقة. ليس هناك ما يشير إلى مصير ماريا، لم نعثر على ملاحظة مكتوبة أو أي شيء من هذا القبيل، رغم أننا لاحظنا أن بعض ملابسها مفقودة. (علاقات فارغة في الخزانة وما إلى ذلك). سبق أن علمت بأمر المال الذي سحبته من المصرف ـ مبلغ معتدل وهو ٢٠ ألفاً، رغم أنه كان بمقدورها أن تسحب أكثر من ذلك بكثير، بحسب قول المحامي. على فكرة، بدا الهرم الذي بناه والدك في الحديقة الخلفية لطيفاً تحت طبقة من الثلوج. يعتقد جورجيو أنه ربما كان هناك سناجب تأوي في داخله. ما رأيك بذلك؟ ـ فراعنة سنجابية صغيرة.

هدية عيد الميلاد كانت دعابة حقيقية. لا بدّ أني الشخص الوحيد في ولاية إنديانا، وربما في نصف الكرة الغربي كله،

الذي لديه مصباح قراءة مصنوع من قدم زرافة ـ باسم الرب المقدس، أين عثرت عليه (عليها؟)؟ أعتقد أنك عدت كما كنت في السابق ـ لكني آمل أن تكوني مدركة جيداً لما تفعلينه بقرارك أن تتبني طفلة. يا للحماقة.

إلى اللقاء قريباً،

فريدي

بلومينغتون، إنديانا، ١٠ كانون الثاني، ١٩٥٦

لا شك أن فريدي قد أخبرتك بما حصل، وعن صديقة ديك الصغيرة في كليفلاند، على أي حال، لن أذكر التفاصيل على بطاقة بريدية. فقط أحتاج إلى الابتعاد لمدة أسبوعين ـ عن كل هذه الذكريات المروعة. ألغيت عرض البيت للبيع ـ هذا أحد القرارات على كل حال. إلى اللقاء يوم الثلاثاء المقبل في فندق بالمر هاوس.

المحبة،

بينز

أوتاوا، ٢ شباط، ١٩٥٦

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

أردت فقط أن أعلمك أن مقالك حول حدائق شيكاغو قد ضغط على الزر السحري لدى زوجي. سيادته يكره السفر كما يكره الخروج، لكنه بعد أن قرأ عن مِشْجَر مورتون، قرر أنه علينا أن نذهب ونرى بأنفسنا، وهكذا، سنذهب إلى هناك في شهر نيسان. تسرّني عودتك. بينكي أو مهما كان اسمه لا يفقه شيئاً حول الفرق بين أصفر هاريسون عن الأصفر الفارسي.

المخلصة،

قارئة وفية

نورثامبتون ماس.، ٦ نيسان، ١٩٥٦

أعزائي جميعاً،

أعتذر لأني لم أكتب منذ فترة لكني كنت أمرّ في وقت عصيب مع الأدب الروسي، ومع البروفيسور أيضاً (شخص مضجر) ومع شريكتي في السكن، شيرلي، المكتئبة بسبب صديقها، شخص مضجر آخر. كما كان المطر غزيراً هنا. أفكر بتغيير موضوع دراستي الأساسي، وربما اخترت الأدب الإسباني كبديل. أو علم الاجتماع. أو التعليم. كل ما أفكر فيه يبدو غير ذي صلة بالموضوع.

المحبة،

أليس

نورثامبتون، ماس.، ٢٠ نيسان، ١٩٥٦

أمي العزيزة،

أكتب لأعلمك بأني في حال أفضل الآن وأني قدّرت عالياً مجيئك، وخصوصاً أني أعرف أنك لم تسافري على متن طائرة من قبل، وأنك تخافين إلى أقصى حد من احتمال تحطم الطائرة. أعتقد أنك كنت على حق، وأنني كنت فعلاً أشعر بالكآبة بسبب رحيل والدي، ومرور عام كامل على رحيله، عام واحد بالضبط. لقد تحدثت مطوّلاً إلى البروفيسور المشرف، وقال إنه يتفهم بالفعل مشاعري وإن الذكرى السنوية لرحيل شخص عزيز قد تسبب صدمة عاطفية، وأنه لا بأس إن تأخر بحثي الخاص بهذا الفصل.

قررت أن أستمر في دراسة الأدب الروسي كموضوع دراستي الأساسي. بدأنا بدراسة غوغول. يا للروح التي يملكها

هذا الرجل، إنه تجسيد لروح روسيا العظيمة.

بلغي محبتي للوارن وجوان وبيف وبخاصة لفيكتوريا وقولي لهم بأني سأكتب في وقت قريب.

أليس

ملاحظة: نسيت أن أعلق على تسريحة شعرك الجديدة، وهي المثلى بالنسبة لك. وتجعل عنقك يبدو أنحف أيضاً. هل فكرت أبداً بصبغ الشعر الرمادي؟

أوتاوا، ٣ أيلول، ١٩٥٦

عزيزتي السيدة ف.،

نعجب إن كنت ترغبين بالانضمام إلى العاملين في مجلة ريكوردر أثناء عشائنا السنوي في نادي الصحفيين، في العشرين من شهر أيلول، الساعة الثامنة مساء. بينكي فولهام يخطط دوماً لائحة طعام ممتازة وأمسية رائعة من الأغاني والمسرحيات الهزلية القصيرة. إذا رغبت في الانضمام إلينا، يمكنني الحضور لاصطحابك إلى هناك. أرجو أن تعلميني.

ج.

أوتاوا، ١٤ تشرين الثاني، ١٩٥٦

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

وأخيراً وجدت من يزودني بالحل لمشكلة الساق السوداء. هل لديك أي نصيحة لمعالجة مشكلة حشرة الدربسة؟

قارئة وفية

نورثامبتون، ماس.، ٢٠ تشرين الثاني، ١٩٥٦

أحييكم جميعاً. أنا غارقة حتى حواجبي بالعمل من أجل

امتحانات منتصف العام. أردت فقط أن أقول "عيد ميلاد سعيد" لفيكتوريا. أتوق إلى رؤيتها مرة أخرى.

أليس

بلومينغتون، إنديانا، ٢٠ كانون الأول، ١٩٥٦

آمل أن تصلك هذه الرسالة في عيد الميلاد. تهانيّ للجميع بمناسبة الأعياد. نفكر أنا وبينز بزيارة نيو أورليانز في شباط. ما رأيك بذلك؟ لقد انتهت علاقتي بجورجيو. سئمت من شدّ معدتي نحو الداخل طوال الوقت والتظاهر بأنني فتاته المحبوبة.

عيد مليء بالسلام والبهجة...إلخ
فريدي

أوتاوا، ١٥ كانون الثاني، ١٩٥٧

عزيزتي دي.،

العاملون في مجلة ريكوردر أعجبوا بمقالتك حول كيفية تطعيم الصباريات ـ وهو الموضوع المفضل لأصحاب الحدائق الشتوية. قام بينكي فولام بوضع بعض الرسوم (أرسلها ربطاً كي أعرف إن كنت توافقين عليها) لأنه أحس بأن ذلك سيساعد القراء على اتباع الخطوات الأصعب. إنه رجل صباريات منذ أمد طويل، بحسب ما أخبرني. كما أنه بارع في ما يخص الأشجار أيضاً.

تحياتي الحارة

ج.

أوتاوا، ٧ شباط، ١٩٥٧

عزيزتي السيدة فليت،

أشكرك على كلماتك اللطيفة حول الرسوم التوضيحية

للصباريات. أعتقد، من دون أن أبالغ في الثناء على نفسي، بأن قراءنا أحبوا الرسوم، لأنها أضفت قدراً من الحيوية على الصفحة. أما عن كتابة زاويتك بدلاً عنك أثناء زيارتك لنيو أورليانز، فإن ذلك سيكون من دواعي سروري. يسرني دوماً أن أساهم في جهد مشترك. فالمرء يسأم من الكتابة حول الانتخابات المحلية والمشاحنات في مجلس التعليم.

المخلص،

بينكي فولهام

أوتاوا، ٣٠ حزيران، ١٩٥٧

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

احببت مقالك بعنوان "التعاطي مع الفلوكس بصرامة وحزم" . لقد قصصته واحتفظت به في ملفي، واشتريت عدداً إضافياً من أجل شقيقة زوجي في كالغاري، التي ستبتهج كثيراً بقراءته.

المخلصة،

روز هنينغ، جنائنية ـ قيد ـ التدريب،
جبانة ـ ولكن ـ مصممة.

هانوفر، الجامعة، ١٩ أيلول، ١٩٥٧

الضجيج في المهجع يجعلني عاجزة عن التفكير، لكنني أردت أن أخبركم بأني مستقرة وما زلت على قيد الحياة. الطقس رائع هنا. خبر رائع أن تخضع بيفرلي لدورة تعليمية في مجال التجارة، ستحقق نتائج رائعة.

مع حبي للجميع، وخصوصاً فيكي
وارن

ملاحظة: أنت قلت إنه لا بأس بإرسال البطاقات البريدية.

أوتاوا، ٢ كانون الأول، ١٩٥٨

عزيزتي السيدة الخضراء، عزيزتي السيدة الإبهام
آه كم أحبك، أحبك كثيراً...
أحب كرمك وخضرتك واستعدادك الدائم للمساعدة
أحب صفيحة سقايتك وأداة توزيع السماد خاصتك
كم أحب البحث بين هذه الصفحات والحفيف الذي تصدره
كي أعثر عليك هناك
دوماً هناك، بين فقرات لعبة البريدج ووصفات الطعام
والزوايا الدينية، دوماً هناك
بخضرتك ولطفك، وفي الأسبوع الماضي،
بقطعة القماش المبللة
تمسحين الأوراق الخضراء الخضراء
تلمعين وتصقلين بلطف بالغ
وتفتحين المسامات الخضراء للهواء
تقولين إن الأمر يشبه غسل يديّ طفل صغير
عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر
آه لو أستطيع أن أكون طفلك
وأصبح على يديك نظيفاً نقياً منفتحاً للضوء والطيبة
كان هذا ليغمرني بالسعادة

ويشعرني أني لست بحاجة إلى أي شيء آخر
آه كم أحبك وأحتاج إليك أيتها اللطيفة النظيفة الخضراء...
أيتها السيدة الإبهام الأخضر.

آنون

بلومينغتون، إنديانا، ١٥ كانون الثاني، ١٩٥٨

دايز ـ سوف تقتلينني، لكني لا أستطيع الذهاب إلى فلوريدا في شباط. خمني السبب ـ سأتزوج. نعم، سأتزوج! آمل أنك ما زلت واقفة على قدميك وتتنفسين. بينز تقول إني فقدت عقلي، لكني أعتقد أنك ستعجَبين بـ مِل. فهو مشرف على مخبر، مطلّق، ذو شعر جميل، يغني كجهير أول في فرقة رباعية في صالون حلاقة، هذا يلخص كل شيء. ولهذا، بدلاً من الحمامات الشمسية في فلوريدا، لماذا لا تحضري إلى هنا، إلى إنديانا، لحضور الزفاف. ستكون مراسم سريعة ستستغرق خمس دقائق في المحكمة، من دون ثوب زفاف، لكننا سنقيم بعد ذلك أكبر احتفال رأته عيناك. سيكون هناك دِلاء من الشمبانيا. محيطات منها.

مع حبي،
فريدي

بلومينغتون، إنديانا، ١٧ كانون الثاني، ١٩٥٨

مجرد رسالة عاجلة. يجب أن تأتي من أجل الزفاف، وبعدها يمكننا نحن الصديقات القديمات (أنت وأنا) أن نتوجه جنوباً لقضاء أسبوع في فلوريدا. (تقول فريدي أنك تجاوزت خوفك من الطيران). أنا بحاجة للذهاب حيث الشمس مشرقة ومثيرة للبهجة. آمل أن ينجح مِل وفريدي، فهو لطيف لكنه

طلّق مرتين حتى الآن!!!

بينز

أوتاوا، ٤ آذار، ١٩٥٨

عزيزتي دي،

مقالة رائعة حول أشجار النخيل، "شجرة الغموض والأسرار"، وكان هناك تجاوب كبير مع رسوم بينكي أيضاً.

أعجب إن كنت ترغبين في حضور عرض لمسرحية شاي وتعاطف. حصلت على بطاقتين لعرض ١٥ آذار.

ج.

أوتاوا، ٢ حزيران، ١٩٥٨

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

مقالك الذي كتبته تقديراً لنبات إبرة الراعي قد لامس قلبي في الصميم. هذه الأزهار القوية ـ القلب الثابتة قد آنستني على مدى خمسين عاماً من زواجي، ماكثةً في أسكُفّة نافذتي، تشجعني بينما أقشر البطاطس من أجل تحضير العشاء. كان زوجي واحداً من هؤلاء الذين لا يتصورون العشاء من دون وجود البطاطس في صحنهم. على كل حال، أعيش الآن في واحد من تلك البيوت التي يسمونها دُور تقاعد، في صَنسِيت مانور إن كنت تصدقين، وبالتالي لم يعد عليّ إعداد العشاء، لكن أسكُفّة نافذتي ما زالت مليئة بهذه الأزهار الصغيرة الجميلة ذات اللون الساطع. ويروقني مثلك، أن أفرك الأزهار الميتة بين أصابعي وأشم عبيرها، لكن الفارق أني لم أخبر أحداً بأني أفعل ذلك، لأن ذلك بدا ضرباً من الجنون.

المخلصة،

السيدة أليس دبليو. كيفر

أوتاوا، ٢٧ نيسان، ١٩٥٩

عزيزتي دي،

أشكرك جزيل الشكر على دعوتي لتناول عشاء الفصح. يا لها من عائلة رائعة تلك التي أنعم الله عليك بها: أليس المكللة بسحابة من الشعر الأحمر، وارن الخجول، جوان اللطيفة، وابنة أخ زوجك، بيفرلي والصغيرة فيكتوريا. كنت قد نسيت تقريبا متعة الجلوس مع أسرة حقيقية لتناول وجبة العيد ـ وقد كانت وجبة رائعة بالفعل! أرجو ألا تظنّي أني شعرت بالإحراج حيال مطالبة أليس بأن "تتفحصني".

المخلص،

ج.

ملاحظة: آمل أننا ما زلنا على موعدنا يوم الثلاثاء القادم.

بلومينغتون، إنديانا، ١٤ تشرين الثاني، ١٩٥٩

دايز ـ

اتصل محاميك منذ بضعة أيام بخصوص ملكيتك في ليك ليمون. وأخيراً أصبح لديه من يرغب بشراء البيت، ولكن شرط أن يكون لهم حرية إزالة الهرم وإعادة ترتيب مكانه. هلاّ أخبرتني من فضلك ما هو شعورك حيال ذلك. هل نمضي قدماً في البيع؟ يبدو أنهم ليسوا بحاجة لتوقيع ماريا من أجل البيع. وإذا ظهرت ثانية، سيتمكنون من التوصل إلى تعويضٍ ما.

مع محبتي،

فريدي (مِل يبلغك تحياته)

بلومينغتون، إنديانا، ١٣ كانون الأول، ١٩٥٩

ديز،

أجمل التمنيات بعيد ميلاد بهيج مني ومن مِل. أوصلت تعليقك إلى جماعة العقارات، والجواب هو لا، أنا لا أظن أنك مخبولة. فلماذا التسرع في البيع إذا كنت لست بحاجة للمال، ولكن ربما كان عليّ تحذيرك بأن الهرم قد بدأ يجتذب المخربين على ما يبدو، إما ذاك أو أنه اهتراء ناجم عن البرودة. أجمل التمنيات للعقد القادم. من كان يظن أنني سأصبح "المرأة المتزوجة" وأنك ستصبحين "المرأة ذات المهنة" . على كل حال، هذا يناسبك. أنا وبينز متفقتان على أنك قد عثرت على الحقل الذي تبدعين فيه، وإن كنا لا نتفق على أي شيء آخر.

حبي لكِ،

فريدي

أوتاوا، ٣ نيسان، ١٩٦٠

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

يا للروعة، لقد قلتِ الحقيقة كما هي في مقالك "زراعة الغذاء - نعم أم لا" . أتشاجر مع زوجتي منذ سنين حول هذه المسألة بالتحديد. ولهذا، وتعبيراً عن الامتنان، أرسل لك (مع هذه الرسالة) الوصفة الكفيلة بإزالة الطحالب من بركة زنبق الماء (إذا كان لديك واحدة)، ومنع نموّها مجدداً! قولي لقرائك إنّه بمقدورهم شراء كبريتات النحاس من أي مشتل أو محل خردوات.

أستودعك وأشكرك جزيل الشكر،

رومان ماتريوسكي

أوتاوا، ١٢ آب، ١٩٦٠

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

لقد استمتعت حقاً بصراعك الدراماتيكي مع مملكة النمل. كما استمتعت بكلماتك التنويرية حول خنفساء الأوراق الأوروبية. لديك موهبة في تحويل الأشياء إلى قصة تروى.

مع الإخلاص والامتنان،

شخص ـ ضاق ـ ذرعا ـ بالعشب الضار ـ والحشرات ـ في ـ جنوب ـ أوتاوا

بلومنغتون، إنديانا، ٤ تشرين الثاني، ١٩٦٠

مرحباً، تلقيت للتوّ الدعوة إلى زفاف أليس. سأحضر مليئة بالحماس. سأعمل على أساس الاعتقاد بأنك تعنين ما تقولين حول إمكانية اصطحاب "ضيف". سنطير بدلاً من استقلال القطار. إنه ثري جداً.

بينز

أوتاوا، ١٥ كانون الأول، ١٩٦٠

عزيزتي دي،

تحدثت للتو إلى بينكي الذي قال إنه سيسره تولّي أمر زاويتك الصحفية حتى انتهاء زفاف ابنتك. أدرك أن هذه المسائل تتطلب الكثير من التنظيم. لدى بينكي بعض المعلومات المثيرة للاهتمام حول السرخس الذي يبدو أنه يستعيد شعبيته. اخبريني إن كان هناك ما يمكنني فعله لمساعدتك.

المخلص،

ج.

أوتاوا، ٢٢ كانون الثاني، ١٩٦١

عزيزتي دي،

سامحيني، لكني يجب أن أعبر عن هذا كتابةً. شكراً لك، شكراً لك، شكرا لك.

جِ

هامستيد، إنكلترا، ٢٠ نيسان، ١٩٦١

أمي العزيزة،

نحن سعداء جداً في هذا البيت الصغير. لم أحلم يوماً بمثل هذه السعادة. حتى العنوان له وقع الشعر: ١، زقاق بروري. ما قولك في ذلك! أعتقد أني كنت مجنونة قليلاً طوال حياتي لكني الآن، فجأة، لم أعد كذلك. سأمكث هنا إلى الأبد وأنجب الأطفال وأكتب حول تشيخوف وأبقى عاقلة بينما أنعم بالدفء والعزلة. أشكرك على اللقطات الرائعة لفيكتوريا. مجرد التفكير بها يملأ قلبي بالشغف. يسرني أن أعرف بأنك وبينز وفريدي قد قررتنّ الذهاب إلى برمودا هذا العام. بِين يبلغك حبه إضافة إلى حبي.

أليس

بلومينغتون، إنديانا، ٢٥ آذار، ١٩٦٢

دايز،

يسرني جداً أننا تمكنا من المجيء لحضور حفل التعميد. بدت أليس فائقة الجمال ـ يا إلهي، لقد أصبحت لينة العريكة ـ وبِين الابن جميل أيضاً. (أفترض أنهم عادوا إلى هامستيد). سرني لقاء جِاي أخيراً. نعم، كنتِ على حق، هو فعلاً يتمتع بضحكة دنيوية صافية لطيفة. كما أن هناك ما هو محبَّب حول

الرجل الذي يعرف كل كلمات الأغاني وصولاً إلى قصة "إيفان سكافينسكي سكافار" . لم أتمالك نفسي من الشعور بالبهجة لأن هناك الكثير من الاهتمامات المشتركة بينه وبين مِل. أليس غريباً أن يكون لدينا جميعاً عشاق في مثل عمرنا، رغم أني أعتقد أن صفة العاشق لا تنطبق على مِل الآن بعد أن أصبح زوجا. بالمناسبة، بينز وبريك يفكران في الزواج الآن. أتمنى لو أشعر بالمودة حياله، لكنني لا أستطيع ذلك لسبب ما. ما رأيك؟ هل السبب هو فقط اسمه وربطات العنق الفظيعة التي يرتديها؟ ربما كان السبب هو سخريته من الرئيس كينيدي وزوجته. أو ربما خاتم $\times\sum$[١٤] الذي يرتديه. أو ربما كل تلك الأشياء مجتمعة.

مع محبتي،
فريدي

أوتاوا، ٦ حزيران، ١٩٦٣

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

أوافقك الرأي تماماً على أن نبات الفاوانيا (عود الصليب) جميل لكنه غبيّ. وأكثر صفاته غباء هو استياؤه عند نقله من مكان إلى آخر ـ وهذا ما جعلني أنا وزوجي نرحب بالاقتراحات التي قدمتها في الأسبوع الماضي. شكراً جزيلاً. أنت الأعظم.

أودري لاروتش (سيدة)

---

(١٤) $\times\sum$ هو رمز واحدة من أقدم وأكبر الأخويات الاجتماعية الجامعية. أسست في ٢٨ حزيران عام ١٨٥٥ في جامعة ميامي في اوكسفورد، أوهايو. هدفها هو تعزيز ودعم مفهوم الصداقة والعدالة. (المترجمة)

أوتاوا، ١٥ آب، ١٩٦٣

عزيزتي السيدة الإبهام الأخضر،

كانت مقالتك حول نبات الخطمي رائعة. أعجبتني عبارتك حول "تنّوراته المكشكشة من الدرندل"، و"سويقاتها المزغبة الخجولة". لم أزرع نبات الخطمي في الحديقة منذ سنوات، لكني بعد قراءة زاويتك خرجت فوراً وأشتريت صرّة من البذور، رغم أن وقت زراعته قد فات لهذا العام.

باقة من التشكّرات،

ليديا نايغارد

أوتاوا، ٢٥ تشرين الثاني، ١٩٦٣

عزيزتي دي،

حاولت الاتصال بك هاتفياً لكني لم أتلقّ أي جواب، ولهذا كتبت هذه الرسالة السريعة. قسم الرياضة والشؤون المنزلية سيلغى بجزئه الأعظم طوال الأسبوع القادم بسبب تغطية حدث اغتيال الرئيس كينيدي ـ ولهذا سننشر مقالك حول حديقة الصخور في الأسبوع الذي يليه. يا لهذا العالم، كل شيء فيه يتداعى.

المخلص،

ج.

أوتاوا، ٢٥ كانون الثاني، ١٩٦٤

عزيزتي دي،

آسف جداً على سوء الفهم الذي حصل. أدرك الآن، بالطبع، بأن إبلاغك عبر الهاتف كان خطأ. كنت أعرف أنه سيخيب أملك، لكني لم أتوقع أن يسبب لك كل هذا الأسى.

تتحدثين منذ فترة عن رغبتك بتخصيص المزيد من الوقت للسفر، وللقيام ربما برحلة إلى إنكلترا لرؤية ابنتك. آمل أن نلتقي كالمعتاد يوم الثلاثاء ونناقش هذا الأمر كشخصين عاقلين.

المخلص،

ج.

أوتاوا، ٦ شباط، ١٩٦٤

عزيزتي السيدة فليت،

قرأت رسالتك باهتمام وأؤكد لك بأني أقدر مشاعرك. لكني أعتقد أن جِاي قد شرح لك سياسة الصحيفة، وهي أنّ الموظفين الدائمين بدوام كامل لهم الأولوية في اختيار الزوايا التي يرغبون في تغطيتها. وكما تعلمين، كنت من وقتٍ لآخر أحل محلك في كتابة زاوية العناية بالحدائق، في كل المرات التي سافرتِ فيها، وكي أكون صادقاً معك، تلقيت الكثير من رسائل الإعجاب والتقدير من القراء الذين أعجبهم على وجه الخصوص حقيقة أن مقالاتي مصحوبة برسوم توضيحية وتتبنى وجهة النظر الذكورية. شخصياً، يروقني الإحساس بأن صحيفة إقليمية هي كائن حيّ يتنفس ويقاوم الوقوع رهينة سلوك نمطيّ صارم. فكِّري بالأمر على النحو التالي: قراؤنا يتغيرون باستمرار، وهذا ما علينا نحن أيضا أن نفعله. بعد تسع سنوات كنتِ فيها السيدة الإبهام الأخضر، أعتقد جازماً أنك أنتِ أيضاً سترحّبين بالتغيير.

أطيب التمنيات،

جيمس (بينكي) فولهام

٢٠ شباط، ١٩٦٤

عزيزتي دي،

أعبر عن أسفي الشديد حيال كل هذا، وأوافقك الرأي بأن سياسة الصحيفة سخيفة، لكنها سياسة سارية منذ عهد سلفي. لا علاقة لكل هذا بكفاءتك كمساهمة في الصحيفة، أنت أكثر حكمة من أن تظني عكس ذلك. القضية هي أن بينكي، كموظف بدوام كامل، له الأولوية في المطالبة بكتابة أي زاوية دائمة في الصحيفة طالما أن باستطاعته إثبات كفاءة في المجال الذي تتناوله الزاوية. أعجز عن التعبير عن مدى أسفي حيال كل هذا، لكني للأسف لا أستطيع فعل أي شيء حياله.

أرجوك، دعينا نلتقي في وقت قريب لنتحدث حول أمور أخرى. أنتِ تأخذين هذه المسألة بشكل شخصي أكثر بكثير مما يجب.

المخلص،

ج.

٢٨ شباط، ١٩٦٤

عزيزتي السيدة فليت،

أشكرك على رسالتك. ولكن، مع ذلك، يؤسفني القول بأني في الوقت الراهن لست مستعداً لتغيير رأيي. بصراحة، أمضيت حوالى عشر سنوات في تغطية سياسة المدينة، وأنا بحاجة للتغيير. وأعتقد أنك أنت أيضاً توّاقة للتغيير بعد كل هذه السنوات. التغيير هو ما يبقينا شباباً.

المخلص،

بينكي فولهام

ملاحظة: كما قلت لك سابقاً، آمل أن لا يفسد هذا الخلاف في الرأي صداقتنا.

بلومينغتون، إنديانا، ٢٨ آذار، ١٩٦٤

دايز،

نتساءل أنا وبينز ما إذا كنت قد كسرت رسغك. كلانا لم تتلق منك أي رسالة منذ دهر ـ ما رأيك بأن تكتبي لنا سطراً أو سطرين؟

فريدي

هامستيد، إنجلترا، ١٠ نيسان، ١٩٦٤

لم تكتبي إليّ منذ أسابيع. آمل أن كل شيء على ما يرام. لقد حلّ الربيع في إنكلترا، إنه رائع، وقد أصبح وزن جودي اثنا عشر رطلاً إنكليزياً. هل كل شيء على ما يرام؟ أنا قلقة. لم أتلق رسالة منك منذ أسابيع. هل من خطب؟

مع حبي،
أليس، بِن، وبينجي والصغيرة جودي

الفصل السابع

المحنة، ١٩٦٥

كان العام ١٩٦٥ هو العام الذي أصيبت فيه السيدة فليت باكتئاب عميق.

حدث ذلك بين ليلة وضحاها، تقريباً. وقفت أسرتها وأصدقاؤها قربها عاجزين وهم يشاهدون طبيعتها الهادئة المعتادة تنهار وتتحول إلى ذهول وارتباك، ثم إلى انسحاب، وبعد ذلك إلى غضب يغلي، بدا أنه يتغذى على الشعور بالأذى. لم تكن جذابة خلال هذه الفترة. لم يلاءم اليأس قسمات وجهها. لا يستطيع الخير أن يتغلب على الشر ـ فهو خيّر بالمطلق، خيّر إلى أبعد حدّ. إنّ شخصاً لا يستطيع النوم لأكثر من ساعة أو ساعتين من دون انقطاع ويعاني من خلل في نظام تناوله للطعام ـ هذا النوع من الأشخاص سرعان ما ينجرف إلى الاكتئاب والوهن الجسدي ـ سبق لكم أن رأيتم أشخاصاً كهؤلاء، كما سبق للسيدة فليت أن رأتهم أيضاً، يمشون بتثاقل

على طول تخوم الحدائق العامة أو يجلسون تحت مجفف الشعر. بشرة وجههم مترهلة نحو الأسفل. تتدلّى ملابسهم على أجسادهم كيفما اتفق وتبدو دوماً بحاجة إلى تسوية وهَنْدَمَة. تنتابك رغبة في أن تهرع إلى هذه الأرواح التائهة لتقديم العون والسلوى، لكنك تجدهم محاطين بهالةٍ من الإخفاق، تكاد تستشعر رائحتها، مما يثبط عزيمتك.

ربيع عام ١٩٦٥ ـ كانت تلك أشهراً رهيبة بالنسبة للسيدة فليت، حيث انزلقت يوماً بعد يوم على طول مسارٍ بدأ بالاستسلام والانسحاب، قسا حتى بلغ الصمت المطبق، ثم تحول فجأة إلى شعور مرّ بالاغتراب عمّن حولها، مشوب بالمرارة واللوم لهم جميعاً، لأطفالها وأحفادها، لأصدقائها ومعارفها المخلصين الكثر.

ما الذي غيّر السيدة فليت تماماً على هذا النحو؟

قد تثب ظاهرة سنّ اليأس إلى الذهن، ولكن لا. بلغت السيدة فليت التاسعة والخمسين من عمرها عام ١٩٦٥، قاربت الستين، ونظامها الهرموني، الذي لم يكن يوماً متقلباً أو سريع التأثر على وجه الخصوص ـ بحسب بعض المصادر ـ كان ثابتاً، مستقراً كالساعة ـ بحسب بعض المصادر الأخرى ـ منذ عيد ميلادها التاسع والأربعين. كما أنه لم يكن يبدو عليها أنها تعاني من "حداد مؤجَّل" كما يعتقد بعض أفراد عائلتها. إنها تتذكر زوجها اللطيف العزيز بحنان وإعزاز، هذا أكيد، تحترم ذكراه، مهما كان معنى ذلك. وهي تفكر فيه، باسمةً، كلما دلّكت قليلاً من سائل ترطيب البشرة، جيرجنز، على راحتَيّ يديها، عائدةً بنفسها إلى تلك اللحظة ـ لحظة شديدة الخصوصية، لن تناقشها

مع أيٍّ كان، رغم أنها تسجلها هنا، حين شبّه راحتيها بسمكة ليّنة حريرية الملمس.

سمكة؟ فكرة مجفِلة؛ فاجأتها؛ لم تتحمس للتشبيه حينذاك، لكنها قدّرت، على الأقل، النزوع الشجاع لزوجها نحو الشعر. ولكن، هل تتوق حقاً إلى زوجها الراحل ذاك؟ هل تتوق إلى الهدوء الذي نجم عن الملل البسيط الذي أصاب حبهما؟ كم من الوقت المتوفر لديها يضيع وذهنها منشغل في تذكّر رباط حياتهما المشتركة، تلك السنوات العشرين من الزواج؟

القليل جداً، في الواقع. ها قد قلتها بصراحة.

فاكتئابها وحزنها في الوقت الحاضر، الاضطراب الهوسيّ لقلبها وعقلها، انهيار تفكيرها، ضعف صحتها الجسدية ـ كل هذا ناجم عن ألم صميميّ غامض لا يمكن لمن حولها سوى ملاحظته والتفكير فيه ملياً وإطلاق التخمينات حوله.

نظرية اليسن

سأخبركم بأمر وقع لي. كنت في سن التاسعة عشرة على وشك أن أصبح شخصاً من نوع محدد، ثم تغيرتُ، واتخذت مساراً آخر.

ليست الذات شيئاً ثابتاً محفوراً على سطح حجري. قرأت منذ فترة ليست طويلة ـ ربما في صحف يوم الأحد ـ حول امرأة أمريكية صحت في صباح أحد الأيام وبدأت بممارسة نوع جديد من الكتابة، مُمِيلةً كل حروفها إلى الخلف بدلاً من الأمام، مُرَكِّزةً على حلقات أصغر وأكثف. كان ذلك شبيهاً

بالرسم تقريباً. كتبت اسمها دزينة من المرات بهذه الطريقة المختلفة. دوّنت مقدمة الدستور ثمّ دوّنت خطاب غيتسبرغ، ومع حلول الظهيرة كانت قد أصبحت شخصاً آخر.

أما التغيّر الذي طرأ عليّ فقد ذهب أعمق من مجرد تغيّر أسلوب الكتابة، وتجاوزَ كثيراً تغيير تسريحة الشعر أو الخضوع لحمية غذائية وغير ذلك من الأمور السطحية ـ رغم أني، في سن التاسعة عشرة، قررت بالفعل أن أدع شعري يطول، وهو شكل لم يكن رائجاً في أواسط الخمسينات، كما توقفت عن تناول اللحوم والسكر الأبيض وتدخين السجائر.

كان الوقت صيفاً. كنت قد عدت لتوّي بعد غيابٍ دام عاماً كاملاً في الجامعة. كان الصباح الأول بعد عودتي، في الحقيقة، استيقظت باكراً في منزل أسرتي الرث الهادئ الكبير في أوتاوا ونظرت مباشرة إلى الأعلى باتجاه السقف حيث كان يوجد صدع دائري متطاول يشبه حدبة في ظهر ساحرة عجوز، مرتفع ودائري في أعلاه، ثم يستدق عند أطرافه المنحدرة نحو الأسفل. ذاك الصدع ذاته كان دوماً هناك، منذ أقدم زمن يمكنني تذكره، منذ طفولتي الباكرة. وكان، دوماً، أول ما أراه في الصباح وآخر ما تقع عيناي عليه في الليل، هو هذا النقش المزعج في الجصّ، الذي ظللني بالرهبة والفزع. لكن هذا لا يعني أن الشكل الذي يشبه الساحرة قد أثار خوفي، بالتأكيد لا ـ كنت أعرف جيداً أن الشكل الذي أقرأه في ذاك الشرخ هو من وحي خيالي فقط. وكنت أعلم أيضاً أن أشخاصاً آخرين، أشخاصا أكثر سعادة مني، كانوا ليروا نهراً بدلاً من رؤية عمود فقريّ مشوه، أو ربما خارطة لقارة مغمورة، أو، بقليل من

المخيلة، كانوا ليروا جبلاً فوقه معبد صيني ، وفوق سطح المعبد القليل من الكريمة المخفوقة. نحن نرى ما نرغب في رؤيته. فإدراكنا الحسّي للأشياء ينطلق متفجراً من أعمق حاجاتنا. هذا ما يتعلمه المرء من مدخل إلى علم النفس، وهو أحد المقررات في كليّتي. لا. ما وجدته مروِّعاً في صدع السقف هو استمراره وديمومته، حقيقة أنه كان دوماً هناك. مصرّاً على مرافقتي. على أن يكون جزءاً مني.

جررت السّيبة من القبو، آملةً أنها ستسمح لي بالوصول إلى الصدع. (كان سقف بيتنا القديم هذا عالياً بصورة تثير السخرية). وعلى رفٍّ في كوخ الحديقة وجدت صندوقاً من معجون الجصّ فمزجت لنفسي رقعة كبيرة لزجة وبسطتّها على طول صدع السقف، باستخدام مِلْوَق وجدته في أحد أدراج المطبخ، وبتحريك السّيبة قدماً بقدم. لم يسبق لي القيام بمثل هذه المهمة، لكنني قرأت التعليمات المدوّنة على الصندوق بانتباه وأنجزت العمل ببراعة وترتيب. كنت دوماً مرتبة على نحو استثنائي. "عرض مرتب جداً" هي العبارة التي كان أساتذتي يذيّلون بها أبحاثي الفصليّة، إضافة إلى "تتميز بالتركيز والوضوح" و "مليئة بالحيوية".

جفّ الجص خلال نصف ساعة، فصقلته بورق الرمل، تاركةً الحبيبات الناعمة تسقط فوق أعلى رأسي وعلى وجهي، متنفِّسَةً الغبار الطباشيريّ، شاعرةً بطعمه فوق لساني. لم أجد الشعور سيئاً، بل على العكس. مع حلول الساعة الرابعة من ذاك المساء كنت قد طليت السقف كله، باستخدام فرشاة أسطوانية مثبتة على ذراع طويلة، وقبل أن آوي إلى الفراش في

تلك الليلة، غطيت السقف بطبقة طلاء أخرى.

ثم استلقيت في الظلام، ربما ثملة قليلاً بتأثير أبخرة الدهان القوية التي دوَّمت نحو الأسفل والتقت في وسط الغرفة بانبعاث إراديّ للسعادة. جاء النوم سريعاً. رحّبتُ به. كنت متحمسةً لمجيء الصباح. أردت أن أستيقظ مع الفجر الباكر وأتأمّل، من جديد، التحوّل الذي أحدَثْتُه.

لقد وقع هذا بالفعل. هذه الحادثة، هذه الرؤيا! لم يعبّر أي من أفراد عائلتي عن أي اعتراض على تصميمي على إصلاح طلاء سقف غرفة نومي. ولم يسألني أيٌّ منهم عن سبب حاجتي للسِّيبة، عن سبب بحثي في الكوخ عن فرشاة طلاء أسطوانية، وما إذا كان فعلي هذا نزوة سريعة الزوال أم إيماءة مجازية محمَّلة بالمعنى. لقد أثار هذا دهشتي، هذا الجو العام من التساهل. كانت أمي مشغولة، بالطبع، بزاويتها الصحفية الأسبوعية حول العناية بالحدائق التي كانت تكتبها من أجل الصحيفة المحلية. (السيدة الإبهام الأخضر هو الاسم المستعار الذي استخدمته). أمّا أخي وأختي الأصغر سنّاً فقد نظرا إلى ما كنت أفعله باهتمام، وربما بشيء من الحسد ـ لماذا لم يفكّرا بتحسين سقفَيّ غرفتيهما! ـ ابنة العم بيفرلي، التي كانت قد انتقلت للعيش معنا منذ سنة، قدمت لي العون بأن فرشت جرائد فوق السجادة وقدمت بعض النصائح المفيدة حول كيفية الوصول إلى الزوايا الصعبة. أما والدي، لو كان ما زال على قيد الحياة، فكان سيحاول أن يثنيني، ربما، عن القيام بهذه المهمة المملة التي تتّسم بالفوضى والقذارة، وبخاصة في اليوم الأول لعودتي إلى الديار، رغم أني لا أستطيع منع نفسي من

الاعتقاد بأنه كان سيتفهم الحافز الذي كان يدفعني.

غيرتُ حياتي خلال يوم واحد: فحياتي، إذاً، قابلة للتغيير. هذه البديهية البسيطة لم تتطلب تفسيراً. لا، بل دخلت مباشرة إلى مجرى دمي، تضاهي الهيرويين بتأثيرها: كنت أشعر باندفاعها وتدفقها، وكيف أنها جعلت أوردتي تشفّ كنوع من الزجاج. كنت قد استيقظت في ذاك الصباح إلى ضيق أفق التّسليم بالقضاء والقدر، والآن ها أنا آوي إلى الفراش في مهبّ إرادتي الشخصية. ستنفتح عيناي في الصباح على حقل أبيض صقيل مليء بالاحتمالات. السقف الذي سخر مني سخرية مهينة كان قد انكمش الآن إلى ذكرى بعيدة. لم يقتصر الأمر على أني غطيته. بل كنت قد محوته، ألغيته، أصبح كما لو أنه لم يسبق له أن كان موجوداً أبداً.

بعد ذلك، عقدت العزم على أن أصبح ودودة لطيفة. لم أكن شخصاً لطيفاً، لكني كنت واثقة بأنني قادرة على تعلم ذلك.

بدأت بأن أحرقت دفتر يومياتي القديم في الموقد، كما أحرقت الرسائل التي أرسلتها إلى عائلتي أثناء العام الأول الذي قضيته في الجامعة بعيداً عنهم، رسائل مليئة بالتكلف والمشاعر الفياضة الزائفة. ضبطتني أمي وأنا أفعل ذلك، وعبّرتْ عن قلقها. قد تندمين على هذا، قالت، قد ترغبين في تذكر ما كنت عليه في الثانية عشرة أو في السادسة عشرة من عمرك.

لكني كنت أعرف أنني لن أحتاج إلى دفتر اليوميات أو الرسائل كي أستحثّ ذكرياتي. ترعرعت كفتاة تافهة متسلطة لئيمة. كنت أنانية. كان يروق لي إيذاء مشاعر الناس. كنت

أخاطب أختي، جوان، بالآنسة المتسللة النمّامة وأخي، وارن، بالأنف ذي البثور. كنت أستبدّ بابنة العم بيفرلي وكأنها خادمة قيد التمرين، وكنت أتذمّر بسبب بكاء طفلتها الصغيرة خلال الأشهر الأولى من عمرها، كان المغص هو سبب البكاء، لكني تمكنت من الإيحاء بأنها تعاني من أذيّة دماغية أو شيء من هذا القبيل. وكنت دوماً أقصّ مقالات الحميات الغذائية من أجل أمي وأقرأها عليها بصوت مرتفع، بصوت ماكر بارد، وكنت بلا انقطاع أشير إلى الصحيفة التي تكتب لها على أنها "جريدة ضيقة الأفق". أتذكر كيف كنت. يروق للناس أن يعتبروا الذاكرة مصبّ نهر هادئ، لكن ذكرياتي عن نفسي هي أكثر شبهاً ببحيرة هائجة تضرب بشدة على الجدران الداخلية لذاتي، للشخص الذي أصبَحْتُه، للشخص اللطيف المراعي لمشاعر الآخرين الذي أصبحته.

ركزت انتباهي جيداً؛ أصغيت من دون كلل إلى الباعث والمحرك وهو ينطلق ثم ينطفئ داخل رأسي؛ كان الأمر يشبه نظم خرزات سبّحة، كان عملاً معقداً جداً دخلت صيف عام ١٩٥٥ كفتاة صغيرة، وخرجت منه كامرأة شابة. النساء، كما اكتشفت، بحاجة لأن يكنّ مشاكسات لكنهن لسن بحاجة إلى أن يكنّ لئيمات.

كان صدى ذلك لدى عائلتي ثانوياً بصورة مثيرة للدهشة، كسماع رنين أجراس بعيدة ـ وكأنّي طوال تلك السنوات حظيت بالبراءة لعدم وجود الأدلة الكافية لإدانتي: بلغت أليسْ سن النضج، قالوا. عادت أليس إلى رشدها. أصبحت أليس رصينة هادئة. تخلصت أليس مما كان يثقل كاهلها، تخلصت من

غطرستها، تخلصت من فظاظتها. ولكن، من ناحية أخرى، كانت أليس في صميمها بنعومة الزبدة على الدوام. لقد أثبتت في النهاية أنها لطيفة جداً. أوه، يمكن دوماً الاتكال على أليسْ، كانت كذلك على الدوام.

حسناً!

إليكم رسماً بيانياً لبنية عائلتنا قبل وبعد وفاة والدي.

قبل رحيله (ورم في الدماغ، خبيث) كنا أسرة صغيرة لطيفة: والدان محبان وثلاثة أطفال أصحاء. كان والدنا مديراً لمعهد الدراسات الزراعية حيث نالت أبحاثه على الحبوب المهجنة التقدير العالمي (درجة شرف مَن جامعة غويلف وجامعة آيوا)، وبعد تقاعده، الذي لم يكن أبداً فترة تبطل وكسل، كتب زاوية أسبوعية عن البَسْتَنة من أجل صحيفة أوتاوا ريكوردر، كانت والدتي تصغر والدي بثلاثة وعشرين عاماً. وقد أصبح ذاك الفارق في السن بينهما هوايتها ومهنتها، كونها زوجة فتية لزوج كهل - لقد أبقاها ذلك صبية صغيرة، وجعلها المقيمة الدائمة في برج الفتيات الصغيرات. بقيت هناك، آمنة، تحظى بالرعاية. لم تعمل خارج المنزل بل كرست نفسها للعناية بأطفالها والخياطة وتنظيف بيتها - رغم أنه كان بمقدورها الحصول على المساعدة - والعناية بحديقتها. لعبت حديقتها تلك دور عبارة مجازية في حياتها اليومية، وفي حياتنا اليومية نحن أيضاً. كانت دوماً تعد وجبات حقيقية - لحم بقر مشوي، خضار مسلوقة، فطائر وحلوى أو حلوى هلامية مُعَدة في قالب. كانت تلك الوجبات مخططاً لها، لم تحدث بالصدفة. كانت أسرتنا تجلس إلى مائدة مرتبة. كانت أمي تخترع على الدوام قطَعاً زِينِيّة

جديدة لتزيين وسط الطاولة، كانت تنتمي إلى جمهرة نساء من أواسط القرن، ممن آمنَ بأهمية القطع الزينيّة التي تزيّن وسط المائدة. نحن الأطفال كنا نتحلى بسلوك مقبول على المائدة. كنا نبقي أصواتنا خفيضة. وعلى الدوام، بعد تناول الطعام، كنت أنا ووارن وجوان نشرع في كتابة وظائفنا من دون الحاجة إلى تذكير. كنا نتلقى دروساً في العزف على البيانو مساء كل يوم أربعاء على يد امرأة تدعى ميرنا راسموسن، وكنا ندعوها خفية بالأرجواني الملكي ـ إن اعتدال هذا اللقب يقول الكثير عما كنا عليه كأطفال وعما كنا قادرين عليه. كنا نذهب في نزهات عائلية أيام السبت ـ لا أحد ممن عرفت كان يذهب في نزهات كهذه ـ وكان والدانا يعلمانا، ولكن ليس عنوةً، كيفية التعرف على الشجيرات، الأشجار، النباتات، والأزهار المتنوعة التي كانت تنمو في حيّنا أو في غابة المزرعة التجريبية.

بعد وفاة والدي ـ وحتى خلال الأشهر التي تلت تشخيص مرضه ـ تغيرت الأمور بسرعة. بدأت وجبة العشاء تتأخر عن موعدها، وأحياناً تسبقه. أصبحت تُقدَّم أحياناً في المطبخ بدلاً من غرفة الطعام، أصبحنا نتناول أشياء مثل لحم البقر المملح المعلب أو سندوتشات الجبن المسخنة. لم تكن أمي تنزع عنها مئزرها أبداً، كنا نضطر إلى تذكيرها بنزعه، لولا تذكيرنا لغادرت المنزل مرتدية المئزر. بدأت تهمل تنظيف البيت بالمكنسة الكهربائية، حتى نباتات البنفسج الأفريقي العزيزة على قلبها بدأت تذبل، وحتى نباتات السرخس الخاصة بها. يمكن تفسير جزء من هذا الإهمال لأشغال البيت بالحزن أو الارتباك، وهذا طبيعي، لكن شيئاً آخر قد وقع فخلق كل هذا التغيير. بعد شهرين فقط من جنازة والدي، تولّت أمّنا أمر زاوية البستنة في

صحيفة ريكوردر، وأصبحت توقع زاويتها باسم السيدة الإبهام الأخضر. أصبحت شخصاً مختلفاً فجأة، شخصاً يعمل. شخص يعمل "خارج المنزل"، كما درج القول في تلك الأيام الغريبة، رغم أنها، في الحقيقة، كانت تكتب زاويتها الصحفية تحت سقف بيتها، وترسلها إلى الصحيفة، بأن تمشي إلى منعطف تورّينغتون كريسّينت بعد ظهر يوم الأربعاء من كل أسبوع كي تضعه في صندوق البريد في الوقت المناسب من أجل عدد الصحيفة الذي سيصدر يوم السبت. لم أعرف أبداً ما إذا كان رئيس تحرير صحيفة ريكوردر هو الذي دعاها إلى تولّي أمر الزاوية الصحفية أم أنها هي التي تطوعت، ولكنها على نحو مفاجئ، بدأت تجلس إلى مكتب في زاوية غرفة الجلوس، مكتب والدنا القديم ذاته، تعمل بجدّ على كتابة مقالاتها، تشطب وتحذف مستخدمة قلمها ذا الطرف الكروي، ناظرةً نحو الأعلى من وقت لآخر، ضاغطةً على جبهتها وكأنها تستحث حواسها بحثاً عن جواب يروق لقرائها ويبقى في الوقت نفسه مخلصاً للحقيقة العلمية المتعلقة بالنبات. كانت أحياناً تنهض، تتجه إلى النافذة للحظة، ثم تعود إلى المكتب، مريحةً ردفيها الثقيلين فوق كرسيها، مستعدة للبدء من جديد. اتضح أنها تتمتع بموهبة لهذا النوع من الكتابة. لقد أدهشت الجميع. بدت وكأن اتجاه حياتها قد تغير بالصدفة وأدى ذلك إلى عثورها على حياتها الحقيقية.

ثم وصلت ابنة العم بيفرلي من ساسكاتشيوان بواسطة القطار، حامل في شهرها السادس، هائلة الحجم كصومعة حبوب، واستقرت في غرفة المخزن في الطابق الثالث. كانت الخطة هي أن تتخلى بيفرلي عن الطفل فور ولادته لأسرة راغبة

في التبنّي، لكن ذلك لم يحصل أبداً. لم يُطرح الموضوع على بساط البحث. وُلِدَت فيكتوريا في الموعد المحدد، طفلة جميلة، وبقيت مع العائلة. كانت تنام في سلة خاصة في غرفتي في البداية، ثم حوّلت بيفرلي الحجرة الشمسية إلى حجرة للطفلة، بأن غطت ورق الجدران القديم ذي اللون العاجي بورق لاصق جديد مزين برسوم لخرفان وفلاحات.

حدث كل هذا بسرعة. كنا أسرة عادية لطيفة عام ١٩٥٤، السيد والسيدة باركر فليت وأطفالهما الثلاثة المطواعين. ثمّ ـ وكأن وميض برق قد أصاب بيتنا ـ بقي أحد الوالدين فقط، الأم، (ذاهلة، منشغلة)، وأم عازبة وطفلتها التي تعاني من المغص، وثلاثة مراهقين: جوان المخادعة، وارن النكد، وأليس اللئيمة.

تعتقدون أن الاضطراب الشديد الذي أصاب أمي هو نتيجة لكل ذاك التحول، لكنكم مخطئون. فقد تركت الفوضى التي أصابت بيتنا عام ١٩٥٥ تتدحرج فوقها كموجة غامرة دافئة كبيرة. سرعان ما خرجت لتطفو على السطح، ووجهها المدوّر مرفوع نحو الأعلى باتجاه أشعة الشمس، سعيدة.

هذا لا يعني أننا لم نحزن على والدي.

لقد كان رجلاً وسيماً، محنيّ الظهر، طويلاً، احتفظ بشعره الكثيف حتى السبعينات من عمره. كان يمشط هذا الشعر من الجبهة إلى الوراء بطريقة أوروبية غريبة. كان جبينه صقيلاً ناعماً، أبيض، خلو من التجاعيد، ونظيف. كان له عنق عريض يناسبه ارتداء الياقات وربطات العنق، لكن ذراعيه وساقيه الطويلتين وقامته المتثاقلة تذكرك بأنه كان فتى ريفياً يوماً، نشأ

في ريف مانيتوبا، ولد في القرن الماضي. على الرغم من لطفه، على الرغم من صبره وحلمه، كنت أجده أباً مثيراً للحرج، بتهذيبه الزائد، وتنحنحه الدائم، بكونه ليس على سجيته، ومسنّ، مسنّ جداً، ولكني افتقدته بعدما رحل.

أمي أيضاً أفتقدته. في الأيام الأولى التي تلت جنازته، أصبحت كئيبة مثقلة الحركة وكأنها تحاول التنفس عبر غشاء غير نَفوذ، تاريخها، زواجها، كل ذلك قد ذهب أدراج الرياح. ولكنها سرعان ما أصبحت السيدة الإبهام الأخضر. وانزلقت ذاتها القديمة عنها كسترة أكبر من مقاسها.

تجلس، منذ سنوات، إلى مكتبها كل صباح، وهي ما تزال مرتدية مبذلها وخفّيها، وتكتب عمودها كتابة عادية من دون اختزال، مسودة أولى، ثم ثانية، ثم ثالثة، ثم تصحيح النص بعد أن تطبعه ابنة العم بيفرلي. شعرها المجعد الرمادي اللون المنكوش يغطي جبهتها وأذنيها ـ أحيانا تمشط شعرها قبل الشروع بالعمل، وأحياناً لا تفعل. تستغرق في ما تفعله لدرجة أنها لا تسمع صوت رنين الهاتف، لم يتوقع أحد منّا أن لديها هذه القدرة على الاستغراق. كانت تتناول، على سبيل المثال، التكاثر اللا تزاوجي لنبات اللوبيلية في أحد الأسابيع، ثم تتحدث عن كيفية زرع شجرة المطاط بطريقة الغصين المرقّد، حيث يطمر الغصين في الأرض بحيث يصبح له جذر جديد مع بقائه متصلاً بالنبتة الأم. وعندما لا تكون مشغولة بالكتابة، تنهمك في الرد على رسائل قرائها ـ بمعدل عشرين رسالة أسبوعياً ـ أو تنهمك في البحث عن أفكار جديدة أو أرشفة معلومات عن العناية بالحدائق في خزانة أرشيف والدي القديمة.

استمرت في هذا العمل لمدة تسع سنوات، ولكن كل ذلك قد انتهى الآن، بصورة مفاجئة.

لقد فقدت وظيفتها. أُسْنِدَت مهمة كتابة زاويتها إلى رجل يدعى بينكي فولهام، وتمّ التخلي عن أمي، وهي في التاسعة والخمسين من العمر. تلقت أوراق صرفها من العمل. طُرِدَت ـ وألقيت في هوة من اليأس أكثر عمقاً وحدّة واتساعاً مما عانته نتيجة وفاة زوجها أو سوء تصرف أولادها. كانت، منذ عام مضى، تجلس إلى ذلك المكتب وشعرها يطنّ حول رأسها وكأنه شيء حيّ، وقلمها يزحف بعجلة فوق الورقة. كانت السيدة الإبهام الأخضر، تلك الشخصية المحلية البارزة، أما الآن، فقد عادت لتكون السيدة فليت من جديد. لقد اختبرت، لفترة قصيرة، شعور أن يكون لدى المرء وظيفة يؤديها. ذاك الشعور بالرضا الذي يحدد مجرى الحياة. الشعور بنص مطبوع ومطوي داخل ظرف. ثم وصول شيك مكافأتها عبر البريد. هي الآن تشبه مخزناً كبيراً للحزن بواجهاته العريضة الصامتة التي تعرض فيها الرفض وقلة الانتباه والإهمال، مخزن عاطل عن العمل، بابه مقفل.

أقيم على بعد آلاف الأميال، في إنجلترا ـ في هامستيد تحديداً ـ لكني ابتعدت عن زوجي العزيز لأسابيع، وعن طفلينا الصغيرين، بينجي وجُودي، وعدت إلى الديار كي أرى كيف تجري الأمور. وجدت أمي جالسة في الحديقة، متمسكة بذراعي الكرسي المجدول من الخيزران، ذقنها غائرة ومسنة بصورة غريبة، فمها دائري، يائس، يقول، "لا أستطيع أن أعتاد على هذا. لا أستطيع التغلب على هذا".

أنتم بالطبع لا تتوقعون من أليسْ فليت داونينغ أن تؤمن بالوجود الحقيقي لأمها، هل تفعلون؟

صحيح أنها تحب أمها، صحيح أنها ابنة بارّة ـ ألم تقطع كل هذه المسافة عبر المحيط كي تحاول أن تخرجها من كآبتها؟ لكن المشكلة هي أن أليسْ لا تعرف من أين تبدأ. فهي، بطريقة غريبة تدعو إلى السخرية، لم تعرف أمها لفترة كافية، لم تعرفها كما عرفتها أنا، منذ طفولتنا في بلومينغتون، إنديانا، عندما كنا فتاتين في الحادية عشرة من العمر، بشعر مضفور في مؤخرة الرأس ـ في الواقع، أنا التي كان شعرها مضفوراً إلى الوراء أما دايزي فكان لديها شعر جعد بطبيعته ـ يا إلهي! ـ كانت تدعو نفسها بالكرة المجعدة المتنقلة. في ما بعد، عندما راجت قصة الشعر المجعدة، شعرتُ بالامتنان، لكنها في ذلك الحين، أواخر الأربعينات، كانت تقيم في كندا، متزوجة من رجل يدعى باركر فليت، وأمّ لثلاثة أطفال، أليسْ هي الأكبر سناً بينهم.

ليس بمقدور أليسْ أن تتمالك نفسها، فهي تولي أهمية مَرَضِيَّة للعمل. وهي ليست كما كانت الشابات الصغيرات في عصرنا، اللائي كنّ يتذبذبن بين التقاليد ونوبات من التمرد. كما أن لديها اهتمامات جدية خاصة بها كوّنت عنها أحكاماً جامعةً مانعة. إنها في الثامنة والعشرين من العمر، يتوقع المرء منها أن تحيا حياة حافلة، تخرج مع شبان في ريعان الشباب، تنعم بالحب والأمان، مسترخية في الأماكن العامة، تداعب أوتار غيتار وتدخن الحشيش وتدع حياتها تنجرف بشكل حلو نحو

الخراب. ولكن لا، فقد تدبرت لنفسها زواجاً مناسباً من بروفيسور صغير في الاقتصاد، وتعيش في بيت إنكليزي فائق الروعة كما في حكايات الجان، وقد أنجبت طفلين رائعين، كما نشرت كتاباً متوسط النجاح بعنوان مخيلة تشيخوف، وتعمل الآن على كتاب آخر يبحث في الجانب الأنثوي لتشيخوف ـ لخصتْ لي هذا المشروع الجديد في رسالة دسّتها داخل بطاقة التهنئة بعيد الميلاد. وهذه صفة أخرى من صفات أليسْ: فهي ترسل بطاقات معايدة في عيد الميلاد. لديها نزعة لا تُقاوَم نحو التمسك بأفراد أسرتها وأصدقائها المنتشرين بعيداً في عناق شديد، ويتسع إحسانها ليشمل صديقات أمها منذ عهد الطفولة، وفي المقام الأول أنا ولابينا غرين ديوكس، التي انتقلت أخيراً للعيش في فلوريدا والتي قالت لي بأن أليس، برأيها، هي الآنسة التي تجسد الاستقامة والصلاح.

تخاطبني أليسْ في رسائلها الصغيرة وبطاقات المعايدة التي ترسلها إليّ بـ "الخالة" فريدي، وأقرأ في تلك التحية الخاليّة ادعاء حق عليّ، كما أقرأ احتراماً غير نفعي، ومحبة أيضاً. وكانت آخر مرة رأيتها يوم تعميد جودي الصغيرة في أوتاوا ـ وهذه ندبة غريبة أخرى في نفس أليسْ: فهي لا أدْرية لكنها مع ذلك تعمّد أطفالها، بل في الواقع تأتي بهم عبر الأطلسي ليُكَرَّسوا بمسحهم بمياه كندية نقية مقدسة بحضور من هو نقي وغير نقي من أفراد العائلة والأصدقاء. فالشعائر، على حد قول أليسْ، هي الرابطة التي تبقي المجتمع متماسكاً، الشعائر هي صورة مكبرة عن أصغر دوافعنا وأكثرها غموضاً، الشعائر هي السد المانع بين المخ والمخيخ. لدى أليس نظرية، وأحياناً عدة نظريات، عن كل صغيرة وكبيرة، وعن كل إيماءة لدى الإنسان.

بعد رشّ جودي الكنسيّ في الحديقة الرائعة في أوتاوا، وقفتُ وأليسْ، كلٌ تحمل كأساً من الشمبانيا، بدأنا نثرثر حول كتاب لغز الأنوثة(١٥). أدركتُ أنها فوجئتْ بأني قرأته. فقد كانت تعتقد، كالعديد من الشبان والشابات، بأننا نحن المسنين قد أغلقنا صماماتنا منذ أمد بعيد وتقبّلنا الاستسلام التام للمستقبل. اتسعت عيناها بالدهشة عندما انتقدتُ مبالغةَ بيتي فريدان عندما اعتبرتْ أن العمل هو الخلاص. "عملُنا هو نحن!" صرخت أليسْ"، لا يمكن الفصل بين العمل والذات".

"يا للهول"، فتحت فمي كي أقول معترضةً.

"انظري إلى أمي"، قاطعتني أليس، وقد خفضت صوتها، لكنها لم تخفضه بالقدر الكافي، مشيرةً باتجاه الليلك المزهر حيث وقفت دايزي في دائرة من الأصدقاء، بجسدها الذي ازداد عرضاً ليصل إلى قياس ١٨، والصغيرة جودي مستكينة في انحناءة مرفقها. "قبل أن تصبح أمي محرّرة لزاوية خاصة في جريدة، لم يكن لديها أي شعور بقيمتها الذاتية على الإطلاق. على الإطلاق! حقاً، عندما نفكر في الأمر، سنجد أنها قبل ذلك كانت تعمل كنوع من العبيد في مجتمعنا. فلم تكن تتلقى أجراً. ولم تكن تُقَدَّر حق قدرها. كانت نكرة. والآن، انظري إليها. فقد أصبحت" ـ وهنا توقفت أليس باحثةً عن الكلمات المناسبة، مشيرة بيدها نحو الليلك المتمايل ـ "لقد أصبحت، كما تعلمين، شخصاً حقيقياً".

---

(١٥) لغز الأنوثة: كتاب من تأليف بيتي فريدان حول المرأة صدر في مطلع الستينات. (المترجمة)

العمل هو العمل، أردتُ أن أقول لأليس، فأنا أعْلَم الناس بذلك. لا يعني العمل فقط الجلوس في زوايا مكتبات شحيحة الضوء وإصدار دراسة كل عامين. بل هو أيضاً جرس المنبه الذي ينطلق في الصباحات الشتائية الباردة المظلمة وقد نسيتِ أن تكوي البلوزة الخضراء التي تناسب بدلتك الرمادية، والسيارة لا تعمل كما يجب، وأنت لا يمكنك تحمّل نفقات إصلاحها هذا الشهر لأن أربع سنوات مرت منذ فكر المجلس الرسمي لصالة عرض الأعمال الفنية في مقاطعة مونرو بزيادة راتبك أو حتى بإرسال رسالة إطراء، وفوق كل ذلك، تمر أحياناً صباحات كاملة من دون أن يأتي أي شخص إلى الصالة، وإن أتوا فإنهم يقفون هناك متذمرين حول المعارض ويقهقهون ويبتسمون بتكلّف أمام اللوحات التجريدية، مُوحين أن أطفالهم الأعزاء في روضة الأطفال لا يحتاجون سوى الألوان كي ينجزوا لوحات تضاهيها، علاوة على ذلك (إحمْ، إحمْ) هذه الصالات تُمَوَّل من أموال دافعيّ الضرائب في حين أن ما يرغب به الجميع حقاً، لكنهم يخشون قوله، هو لوحات جميلة لمناظر طبيعية، حقول وسماء وخط أفق يشبه حقاً خط الأفق، إكراماً لله. وماذا أيضاً؟ حسنٌ، هناك الاجتماعات مع المجلس وترتيب الكتب على الأرفف والدعاية التي كثيراً ما تخفق لسبب ما وسُبل التمويل التي تنضب وطلبات الحصول على منح التي تقدم إلى الجهات غير المناسبة وتأخر وصول البيانات المصورة من دار النشر، والمجانين الذين يتصلون في كل الأوقات ويتوسلون إليك كي تلقي نظرة خاطفة على أوراقهم، أنت مدينة بذلك، أنت مدينة لهم، فمن أنت بحق الجحيم سوى موظفة يُبالَغ في تمجيدك.

وبعد ذلك ـ في الفترة الأخيرة على الأقل، منذ رحيل مِل ـ تعودين إلى البيت، إلى كأس من الويسكي وصحن من البيض المقلي، أو ربما تتوقفين في المكتبة كي تري العناوين الجديدة التي وصلتهم، ثم تأوين إلى الفراش في ساعة مبكرة لأنك تعانين من صداع حاد وأحياناً قبل أن تغلقي عينيك مباشرة تفكرين بصديقتك القديمة دايز التي تقيم في كندا مع أطفالها، وكيف أن أيامها ملك لها، وكيف أنها تقضي أوقاتها بحسب إيقاعها الخاص، فاردةً تعاليم التدبير المنزلي الجيد في كل مكان، وتحصل على مكافأتها عبر إنجازات الآخرين الذين هم على استعداد لأن يتوجوها بأكاليل الغار ويخبرونها عن مدى امتنانهم، بانحناءة إلى الأمام، لأنها أم حقيقية، لأنها لا ترهق نفسها في السعي وراء الدولار المقدس مثل صديقتها القديمة، فريدي هويت، من بلومينغتون، إنديانا.

حسنٌ، على الأسرة من وقت لآخر أن تستسلم لتقييم شخص من خارجها. يمكن لأسرة ما أن تُدفن تحت غبار قصصها الخرافية بالذات، مما يقود مباشرة، برأيي، إلى الخروج بالأكاذيب المختلقة في نُتَف تافهة عاشتها معاً ضمن تاريخها الذي استولدته بنفسها. فعائلة فليت، على سبيل المثال، قد بالغت دوماً بأهمية العمل. باركر وحبوبه الهجينة. أليسْ ودراساتها للأدب الروسي. وارن وموسيقاه. جوان و ـ وأيّاً كان ما تفعله هناك في نيو مكسيكو ـ ولهذا، من الطبيعي أن يعزوا انهيار دايز إلى فقدانها لزاويتها الصحفية. هذا ما اعتقدته أنا نفسي خلال الشهر الأول، لكنني تدريجياً توصلت إلى الاعتقاد بأن فقدان "وظيفتها" لم يكن سوى الشرارة التي أطلقت التوق الشديد الذي قمعته طوال حياتها.

الجنس هو ما أشير إليه هنا، وماذا غيره!

هذا لا يعني أنه سبق لنا، أنا ودايزي، أن تحدثنا عن الجنس. في الواقع، لم نتحدث عن ذلك منذ مدة طويلة، مذ كنا فتاتين شابتين تحاولان حلّ لغز الاتصال الجنسي: كم يستغرق من الوقت؟ مقدار الألم الذي يسببه؟ هل من المفترض أن يتحدث الشخصان أثناء ممارسته، ويهمسان بكلمات التحبب وما إلى ذلك؟ ما هو الشعور المرافق لـ"هزة الجماع" وكيف يمكن للمرء أن يتأكد بأنه توصل إليها أم لا، ولماذا تعتبر هامة، وهل التظاهر بالوصول إلى هزة الجماع يعتبر غشاً؟ وما إلى ذلك.

ثم فجأة أصبح من العيب أن نناقش حياتنا الجنسية.

أعتقد أن كلتانا أرادت أن تتحدث في الأمر. وعندما كنا نلتقي، كانت كل منا تقوم ببعض الإيماءات الخرقاء في ذاك الاتجاه، لكنّا لم نتمكن أبداً من العثور على موطئ قدم مشترك. هناك مسافة كبيرة بيننا، الكثير من التفاوت، يمكنكم القول. التفاوت الكبير في ما بيننا. دايزي مع زوجها باركر المتثاقل، ذاك الوجود المخنث ـ وربما، وربما لا، علاقة عابرة مع محرر في صحيفتها، كان يدعى جِاي ددلي، الذي تبين أنه تافه بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حين منح وظيفتها لشخص آخر وكأنه ملك يكرّس سيداً جديداً ـ حسناً، هذا يلخص تجربة دايزي الجنسية، وهي تجربة تافهة بتقديري الشخصي. وعلى الجهة الأخرى من السياج، ها أنا ذي أجلس مع عشاقي الثلاثة والخمسين، وربما الأربعة والخمسين. لقد عشت حياة صاخبة جريئة نشطة، وأشكر طالعي المحظوظ على ذلك، وأرفع نخب

جيش عشاقي المكون من أربعة وخمسين رجلاً ـ هكذا أراهم، جيش صغير يسير بأناقة والشمس تسكب ضوءها على رؤوسهم وأكتافهم الجميلة.

احتفظت بما يساعدني على تذكرهم بدقة. قد يكون اعترافي هذا شريراً، لكني أعترف بأني أقتني دفتر مذكرات صغير دوّنت فيه موجزاً عن التواريخ، الأحرف الأولى من الأسماء، ملاحظات مرجعية حول الانتماء الجغرافي لكل منهم، ملاحظات مشفّرة تعود بدايتها إلى ١٩٢٧ : أمد استمرار العلاقة، الوضعية، التكرار، درجة الاستجابة، وما إلى ذلك.

صادفت عشيقي الرابع والخمسين "الشبحيّ" منذ أسابيع على متن قطار متجه نحو أوتاوا. لم نتبادل الأسماء، تبادلنا فقط قصتين مرهقتين مليئتين بالبكاء. كان كلانا قد احتسى كمية كبيرة من الويسكي في بار القطار، وكان الوقت متأخراً، لا أعرف إن كنا قد مارسنا الحب أم لا، قبل أن نغفو، وكلانا عارٍ بصورة موحشة فوق البطانية الخشنة لمضجعي السفلي. لديّ انطباع ذهنيّ عن بطن رجل كثير الثنيات، ورديّ اللون، يضغط على جسدي. لديّ ذكرى، تشبه فيلماً بالأسود والأبيض، بأننا أحدثنا ضجيجاً كبيراً، بأننا جعلنا من أنفسنا موضوعاً للسخرية. كان قد غادر ـ حمداً لله ـ عندما فتحت عيناي في الصباح. ولم يُبْدِ جسدي، جسدي البالغ من العمر ستين عاماً، أي استعداد لإخباري بما حدث، عدا شعور بعدم الراحة "هناك في الأسفل" يمكن تفسيره بأي شيء، شعور بالجفاف محير. حلّت علامة استفهام في دفتر اليوميات بدلاً من المعلومات المعتادة. قرأتُ في علامة الاستفهام تلك النهاية المحتملة لحياتي

الجنسية. قرأت شيئاً ما له علاقة بالخزي والعار، رغم أني لست على استعداد للاعتراف بذلك بعد.

ما الذي ترغب به النساء، سأل فرويد، ذاك الأحمق العجوز، الدجال المشعوذ. كان يعرف جيداً ما ترغب به النساء. فهنّ لا يرغبن في أي شيء. إذ إنه لا يوجد ما هو جيد بما فيه الكفاية. الجميع يعرفون ذلك. الجميع ما عداي.

كان سبب رحلتي إلى أوتاوا هو محاولة التخفيف عن صديقة قديمة تعاني الحزن والكآبة. كتبتْ إليّ طالبةً مني عدم القدوم بالطبع، وقالت أن بيفرلي، ابنة أخ زوجها، تقدم لها العناية اللازمة، وبأنها ليست رِفْقَةً لائقة في الوقت الحالي، لكنني طبعاً ذهبت إليها رغم ذلك. اعتقدتُ، مخطئةً، بأني سأتمكن من إعادتها إلى أوقاتنا الأكثر مرحاً، نابشةً قصصاً قديمة، القصص المضحكة أو الوجدانية أو التي تتعلق ببداية الصداقة بيننا. كنت أعتقد أننا، بعد أيام عدة، قد نفتح هذا الموضوع المحرّم، موضوع الجنس، وندع أفكارنا تنطلق حرة عفوية.

تمرّ لحظات تبدي المرأة فيها رغبة في الكشف عن سر ذاتها، سبق أن شهدتُ حدوث ذلك. كل تعاطف أليسْ العنيف سيبدو لا شيء مقارنةً بلحظة بوح بين أصدقاء قدامى. إن الذات منحنية كالفضاء، حاولتُ أن أقول لصديقتي من عهد الصبا، ويمكن للمرء أن يصادف مراراً وتكراراً حدة الإثارة التي خبرها في مطلع الشباب. إن النشاط الجنسي، على الرغم من إرباكاته وإزعاجاته الشنيعة، هو الطريق الذي يوصلنا إلى مملكة الوجد والنشوة، الطريق الوحيد. إنه قوة أكثر غموضاً وجبروتاً بكثير

مما كنا نظن عندما كنا فتيات نثرثر حول "بلوغ الرعشة" والسباحة في العرق المالح. أردت أن أحدّثها عن البرفيسور بوبكوف، أول رجل استسلمت لإغوائه، وعن جورجيو، ووضعياته الرياضية التي لا تنتهي (أطلقت عليه لقب: الغدة التناسلية الملكية)، وعن مِلْ المسكين الذي صمد أربع سنوات فقط قبل أن ينجرف نحو الضعف والهشاشة. كنت أنوي ألا أخفي عنها أي شيء، حتى مغامرتي التي تدعو للرثاء على متن القطار. أقنعت نفسي بأن محادثة صريحة من شأنها أن تزيح عن صدر دايزي كل ما أودى بسعادتها وحولها إلى امرأة مخبّلة.

لكن الأسبوع الذي قضيته هناك كان كارثة. لم تستجب لكل محاولات إخراجها من غرفة نومها المظلمة. بقيت مستلقية على ظهرها، عضلات عنقها وكتفيها في تشنج مؤلم، واستمرت في خسران أرطالها الجليلة رطلاً بعد آخر. "لا تجبريني على التظاهر بالحيوية والنشاط"، قالت لي مرة عندما أحضرت لها صينية غدائها. "فالأمر يتطلب الكثير من الجهد".

عدت إلى موطني في بلومينغتون وكتبت لها رسالة مليئة بالتشجيع. حول المستقبل. حول شروق الشمس من جديد. حول الابتهاج الذي تولّده الأجيال القادمة. وما إلى ذلك.

بعد مرور أسبوع تلقيت ظرفاً يحمل عنواني مدوناً بخط يدها. لم يحتو على أي رسالة، فقط دفتر يومياتي الصغير بمحتوياته الملغزة. لا بد أنه سقط مني على السجادة وأنا أغلق حقيبتي.

نظرية ابنة العم بيفرلي.

منذ عشر سنين، في ساسكاتشيوان، أوقعتُ نفسي في ورطة. لم يكفني أنني كنت امرأة مطلقة، وذاك بحد ذاته، دعوني أؤكد لكم، كان يُعدّ جريمة في تلك الأيام، لكن ما تلا ذلك كان أسوأ. بعد عامين من طردي لزوجي (الذي كان سكيراً منذ اليوم الأول لزواجنا)، أقمت علاقة مع ليونارد مازوركيويتش الذي كان يعمل في مصنع المخلل (متزوج، أحمق)، والذي كانت فكرته عن ممارسة الحب ـ حسناً، مجرد التفكير بذلك يثير أعصابي ـ ولكن، على كل حال، لم يكن الأمر يستحق المجازفة، ثلاث دقائق من النخر والأنفاس الكريهة الرائحة، وفجأة، وجدت نفسي حبلى.

أردت الذهاب إلى كالغاري لكنني كنت خائفة جداً. تخيلوا، أنا، خائفة! أنا التي عملت في وإنقاذ الجرحى والعناية بهم أثناء الحرب، هناك بعيداً، في بريطانيا. تحت وابل القنابل وكل شيء. مررت بكل ذلك وخرجت منه حيّة. كنت شجاعة عندما كنت يافعة. ثم عدت إلى ساسكاتشيوان في نهاية الحرب وغادرتني جرأتي وغروري. وهناك وجدت جيري، كان مولعاً بي وطاردني كي أقبل الزواج به. كذلك فعل والديّ. وأخواتي أيضاً، والجميع. وجدت نفسي وسط حماس وضغط شديدين. حدث ذلك بسرعة. الغريب في مسألة الزواج من جيري هو عجزي عن الحمل مهما جربنا من الوضعيات البهلوانية الجريئة. يا للغرابة. ـ وبعد الاضطجاع مع ليونارد مازوركيويتش بعد منتصف إحدى الليالي، لمرة واحدة فقط، وجدت نفسي في حالة مربكة. بعض الفتيات يلجأن إلى

الانتحار عندما يوقعن أنفسهن في ورطة كهذه، لكني لم أفكر في ذلك ولو لدقيقة واحدة، والسبب في ذلك هو أني كنت ما زلت قادرة على إغلاق عينيَّ وتذكّر ما كنت عليه هناك في بريطانيا، والشجاعة والحيوية الكامنتان في داخلي ـ تضيء هذه الصورة أمامي كرسم على صفحة روزنامة أو كمشهد من فيلم، الصورة التي كنت عليها، وتدفعني إلى الاعتقاد بأني قادرة على استعادة ذلك، ولن أتمكن من ذلك إذا انتحرت، هذا مؤكد.

زوجة عمي، دايزي، فتحت لي بيتها. كنت واحدة من أفراد العائلة. سمحت لي بطلاء غرفة التخزين في السقيفة باللونين الأبيض والوردي، وتزويدها بالستائر ـ وهكذا أصبح لي غرفة نوم خاصة، حيث لن يعبث أحد بأشيائي، وفي ما بعد، بعد ميلاد فيكتوريا، قالت، "لماذا لا تحوّلي الغرفة المشمسة في الطابق الأرضي إلى غرفة نوم خاصة بالمولودة؟" ففعلت.

كان وزن فيكتوريا لويس ثمانية أرطال إنكليزية ونصف عند مولدها وهو أمر مثير للدهشة عندما نتذكر أن وزني أنا حينها لم يتجاوز التسعة وثمانين رطلاً إنكليزياً، فقد ورثت النحول عن عائلة والدي، آل فليت، كما ورثت قصر القامة عن أسرة أمي. كانت طفلة هنيّة بعد انقضاء فترة المغص التي مرت بها. ولدتْ بشعر أصفر ناعم رائع. هي الآن في التاسعة من عمرها ويا لها من دمية! أشكر الله على أنني لم أتخلّ عنها للتبنّي كما كنت قد عزمت. أعتني بها جيداً، أخيط ملابسها بنفسي، أحضر الاجتماعات في المدرسة وأتحدث إلى معلمتها، وما إلى ذلك، وأجبرها على أن تكون هادئة في البيت كي لا تزعج العمة دايزي. كما أتولى القيام بأعمال المنزل، وغالباً ما أعد الطعام

للعائلة، وأكسب بعض المال الإضافي من خلال عملي في طباعة سندات التأمين. كما أرعى الآن العمة دايزي التي تعاني من انهيار عصبي.

أنا شخصياً لا أعتقد أن التغيّر الذي حدث في حياتها مسؤول عن حالتها الراهنة، كما لا أعتقد أن الحساسية التي تعاني منها مسؤولة عن ذلك أيضاً. أعتقد أن الأولاد هم سبب انهيارها. كونها أرملة يجعلها تشعر بمسؤولية مضاعفة، أنا أتفهم ذلك، ولكن، من ناحية أخرى، بعض الأشخاص هم أكثر ميلاً للقلق من غيرهم. اعتادت أن تقلق حول ابنتها أليسْ التي كانت صعبة المراس ـ وكم كانت كذلك. ثم كانت قلقة حول ابنها وارن، الذي كان ولداً لطيفاً لكنه كان باهتاً مملاً. كان يعاني من حبّ الشباب مما جعله خجولاً ومملاً، ولكن في الحقيقة، بعد عمر معين، لا أحد يبقى باهتاً مملاً، يصبحون إمّا لطفاء أو "فردانيّين" . هذا ما لاحظته. في هذه الأيام أصبح وارن شاباً كغيره من الشبان ـ كما تحسنت بشرته كثيراً أيضاً ـ وهو هناك في روتشستر، نيويورك، يسعى لنيل درجة الماجستير في نظرية الموسيقا، وهو الأول على صفه، صاحب الميدالية الذهبية. كانت العمة دايزي تخطط للذهاب إلى هناك وحضور حفل التخرج، حتى أنها ابتاعت لنفسها قبعة صغيرة مستديرة فاتنة، لونها أخضر مائل إلى الصفرة، لكن تلك الخطة أصبحت لاغية الآن. فهي بالكاد قادرة على جرّ نفسها خارج الفراش، تكتفي بالاستلقاء هناك في الظلمة وتبكي كثيراً وتفتل الملاءات بيديها، تلوي تلك الملاءات وكأنها تلوي عنق شخص ما. أعتقد أن جوان هي من تثير قلقها الآن، جوان الصغيرة، أميرة العائلة، التي أفسدها الدلال؛ إنها حادة الذكاء، إلا أنها الآن تدخن

الأفيون وتفعل ما لا أعرفه، مما يفعله الهيبيون. تقول إنها تبيع الحلي هناك في نيو مكسيكو، لكني أراهن بآخر دولار أملكه على أن ما تبيعه هو أكثر بكثير من الحلي. وهذا يحطم قلب أمها. ويقتلني الألم وأنا أشهد ذلك. أنقذتْ العمة دايزي حياتي، وهذا ليس مبالغة، فقد آوتني وفيكتوريا، وأنا أريد أن أنقذها الآن، لكنها الوحيدة القادرة على إنقاذ نفسها. يمكن لشخص ما أن يوقع نفسه في الكآبة وعلى ذاك الشخص نفسه أن يجبر نفسه على الخروج من الكآبة، تلك هي نظريتي الشخصية.

نظرية وارن

إن أمي امرأة متعلمة، لكن هذا لا يظهر عليها أبداً. حصلتْ على درجة في الفنون العقلية من كلية لونغ للبنات، دورة عام ١٩٢٦، ولكن إذا سألها أحدهم أين شهادة الدبلوم التي حصلت عليها ستجيبه بهزة مستخفّة من كتفيها. عثرتُ مرةً على صندوق كرتونيّ في الأعلى، في غرفة التخزين ـ حدث هذا عندما نظفنا الغرفة كي تتمكن بيفرلي من المكوث فيها ـ وكان داخل الصندوق مجموعة كبيرة من المقالات التي كتبتها أمي عندما كانت طالبة. كانت إحدى المقالات تحمل عنوان: "كاميلو كافوَر: رجل دولة وحالم". لم أستطع التصديق بأن أمي قد سمعت على الإطلاق بـ كاميلو كافوَر (أنا بالتأكيد لم أكن قد سمعت به) ولم أصدق أنها قادرة على الكتابة بتلك الجدية، والحماس حتى، حول فترة غامضة من التاريخ الإيطالي في القرن التاسع عشر. كان الحبر ما زال واضحاً وزاهياً بعد مرور كل تلك السنوات ـ كانت تلك دوائرها وشَرْطاتها، فقراتها واستنتاجها المحلّق: إن الإيطاليين في كل مكان مدينون لهذا البطل المنليثي

الذي حارب من أجل حقوق مواطنيه و...

أين ذهب كل ذلك، أين ذهبت طاقة وحرية أمي الفكريّتين؟ لم تذكر لعائلتها يوماً أي شيء، بحسب ما نذكر جميعاً، عن الاستقلال الإيطالي. أو عن القرن التاسع عشر. أو عن نظريتها حول المدن ـ الدول على البحر الأبيض المتوسط، التي وصفتها بوضوح على صفحات مقالتها التي تعود إلى العام ١٩٢٦. لم يخطر ببالي يوماً أنها تهتم بأزمة الفلاحين الإيطاليين. في الواقع، لا أعتقد أنه سبق لي أن رأيت أمي تقرأ كتاباً عدا روايات الحب التي استعارتها من المكتبة، ربما، أو بعض الكتيبات حول كيفية استيلاد أنواع أفضل من الأضاليا. عندما أفكر حول مقالة أمي حول كاميلو كافوَر، لا أستطيع تمالك نفسي من الشعور بأني تعرضت لعملية تدمير مخادعة، دعابة مبتذلة محتجزة داخل صندوق مدفون تحت الأرض. ثم أفكر: إذا كنت أنا أشعر بأني تعرضت للخداع والغش، من المؤكد أن شعورها بالتعرض للخداع والغش أعمق بكثير. لا بد أنها في حالة حداد بسبب تبديد ذاتها. شيء ما، أحد ما، قام بقطع رأسها، بخلع لسانها. أمي امرأة كهلة في متوسط العمر، امرأة من الطبقة الوسطى، امرأة تتمتع بذكاء متوسط وشعور متوسط بالأنا وبحظ متوسط أيضاً، وبالتالي يتوقع المرء لها أن تهبط في مكان ما قرب وسط (منتصف) العالم. لكنها، بدلاً من ذلك، قد حطت على الحافة. ويمكن لأي اهتزاز بسيط أن يرديها.

نظرية جوان

تعاني أمي من المرض هذا العام، الكل يدعو حالتها انهياراً عصبياً، وقد أرسلت شقيقتي أليس النقود إليّ كي أتمكن

من زيارتها. كتبتْ إلي رسالة طويلة جداً تقول فيها بأنها فكرت بالأمر مراراً وتوصلت إلى الاستنتاج بأني الأقدر على إخراج أمّنا من كآبتها، وأن حضوري بجانبها سيكون بمثابة تناول "كأس مليء بالدواء" . تلك هي أليسْ. إنها شخص يوظّف من حوله دائما.

لقد توقعتُ أن أجد أمي في حالة خدر وسبات، لكنني وجدتها في حالة غضب شديد. يبدو أن رجلاً يدعى بينكي فولهام قد انتزع منها عمودها الصحفي. كل تلك الساعات التي كرستْها للكتابة حول شجيرات الأزهار وتخوم الحدائق المزروعة بها، تصبّها الآن لتغذي كراهيتها لبينكي فولهام. إنها تعجز عن الحديث أو التفكير بأي شيء آخر. لقد اختزلت نفسها إلى هذا الانحراف الصغير عن تحقيق العدالة، وهي تضرب قبضتيها ببعضهما و تعيد وتكرر المشهد الأخير معه، ما قاله وفعله من أشياء لا تغتفر، وبخاصة ملاحظته الختامية التي كانت، على ما يبدو: "آمل أن لا يؤثر هذا على صداقتنا" . قالها بمرح، بوحشية، كما يقول الناس عادة مثل هذه الأشياء، من دون أن يلاحظ ، حتى، كمْ طعنَ هذا أمي في الصميم، وكم سحقتها لامبالاة هذا الافتراض والاستخفاف.

وهي الآن لا تستطيع التوقف عن التفكير في ذلك. تستلقي في فراشها وتعيد في مخيلتها هذا الحوار الأخير مراراً وتكراراً، وكيف ذهبت إلى مكتبه في مجلة ريكوردر وناشدته، وكيف التفت نحوها بتلك العبارة اللامعقولة: "آمل ألا يؤثر هذا على صداقتنا" . تسرد أمي المشهد لي، مرة بعد أخرى، متحدثة بانزعاج وألم، باكية، ورأسها يترنح إلى الأمام والوراء في نوبة

جنون مؤقت، متوسلةً إليّ كي أنضم إليها في معاناتها.

كان قد مضى على وجودي في البيت أيام فقط عندما أدركت أنها تتلذذ بكل هذا، بالقوة النقية الجميلة لكراهيتها لبينكي فولهام، بالنشوة الغامرة المصاحبة للشعور بأنها مظلومة. ينطوي الأمر على نوع من الجلالة والعظمة. لم يسبق لشيء في حياتها أن أوصلها إلى ذروة انفعالية بهذه الحدة ـ فلماذا لا تعشق هذا الشعور إذاً، هذا الإحساس الشديد بالإنجراح، نكهة هذا الألم البالغ الكمال ؟

أمسكت بيدها وتركتها تعيش غيظها الشديد.

نظرية جِاي دذلي

أنا أشعر بالذنب طبعاً حيال ما حصل، كيف لي ألا أشعر بالذنب، رغم أني في الواقع لم أحاول إغراءها يوماً، إذا استخدمنا التعبير السائد. (أعترف أن زواجاً واحداً كان كافياً بالنسبة لي). لكني كنت شديد الولع بها. كانت لنا لحظاتنا، كان أجملها فوق فراشها العتيق الطراز ذاك، بلوحته الرأسية المنجدة، كشيء خارج من فيلم من أفلام الثلاثينات. حسناً، كان ذلك جميلاً، بل أكثر من جميل، ولكن كان واضحاً أن في ذهنها ترتيباً أطول أمداً بخصوص علاقتنا، هذا لا يعني أنها ذكرت شيئاً عن ذلك، ليس بصورة مباشرة. على كل حال، بدا لي أنه من الأفضل أن أبقي على مسافة بيننا. لم أتوقع أن يجرح ذلك مشاعرها بهذا القدر، وأن "صداقتنا" ـ وهذا بالفعل ما كان بيننا ـ كانت تعني شيئاً آخر بالنسبة لها.

نظرية لابينا أنطوني غرين ديوكس

عندما تزوجت من ديك غرين عام ١٩٢٧ ظننت أني أتخذ لنفسي زوجاً قوياً. فقد كان منتصب القامة، أطراف قميصه مثبتة بصورة مرتبة داخل بنطلونه، وحذاؤه لامع. كان الرجل يلعب التنس. كما كان فرداً من منتخب جامعة إنديانا الرياضي للسباحة. كان وجهه متناسق القسمات وقد أكسبته أشعة الشمس سمرة محببة، وكنت أعشق النظر إلى الطريقة التي يفتح فمه برخاوة أثناء إصغائه إلى حديث أحدهم. تلك الرخاوة في الفك حبسْتني لسنوات داخل براءة مركّزة يقظة عميقة. كان يغير اتجاه كتفيه العريضين بطريقة نيّقة، تكاد تكون متواضعة، وكأنه قد استعارهما، وكأنهما قابلان للكسر.

أنا التي كنت قابلة للكسر. فالنساء هن دوماً كذلك. لكنها لم تكن مسألة خيبة أمل كبيرة واحدة. بل أشبه بألف خيبة أمل صغيرة تنهمر فوق بعضها البعض. بعد فترة يبدو الأمر أشبه بفيضان، وفجأة تدركين أنك تغرقين.

نظرية كورا ــ ماي ميلتاون

يا لتلك المسكينة يتيمة الأم. يا إلهي، ما زلت أذكر حتى اليوم المرة الأولى التي وقعت عيناي عليها. كانت في الحادية عشرة من عمرها، كانت تستقل مع والدها سيارة أجرة إلى مسكنهم في شارع فينيغر هيل، وكنت أنا ما زلت غارقة في المنظفات حتى المرفقين، ولم أكن مستعدة لوصولهما بعد، لم أكن قد بدأت تنظيف المطبخ. أين السيدة؟ ـ هذا ما كنت على وشك أن أقوله، ولكن أحمد الله على أني تمكّنت من إغلاق شفتي، لأنه لم يكن هناك أي سيدة، فقد توفيت منذ سنوات،

فقدت حياتها أثناء ولادتها لهذه الفتاة الباهتة. السيد غودويل هو من روى لي القصة، المأساة. حدث هذا بعد أن تعمقت معرفتي به.

ولأنه كان قادماً من كندا، لم يكن معتاداً على رؤية أشخاص من غير العرق الأبيض، تحدث إليّ صراحةً حول ذلك وحول كل شيء آخر أيضاً. قال لي: "كورا مِاي، إن ابنتي بحاجة إلى وجود امرأة في المنزل، من الضروري لها أن تتعلم بعض الأشياء، كما ستحتاج لمن يؤنسها أثناء غيابي. في البداية توفيت أمها، كما تعلمين، ثم توفيت المرأة التي اعتنت بها هناك في كندا، والآن ليس لها أحد سواي".

هكذا بدأت أعمل لدى السيد غودويل طوال أيام الأسبوع بدلاً من أيام الأربعاء، كما هو الحال في الشركة. الشركة التي أتحدث عنها هنا هي شركة الحجر الرملي في إنديانا، فهم من تعاقدوا مع السيد غودويل وأتوا به إلى بلومينغتون. رجل أرمل وابنته الصغيرة. حدث ذلك حوالى عام ١٩١٦، عندما كان أُورّن وراء البحار، وأصيبت ساقه وتحولت إلى أشلاء، إلا أنني لم أسمع بذلك حينها. في ذاك الخريف عينه بلغ عمر ابنتنا لوسيل السادسة من عمرها وبدأت تذهب إلى المدرسة، فوافقت على طلب السيد غودويل، وافقت على أن آتي باكراً وأعد طعام الإفطار وأهتم بنظافة الصغيرة وهندامها قبل مغادرتها إلى المدرسة، وأدبر شؤون المنزل من تنظيف وغسيل وغيره. كان يدفع لي دولارين يومياً، ثم ثلاثة دولارات يومياً بعد انتقالهم إلى البيت الكبير، وكان ذلك أجراً جيداً للعاملات الملونات في ذلك الحين.

لقد أحسنوا معاملتي. كان السيد غودويل يميل إلى المزاح. كان في بعض الأحيان يغادر بعد أن يترك كيساً مليئاً بالكعكات المقلية المحلاة فوق طاولة المطبخ. "ما هذا؟" كنت أسأله، وكان يجيب، "لا بد أن شخصاً ما تركها لك هنا، يا كورا ـ مِاي، شيء صغير كي تتناوليه مع قهوتك".

كنت أبدأ بمسح الغبار وترتيب الأسرّة ثم ألمع الأثاث عندما يحتاج إلى تلميع وبعد ذلك أجلس مع فنجان من القهوة وكعكة محلاة، أجلس براحتي. وعندما تكون الفتاة قد عادت من المدرسة إلى البيت لسبب ما، كانت تجلس بجواري وتتناول كعكتها المحلاة أيضاً مع كأس كبير من الحليب. استدارت مرة نحوي وقالت لي، "لماذا تتناولين كعكتك المحلاة بالشوكة، يا كورا ـ مِاي؟" "لا أعرف"، أجبتها، وأنا حقاً لم أكن أعرف. "لم يسبق لي أن رأيت شخصاً يتناول كعكة محلاة بهذه الطريقة"، قالت، بِحِيرة بادية، لم أستطع أن أخمن ما تعنيه، ما إذا كانت تظن أني جاهلة، أم كانت تشاكس، أم أنها كانت فقط فضولية كما هي ابنتي لوسي دوماً. أمسكت لساني وحاولت ألا أعنّفها أو أبدي غيظي حيال ما تفعله. كنت أقول لنفسي، تذكّري أن هذه الطفلة المسكينة يتيمة الأم، وليس في هذا العالم ما هو أسوأ من أن يكون المرء يتيم الأم.

ما زلت أعتقد ذلك. تقيم ابنتي لوسي الآن بعيداً عني، في كاليفورنيا، ولديها أسرتها ومنزل جميل خاص بها، مزرعة، وأنا لم أرها منذ ست أو سبع سنوات. وهي قلّما تجلس وتكتب رسالة لنا، بسبب مشاغلها في العناية بأسرتها، وأنا لا

ألومها على ذلك. لم تعد أمها أكثر من قصة صغيرة في حياتها الآن، شيء من الماضي البعيد البعيد، وهكذا هي أمي بالنسبة لي أيضاً. يمكن رواية تلك القصة خلال خمس دقائق فقط. يمكنك أن ترف عينك فتغفل عنها. لكنك لا يمكن أن تجعلها تختفي. فأمك ماثلة في داخلك. يمكنك أن تشعر بها تتحرك وتتنفس وأحياناً يمكنك أن تسمعها تتحدث إليك، وتقول الأشياء نفسه مرة بعد أخرى، مثل: كوني حذرة الآن، احترسي، كوني حسنة السلوك، لا تؤذي نفسك.

حسناً، هذا ما جعلني أتولى العناية بابنة السيد غودويل الصغيرة كما فعلت. وأثناء كيّ أحد فساتينها أو تمشيط شعرها، كنت أقول لنفسي: أنا كل ما لديها. ولستُ حتى نصف أمّ بالنسبة لها، لكنني الأم الوحيدة التي لديها. كيف ستتمكن من إيجاد طريقها؟ كيف ستتمكن من تحقيق السعادة في حياتها؟ كنت أحدق وأحدق إلى مستقبلها وكل ما كنت أراه هو ذاك المكان المظلم الذي ينتظرها وهو أكثر ظلمةً من أحلك الليالي.

نظرية سكوت سكوتاري.

وُلد جدي في قرية شمالي ألبانيا، وهو ابن لعائلة يهودية ريفية فقيرة. غادر موطنه عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، بعد أن قال لوالديه بأنه سيمشي إلى القدس. بدلاً من ذلك، رحل غربا إلى مدينة سكوتاري (وأضاف اسمها إلى اسمه)، ثم استقل مركباً كان متجهاً إلى مالطا. ومن هناك رحل إلى ليزبون، ثم غادرها على متن سفينة كانت متوجهة إلى مونتريال. في العام ١٨٩٧ أصبح مقيماً في ريف مانيتوبا، يتنقل من ناحية إلى أخرى، ويكسب عيشه كبائع متجول لما تحتاجه المنازل

من أشياء صغيرة ونثريات. إبراهام غوزدي سكوتاري هو اسمه الكامل، رجل عصامي، مليونير، مؤسس ومالك سلسلة محلات البيع بالتجزئة، المنتشرة في كل أنحاء البلاد.

لكنه كان في البداية فقيراً لدرجة تسحق القلب، وكانت حياة البائع المتجول في المناطق النائية مؤلمة بالنسبة له. كان يتعرض للسباب واللعنات من قبل المزارعين وسكان القرى أنفسهم الذين يعتمدون عليه في الحصول على ما يحتاجونه. كانوا يدعونه اليهودي العجوز. لم يتمتع أحد بما يكفي من اللياقة كي يسأله عن اسمه الحقيقي أو أين يقيم أو ما إذا كان متزوجاً ولديه عائلة. كان رجال المنطقة يرفضون مصافحته، وكأنه كان يحمل القمل على جسده. سبب له ذلك ألماً كبيراً، لم يتمكن أبداً من تجاوزه ما ولّد ذلك لديه من الشعور بالمهانة.

ثم ظهرت شركة إيتون التي تبيع عبر البريد، ، وفجأة لم يعد أحد بحاجة للتعامل مع البائعين المتجولين. كان من الأسهل والأقل كلفة إرسال طلب إلى مخزن وينبيغ للحصول على شرائط الشعر وملمع الأحذية. ولكن، كيف لإبراهام سكوتاري أن يعيل زوجته إيلينا (جدتي لينا) وابنهما الصغير(عمي جاكوب)؟

خطر له أن يقدم طلباً للحصول على قرض مصرفي ويؤسس مشروعاً خاصاً به، وهو بيع ملابس العمل، معدات الأمان، ملابس رجال الإطفاء، معدات البذار والتسميد، أي كل شيء لم يشمله البيان المصور لشركة إيتون عام ١٩٠٥، في الواقع. إضافة إلى الدراجات العادية أيضاً. كان لدى جدي قناعة بأن الدراجات العادية هي المستقبل. صحيح أن الأوتوموبيل كان

قادماً، لكنه كان ينظر حوله فيجد أن كل واحد من اليافعين في وينبيغ سيتوق في وقت قريب إلى اقتناء واحدة من الدراجات العادية التي أصبحت تُنتَج بأعداد كبيرة وملأت السوق أخيراً.

لكنه خشي في البداية أن يطلب قرضاً مصرفياً، إذ لم يسبق له أن دخل مصرفاً، وخصوصاً المصرف الملكي، المبنى الحجري الرخامي المهيب الذي يقع في وسط وينبيغ عند تقاطع بورتيج وماين. كان رجلاً لا يملك ربطة عنق. كان يتكلم إنكليزية غير سليمة. ومن المحتمل أنه كان يحمل القمل على جسده ـ كما كان حال الكثيرين في ذلك الزمان ـ لكن حدثاً معيّناً، وقع فمنح جدي الشجاعة. هذا الحدث الذي شهده غير حياته.

وقع ذاك الحدث في صيف عام ١٩٠٥ بينما كان في وسط جولاته كبائع متجول، هو وحصانه وعربته المحمّلة بالبضائع المكدسة. حدث ذلك بعد ظهر أحد الأيام. كان قد توقف في بلدة صغيرة في مانيتوبا، تضاهي بكآبتها أي قرية في أوروبا الشرقية، وكانت في ذلك الحين بلدة يسكنها العاملون في شركة معينة، شركة مقالع. مقالع تنتج حجراً رملياً من النوعية الجيدة. في ذلك اليوم، وبينما كان جدي يقود حصانه قرب أحد منازل العمال، سمع شخصاً يئنّ، وكأنه يعاني من ألم شديد. لم يتوقف كي يفكر أو يقرع الباب، بل دخل مباشرة عبر الباب الخلفي.

وهناك رأى امرأة ممددة في المطبخ، وحيدة، ساقاها متباعدتان، على وشك أن تنجب طفلاً. كان بقدوره رؤية رأس الجنين وقد بدأ بالخروج. لم يعرف ما يتوجب عليه فعله.

فالولادة كانت شأناً خاصاً بالنساء ـ كان ذلك هو الاعتقاد السائد في ذلك الوقت، وبخاصة لدى يهودي ذكر نشأ في بلده القديم، مثل جدي.

في المنزل المجاور رأى سيدة تنشر غسيلها، فهرع إلى طلب مساعدتها. ثم ركض إلى الطرف الآخر من القرية حيث يقيم الطبيب. كان يوماً حاراً. بقي الحر والغبار في ذاكرته طوال حياته. عند وصولهما إلى المنزل كانت المرأة تحتضر، وكان جدي، إبراهام سكوتاري، هو من تلقى نظرتها الأخيرة ـ لقد امتلأت الغرفة بعدد كبير من الأشخاص، لكنه كان الشخص الذي سمّرت نظرها عليه. أقسَمَ بعد ذلك أنه رأى وجهها يمتلئ برعبه هو. لقد امتصت رعبه، ثم ماتت.

كانت الطفلة ما زالت حية تتنفس. احتاج جدي دقيقة ليدرك ذلك. كانت الغرفة مليئة بالضجيج والفوضى، وكان الجو حاراً، وكان الجميع يحومون حول المرأة المتوفاة. ولكن فوق طاولة المطبخ كان يوجد طفلة حديثة الولادة ملفوفة بملاءة. كانت شفتا المولودة تتحركان، ترتجفان، فأدرك أنها ما زالت على قيد الحياة. لم يكن أحد قد أعارها أي اهتمام. وكأنها لم تكن موجودة هناك. وكأنها كتلة من العجين تُركت هناك سهواً.

مدّ يده ولمس خد المولودة، وانتابته رغبة شديدة بأن يمنحها شيئاً ما، بركة من نوع ما. لم يعرف من أين أتته تلك الرغبة الشديدة، لكنه اعترف مرة لوالدي، الذي كان مولعاً برواية القصة، بأنه أحس تماماً بعزلة المولودة وتوحدها. كان توحداً من النوع الحاد الذي لا شفاء منه، التوحد الذي عانى هو نفسه منه منذ مغادرته لوطنه في الثامنة عشرة من عمره.

كانت في جيبه قطعة نقد معدنية قديمة من بلده القديم. وضع تلك القطعة النقدية على جبهة المولودة وثبتها هناك، وهو يراقب أنفاسها تعلو وتهبط تحت الملاءة. "كوني سعيدة"، قال باللغة الألبانية أو التركية أو الييديّة، أو ربما بالإنكليزية. ثم قالها مرة أخرى، كوني سعيدة، لكنه أحس وكأنه يبارك حجراً، وبأنه لا يمكن لشيء جيد أن يخرج من فمه. أحس بأنه ضعيف، أحس وكأنه رجل مصنوع من الورق والقش، أحس وكأنه لم يكن رجلاً على الإطلاق، وأنه ربما يكون ميتاً هو أيضاً.

لم يدرك أنه كان يبكي إلا عندما أحس بثقل ذراع فوق كتفه. إنه الطبيب، الذي كان يبكي هو أيضاً. وقفا معاً على تلك الحال. وامتزجت دموعهما.

امتزجت، تلك هي الكلمة التي استخدمها جدي عندما روى تلك القصة، امتزجت دموعنا. شعر بذراع الرجل الآخر فوق كتفه وكأنها ذراع أخ له وجعله ملمسها ينتحب بصوت أعلى.

بعد ذلك، وقّعوا جميعاً على شهادة الوفاة ثم على شهادة الولادة، حتى جدّي. استغرب الجميع أنه كان قادراً على كتابة اسمه. دوّن اسمه: إبراهام غوزدي سكوتاري، وأثناء ذلك شعر بموجة عارمة من القوة تجتاح جسده. كانت دقات قلبه تطرق مسامعه بوضوح. شعر بأنه سيكون قادراً على فعل أي شيء، قادراً حتى على الدخول إلى البنك الملكي عند تقاطع بورتيج ومِاين وطلب قرض مصرفي.

لكنّ حزن تلك المولودة لم يفارقه أبداً. أقسم أنه لم ير في حياته مخلوقاً يشعر بهذا القدر من الوحشة في هذا العالم. عاش

حياة طويلة وكوّن ثروة قدرها مليون دولار وأحب زوجته وكان والداً لطيفاً كريماً مع أبنائه. لكنه حزن على تلك المولودة طوال حياته، اللعنة التي حوّمت حولها، الكرْب الرهيب الذي أحست به.

نظرية السيدة فليت

لا أحد بالتأكيد يتوقع من السيدة فليت أن تخرج بنظرية حول معاناتها هي شخصياً ـ فالمسكينة تشعر بخواء كبير وبضياع يجعلها عاجزة عن استجماع الطاقة اللازمة كي تسرح شعرها، دع جانباً الخروج بنظرية. فالتنظير يحتاج إلى رأس يسوده الهدوء والسلام، ورأس السيدة فليت مزدحم بالغضب وخيبة الأمل. إنها مستسلمة لحزنها. إنها في حالة فوضى. في حالة خبل. في الصباح يبدو ألمها مؤقتاً ويمكن السيطرة عليه، أما في الليل، فتسمع أصواتاً، وقد تكون هذه الأصوات هي الضجيج الناجم عن جَلْدِها لروحها. إنها تغني (أعني هذه الأصوات) على طول ندبات الجراح الأخرى التي أصابتها، وخصوصاً الرعب الذي نجم عن شعورها بأن الجميع قد تخلى عنها في طفولتها، ذاك الرعب الذي لم تتجاوزه بعد. في لحظة ما اتخذت القرار بأن تحيا خارج الأحداث، أو أن ذاك القرار قد اتُّخِذ من قبل جهة أخرى وفُرض عليها. ألّفي كتاباً عن العناية بالحدائق، تنصحها ابنتها أليسْ. قومي برحلة حول العالم، تنصحها فريدي هويت. اخضعي لبعض الدورات التعليمية في الجامعة. علمي نفسك التطريز. فكري بأخذ حقن مضادة للتحسس أو فيتامينات ب. استمعي إلى موسيقى مهدئة، احتفظي بدفتر يوميات مثل فرجينيا وولف، قومي بنزهات طويلة

سيراً على الأقدام، دللي نفسك بحمامات طويلة حارة، أعيدي النظر في افتراضاتك، كوني كريمة مع نفسك، عيشي اللحظة، انطلقي، صلّي، اصرخي، العني العالم، أحصي النِّعم التي أُغدقت عليك، إنسي، استمتعي بوجودك.

تطير كل هذه النصائح باتجاه السيدة فليت، لكنها ذاهلة لدرجة تمنعها من سماعها.

قد يخطر لكم أنها خائفة جداً من الحالة التي هي فيها، لكنها ليست كذلك. شعرها ملبد، أظافرها مكسرة، نباتات صالونها ذابلة، حياتها اليومية منهارة، لكنّ اليقين بأنها ستشفى هاجع في داخلها كحيوان صغير داخل جحره. فهي، من ناحية، لا تثق بصدق دموعها المالحة، ومن ناحية أخرى، ما زالت تتذكر كيف أنه كان يروقها وصديقتها فريدي الاستشهاد بقول ويليام بليك: "إبكِ، إبكِ، تعبيراً عن إحساسك بالكآبة" وكيف أن كلمة كآبة كانت تثير ضحكهما حتى تقعان أرضاً، فهي كلمة تشبه حشرة صغيرة عمياء.

الآن، في التاسعة والخمسين من عمرها، يجري الحزن عبر كل خلية من خلايا جسدها، لكنه لا يؤثر على فضولها أبداً. تعرف جيداً كيف أن الذّاكرة تبهت مع الوقت، وكيف أن كل شيء يتسطّح بمكواة القبول والرفض - ويصبح كل شيء سيان، كما تعتقد. لحزنها هذا حدود، تماماً كما أن هناك حدوداً لدرجة التشابك التي ستسمح لشعرها أن يصلها، ولكمية الغبار التي ستسمح بتراكمها فوق مزينتها. تلك هي دايزي. ينتمي استسلام دايزي إلى فصيلة الإنهاك، مشكلة تحمّل المرور بألف يومٍ عادي. أو، إذا توخينا الدقة، بعشرة آلاف يوم من

ذلك النوع. من بعض النواحي، أجدها أحد المحظوظين في الحياة، امرأة ولدت بصوت تعوزه أي نبرة تراجيدية. شخص تعلّم أن يحفر ثقباً في قصة حياتها نفسها.

لكنها تعبت من الحزن، وتعبت من عدم ممانعتها أن تكون حزينة، تعبت من عدم معرفتها، بمعنى من المعاني، بأنها حزينة. وهي تدرك، داخل الصندوق العظمي النحيل الذي يشكّل رأسها، حقيقة أن حزنها الهائل محكوم عليه بالتلاشي. منذ الآن، في هذه اللحظة، أشعر أن جزءاً منها يود العودة إلى الأشياء التي كانت تحبها، ملمس فرشاة أسنان جديدة على لثتها، على سبيل المثال. أشياء صغيرة كهذه. لديها رغبة بأن تربط مئزراً نظيفاً جافاً حول خصرها مرة أخرى، وتقشر رطلاً من البطاطس خلال ٣ دقائق من غير زيادة ولا نقصان وتنقعها بالماء البارد. أنْ تلمّع مرطبان هلام وتضعه فوق الرف العلوي مع رفاقه. أن تلعق حافة مغلف، ان تلصق طابعاً في زاويته، وتسقطه في صندوق البريد. ترغب بأن تغسل جسدها بالضحك المقهقه وتستسلم لتأثير الجاذبية. سوف يحدث كل هذا. سوف تزول كل هذه المعاناة. أصبح هذا وشيكاً.

الفصل الثامن

التحرر من الألم

تبلغ فيكتوريا لويس فليت الثانية والعشرين فقط من عمرها، وهي طالبة في جامعة تورنتو، امرأة طويلة نحيلة، لها يدان وقدمان كبيرتان وشعر قوي أشقر أملس تردّه وراء أذنيها بلا اهتمام، الأمر الذي لا يروق لحلاقها. تُفضّل ارتداء سروال الجينز وكنزة وسترة من قماش الدنيم - في الواقع، هي لا تملك أي ملابس أخرى. هذه الملابس غامقة اللون ومتينة الحياكة، وكأنها تحاول أن تبقي الأحلام الرديئة للحياة المعاصرة خارجاً. ولتصحيح حسر البصر الذي تعاني منه، ترتدي نظارات ذات إطار معدني دائري، وتظهر عيناها باردتان جادتان من وراء العدسات الملطخة. إنه عام ١٩٧٧. وهي لم تعد طفلة تتمتع بالرعاية التي تؤمّنها العائلة الكبيرة. صوتها، وهو صوت يشوبه الارتباك، يتذبذب بين الميل إلى النقد القاسي الذي يميز الراشدين والارتباك الذي يميز المراهقين. تضطّرب أحياناً إيقاعاتها العاطفية كما هو متوقع، لكنها مع ذلك تتمتع ببصيرة نافذة.

فقد أسرّت لعمتها دايزي، على سبيل المثال، بأنها قادرة على فهم الظواهر النَّسَبيّة التي تفجرت حولها على نحو مفاجئ. ويثير مشاعرها، كما تقول، أن ترى رجالاً ونساء ـ رغم أن معظمهم، ويا للغرابة، هم من النساء ـ يطوفون في المقابر أو يحتشدون حول طاولات المكتبة في غرفة سجلات الجامعة، يقلّبون صفحات تاريخ البلاد، يدوّنون أسماء وتواريخ في دفاتر ملاحظات لولبية صغيرة، آملين أن جهودهم الإيثارية ستتكشف عن حقائق مادية ومعنوية. إن فيكتوريا لا تصدّق بأن هؤلاء الجادّين غير المحترفين يبحثون عن صِلات قربى مع عائلات مالكة أو مع عباقرة مبدعين. فكل ما يرغبون فيه هو أن يتبيّن لهم أن أسلافهم هم أناس بسطاء، محترمون، مطيعون للقانون، يحققون إنجازاتهم بصمت، صادقون في وعودهم، مرحون، يوفون ديونهم، وذوو نوايا حسنة، وأن حياتهم التي أتموها بمشقة (ولكن باستقامة) ستقف في وجه لعنات الحاضر من عزلٍ وكراهية، وقد تسامحها أيضاً. فالحسّ السليم، وهو أثمن النعم، يبدو وكأنه اختفى من العالم. حتى فيكتوريا تدرك ذلك.

إن عمة فيكتوريا المسنة، دايزي، وهي متقاعدة الآن وتقيم في فلوريدا، أصبحت منشغلة في سنوات شيخوختها بشخصين راحلين: سايلور غودويل، والدها الحقيقي، وماغنوس فليت، والد زوجها. ولكن عمة فيكتوريا تسعى وراء أبيها وحميها الراحلين بروح مختلفة كليّاً عن تلك التي تميّز هؤلاء الذين يكرسّون عطل نهاية الأسبوع للبحث في أصول أنسابهم. فهي أكثر تركيزاً منهم، هذا من ناحية، وهي، في الوقت نفسه، أكثر حلماً وعدم فعالية، فهي ترغب، كما يبدو لفيكتوريا، بأن تحشر نفسها داخل حقيبة من اللغة المدفونة،

بأن تصبح هي تلك اللغة، بأن تكون قادرة على لفظ تلك الكلمة التي لا يمكن التفوّه بها، أبي. صحيح أن العمة دايزي قرأت عدداً من الأعمال في التاريخ الاجتماعي، السِّيَر الذاتية، المذكرات ـ وعدد آخر خلال الأعوام الأخيرة أكبر بكثير مما يمكن لفيكتوريا أن تتخيل ـ لكنها لا تخرج في رحلات استكشافية إلى المكتبات والمقابر المحلية، كما أنها لم تسافر إلى مسقط رأسها، تاينديل، مانيتوبا، لزيارة برج غودويل ذائع الصّيت الذي بُني إحياءً لذكرى والدتها بالذات. وهي تعتقد، على كل حال، بأن ذاك البناء قد تعرض لعملية تخريب مثيرة للحزن، وأن صياديّ التذكارات قد حملوا حجارته حجراً بعد حجر، ولم يبقَ منه سوى انخفاض قليل في الأرض على شكل كعكة محلاة. كما أنها لم تتصل بالأرشيف المورموني[١٦] في سولت ليك سيتي، ولا تنوي أن تفعل. ولم ترسل أي رسائل للاستعلام. بل تجلس بارتياح، بارتياح كبير في الواقع، على أريكتها المزهّرة في غرفتها في فلوريدا (ثلاثة جدران من الزجاج المزود بأباجورات)، وتفكر بأبيها وحميها الراحلين. هذا أقصى ما تفعله: فقط تفكر بهما، تركز تفكيرها حولهما، تُمعن التفكير. أما حفيدتها، فيكتوريا، فقد سبق أن سمعت وصفاً للرجلين لكنه لم يكن وصفاً حيّاً. وسمعت تأكيدات حول قدراتهما، لكنها لم تر أي براهين عليها. تفكر العمة دايزي مليّاً بحياتهما. وتَعجب حول جوهر تلك الحياة وكيف انتهت: بصخب كما في الأفلام أم بفترة ركود صقيعية؟ هي لا تفعل

---

(١٦) المورمون: طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزف سمث عام ١٨٣٠. (المترجمة)

هذا طوال الوقت بالطبع ـ بل في بعض اللحظات فقط، في وقت متأخر من بعد الظهيرة، على سبيل المثال، عندما يبدو اليوم مسطّحاً وبلا ملامح، حين ينتابها القلق، حين تشعر بلا موثوقيّتها نفسها تقضم شغاف قلبها، وعندما لا يكون هناك ما يثير الاهتمام على شاشة التلفزيون، بل فقط الأخبار المحلية من تامبا أو نشرة الأحوال الجوية.

إن حياتها في الثانية والسبعين هي حياة هادئة رخيّة. تُخضع شَعرها المجعّد لعملية تمويج ـ طويل الأمد ثلاث مرات سنوياً، فتحصل بذلك على شعر نابضيّ يشبه أعشاب سلة الفصح. كما خضعت (مرة) لجلسة مؤلمة لتجميل الوجه، وجربت (مرتان أو ثلاث مرات) لوناً جديداً من ألوان أحمر الشفاه، وهي تفكر (كل يوم) حول الخضوع لعملية جراحية للتخلص من الدوالي. لقد خرجت من الاكتئاب الذي أصابها منذ بضع سنوات مضت. صحتها الجسدية جيدة إلى ممتازة. لديها أموال في حسابها المصرفي، الكثير من الأموال، رغم أنها تحيا حياة متواضعة. منذ عشر سنوات باعت بيتها الكبير في أوتاوا وانتقلت إلى الشاطئ الغربي لفلوريدا، بعد أن اشترت شقة فيها ثلاث غرف نوم في توسع ساراسوتا، قريب من المكان الذي استقرت فيه صديقتها القديمة فريدي هويت، ليس بعيداً عن بيردز كي حيث استقرت صديقتها الأخرى، لابينا غرين ديوكس مع زوجها الثالث، بَدْ.

منذ انتقالها إلى فلوريدا تعلمت العمة دايزي لعبة البريدج وتزيين عصابات الرأس والأساور بإلصاق القواقع البحرية عليها ـ وهي ترسل هذه كهدايا في أعياد ميلاد حفيداتها الست

المبعثرات في كل أنحاء إنكلترا والولايات المتحدة. أما لحفيديها، بينجي وتيلر، فترسل محافظ جيب جلدية خاطتها بنفسها في نادي بيسايد للأشغال اليدوية للسيدات. يساورها الكثير من الشك حول ما إذا كانوا يحبون أو يقدّرون هذه الأشياء المصنعة يدوياً، لكنها اعتقدت دوماً، وخصوصاً منذ انهيارها العصبي عام ١٩٦٥، بأن عليها أن تحتفظ بيديها مشغولتين طوال الوقت وأن تملأ حيزاً أكبر فأكبر من العالم بقدرٍ أقل فأقل من ذاتها. يلاحظ الزوار كيف أن شرفة شقتها مزدحمة بالخضرة المزدهرة للصبّاريات الغضة والنباتات الاستوائية. ما زال إبهامها الأخضر الشهير جليّاً. إنها تؤمن بأهمية إمتاع الحواس عندما يتعلق الأمر بعالم البَسْتَنة، رغم أنها تتذمر، بلطف، حول طبيعة فلوريدا التي تعوزها الحيوية وتقسم أنها لن تتمكن أبداً من النظر إلى شجرة النخيل ذات اللحاء الخشن والرأس الذي يشبه رأس كلب البودل إلا كسخرية من الطبيعة.

الشابة فيكتوريا، قريبتها، تدافع عن أشجار النخيل. هذه الأشجار لا تروق كثيراً لها، لكنها تشعر أنها ملزمة بتحريض عمّتها للجدل والنقاش. يبدو لها أن هذا أقلّ ما يمكن للجيل الشاب أن يفعله من أجل الأشخاص المسنّين. لقد قرأت في مكان ما أن الأشخاص المسنّين يتعلمون أن يخطوا نحو الوراء من أجل أن يروا أكثر، وأن عيونهم تنظر نصف مغمضة، وتحشد داخلها إمكانات جديدة.

في الشتاء، عندما تكون فيكتوريا في الشمال في تورنتو تستمع إلى المحاضرات وتعد الحلقات البحثية وتخضع

للامتحانات وتقلق حول علاقات الحب التي لا وجود لها في حياتها، تفكّر بعمتها المسّنة التي تجلس بحلاوة في ساراسوتا، تزيل الأوراق الميتة من نباتات شرفتها وتلعب البريدج وتؤدي عملها التطوعي في فترة بعد الظهر في متحف رينغلينغ، و"تتسكّع" مع فريدي ولابينا في المحلات التجارية في أنحاء سانت أرماند كي. تفكر، بشيء من الحسد، بمدى استقرار حياة عمتها دايزي، وبمدى اقترابها من النهاية أيضاً، وتعجز عن فهم ما يدفع سيدة مسنّة إلى الاستقصاء والتساؤل حول حياة رجلين مسنّين يتفسخان داخل قبريهما: سايلور غودويل الغريب الأطوار، وماغنوس فليت المختفي. يساورها الشك بأن عمتها تبحث في الواقع عن أمها، وأن انشغالها بوالدها وحميها ما هو إلا خدعة أو إجراء ماكر.

إن كان لشخصٍ ما أن ينشغل بالبحث عن والده، يجب أن يكون فيكتوريا نفسها، هذا ما يخطر لها أحياناً. في الواقع، هي لا تعير أي اهتمام لمن يكون والدها. عمتها دايزي سمعتها تقول ذلك. تعرف فيكتوريا لويس القليل عن والدها، لكنها لا تعرف الكثير، بل فقط ما زلّ به لسان أمها من وقت لآخر. كان والدها أحمق ما من ساسكاتشيوان، متزوج، كبير البطن، وربما يكون ميتا الآن، ربما كان سكيراً، غبياً لدرجة أنه لم يعرف بأن أمها كانت حاملاً حتى ـ وبيفرلي فليت لم تكلف نفسها عناء إخباره، بل قفزت على متن قطار وجاءت إلى شرق البلاد لتقيم مع أسرة العمة دايزي في أوتاوا، وعندما كان الناس يسألونها في شهرها الثامن أو التاسع، ألن تتخلي عن المولود لأسرةٍ تتبناه؟" كانت تهز رأسها بالنفي وتقول، "لا".

كان هذا عام ١٩٥٥، ولم تكن كثيرات تحتفظن بمواليدهن حينها.

الآن مضى على رحيل بيفرلي أربع سنوات، سرطان البنكرياس، وتمضي فيكتوريا عطلاتها في فلوريدا مع العمة دايزي ـ التي ترسل لها بطاقة طائرة، التي تلاقيها في مطار تامبا في سيارة أجرة مكيفة، التي تعدّ غرفة نوم الضيوف بملاءات قطنية نظيفة ، التي لديها نبتة بنفسج أفريقي مزهرة فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، التي لديها خطط لكلتيهما كي تتأنّقان وتتناولان غداء الفصح في فندق رينغلينغ ـ حيث لديهم طبق جديد على لائحة الطعام وهو شطيرة السلمون المدخن مع سلطة خضراء ـ وإذا تبين أن النادلة من النوع اللطيف، إذا بادرتهما قائلة، "ها أنتما تغزوان المدينة إذاً!" ستقول العمة دايزي، ناطقةً كلماتها بطريقة ناعمة، مشكّلةً شفتيها على شكل بيضوي، وكأنها تشكل حلقاً، "هذه قريبتي، أتت من تورنتو البعيدة، إنّها على وشك نيل شهادة الماجستير في علم النبات الإحيائي، وهي تفكر بجدية حول البدء بالعمل على نيل شهادة الدكتوراه في أيلول القادم" ، وفيكتوريا، التي تشعر بالاضطراب بسروالها الجينز وبلوزتها القطنية الممزقة ـ ومما يأسر القلب طريقتها في تعديل وإعادة تعديل العنق الممطوط لهذا الرداء ـ ستتلوّى مضطربة في مقعدها وتفكّر بأن عمتها لم تعتد أن تسترسل في الثرثرة هكذا، لقد أصبحت واحدة من نساء فلوريدا، بحليها من الخرز، وبصندلها ذي النعل الفليني وجزدانها البلاستيكي الأبيض، ولكنها، أعني فيكتوريا، سيسرها اعتزاز عمتها الدافئ بها، وحال عودة النادلة إلى المطبخ، قد تمد يدها عبر الطاولة وتربت على تلك اليد المسنّة الجافة

العزيزة المغطاة بالبودرة. اليد التي تعرفها بقدر ما تعرف يدها نفسها تقريباً.

توفي سايلور غودويل في ربيع عام ١٩٥٥، وهو العام الذي وُلدت فيه فيكتوريا. كان يعمل خارجاً في الحديقة الخلفية لبيته على بحيرة ليك ليمون، كان في الثامنة والسبعين من العمر، حين أحس فجأة بدوار. ما كان عليه أن يمكث هناك تحت أشعة الشمس من دون قبعة فوق رأسه أبداً، هذا ما كانت تقوله دوماً زوجته ماريا. ربّما كانت على حق.

يا لهذا الدوار الجاف الغريب ـ كان ودّياً بقدرٍ كافٍ في البداية، مصحوباً بصوت أزيزٍ متواصل ورؤية، من زاوية العين، لأجنحة نحلات، تشبه عوالمَ صوتٍ ضبابيةً، خفيّة. مدّد نفسه فوق العشب الناعم، منبسطاً على ظهره، حذاؤه ذو الرباط موجّه نحو الأعلى. هبّت نسمة منعشة، متموجةً عبر جبهته، متلاعبة بخصلة من شعره الخفيف، مما جعله يشعر، بصورة فورية تقريباً، بأنه أقوى. لكنه مع ذلك لم ينهض.

لا حاجة للعجلة، قال لنفسه، يمكنني أن أستلقي هنا طوال الصباح إذا أردت.

كانت ماريا قد حملت حقيبة تسوّقها الكبيرة المصنوعة من القش ومشت حول الرأس إلى مخزن البقالة في بريدجستون. لقد نفدت الزبدة من بيتها. أعلنت ذلك على مائدة الإفطار ـ كان دوماً ينفد شيء أو آخر من مؤنها، إذ إنها لم تعتد أبداً على تخزين كميات كبيرة من المؤن كعادة سكان أمريكا الشمالية. أدرك زوجها بأنها ستغيب لمدة ساعة على الأقل، فهي تحب أن تتمهل على طول طريق البحيرة، وبخاصة الآن حيث بدأت

البراعم الحمراء تتفتح، كما أن جاريهما الشابان، آل ملكْ غريغورز، ليديا وبيل، سيكونان خارج البيت، يعملان على بناء مركبهما الجديد من خشب الأرز، من المؤكد أنها ستتوقف قرب منزلهما وتمضي بعض الوقت ـ ولن تلاحظ أبداً بأنها تعطلهما عن عملهما أو أن الزوجين الشابين يتبادلان النظرات في ما بينهما، ويقلبان نظراتهما ويهزان كتفيهما في سخط. ستستمر في ثرثرتها، مشيرة إلى الأشجار، الأمواج في البحيرة، السماء الخالية من الغيوم، وتعطي اقتراحات حول سنادات التدعيم لمركبهما، حول الألواح الخشبية الحرة خلف منزلهما، حول نباتات العنّاب في حديقتهما، وما إذا كان يصل هذه النباتات ما يكفي من أشعة الشمس أم لا، ولن يتمكن بيل أو ليديا من فهم كلمة واحدة مما تقول.

ستتحدث وتتحدث وتتحدث. وهو يرقد هنا، رجل مسنّ ممدد على ظهره.

وجد وضعه الجديد والغريب مسلياً في البداية، ثم بدأ تدريجياً يشعر بالدفء الذي ينبعث من الأرض، مخترقاً العشب المنسحق تحته، ماراً عبر قماش قميصه القطني الناعم ذي المربعات. لقد أثار هذا دهشته، أن يتمكن من الإحساس بحرارة الكوكب الهائلة المختزَنة تنتشر عبر اتساع ظهره ذي الثامنة والسبعين عاماً. متى كانت آخر مرة تمدد فيها هكذا فوق الأرض العارية، موائماً بين شكله الخارجي غير المستوي، عضلاته، عظامه، غضاريفه، وبين المرج العشبي المقصوص حديثا، مستسلماً له تماماً؟ إن اليافعين فقط يستسلمون للأرض على هذا النحو غير الحذر، ويسمحون لها بحملهم، ويلقون بثقل أجسادهم بكامله عليها بكل ثقة.

انقضت دقائق. لم يكن لديه الكثير ليفكر فيه، ولهذا وجد نفسه يفكر بزاوية ميلان الشمس، التي كانت فوق رأسه بقليل، وفكر حول جسده، جسده البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً، الذي فقّس في الشمال، في كندا، في قرن آخر، من والدين مُحِيا تماماً الآن، واشتد عوده هناك في سنواته الأولى، والآن، انتقل وكأنه على متن بساط الريح إلى هذا المكان، وها هو مستلقٍ على رقعة من عشب إنديانا وكأنه حجاب نافذةٍ منخليّ على وشك أن يُغسل بخرطوم سقاية الحديقة.

إنه مستلقٍ في الحديقة الخلفية لبيته الصيفي على ضفة البحيرة، الذي اتخذه وماريا مقرّاً لإقامتهما الدائمة. يقيمان هنا منذ سنوات، منذ تقاعده. هذا البيت مزين بحديقة مليئة بنباتات الليلك، والبرتقال الزائف، ما أدى إلى حجب جسده المستلقي عن أنظار سائقيّ السيارات التي تجتاز الشارع، هذا لا يعني أن عدداً كبيراً منها يمر من هناك في منتصف النهار. فالسكان المحليون فقط يستخدمون طريق ليك رود، وبالطبع كان الوقت ما زال باكراً لمجيء المصطافين.

كان يحب هذا الوقت من السنة، نيسان. والحياة تشعّ عبر الأشجار المتشابكة، تشعّ في كل مكان ـ الحياة.

غنت طيور أبو الحناء حوله بين العشب. حدق فيها بنظرة ضبابية. كم بدت طيور الحناء مهمّة على نحو مفاجئ، بحركتها الهادفة المستمرة، ورؤوسها التي تبرز فجأة والتي تشبه كرات الغولف. كانت السماء فوق رأسه زرقاء صافية. ستعود ماريا في أي لحظة، ستضع بِقالتها فوق طاولة المطبخ، تثرثر حول أسعار السلع في مخازن الريف وكم أن هذه السلع أرخص ثمناً

في أسواق بلومينغتون، لكن هذا لا يعني أنها على استعداد للعودة والإقامة في المدينة مقابل مليون دولار. ستقول كل ذلك بخليط متحمس من الإيطالية والإنكليزية ويبدو أنه الشخص الوحيد في هذا العالم القادر على فهمها.

حاول أن يقف على قدميه، لكن تقلصات حادة أصابت فخذيه وأجبرته على البقاء مسمّراً في مكانه لفترة أطول قليلاً. استرح لبعض الوقت، قال لنفسه، امكث ممدداً في مكانك. وكي يلهي نفسه، حاول أن يستحضر إلى ذهنه الشوارع المشمسة لستونوول، مانيتوبا، البلدة التي قضى فيها شبابه، لكن تشوش الذاكرة الخدرة سرعان ما ثبط همّته كما يحدث دوماً. هذه الجدران المرئية لمنزل والده بقيت منفصلةً في ذهنه عن غرفه الداخلية السرية، عن أسِرّته وأوانيه الفخارية، ومرطبان المربى الفارغ على رف الخزانة حيث كانت توضع نقود العائلة، أوراق الدولارات البالية. (هواء ـ أحسَّ بحاجة إلى نسمة هواء، هذا لن ينفع). شق طريقه خارجاً عبر حديقة أمّه ـ المكوّنة من صفوف عدة ضعيفة من الملفوف، بعض نبتات الفول الشمعي الطويلة النحيلة ـ ثم على طول فوضى جادّة جاكسون التي تخترقها الشمس كما كانت منذ ستين عاما مضت، اجتاز عربات المزارعين والرائحة القوية للخيول التي طُوِّل لها، ومخزن الخردوات عند الزاوية، المدرسة الابتدائية، السّراي، مساكب الأزهار التي تكافح للبقاء، وفي مركز المدينة، في شبه منحرف مُضاء، الكنيسة المَشْيَخيّة[١٧] بزخارفها الصلبة من الحجر

---

(١٧) الكنيسة المشيخية: كنيسة بروتستانتية يدير شؤونها شيوخ منتَخَبون يتمتعون جميعهم بمنزلة متساوية. (المترجمة)

الكلسي، الآن، فجأة، تحولت إلى رماد.

ربما غفا قليلاً، ثم استيقظ فجأة على خوفٍ بدا أنه نابع من نفق طفولته. ماذا كان ذاك الخوف؟ ظهره، في هذه الأثناء، أصبح متيبّساً.

إن ظهره ذاك، كما يخَمّن، لا بدّ أنه أصبح مبقّعاً الآن بسبب التقدم في السنّ. لا بد أن جلده أصبح مرقشاً ومجعداً ورقيقاً مثل منديل ورقي، ولكنْ من هو القادر على رؤية ظهره؟ سيكون على المرء أن يتلوى ويتمعّج أمام مرآة مزدوجة، وحتى إذا فعل ذلك ستبقى هناك أجزاء من جسده لن يتمكن أبداً من أن يلمحها. بعض أجزاء جسدك تحملها معك طوال حياتك لكنك لا تملكها أبداً.

جعلته هذه الفكرة، هذه الأحجية، يبتسم داخل رأسه، رغم أنها حملت معها لحظة من الحنين. تذكّرَ كيف أنه كقاطع حجارة شاب في مانيتوبا، كان يعمل بصدر عار في أشهر الصيف ـ كل عمال المقلع كانوا يفعلون ذلك ـ وكيف أنه، مراعاة لمشاعر زوجته، كان يدع العرق المتصبب من ظهره يجف قبل ارتدائه لقميصه أثناء سيره عائداً إلى بيته لتناول عشائه، للقاء محبوبته.

ليست ماريا، لا، ليس في ذلك الوقت. بعد نهار عمل في المقلع كان يعود إلى البيت إلى زوجته الأخرى، الزوجة التي اتخذها في شبابه.

حتى في شيخوخته يفكر بتلك الزوجة مرة واحدة في اليوم على الأقل. يحدث شيء ما فيذكّره بذاك الزواج القصير الذي أصبح مع الوقت يبدو أشبَه بمكان وقع عليه بالصدفة منهُ بعلاقة

شرعية دخلها بصورة رسمية. وهي دوماً، بحسب ذكرياته، تقف على عتبة البيت، تنتظره، طيفاً، حزناً، ألماً. في الحقيقة، لم تنتظره عند عتبة البيت ولو لمرة واحدة، بسبب انشغالها في تلك الساعة بتحضير العشاء. ويجب عليه، مهما بلغت الخراقة به، أن يدرك هذا، أن يعرف أنها لم تنتظره يوماً.

ولكن ماذا كان اسمها؟ ماذا كان اسمها؟ اسم زوجته الأولى؟ بهجة يطويها النسيان. ينطوي هذا النوع من النسيان على لامبالاة، إنه أمر لا يغتفر. عزيزته، حبيبته. لوجهها مظهر صورة فوتوغرافية غير واضحة في ذهنه، لكنه يتذكر جسدها، كل إنش منه، ويتذكر كيف أفاق في أحد الليالي على صوت المطر القوي ليجد ذراعه فوق ثديها. كان ذلك رائعاً، ذاك الثدي الناعم.

شعوره بأنه أحمق جعله يبدأ بحسب التسلسل الأبجدي: إميليا، بيسّي، شارلوت، اسم قديم، دوروثيا...

إيما، فانّي.

بدأ يتابع الأشياء من الأعلى إلى الأسفل على طول جسده، قميصه الرياضي المزرر بطريقة مرتبة، تجعيدات سرواله الكاكي، وصولاً إلى حيث شكّلت قدماه حرف v يظهر من خلاله الهرم الحجري الذي كان يعمل على بنائه عندما أصابته نوبة الدوار هذه.

كم أصبح يكره هذا الهرم.

إنه يعمل على هذه المنشأة منذ ما يقارب العشر سنوات، نموذج مصغر عن الهرم الأكبر، بدأ بتشييده حين وضعت الحرب أوزارها، ولم يكمل سوى ربعه حتى الآن. غيره من

الرجال شغلوا أنفسهم ببناء مركب بعد تقاعدهم، أو حوض سباحة أو حديقة، أو صناعة شخصيات قصة بياض الثلج والأقزام السبعة من خشب الصناديق بواسطة منشار منحنيات ونصبها بين نباتات البطونية[١٨]. غيره من الرجال شهدوا إتمام مشاريعهم وبدأوا العمل على مشاريع جديدة، أما هو فقد سمح بأن يورط نفسه، لسببٍ ما، بهذا النصب المضحك المخيّب للأمل. ("خطوةً خطوة"؛ كم مرة ردد تلك الكلمات، مقنعاً نفسه بأنها كلمات حكيمة). لكن هذا الهرم أصبح شيئاً قبيحاً رؤيته تزعج العين، من وجهة نظره هو على الأقل. عمل أحمق. يخاطبه الصوت الداخلي الموبِّخ الذي كثيراً ما يسمعه في الظلام: "لن تتمكن أبدا من بناء شيء يضاهي نصبك التذكاري الأول، لقد فقدت لمستك الفنية". علاوة على ذلك، بيّنتْ له القياسات التي أخذها منذ أسبوع واحد فقط بأن المنشأة أصبحت غير عمودية، وأن الخلل سيزداد سوءاً كلّما تقدم في العمل. هذا إذا استمر في العمل.

فاني، غلاديس...

غالبية الأشخاص يحتاجون إلى حيّز محدد يركزون فيه أفكارهم، وقد حقق سايلور غودويل هذا التركيز الاستثنائي لأفكاره حول هرمه عبر منظور فُرض عليه، فبينما تمدد عموده الفقري الهرِم الموجز فوق مرجه المقصوص حديثاً، ضاقت زاوية منظوره بصورة كبيرة، وبالتالي تغيرت رؤيته. وقع أمر محظوظ، خدعة للإدراك الحسّي.

---

(١٨) البطونية: نبات أمريكي من الفصيلة الباذنجانية. (المترجمة)

اتضح قراره في ذهنه فجأة. لن يستمر في العمل في حديقته الخلفية على بناء هذا النصب التذكاري القبيح، هذا الظل الباهت لذاك البرج القديم الذي شيده تخليداً لذكرى زوجته الأولى. (ماذا كان اسمها؟) لا، سيتوقف عن العمل عليه بدءاً من هذه اللحظة. الآن. سيتصل غداً بشركة تعهدات بناء في بلومينغتون ويطلب منهم أن يرسلوا إليه جرّافة. ثم سيأتي بشاحنة لحمل الحجارة. لن يستغرق ذلك أكثر من يوم أو اثنين. مدهش. سيكون لذلك بالطبع أثر فظيع على مرج الحديقة الخلفية، لكنه عند حلول الخريف سيتمكن من زرع واحدة من أشجار كرز الزينة السريعة النموّ مكانه. سيزرع شيئاً جميلاً. في الواقع، لماذا عليه أن ينتظر حتى الخريف؟ ـ سيزرعها مباشرة؛ لم يفهم يوماً لماذا يجب زرع الأشجار في الخريف. هذا غير مقنع على الإطلاق، بل إنه ينافي العقل.

سأهدمه، قال داخل حلقه، بابتهاج شديد، محذّراً ضد تغيير رأيه أو مشاعره غداً، غير متأكد ما إذا كان يتحرك مقترباً نحو مركز حياته أم يتخلى عن جزء ثمين من ذاته. لكنه أدرك فوراً، وفرحٌ شديد يجتاحه، بأنه يمكن أن يفعل ما يريد فعله. جرت السعادة عبر كيانه في تلك اللحظة، تلك الموسيقى المألوفة المتولدة عن العزم.

إن الخيار الذي يتخذه المرء وهو ممدد على ظهره ليس خياراً أقل أهمية من غيره. تولّد قوة هذا الاختيار دفقاً عشوائياً من الطاقة، وتنفذ هذه الطاقة الآن إلى مركز صدر سايلور غودويل، وتجلب معها صقيع الشتاء في هذا اليوم الجميل من أيام نيسان. يدرك فجأة أن قدميه ويديه أصبحت جليدية فجأة،

منفصلة عن أحاسيس جسده، متصلة به بواسطة خيط خشن من الألم فقط. أين هو الآن؟ بماذا كان يفكر؟ - فانّي، غلاديس، هارييت، إيزابيل....

سمح للألم أن يحتلّه - بدا أنه لا يملك خياراً آخر. ملأه الألم - تماماً - تاركاً جزءاً صغيراً منه فارغاً، جزءاً من عقله حيث كان سؤال واحد يقرع بقوة. لا، ليس سؤالاً، بل شيئاً يلحّ عليه أن يتذكره. شيء ما عن جرّافةٍ تكشط عبر العشب وتهدم هرمه، عارَه، لقد نسي شيئاً ما لحظة ابتهاجه باتخاذه لقراره، ما هو ذاك الشيء؟

ما هو؟ دوّر العضلة حول فمه، عالقاً في نوبة تفكير، أغلق عينيه بشدة، ورأى جدولاً غائماً يجري في رأسه، يسخر من بلادته. ما كان يحاول تذكره هو تفصيل محدد وبسيط. شيء، في الواقع، شيء محدد مرتبط بالزمن. لو أنه كان قادرا على رفع يده لتمكّن من لمس ذاك الشيء وتحديد هويته، لكنّ يده، كما يبدو، ذاك الوزن الجليدي، قد غرقت في النوم.

ثم، مدعوماً بنوبة تركيز، تذكّر: كان هناك صندوق صغير مدفون تحت منشأة الهرم - كبسولة زمن ليس إلا. وضعَها هناك بنفسه. صندوق صغير من الفولاذ مساحته ١٢ إنشاً مربعاً وعمقه ٤ إنشات. هو، بالطبع، يتذكر شراءه للصندوق من مخزن خردوات محلي. وهو يشبه الصناديق التي تُخصّص لعدة الصيد، لكنه أقوى مما تكون عليه هذه الصناديق عادة. له أيضاً غطاء محكم الإغلاق، وحتى قفل صغير ومفتاح. خمسة عشر دولاراً هو الثمن الذي دفعه. من دون تذمر.

إيزابيل، جيانيت، كاتي، ليليان...

تذكّر أنه فكر ملياً بما يجب أن يوضع في الصندوق. كان هذا منذ أمد طويل. نسي أشياء كثيرة منذ ذلك الحين. كانت سنواته العشر الأخيرة فترة من التحلل والانهيار. يدرك ذلك الآن. اعتقد أنه رجل مصمم على صنع شيء ما، بينما كان طوال الوقت يساهم في تضييقٍ مدمّر ومؤسف لطاقته. ومع ذلك، سيكون فتح الصندوق ورؤية ما هو مخبّأ داخله مفاجأة كبرى. ولكن عليه أن يضمن سلامة الصندوق. سيكون عليه أن يشرح لسائق الجرّافة باهتمام عن وجود صندوق صغير تحت الأساس. سيرهقه هذا الشرح، لكنه ضروري إذا أراد أن ينقذ ذاك الكنز.

ولكن ما هو هذا الكنز؟

إنه شيء ما عالق على حاشية أفكاره. شيء نفيس ما يرقد مخبأ في الصندوق، شيء ما كان يخص زوجته الشابة. (ماذا كان اسمها؟) لقد دفن الصندوق تحت الأرض منذ وقت طويل جداً، منذ كان شاباً يمشي عائداً إلى البيت من المقلع وقميصه يتدلى على كتفه بينما يجف العرق فوق ظهره. حدث الكثير منذ ذلك الحين، قيل الكثير من الكلمات وانطوت الكثير من الساعات، امتلأت غرف حياته وفرغت من دون أن تخمّن أبداً الشكل الخارجي لجدرانها، ودعائمها الأفقية وألواحها الخشبية الخارجية الخشنة.

يدرك الآن من خلال رؤيته لموضع الشمس بأن الوقت هو ساعة متأخرة من بعد الظهر. إنها ساعة من المساء، في الواقع. كانت النجوم تتدفق في السماء، تألق متفقّد، وتجلب معها صورة واضحة لخاتم زواج. خاتم زواجها. واللحظة الغائمة

حين سحبه من إصبعها الميت. (هذا لا يعني أن هذا المشهد يتخذ صورة حسية، ولا يعني أنه يتجسد كفكرة حتى. إنه، في الواقع، لا يمكن الكشف عنه بسبب ألمه. يوجد حجرات، هو يعلم، في حياة معظم الناس لا يتم الدخول إليها أبداً، دع جانباً الإعلان عنها، لكنها مع ذلك تمكث ضاغطةً على الشعور مثل نماذج أوراق نباتات داخل كتاب قديم). خاتم الزواج الخاص بزوجته، زوجته ميرسي. آه، ميرسي. ميرسي، ضميني بذراعيك الناعمتين، غطيني بجسدك، دفئيني.

ربما خطرت ابنته الوحيدة على باله في لحظاته الأخيرة وربما لم تخطر، ابنته التي تبلغ الثانية والسبعين من العمر وتقيم في شقة مترفة في ولاية فلوريدا التي تنعم بالشمس.

أصبحت عمة فيكتوريا ممن يرتدين بدلات بنطلون فيروزية اللون. فهي مريحة، وعملية أيضاً، وتخفي البشرة الضعيفة المتشققة لبطتي ساقيها اللتين كانتا حسنتي المظهر في ما مضى. فمها المطلي بأحمر الشفاه ـ باللون الزهري المموج ـ ينفرج على نحو مفاجئ، يفغر، يرتعش، ويزم بصورة محكمة. غارت عيناها إلى شقّين من ساتان تصلّب إلى رخام. تنظر في مرآة غرفة الحمام ويخطر لها أن هذا الشعر المجعد الأبيض المائل للوردي الذي يحيط بوجهها لا يمكن أن يكون شعرها (رغم أنها تربت عليه أحياناً برضا عميق)، أو هذين الفكين المروعين أو الجزء العلوي المترهل من ذراعيها الذي يهتزّ عندما تمشي على طول الشاطئ في المساء، وترمي قطعاً من الخبز للنوارس. لم يخبرها أحد بأن جزءاً كبيراً من الحياة يعيشه المرء وهو عجوز. أو أن هذه السنوات الطويلة في فلوريدا، ويا للمفارقة،

لن تضايقها على الإطلاق.

تشعر أنّ كل ما تصادفه يفتقر إلى الوزن والأهمية. الأبواب الداخلية المجوفة لشقتها. الهشاشة المُقَولَبة لمفاتيح الكهرباء. الخفة المفزعة لأثاث شرفتها. سيارات الأجرة المقعقعة ذات المفاصل المخلّعة التي تستقلها أحياناً عندما تزور لابينا وزوجها خارج البلدة في بيردز كِي. حتى حقيبة كتفها البلاستيكية البيضاء باسطوانة أقراص السعال الأنيقة داخلها، وعلبة المناديل الورقية الصغيرة، والمحفظة الصغيرة الخاصة ببطاقات الائتمان المصرفية التي حلت محل الحاجة إلى الأوراق المالية.

يوجد في ردهة فندق بيسايد تاورز نبات صناعي بلون اليشب(١٩)، وهي لا تستطيع المرور بجانب هذا الشيء البغيض من دون أن تمد يدها وتمسك الأوراق بأصابعها، وأحياناً، بخشونة، تترك آثار أظافرها على السطوح الفلّينية، وتجد متعة سرية في ازدرائها هذا. في وقت متأخر من المساء اعتادت مشاهدة جوني كارسون على شاشة التلفزيون. يعيبها شكل فمه اللئيم القاسي، فم يبدو وكأنه رُسم على وجهه بالقلم والحبر، لكنها تحب المونولوج الذي يفتتح برنامجه به، ذاك الدفق السريع لدعابات مرتبطة ببعضها البعض وتمايله المألوف الذي يشبه تمايل لاعب غولف وعبارة جوني الانتقالية المتكررة: "المضي قدماً".

"المضي قدماً" هي العبارة التي تهمسها لنفسها هذه الأيام - في طريقها إلى صالون هيروووركس، إلى الموعد الأسبوعي

---

(١٩) اليشب: حجر كريم لونه أخضر مزرق. (المترجمة)

لغسل وتصفيف شعرها، في طريقها إلى مكتب البريد أو مواعيدها مع طبيبها أو إلى الطابق السفلي حيث غرفة النادي من أجل جولة لعب البريدج اليومية. المضي قُدُماً، الاستمرار في المضيّ قُدُماً. كما فعلت طوال حياتها. بخدر ولامبالاة. من دون تفكير.

أشرتُ سابقاً إلى أنّ السيدة فليت قد شفيت من اضطراب الأعصاب الذي عانت منه منذ أعوام مضت، لكنّ نوعا من الضغينة ما زال يسِمُ وجودها: إدراكها أنها لا تنتمي إلى أي شخص. حتى أحلامها تطلق أدخنة الفقدان القوية. لديها أولادها الثلاثة الراشدون، هذا صحيح، لكنها تَعجب إن كان هؤلاء الثلاثة سيتذكرونها بأي شعور سوى الرفق الحنون. وأحفادها الثمانية بعيدون جداً عنها، تلغيهم المسافة والتقدم في العمر، يكرسون أنفسهم للمستقبل الضبابي. ربما كان هذا ما يجعلها "تفكر في" حياتها السابقة على الدوام، تفكر بوالدها وحميها المفقودين، وترمي بنفسها في الفراغ الذي أُعطي لها ساعة ولادتها. في الفراغ تجد القرابة والنسب، وفي القرابة والنسب تجد فراغاً آخر ـ حلقة مفرغة من التردّي مجرد التفكير فيها يفطر القلب ـ ومع ذلك فهي تدفعها نحو الأمام، تبقيها حية. هي تطعم النوارس، ألا تفعل؟ وتتصل تلفونياً بأولاها الراشدين كل يوم أحد من دون انقطاع، أليسْ في لندن، جوان هناك في قفار أوريغون، ووارن في بيتسبرغ (وسينتقل في وقت قريب إلى نيويورك)، وعلى الرغم من الانقطاعات المجنونة أحياناً لهذه المحادثات الإلكترونية تتمكن من التظاهر ببهجة مستمرة وتقمع أي شيء قد يوحي باليأس. وهي تعدّ لنفسها عشاء مناسباً، ألا تفعل؟ ـ شرحة لحم أو صدر دجاج، خضار خضراء. كما أنها

لا تتناول الأقراص الدوائية؛ ولا تسمع أي أصوات غريبة.

لكنها تستلقي في فراشها، في ساعات الصباح الباكرة، عيناها ملتفتتان نحو النافذة، محدقتان في ضوء فلوريدا الشديد الذي يتسلل بين الستائر، تستشعران إشراقه الذي لا يَغفر. في بعض الأحيان تجمع قبضتيها، وأحياناً تغرورق عيناها بالدموع بينما هي مستلقية هناك، تفكر: ها قد حل يوم آخر، يوم آخر، وتحاول تحديد موضعها ضمن مشاهد حياتها المتغيرة. حياتها حتى الآن، يجب أن أقول ـ لأنها تشعر أنه ما زال أمامها سنوات طويلة. عَنَت تلك الحياة "حتى الآن" تقبّل جرعات المعلومات المُعيقة التي صادفتها، كل قطرة منها، وتحريكها بملعقة تَوقِها ـ لقد فعلت ذلك طوال سنوات كثيرة حتى أصبح جزءاً من طبيعتها. إن الحقيقيّ والوهمي يدوران في أرجاء غرفة نومها في رقصة فالس انسيابية ـ واحد، اثنان، ثلاثة. واحد، اثنان، ثلاثة. وتستمر بلا نهاية.

الكروموسومات تنهار. حسناً، دعها تنهار. إنها تطنب المادة المتوفرة، تمدّ، تقلص، تعيد تشكيل ما هو متوفر. هذه الجرعة المختلطة هي حياتها. تجعلها تدوّم بهذه الطريقة أو تلك، هذا يتوقف على ـ من يعلم على ماذا يتوقف؟ ـ على الرغبة، أم على الضرورة. قد تُورد شيئاً جيداً مناسباً من كتاب تقرأه من كتب المكتبة العامة، أو شيئاً ما من مسلسل تلفزيوني أو من حلم. ليس كثيراً، ولكن أحياناً، قد تورد رأياً جريئاً، كما حدث عندما أخبرتها فريدي هويت أنها شبه متأكدة بأنها لمحت ماريا غودويل ، أرملة سايلور غودويل، في مدينة إنديانا، تمشي عبر شارع أوهايو متأبطة ذراع سيد مسنّ ـ لكن

هذا مستحيل، مثير للضحك، إذ إن ماريا قد عادت منذ أمد طويل إلى قريتها الإيطالية وحوّلت نفسها إلى شخص مجلّل بملابس الحداد السوداء وفي حجرها كرة صوفية تحيكها. إذا حدث وطلبتَ من عمة فيكتوريا، دايزي، أن ترو لك قصة حياتها سوف تزمّ شفتيها ـ المطليتين بالأحمر الياقوتي ـ للحظة، وتتمتم نسخةً معدلةً هجينةً عن تلك الحياة، وتقدمها لك بحياء، ولكن من دون دفاع، أي بدون التباس أو مواربة: هذا ما حدث، ستقول من الأعماق التي لا يمكن الوصول إليها، التي تخص شخصاً في الثانية والسبعين من العمر، وهذا ما حدث بعد ذلك.

من الصعب التخمين إن كانت مرتاحة بهذا المزيج من التحريف والإغفال الذي تقدمه، من الصعب التخمين إن كان متعمداً، في الواقع. لكنها معتادة على ذلك. وقد خطر لها أن ملايين، بل مليارات من الرجال والنساء في العالم يستيقظون باكراً في أسرّتهم المنفصلة، شديديّ التوق إلى معرفة جوهر حياتهم، لكنهم مجبَرون كل يوم على إعادة ابتكار أنفسهم.

في حزيران من العام ١٩٧٧، بعد شهرين فقط من تناولهما غداء الفصح في فندق رينغلينغ، اتصلت قريبتها فيكتوريا فليت تلفونياً من تورنتو وقالت، "خمّني ماذا سأخبرك؟ ـ أنا ذاهبة إلى جزر الأوكني في مشروع بحث. في الأسبوع المقبل. لماذا لا تأتين معي. ستكون عطلة رائعة، وسيكون بمقدورنا" ـ لسبب ما حمل صوت فيكتوريا مسحة ضحك ـ "سيكون بمقدورنا وضع بعض الأزهار على قبر ماغنوس فليت".

"جزر الأوكني!" قالت ابنتها جوان خلال مكالمتهما التلفونية المعتادة كل يوم أحد. "لكنّي ظننت أنك قلت بأنك ستأتي إلى بورتلاند هذا العام، قلت إنك ستمكثين مع البنات كي أتمكن أنا وروسّ من السفر لأيام عدة، كنّ يتطلّعن إلى رؤية جدتهن. وهن يتحدثن عنك، جدتي هذا وجدتي ذاك، والآن أنت تتحدثين عن جزر الأوكني".

"هل عثرت على هذا المكان على الخريطة؟" قال ابنها وارن. "هل تعرفين أين تقع جزر الأوكني حتى؟".

"ولِمَ لا بحق الجحيم؟" قالت أليس بلهجتها الإنكليزية المكتسَبة. "لقد حان الوقت كي تقطعي المحيط. شرط أن تزوريني أنا والأطفال لأيام عدة في طريق الذهاب وطريق الإياب".

" طبعاً ستذهبين"، قالت فريدي، "سأحل محلك في مسائك التطوّعي، وستلغين لعبة البريدج ولو لمرة واحدة".

دعي جواز سفرك لي"، قال زوج لابينا، بَدْ، "فقط أحضري الصور الشمسية، املأي الطلب، وأنا سأوصلها إلى المبنى الفيدرالي في تامبا حيث صادف أن لي العديد من المعارف والأصدقاء - أحدهم مدين لي بخدمة. سينتهي كل شيء خلال عشر دقائق فقط، صدقيني".

ما ستحتاجينه، قالت لابينا (بينز)، (هو بزة صوف حقيقية. أقمشة فلوريدا هذه لن تنفع مع ذاك الطقس الفظيع، لن تنفع أبداً. كادت مؤخرتي تتجمد عندما كنت في اسكتلندا، وكان ذلك في إيدنبرا، ليس في عمق الشمال حيث تنوين الذهاب. بزة صوفية، بلوزة من نوع بيرما بريسّ وزوج من الكنزات

الصوفية الناعمة جداً كي تبدّلي بينهما، لن تحتاجي لأي شيء آخر.

"حذاء للسير"، قالت فيكتوريا عبر الهاتف. "لا يهم كيف يبدو".

"ومظلة". قالت فريدي. "من النوع القابل للطيّ".

"ألغِ المظلة"، قالت فيكتوريا. "حاولي العثور على مِمْطَر بلاستيكي مزود بقلنسوة".

"نأسف لأننا لا نستطيع منحك التخفيض"، قال وكيل السفر في برادينتون، "في الحقيقة، كان يجب إشعارنا قبل ثلاث أسابيع كي تحصلي عليه، علاوة على ذلك، لا نملك معلومات كثيرة حول جزر الأوكني".

"بصراحة"، قالت مارينا مَكْ هنري التي تقيم في الشقة المقابلة، "أفضّل أن أرى بلدي أولاً بدلاً من التسكع هناك. "هل سبق لك أن رأيت مدينة واشنطن؟ أعني، هل رأيتها حقا؟"

"لم يعد من الضروري أخذ لقاحات قبل زيارة أوروبا"، أخبرها الدكتور نيرلي، "ولكني سأكتب لك وصفة من أجل دوار السفر. وأخرى من أجل علاج الإمساك. وسيكون عليك اصطحاب وسادتك المضادة للحساسية معك، ربما كانوا ما يزالون يستخدمون وسائد ريش الدجاج أو القش هناك".

"أرجو من الله أن تكوني قد حجزت في فندق".

نحن شخصياً لن نحلم بحجز الفندق مقدما، فذاك سيقضي على كل المتعة، يروقنا أن نتعامل مع الأشياء من دون

تخطيط مسبق، هل تدركين ما أعنيه؟ السراب، ذاك نحن".

لم تزوري أوربا منذ ١٩٢٧؟ حقاً؟ يا للهول، استعدي للمفاجأة التي بانتظارك".

"لم أكن أعرف أنك زرت أوربا من قبل". (جوان خلال اتصالها التلفوني من بورتلاند ليلة ثلاثاء). "أعني أنك لم تذكري ذلك أبداً".

"كرمى لله، لا تنزلي في فنادق هناك، لأنهم، اسمعي، لديهم في كل الأنحاء هذه الأماكن الصغيرة الساحرة التي تقدم المنامة وطعام الفطور، وهي أكثر إلفة، كما أنك هناك ستشعرين بإيقاع الحياة في تلك الجزر كما يُعاش بالفعل".

"اتبعي نصيحتي وتفادي أمرين اثنين. الأول هو المؤسسات التي تقدم المنامة وطعام الإفطار. فبعضها يجعلك تنامين بين ملاءات بغيضة من النايلون، مقرف، وتقدم لك طماطم حارة على مائدة الإفطار، أنا لا أمزح. ثانياً، لا تشربي ماء الصنبور هناك. ألم تتساءلي يوماً لماذا يشربون الشاي بكثرة هناك؟ لأن الشاي يحتاج إلى ماء مغلي ـ مغلي، هل فهمتني؟".

"خذي معك شيكات سياحية".

"ضعي نقودك في حزام خاص".

حقيبتان صغيرتان أفضل من حقيبة واحدة كبيرة، هذه أذكى فكرة قيلت لي".

"عندما كنا في كانتربري ـ".

حين ذهبت إلى ليك ديستريكت ـ".

" ـ وجبة السمك والبطاطا المقلية، مغلفة بجريدة".

"علبة بلاستيكية صغيرة ضعي فيها صابوناً خاصاً بك لأنّ ـ"

"جدة جدتي كانت من آيل أوف وايت. هل هي قريبة إلى المكان الذي ـ "

"أرجو أن تجلبي لي واحدة من منافض السجائر الخزفية الصغيرة اللطيفة تلك، إن استطعت، ولكن الخضراء اللون وليس الزرقاء".

" ـ احملي أشياءك النفيسة معك طوال الوقت ـ "

"يمكنك العثور على سدادات الأذن الصغيرة المنسية تلك من محلات وينّ ديكسي".

"جزر الأوكني؟ لم أسمع بها من قبل".

كانت فيكتوريا الشابة في غاية التوتر عندما التقت عمتها المسنة في مطار ميرابيل في مونتريال. "أُعَرّفك على لويس. لويس روي. ليو، أعرفك على عمتي دايزي". قالت كل ذلك بعجلة كالنباح.

"سعدت بمعرفتك، سيدة فليت".

"لويس مسافر إلى الأوكني أيضاً"، قالت فيكتوريا، وقد ارتفع صوتها. كان وجهها فظيعاً وهي تقول ذلك. وكان شعرها فظيعاً أيضاً، سبط ومقصوص بصورة غير متساوية.

"أوه".

"إنه، يمكنك القول، مسؤول عن المشروع. إنه ـ تؤدي هزة كتفين متمايلة مضحكة لا مبالية، "إنه أستاذي، بصورةٍ ما".

"في الواقع، أنهيت رسالة الدكتوراه منذ وقت قصير فقط، سيدة فليت. أنا وفيكتوريا قدمنا هذا المقترح معاً. لقد كانت فكرتها في الأساس" . بدا وجهه قوياً وفمه متحمساً، مستعدّاً للتسلية.

على متن الطائرة، أُجْلِسوا هم الثلاثة جنباً إلى جنب، لويس روي من جهة الممشى، فيكتوريا في الوسط، وعمتها بجوار النافذة. احتسوا بعض الشمبانيا وتناولوا عشاء مكوناً من الدجاج وشرائح الطماطم، وضمن طقوس القعقعة والدوران الخاصة بالطيران، أصبحوا أكثر عفوية مع بعضهم. ثم اندفع لويس يروي قصة طويلة معقدة عن رحلة جوية سابقة له إلى أوروبا، ومع تقدم القصة، شرع، بصورة فظيعة، في استخدام صيغة المضارع. "فيعلن الكابتن، أحد المحركات معطل. حسناً. نجلس إلى الوراء. قلقون جداً. لكننا نجلس هناك، نتناول طعامنا وكأننا نقضي وقتاً ممتعاً، وفي اللحظة التالية نجد أنفسنا جالسين في مهبط طائرات في مكان ما في لابرادور، في قاعدة عسكرية أو شيء من هذا القبيل، ونعلق هناك طوال اثنتي عشرة ساعة كاملة، دورات المياه تعجز عن تلبية حاجة الجميع، ثم -

"العمة دايزي متعبة، على ما أعتقد" ، همهمت فيكتوريا.

صمت فوراً. بدأ يطقطق مفاصل أصابعه، تثاءب بصورة هائلة، تلفت حوله.

اتّقد وجه فيكتوريا لشعورها بالخزي. كانت تخمّن مشاعر عمتها حيال هذا الشاب، بشعره المتدلي حول كتفيه مثل كاب من الفراء، وسرده الصبياني الذي يحجب ذكاءه، ولطفه الاستثنائي الذي بدا لامبالاة ذكورية. وأخيراً، أحضرت المضيفة

بطانيات ووسائد وخفضت الأضواء، وتظاهر الثلاثة بأنهم نيام. سمعت فيكتوريا تنفس عمتها المضطرب، الذي يكاد يكون نشيجاً، وأدركت أن هذه المرأة المسنّة التي إلى جانبها تتوق من كل قلبها إلى أن تكون في موطنها، في شقتها في فلوريدا، إلى أن تكون في أي مكان عدا المكان الذي هي فيه، تقطع المحيط الأطلسي ليلاً وضوء ضئيل فقط يومض على إطار النافذة وفوق جفنيها.

كما أحست فيكتوريا، في الوقت نفسه، برادارها الحسّاس جدا حيال الواجب، بموجة الحزن، موجة الشعور بالإخفاق، المنبعثة من جسد لويس روي المتشنّج. تحت ستار بطانيتها الصوفية مدت يدها جانباً تبحث عن يده، وجدتها ترتجف، وأمسكتها بقوة. لم يسبق لها أن لمسته. لقد كان حقاً أستاذها وكانت طالبته. لم يكونا، في ذلك الوقت، على علاقة حميمة.

بعد قليل، مدت يدها الأخرى ووضعتها فوق رسغ عمتها المتوتر المسنّ، قائلة من خلال الضغط بنهايات أصابعها: كل شيء سيكون على ما يرام، ثقي بي.

بهذه الطريقة، وهم متحدون بواسطة ذراعَيّ فيكتوريا فليت الممتدتين الكثيبتين، استبدلوا هم الثلاثة قارّةً بأخرى. ربما ناموا للحظات خلال الليل. كل واحد منهم يشعر بأنه يعيش على كوكب هش ضعيف. ولم يعرف أيّ منهم الوجهة التي يقصدها هذا العالم.

إن جزر الأوكني هي أرض منخفضة خضراء محاطة بالعناية، مغطاة بطرق كثيرة المنعطفات وبالأغنام التي ترعى على المروج المنحدرة كما نرى عادة في لوحات المناظر

الطبيعية، وهي تشكل لوحة يمكن أن تكون قد رسمت بريشة فنان بالألوان المائية قبل مائتي عام مضت، أو ثلاثمائة عام مضت. وراء وتحت هذه المناظر الرعوية نجد آثاراً تعود لما قبل التاريخ ـ قرى، حصون، ركام من الحجارة، مقابر، وحجارة واقفة عمودياً قد تكون مراصد فلكية وقد لا تكون. وهناك آثار من عصر الحديد[٢٠] أيضاً، طبقة أخرى. والآثار الاسكندينافية التي تعود إلى القرن التاسع. إضافة إلى الآثار من القرون الوسطى، من العصر الإقطاعي، والرهباني. وإضافات أخرى أكثر معاصَرة ـ ففوق الآثار القديمة والمظاهر الريفية، هناك المصانع الأوكنية الصغيرة المتواضعة النشطة التي تنتج أصنافاً مثل قوالب الحلوى الأوكنية (لذيذة) والأجبان الأوكنية. ثم هناك مشاريع الأشغال الحِرَفية، معظمها تتعلق بحرف الحياكة (لكنها في تراجع، للأسف)، حركة السياحة (مزدهرة)، والخلفية النشطة الحاضرة دوماً من تبادل تجاري يومي والاحتياجات الاختصاصية ـ البقالون، العاملون في مراكز الشرطة والإطفاء والبحث العلمي وغيرها، المحامون، رجال الدين، وكل شيء.

لا شيء من هذا هو ما توقعته عمة فيكتوريا المسنّة، دايزي. أرض البرابرة، المستنقعات، نباتات الخَلَنج هو ما خطر على بالها. منازل الأوكني متناثرة في دزّينة من القرى المنتشرة عشوائياً أو في البلدتين الأساسيتين، كِيركْوول وسترومْنِس. حتى فيكتوريا دهشت لرؤية مئات من البيوت المدينية، مبنية بمتانة،

(٢٠) عصر الحديد: العصر المتميز بصهر الحديد

وغير مزخرفة. نظرت إلى واجهات هذه البيوت التي لا تكشف شيئاً وتخيلت نساء في الداخل، واقفات أمام مرايا، يتأملن أنفسهن، أو رجالاً يدخلون رؤوسهم في ياقات كنزاتهم، مما يحدث الفوضى في شعرهم. يكاد لا يظهر أحد في الخارج. كان الوقت ما زال باكراً بالطبع، وكانت رياح عاتية تعصف بالبحر أيضاً، والأمطار تهطل بغزارة، رغم هذا، كانت فيكتوريا وعمّتها ولويس روي يقفون في فناء الكنيسة في بلدة ستورمْنِس يقرأون شواهد القبور. كانت فيكتوريا هي التي صرخت بما اكتشفته:

حياة تقية سعيدة نهايتها
صعدت الروح للقاء باريها
إلى ملاذها
إلى راحتها
ماغنوس فليت، ولد عام ١٥٨٤، توفي عام ١٦١٦

لسببٍ ما، جعلهم هذا النقش، هم الثلاثة، يتلوّون من الضحك. بدا أن اسم فليت هو اسم شائع جداً في الأوكني. كان أشخاص يحملون اسم فليت يظهرون في كل مكان، ليس فقط ماغنوس بل توماس فليت، سيسيل فليت، جاميسينا فليت، دونالدينا فليت. كانت عائلة فليت هي ملكة المقبرة بلا منازع.

لم يُبدِ المطر ما يدلّ على أنه قد يضعف أو يتوقف، وبعد دقيقة أمسك روي بذراعي المرأتين وقادهما عبر الشارع إلى مقهى حيث جلسوا خارج العاصفة، منتبهين باهتمام لبعضهم البعض.

"أي نوع من الرجال كان حميك، سيدة فليت؟" طرح لويس هذا السؤال بصوت اجتماعي بينما كان يدهن كعكة مدورة بالزبد.

"في الواقع، لست متأكدة تماماً".

"ولكن لا بد أن لديك انطباعاً من نوع ما".

"كان رجلاً شقياً. حزيناً. فقد هجرته زوجته".

"آهاه!" مشاكساً". كانت واحدة من تلك الأسر السعيدة".

"تبنى أبناؤه الثلاثة موقف أمهم. رفضوا رؤية والدهم. لم يرغبوا بأن يكون لهم أي علاقة به".

"وقد ولّد هذا لديه شعورا بالمرارة؟"

"دفعه للعودة إلى هنا". أشارت بيدها نحو النافذة، متشرّبةً الشارع المظلم المبلل، السحب الماطرة القاتمة. "عندما كان في الخامسة والستين من عمره. أعتقد أنه كان يشعر بالمرارة".

"لكنك لست متأكدة من ذلك؟"

"في الواقع ـ".

"ماذا؟".

"في الواقع، لم ألتق والد زوجي أبداً".

"فهمت". كان واضحاً أنه قد فوجئ.

"لا، لم نلتق أبداً. وقد أسفت لذلك دوماً. لأننا لم نلتق خلال حياته. كنت أشعر دوماً بأننا ـ".

"ماذا؟".

"بأنه ربما كان لدى كِلَينا" ـ تتوقف قليلاً ـ "ما يقوله للآخر".

"لا تشعر نساء كثيرات بهذا حيال آباء أزواجهن".

"أنت على حق، على ما أعتقد".

كان ماغنوس فليت والد جدي"، قالت فيكتوريا، راغبة ربّما بتحمّل نصيب من المسؤولية حيال انهيار العائلة.

احتسوا شايهم بصمت. ثم لويس، المصمم على أن يكون مبتهجاً، رفع فنجان شاي بصورة احتفالية وقال، "نخب عظام ماغنوس فليت الحقيقي الذي سوف نعثر عليه".

"كانت عبارتك مقفّاة"، قالت فيكتوريا، التي يروقها رؤية حماس الآخرين.

"آه، حسناً"، قالت عمة فيكتوريا، فمها مبتسم الآن، وصدرها مليء بنبضات قلبها.

هدأت الرياح في اليوم التالي. وأشرقت الشمس قوية بصورة لافتة، وتدفق السيّاح، بالقمصان القطنية والسراويل القصيرة والفساتين الصيفية من المركب لتغص بهم شوارع سترومْنِس الضيقة، وهم يأكلون المثلجات ويبتاعون البطاقات البريدية.

كان المساء قد حلّ لكن ضوء النهار ما زال مشرقاً. تناول لويس وفيكتوريا وجبتيهما من فطيرة الراعي ببطء في مطعم فندق غراي ستونز بينما شرحا للعمة فيكتوريا سبب مجيئهما إلى جزر الأوكني. سحب لويس قلم رصاص ورسم مخطّطاً صغيراً على منديله الورقي، ورغم أن الرسم قد نُفّذ بسرعة،

كان جميلاً ـ أو هكذا بدا لفيكتوريا، التي طوت المنديل في منتصفه باهتمام في ما بعد وضغطته في البطانة الخلفية لحقيبتها. إن هذه الجزر، قال لويس، تزخر ببقايا مستحاثات الأحياء البحرية الصغيرة. لكن الدليل على الحياة في بداياتها على الأرض قد خُرِّب تماماً. إذ لم تكن درجة حرارة الأرض مناسبة، كما أن بنية النباتات كانت ضعيفة جداً. لكنه هناك في تورنتو، وباستخدام مجموعة من الخرائط المحسَّنة بواسطة الكومبيوتر، وهي أحدث ما توفّر في هذا المجال، كان يعمل وفيكتوريا على دراسة نماذج مستحاثيّة عُثر عليها في شمال اسكتلنده، لاستكشاف قوس عريض عبر غرب ذاك البلد وصولاً إلى اسكندينافيا ـ هذا القوس، بانحنائه البسيط، مرّ عبر الطرف النائي لأراضي جزر الأوكني، مما أقنعهم أن تَشَكُّلاً صخرياً معيّناً موجوداً في يِيسانبي، التي تقع على بعد أميال شمال ستورمْنيس، هو تشكّل واعد. إن الصخور مختلفة في ذاك المكان، فهي أكثر صلابة، لدرجة أنّ سكان الجزر، تقليدياً، يذهبون إلى هناك بحثاً عن حجار مساحة، لأن صخور المناطق الأخرى في هذه الجزر ليست قاسية لدرجة تفي بذاك الغرض. أتى لويس على ذكر صخر الشرت[٢١] في رايني، كما ذكر حجر مِيدل أُولد رِيد الرملي. وشرح كيف أنه قدّم طلباً للمجلس العلمي في كندا من أجل الحصول على منحةٍ للسفر، وكيف جمّع أدواته وفريق عمله، وهو فريق يتألف منه شخصيا ومن فيكتوريا فليت. كان لديهما واحد وعشرون يوماً كي يتسكعا ويدوّنا ملاحظاتهما قبل نفاد اعتمادهما المالي. كان

(٢١) الشرت: صخر صواني غير نقي. (المترجمة)

كلاهما مفعماً بالتفاؤل: فالبيولوجيا، يحاجج لويس، ستحبط دوماً محاولات المختصين الرامية إلى مَنْهَجَتِها وتنظيمها. لأن المتغيرات كثيرة جداً. صحيح أن الأرض تحبس عطاياها أحياناً، لكنها غالباً ما تكون سخية.

نظرت فيكتوريا عبر الطاولة وتأملت عمتها، التي بدت هادئة، مطمئنة، متوردة بسبب حرارة يوم طويل. جعلها الطقس الجميل تترك سترة بزّتها في الغرفة التي تشاركها فيها فيكتوريا في الطابق العلوي، وهي تفكر الآن في ما إذا كانت ستلقي نظرة على المتاجر المحلية في اليوم التالي، وتحاول العثور على فستان خفيف على مقاسها. لقد نامت بعمق في الليلة الفائتة، نوماً غير متقطع، لحسن الحظ.

أحست فيكتوريا بحب جمّ حيال عمتها وهي تحدق فيها، وشعرت أنها ساهمت في خلق رضا عمتها وراحتها الحاليّين. كادت تتمنى أن يكون هناك صعوبات يمكنها تجنيبها إياها، وهدايا يمكنها أن تقدمها لها. الآن، في هذه اللحظة، يبدو لها الحديث الودّي بين لويس وعمتها جميلاً، يبدو لها أنه بداية لشيء ما.

كان لويس يحدثها عن الدراجتين العاديتين وحزمَتَيّ الظهر التي استأجرها كي يتمكن وفيكتوريا صباح اليوم التالي من الذهاب إلى ييسانبي وبدء البحث. "سنبدأ بالحفر بحثاً عن أعاجيبنا"، قال لها لويس، "ونتركك كي تعثري على ماغنوس فليت".

"هل سمعتك تقول ماغنوس فليت؟" قال مالك الفندق، بينما كان واقفاً قرب طاولتهم، يسكب قهوتهم.

كان اسم المالك السيد سينكلير. كان رجلا ضخماً، قوي البنية، عازباً أبدياً بوجه ذكي ورأس يغطيه شعر رمادي جميل وهو دائم الانشغال بردّه عن جبهته إلى الوراء. ما الذي أتى بهذا الشخص إلى مصلحة الفنادق، تساءلت فيكتوريا مندهشة ـ كان يجب أن يكون نجماً سينمائياً بطريقته الجميلة، طريقته التي تكاد تكون بهية، في ترتيب الأطباق على الطاولة وصوته الريفي المرح العذب. قال إعلان فندقه، الذي يحوي ست غرف نوم فقط، بأنه "يحتوي كل وسائل الراحة الحديثة"، ومعنى ذلك أن بعض الغرف فيها سخانات كهربائية. السيد سينكلير، الذي يقطع الدرج المغطى بالموكيت، صاعداً هابطاً، بأفروله الرمادي المرتب، كان هو المحاسب، وخدمة الغرف، والطاهي، والنادل.

"هل سمعتكم تقولون أنكم تبحثون عن ماغنوس فليت؟" قال بكياسة، منحنياً بطريقته البهية فوق الطاولة. "سامحوني على مقاطعتي لكم، لكني سمعتكم تقولون شيئاً ما عن ماغنوس فليت المسنّ من دون أن أقصد التطفل. لكن ماغنوس فليت يمكث في البناء المجاور لنا".

"في المبنى المجاور؟".

"مزرعة الجمّيز. لقد مررتم قربها تماماً. إنها دار العجزة ممن ليس لهم عائلة تهتم بهم. عندما كنتُ ولداً صغيراً كانت هناك أشجار جميز في الحديقة الخلفية لكنها لم تعد هناك، بالطبع. لقد كان بيتاً خاصاً قبل أن يستولي عليه مجلس بلدية المدينة. في هذه الدار يعيش العجوز فليت. بل السيد فليت الشهير، يجب أن أقول".

هزت فيكتوريا رأسها. إنها تبدو أجمل بكثير مما تظن، الليلة. "لم يعد ماغنوس فليت الذي يخصّنا على قيد الحياة"، قالت بقدر من الرزانة والوقار. "لقد وُلد عام ١٨٦٢. لا نعرف متى توفّي، لكننا متأكدون من تاريخ ميلاده لأنه مدون على بعض الوثائق الرسمية التي بحوزة عمتي".

"تلك هي سيادته بالتأكيد"، قال السيد سينكلير هازّاً رأسه، مبتسماً. "هذا إذا صدق المرء أنه يبلغ من العمر ما يدّعي أنه يبلغه، واتفق أني واحد من هؤلاء الذين يصدقون ما يقوله الرجل. تنشر صحيفة الأوركاديان صورته كل عام في يوم مولده. حضرت صحف لندن أيضاً، هذا العام، حيث بلغ المسكين عامه المائة وخمسة عشر، تخيلوا ذلك. كان ذلك قبل حوالى الشهر، وقد أقيم حفل عيد ميلاد لم تشهدوا له مثيلاً. أحضَروا قالب حلوى بحجم هذه الطاولة. أضيئت الشموع، أُضرمت نار كبيرة في الهواء الطلق، لكنه بالطبع كان نائماً طيلة الوقت. لماذا، لأن السيد فليت هو الرجل الأكبر سناً على الجزر البريطانية".

ليس السنّ وحده ما جعل السيد فليت شهيراً. بل ذاكرته المذهلة.

في صيف عام ١٩٧٧، العام الذي قامت فيه فيكتوريا، وزميلها، لويس روي، وعمتها المسنّة دايزي بزيارة جزر الأوكني الخرافية في حملتين استكشافيتين منفصلتين، استندت شهرة ماغنوس فليت بالفعل على أعوامه المائة وخمسة عشر. إنه سنّ متقدم جداً. هناك امرأة في الأوكني يقال إنها تبلغ من العمر ١٢١ عاماً، وشقيقان في أرمينيا يبلغ عمراهما

المفترضان، على التوالي، ١١٨ و١١٦ عاماً (ولديهما وثائق تؤكد ادعاءهما). وهناك امرأة من شعب الإنْوِيت[٢٢] تعيش في نزل الكنيسة الأنجليكانية في رانكين إنلت أقسمت يميناً بالكتاب المقدس أنها تبلغ ١١٢ عاماً من العمر (بدأت عادة تدخين السجائر في الخامسة والثمانين من عمرها، وعادة شرب الويسكي في التسعين). وعلاوة على ذلك هناك بطل الآثار البشرية القديمة بلا منازع: السيد غي من سنغافورة، الذي ما زال قادراً على المشي في عامه الـ١٢٣، ولو أن زوجته (في السادسة والتسعين) هي الوحيدة التي وقع نظرها عليه في السنوات الأخيرة. إنّ النظر إلى المسنّين هو أمر يشدّ العزم، سواء كان سنّهم مثْبتاً أو غير مثبت، وماغنوس فليت بسنواته المديدة هو من المشاهير. فقد نُشرت صورته في الصحف الأسبوعية البريطانية ("حياة في يوم ماغنوس فليت"، الصنداي تايمز، ١٦ آذار ١٩٦٢، الصفحة ٥٤). ومرةً، منذ عشر سنوات، ظهر أمام كاميرات تلفزيون الـ BBC، محدّقاً في الجمهور مباشرة وهو يقوم ب"أدائه اللافت".

"أداؤه اللافت"، هو الذي جعله شهيراً، أكثر بكثير من سنّه: وهو قدرته على سرد رواية جين آير كاملةً عن ظهر قلب، فصلاً بعد فصل، كل جملة، كل كلمة. يصف السيد سينكلير هذا الإنجاز لزوّاره، ويزداد صوته الرقيق رقّةً بتأثير الرهبة.

عملٌ فذّ وخارق، قد يقول البعض، ممن هم ليسوا على

(٢٢) شعب الإنويت: السكان الأصليين لمناطق الألاسكا وغرين لاند من القطب الشمالي. (المترجمة)

معرفة بقدرات الدماغ البشري على الحفظ والتذكر. وربّما لم يسمع هؤلاء أبداً كيف أن بعض الأشخاص الأتقياء في الزمن القديم حفظوا العهد الجديد كاملاً عن ظهر قلب. وكيف أنه حتى في بداية قرننا لم يكن من غير المألوف رؤية أشخاص عاديين يحفظون الإنجيل عن ظهر قلب، رغم أنه، في ما بعد، بدأت مدارس الأحد تقدم الجوائز من أجل إنجازات ضئيلة مثل حفظ مقاطع خطبة المسيح على الجبل التي يبدأ كل واحد منها بـ "طوبى ل.." . أو حفظ المزمور رقم مائة. وقد أصرّ العلماء على مدى سنوات على أن الشعر الأنجلو ـ سكسوني بعنوان بيوولف(٢٣) يجب أن يُتلى في المآدب من قِبَل مُؤَدٍّ واحد من دون الرجوع إلى نصّ مكتوب. أُخبرت دايزي غودويل فليت عن إنجازه الاستثنائي عندما كانت طالبة في كلية لونغ للبنات في سنوات العشرينات من القرن. خلال تلك الفترة من حياتها هي نفسها حفظت قصيدة تينترن آبي(٢٤) كاملة عن ظهر قلب ـ ليس لأن أستاذها طالَبها بذلك، بل لأنها شعرت برغبة شديدة بأن يتشرب جسدها سطور ويليام ووردسوورث الموزونة النبوئية (المهيبة).

لقد بدأت ذاكرة ماغنوس فليت أن تضعف بالطبع في سن الـ١١٥، يعترف السيد سينكلير بذلك. أثناء المقابلة التلفزيونية

(٢٣) بيوولف :Beowulf قصيدة ملحمية تتألف من ٣١٨٢ بيت أحداثها في اسكندينافية، وتعتبر أهم عمل أدبي أنجلو ـ سكسوني. تعود للفترة ما بين القرن الثامن والحادي عشر. (المترجمة.)

(٢٤) تينترن آبي Tintern Abby آثار دينية في ويلز، ألهمت ووردسوورث قصيدته.

التي أجريت معه منذ عشرة أعوام استطاع أن يسرد الفصل الأول فقط من رواية جين آير، لكنه فعل ذلك من دون أن يتلعثم أو يتردد ولو لمرة واحدة. لكنه في العام الماضي تمكن من سرد الصفحة الأولى فقط. والآن، كما يحذِّر السيد سينكلير زواره من شمال أمريكا، لم يعد بمقدور المسكين أن يتذكر سوى السطور الأولى من الفقرة الأولى.

إن أكبر إحساس بالعزلة والوحشة في حياتنا ينشأ عن عدم استعدادنا لإنهاك أنفسنا، عدم استعدادنا لتعكير أنفسنا. نحن دوماً نخمد مناخنا الداخلي، سامحين لأنفسنا براحة التأجيل، راحة البروفات والتدريب. لماذا تعمل الشابة فيكتوريا جاهدةً كي تبقي العجوز ماغنوس فليت خارج تفكيرها؟ وما الذي يجعل عمتها المسنّة دايزي تؤجل زيارتها لدار الجمّيز للعجزة يوماً بعد يوم؟ وتقدم الأعذار لقريبتها فيكتوريا كل مساء، قائلة أنها قضت الوقت في رؤية معالم المدينة، أو في البحث في المتاجر عن ثوب صيفيّ. يستمر الطقس الدافئ، ويُسجَّل رقم قياسي جديد لارتفاع درجات الحرارة في الأوكني خلال الأسبوع الأخير من حزيران، وهي تدّعي أنها تحاول الإفادة إلى أقصى حد من هذا الطقس الذي لا سابق له. مرتديةً تنورتها وبلوزتها القطنيتين الجديدتين (باللون الخمري) وحذاء المشي الجديد عليها، ذهبت تتحدى الحقول فوق ستورمْنيس، عاثرةً في طريقها على نبات الخُلَنج والحَجَريّة ـ السوداء الثمر(٢٥)، والعديد من نباتات البَرْدِيّ وزهرة الربيع الاسكتلندية الصغيرة

---

(٢٥) شجيرة ذات ثمر عُلَيقي أسود

الجميلة (بريمولا سكوتيكا) بلونها الوردي القويّ. "حب! حنان! شجاعة!" هكذا تهمس للمنظر الطبيعي المنحدر، وبلا سبب واضح، تفكّر بالسيد سينكلير، الخبير في الريف والذي يرافقها في بعض نزهاتها. بعد تقديم وجبة الظهيرة في الفندق، بعد غسل الأطباق، ينطلق هذان الاثنان معاً بسيارته ماركة فورد ـ فييستا، ويزوران الكنائس والمقابر في القرى المجاورة، وفي أحد الأيام، يصادفان شاهدة قبر مُحيَ عنها اسم العائلة، وبقي واضحا التاريخ ـ ١٦٧٥ ـ وعبارة مختصرة منقوشة: "انظروا إلى نهاية الحياة!" تصريح رنان وحيد. (يتوقع المرء أن تسبب هذه الصرخة من أرض الأموات الاضطراب للسيدة فليت، لكنها بدلاً من ذلك تقع تحت سطوة سحر العبارة، وكأنها رأت رؤيا أو سمعت صوتاً يتحدث عبر علامة التعجّب تلك، معلناً عن وجود نافورة من البهاء تسترق النظر إلى نهاية الحياة).

"هل زرتِ ماغنوس فليت؟" تسأل فيكتوريا كل مساء، بعد عودتها مسفوعةً بأشعة الشمس ومغبرّة بسبب طبقات صخور ييسانبي.

"غداً"، تَعِدُها عمتها. "غداً سأقوم بالترتيبات الضرورية للزيارة".

كلتاهما تدركان ـ حتى لويس روي يدرك، من خلال مراقبتها، صامتة صبورة وهي ترفع فنجانها من الشاي ـ بأنها تستكمل استعدادها لخيبة الأمل.

تكتشف السيدة فليت أن اخضرار الأوكني خادع. فما يبدو أنه هكتارات من الأرض السوداء الخصبة ليس أكثر من غطاء رقيق فوق طبقات صخرية. الصخور هي المادة التي تشكل هذه

الجزر، طبقات مسطحة ناتئة من الحجر الكلسي، ينشطر بسهولة إلى رقائق وصفائح، ويسهل تشكيله وقصه؛ إنه في كل مكان. وكل مزرعة، كما يبدو، لديها مقلعها الصغير الخاص، وأدواتها الخاصة ـ مطرقة، وأداة مستدقة الطرف ـ هي جزء من عدة كل مزارع. ولأنّ الخشب نادر، تُستخدم الصفائح الصخرية كأسقف للمنازل، كأسيجة، كطاولات ومقاعد للنزهات، كأحجار مساحة ونقاط علامة، مما يخلق ابتسامة على وجه السيدة فليت بينما تفكّر بالبرنامج التلفزيوني المفضل لدى أحفادها، حجر الصوّان. تتخيل أن البيوت التي تمر بقربها بالسيارة برفقة السيد سينكلير مفروشة بكراسي حجرية وطاولات حجرية وحتى أسرّة وأثواب من الحجر. تتذكر أن حماها، ماغنوس فليت، جاء إلى كندا عندما كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره، وكان منذ ذلك الحين بارعاً في حرفته كقاطع حجارة.

عمِلَ في مقلع تايندل حتى بلغ الخامسة والستين من عمره. رجل يتمتع بالقوة العضلية والمهارات اليدوية، رجل شغّيل. لا يعتبر الرجل رقيقاً بأي معيار من المعايير. كان قليل الكلام ، بحسب ما أفاد أبناؤه. العناد والصلابة هي السمعة التي تركها وراءه. ضيق الأفق. حجر.

كان يعرف القراءة والكتابة، كان قادراً على قراءة الإنجيل أو البيان المصور للتسوّق عبر البريد إذا احتاج، لكنه لم يكن رجلاً من النوع الذي يمكن أن يجلس ويقرأ كتاباً. تعرف السيدة فليت ذلك من دون أن يخبرها أحد به. لا ، لن يدخل رأسه أن يقرأ كتاباً. لن يقرأ رواية. لن يقرأ رواية مكتوبة بقلم امرأة

إنكليزية اسمها شارلوت برونتي. وبخاصة تلك الدرة من درر الأدب الإنكليزي، جين آير.

مستحيل.

"هل تريدينني أن أرافقك عندما تزورين ماغنوس فليت؟" تعرض عليها فيكتوريا، بشيء يشبه التردد.

"إذا أردتِ"، يقول السيد سينكلير لها، "يمكنني مرافقتك عندما تذهبين لزيارة السيد ماغنوس فليت".

"غداً"، تقول السيدة فليت. "غدا".

لكنها في اليوم التالي ترافق السيد سينكلير بالسيارة إلى موقع ييسانبي حيث كان لويس وفيكتوريا يعملان.

كانت نهاية الطريق خَرِبة وبحاجة إلى إصلاح، مما اضطرهما إلى إيقاف السيارة قرب تقاطع طرق إيست بيغينغ والسير لمسافة نصف ميل فوق الأراضي السبخة قبل أن يصلوا إلى وعورة الرَّعْن (قُنّة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر). ترفع فيكتوريا ذراعيها الاثنتين وتلوح لهما مرحبة بحيوية ومرح عندما تراهما يقتربان، تمتزج صيحاتها بالأصوات الحادة للطيور البحرية وبهدير الأمواج القادم من الأسفل.

كانت الشمس تشعّ فوق الصخور. وفوق حافة الأرض شبه المستوية، الزَّلِقة، اللامعة بمحاذاة البحر، ارتفعت بوابة الله الشهيرة التي كانت فيكتوريا قد وصفتها لعمتها، قنطرة طبيعية هائلة تتحطم عبرها بصخب موجةٌ من كل سبع أو ثماني موجات. "قيل أن مصوران هاويان قد تسلقا إلى الفتحة، ثم، أمام أعين زوجتيهما وأطفالهما، جرفهما البحر. حدث ذلك منذ خمسين عاماً).

أحسّت السيدة فليت، وهي ترمش في ضوء شمس بعد الظهيرة، بأنها قُزِّمت نتيجة الحجم الهائل لكل شيء حولها: الارتفاع الساحق للتشكّل الصخري، امتداد وعنف البحر في الأسفل، والأراضي السبخة المقفرة الممتدة العالية؛ بعيداً، على مرمى نظرها، خارج هدير أمواج البحر، بدت سيارة السيد سينكلير الواقفة، لا تتجاوز حجم ذَرّة عند خط الأفق. السيد سينكلير نفسه كان يقف على بعد أقدام منها، ذراعاه مطويتان بسلام مثل جناحين فوق صدره العريض، مرتاحاً داخل جسده الرائع. يا لهذه الخفّة التي تشعر بها! ـ تشعر وكأنّ جسدها معلّق بين ضجيج العالم وضخامته ـ ما هذا الشعور؟ لم تستطع للحظة أن تطلق اسماً على الهواء العاصف الذي يهبّ عبرها، يكسو وجهها بابتسامة رقيقة، ثم خطر الاسم على بالها: السعادة. إنها سعيدة.

قريبة السيدة فليت المفضلة، فيكتوريا، ولويس روي، وهو رجل لم تكن تعلم بوجوده قبل أسبوعين، زحَفا كحشرتين على صفحات من الصخور البارزة فوق سطح الأرض، وحفرا بأدواتهما الدقيقة سطح العالم الخفيّ، ما الذي يأمَلُونه؟ العثور على آثار ميكروسكوبية عن الحياة المدفونة. الحياة التي تحولت إلى حجر. إلى معادن مُرّة. إنّ اكتشافاً كهذا سيكون هائلاً في مضامينه، هذا ما قالوه لها ـ مجرد التفكير في ذلك أثار حماسهما ـ ولكن في الوقت نفسه يمكن للقطعة التي تحمل البرهان على هذا الاكتشاف أن تكون صغيرة تتسع لها راحة اليد، رقاقة من الصخر مطبوع عليها شكل ورقة نبات. أو زهرة بدائية. أو أي أثر صغير، بكتيريا، دقيقة كالحياكة، النقط المشفّرة للحياة.

ولكنهما لم يكتشفا شيئاً حتى الآن، رغم أنه لم يتبقّ أمامهما سوى أيام عدة.

في الليالي المظلمة الطويلة في فندق غراي ستون، تستلقي فيكتوريا بين ذراعَيّ لويس روي.

تنتظر حتى تستغرق عمّتها في النوم العميق، ثم تنهض، تبحث عن خفّيها في الظلام، وتستشعر طريقها بصمت عبر الممر الضيق إلى الغرفة رقم ٥، حيث يستلقي لويس، مستعداً. تتّسم نزهاتها الليلية تلك بلمسةٍ من مسرحيةٍ هزلية فرنسية ساخرة، وتقدِّر فيكتوريا هذه الإثارة المسرحية وتضيفها إلى كومة سعادتها الحاليّة. إن الرواق المعتم، بأضوائه وظلاله، بخزانة أدراجه، مرآته، وساعة حائطه، وجميعها من الطراز القديم، مفروش بالسجاد، وليست كل مساحته غارقة في الظلمة، فالسيد سينكلير قد زوده بمصابيح وردية صغيرة كي يضمن راحة نزلائه. هناك فقط ما يكفي من الضوء، في الواقع، كي تتمكن فيكتوريا من قراءة الكلمات المكتوبة على اللوحة الفيكتورية الجميلة المثبّتة على الجدار قرب غرفة الحمام:

إن السعادة

تنمو قرب

موقدنا الخاص بنا

ولا تُقطَف من

حدائق الغرباء

قرب الموقد! حدائق! عندما تقرأ فيكتوريا هذه الكلمات وهي تقطع الرواق على رؤوس أصابعها الساعة الثانية صباحاً،

تنتابها رغبة في الانفجار بالضحك.

كلاهما، هي ولويس، يعتقدان أن هذا المقطع هو تحذير من النشوة التي اكتشفاها خلال الأيام القليلة الماضية. ليلة بعد ليلة، بين الملاءات البيضاء النظيفة في منشأة السيد سينكلير الأنيقة، يغوصان أعمق فأعمق في ذاك اللغز، ينامان ويستيقظان، ويبعثان الحياة في تلك الأجزاء من نفسيهما، الأجزاء التي ظنوا أنها معوّقة، ومجردة من حقها. منذ عام مضى، حتى منذ شهر مضى، كان كلاهما سيزدريان الالتقاء بالمصادفة في هذه الجزر بين الهواء، أشعة الشمس الخفيفة، والنهارات الطويلة ـ واحتمال خطأ تقديراتهما العلمية أو احتمال الإخفاق حتى ـ ويقنعا نفسيهما بأن مكافأة الحب الجنسي ليست أكثر من مكافأة مؤقتة، عزاء عن الحزن والكآبة.

لم تقل شيئاً للعمة دايزي عن اكتشافها، أو عن خططها للمستقبل، لأنها تدرك جيداً مدى قلق عمتها حول ابنها وارن، وطلاقه مرتين، والآن، انفصال ابنتها أليس الموجع عن زوجها، بِن. يراود فيكتوريا الشك ـ رغم أنها لا تستطيع الجزم ـ بأن عمتها دايزي تقرّ بالأفكار المدوّنة على اللوحة الفيكتورية، وتؤمن أنه، إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، فإن احتمال أن تجلب حدائق الغرباء الأذى هو أكبر بكثير من أن تجلب السعادة.

"يجب أن أحذّرك"، قالت السيدة بيتي هولواي، "بأنه طريح الفراش تماماً، وعاجز طبعاً".

"نعم، حسناً، أفهم ذلك".

"هناك أمر آخر. فقدَ السيد فليت نظره بصورة شبه تامة.

لديه سادّ في كلٍّ من عينيه. لا يمكن إزالتها بالجراحة في مثل عمره".

"هذا متوقع، على ما أعتقد".

"لكن المدهش أنه ما زال يسمع قليلاً بإحدى أذنيه".

"أوه".

"لكنه أصمّ تماماً في أذنه الأخرى. إنه كذلك منذ أمد طويل".

"فهمت".

"يتعب بسهولة كبيرة".

"لن أمكث وقتاً طويلاً".

"هل قلت أنك قريبته؟".

"في الواقع، أنا لست متأكدة. قد أكون. من جهة زوجي".

"ليس لديه أي أقرباء على الإطلاق، ليس في هذا المكان على أي حال. إنه أمر محزن، أليس كذلك".

"جداً".

"وبالطبع، عندما يبلغ المرء هذا السن، وقلّةٌ هُمْ من يبلغونه، لا يبقى لديه الكثير من الأصدقاء كي يزوروه".

"هل سبق للسيد فليت أن عاش في كندا على الإطلاق؟".

"كندا؟ في الواقع، لا أعلم. كان عدد كبير من شبّاننا يسافر إلى كندا لبضع سنين. ليكوّنوا ثروة. لم تكن تتوفر الكثير من فرص العمل هنا في تلك الأيام".

"ماذا عن السيد فليت، لا بدّ أنّ لديكم سجلات. وثائق خطية".

"كل ما نعرفه هو أنه كان يقيم في ساندميك، في الشمال، قبل مجيئه إلى هنا. كان يعتني بنفسه. يعيش وحده. يزرع بعض الخضار، ويجزّ مرجه بنفسه. الذين عرفوه في تلك المرحلة قالوا إنه كان يعيش كناسك، معتزلاً الناس. مولَع جداً بالقراءة".

"جين آير".

"نعم، بالتأكيد، ذاك هو كتابه".

"ولكن، عندما قدِم للعيش هنا، لا بد أنه كان بحوزته بعض الأوراق، بعض الرسائل، ربما".

"ليس على حدّ علمي، لا رسائل، لا أوراق شخصية، إذا كان ذلك ما تعنيه ـ شهادة ميلاد ـ لا، لا شيء من هذا القبيل".

"خاتم زواج، ربما؟"

"لا أظن ذلك، لا. لم يعتد الرجال حينها لبس خاتم زواج، بالطبع، أما الآن فقد تغيرت الأمور".

"هذا صحيح".

"كان بحوزته صورة فوتوغرافية قديمة واحدة، كانت مطوية تحت ملابسه. نحن نحتفظ بها من أجله".

"هل يمكنني رؤيتها؟".

"في الواقع، بما أنك قريبته ـ".

"أوه، أنا لست متأكدة من ذلك ـ".

"وضعت تلك الصورة في مكان ما في هذا الملف. إنها صورة لمجموعة نساء، صورة تذكارية، على ما أذكر ـ أوه، نعم، ها هي ذي".

من المؤسف أنها مطوية هكذا، الوجوه مكسرة. أوه. لكنهن جميلات مع ذلك، بحسب ما أتبيّنه منهن. أوه".

"نعم، في الواقع، كانت مطوية عندما قدم إلى هنا. لا بد أنه طواها بنفسه. نبذل قصارى جهدنا كي نحافظ على الممتلكات الشخصية لمرضانا".

لم أعنِ أنكم ـ "

هناك كتابة على ظهر الصورة".

"أوه، نعم. العبارة هي...هي، §نادي الإيقاع والحركة للسيدات.§ لكنها لا تحمل تاريخاً".

"إنها تعود إلى مطلع القرن، على ما أظن. هذا ما تدل عليه الأثواب التي يلبسنها".

"تعود إلى زمن قديم جداً".

"نعم بالفعل. حسنا، هل أقودك إلى غرفة السيد فليت؟"

"من فضلك".

كان أول ما لاحظَته هو طبقة حليبيّة على حدقتيه. والملاءات البيضاء، والغطاء الأبيض أيضاً، مما جعله يبدو وكأنه ملفوف بضمادات.

ماغنوس، التائه، الإنسان المعاصِر المعذَّب ـ هكذا كانت تراه طوال تلك الأعوام. بمنظار رومانسي. وهي تعتقد أنها هي أيضاً تائهة، بقلبِ يتيم وتوقٍ حزين إلى ملاذ، إلى باب يحمل

اسمها بالذات. والآن، ها هو هذا الرجل الجثة الذي بالكاد يستطيع التنفس، نضوب شيخوخته كله مسجًّل ومدفوع الثمن. وهو ليس أكثر من نسيج رقيق من الجلد. سقالة من العظام، في الواقع، هي أشبه بالخزف منها بالعظام.

"أنا دايزي"، قالت في أذنه، عاجزة عن التفكير بأي شيء آخر. "أنا زوجة باركر".

يصدر حفيف عن الشرنقة المكونة من الملاءات البيضاء.

"ابنك باركر".

لا شيء.

"كان لديك زوجة، سيد فليت، كان اسمها كلارينتاين. كلارينتاين باركر فليت. أومئ برأسك إن كان هذا صحيحاً".

لا إجابة.

"من فضلك". انتظرت، وهي تشعر بأنها حمقاء، وتخشى أن تتسبب بتوقف قلبه. " ارمشْ بعينيك، سيد فليت. ارمش بعينيك إن كانت السيدة كلارينتاين باركر زوجتك".

انقضت ثوان ـ تركتها تنقضي ـ بعد ذلك فتح فمه، الذي لم يكن فماً على الإطلاق بل ثقب متغضن من دون شفتين أو أسنان. كان عليها أن تنحني إلى الأمام كي تسمع ما قاله: "لم يكن هناك أي إمكانية" ـ توقف وقفة قصيرة هنا ـ "للذهاب في نزهة في ذاك اليوم". توقّف قصير آخر. "كنا نتجول، في الواقع، في الأرض التي تكسوها الشجيرات العارية من الأوراق ـ "توقف.

"واو، هذا رائع جداً، سيد فليت"، قالت، وكأنها تطري

على طفل صغير، "ولكن هل تتذكر ـ هل تستطيع أن تخبرني ـ إن كنت قد عشت في كندا في وقت ما؟ إن كان لديك زوجة اسمها كلارينتاين؟" قالت مرة أخرى، بصوت أعلى. "كلارينتاين".

تحرك جفناه نحو الأسفل. "لم يكن هناك أي إمكانية للذهاب في نزهة".

زوجتك، سيد فليت، كلارينتاين".

"كلارينتاين"، قال. هذه الكلمة، هذا الاسم، خرج على شكل زفير، صفير.

"نعم"، قالت، متشجعة. "وابنك، باركر".

الفم الذي يشبه حفرة فظيعة تحرك ثانية: "بارك".

شقت الكلمة طريقها همساً، تسرّبت حول حافة الصوت.

"وأنا دايزي"، قالت.

بدا وكأنه توقف عن التنفس. كان الصمت مروعاً.

"دايزي غودويل"، قالت بصوت مرتفع قرب أذنه السليمة.

"داي ـ زي"، قالها همساً، الأحرف الساكنة وحركة الأحرف الصوتية. لقد لفظها ممتثلاً، لفظها بصورة آلية، هي تدرك ذلك. مجرد صدى ـ وكيف يمكن أن يكون أي شيء آخر؟ ـ لكن شيئاً ما في ذلك يبعث الرضا في نفسها. شعرت برغبة في أن تتلمس طريقها تحت الملاءات وتمسك بيده، لكنها خشيت مما يمكن أن تكتشفه، من تفسّخ ما لا يمكن تخيله. بدلاً من ذلك، ضغطت بشكل خفيف على الغطاء،

وأحست بالوجود المادي للعظام المتطاولة والجسد الذاوي. رعدة خفيفة. رائحة العفن المتصاعدة.

"حضرتُ لزيارتك"، قالت، محتقرةً نبرتها الاجتماعية المبتهجة. "وها أنا قد وجدتك في النهاية".

تود لو أنها نطقت بكلمة "أبي"، لو أنها جربتها، لكن موجة قوية من الارتباك والخجل تدخلت.

لكنها، مع ذلك، تصدق ما تراه أمامها. تصدق ما تظهره لها عيناها، أذناها، حدسها، تلك الجارحة الأنثوية الخرافية. ستستغرق بعض الوقت بالطبع كي تستوعب كل ما اكتشفته. سيكون عليها القيام بعملية مراجعة واعية: عليها أن تقوم بعملية تكييف، ومواءمة. بعض العناصر المتفرقة الشاذة بطبيعتها، غير العقلانية حتى، يجب أن تُدْخَل إلى الصورة العامة التي كوّنَتْها بواسطة مطرقة صائغ الجواهر والحلي. يجب إعادة النظر في هذه الصورة ودعمها بالحدْس. العمل على تحقيق التساوق بينها. والمحاججة لإثبات صحتها. لكنها تريد القيام بذلك، أليس هذا ما يهم؟ فالإرادة تحتشد داخل دايزي غودويل منذ أمد طويل.

يغفو الرجل العجوز، وتنسلّ هي خارجةً من الغرفة، وهي تشعر بأنها ضعيفة، خاوية، خفيفة كالشبح، وتبدو لدقائق أنها تحمل بين ذراعيها تلك الإرادة، ذاك العبير الذي يعني حياتها. أوه، لقد عادت شابة وقوية. انظروا إلى الطريقة التي تمشي فيها بحرية خارج الباب وعبر الشارع الضيق المرصوف بالحجر في ستورمْنيس، وشعرها يخفق في ضوء النهار الجميل.

الفصل التاسع

المرض والتراجع، ١٩٨٥

إن الجدة فليت البالغة من العمر ثمانين عاماً، المقيمة في ساراسوتا، فلوريدا، مريضة. كل خلية في جسدها، كما يبدو، قد أصيبت بالمرض.

عندما انهارت منذ شهر مضى، بنوبة قلبية بينما كانت تسقي صف الجيرانيوم القزم (نبات إبرة الراعي) على الجهة الجنوبية من شرفتها، سقطت بقوة على الأرضية البيتونية وكسرت كلتا ركبتيها. وصلت صرختها، لحسن الحظ، إلى مسامع ماريان مكْ هنري، التي لا يفصل شرفتها عن شرفة السيدة فليت سوى شبك رقيق، فاستدعت سيارة إسعاف.

خضعت، بعد ذلك بيومين، لعملية فتح شريانين في مشفى ساراسوتا ميموريال (كان أخصائي الأوعية الذي تراجعه السيدة فليت قد ناقش تلك العملية قبل ذلك بعام واحد، لكن العملية أُجِّلت لأسباب عديدة). بعد مضي أسبوع على الإجراء الجراحي، وبينما بدا أنّ الجدة فليت قد بدأت تصحو وتتماثل

للشفاء، أصيبت بفشل كلوي جزئي، واستؤصلت إحدى كليتيها، الكلية اليسرى، واتضح أنها مصابة بالسرطان. "لكننا على الأقل استأصلنا كامل الورم بشكل نظيف"، قال أخصائي البولية، بلهجته الجنوبية المشوشة التي تجدها عائلة السيدة فليت مثيرة للقلق.

فجأة أصبح جسدها هو كل ما يهمّ. كيف أنه خذلها. وكم هو موحش العيش داخل جسد يوماً بعد عام وحمْله دوماً نحو الأمام، وكيف أنه لا سبيل للتحرر من ثقله، حتى أثناء النوم، حتى عند اتحاده، القصير الأمد، بجسد شخص آخر. تُذكِّرها صورة شعاعيّة لركبتها اليسرى بأنها ضعيفة، وأنها كانت دوماً كذلك ـ مجرد غلاف من اللحم، من الورق المقاوم لنفاذ الهواء والدهن. تعيش الآن في حلبة الألم المفتوحة على مصراعيها، محاطة بصفوف متراصّة من المتفرجين. الليالي طويلة لا نهاية لها، شمس الصباح قسوة لا تحتمل. يا لهذه الصباحات في المستشفى! حيث ميزان حرارة مزروع بين شفتيها، يقاس ضغطها بخشونة، وقد دُحرِج جهاز مراقبة القلب إلى غرفتها، ثقيلا، ذكورياً، بقرص مدرّج يشبه الوجه البشري، مستعدّ لإدانة قلبها بتهمة الضعف. قدماها العجوزان البارزتان على جانبي الملاءة لهما شفافية المحار وهما دائماً باردتان، رغم أنه، ويا للغرابة، لا أحد يلاحظ ذلك، لا أحد يقول، "لماذا قدماك باردتان جداً، سيدة فليت؟" يخرج البول من جسدها عبر قثطرة مغروزة بين ساقيها ويختفي مع غيره من السوائل العكرة إلى المجهول. إلى الكون. تبصق في طست، مصدرةً أصوات غرغرة فاحشة عندما تفرّش أسنانها العجوز القوية، وتحاول أن تتذكر زمنا كان لجسدها فيه حرمته وخصوصيته.

بعد أيام عدة أزيل أنبوب التغذية من أنفها والإبرة الوريدية من ذراعها، وقيل لها ـ بتحية تنطوي على تهنئة ـ بأنه يسمح لها مجددا بتناول الطعام والشراب. "بعض الليمونادة سيفيدك، يا عزيزتي"، تصرخ في أذنها الفتاة التي تقدم العصير. "على المرء أن يتناول أكبر قذر ممكن من السوائل". الفتاة التي تدفع أمامها عربة صغيرة ذات عجلات، تحمل عصير التفاح، الحليب، الشاي المثلج، والكاكاو الدافئ هي في الثامنة عشرة من عمرها، بوجه اسود وشفتين أرجوانيتين، ذات ضحكة متوترة عالية، وحيدة النغمة: تثير الانقباض في الصدر.

في ساعات الصباح الباكرة تعاني السيدة فليت من كوابيس تجتاحها تماماً، تصيب قلبها في الصميم، وموضوعها، الذي تعجز عن تذكره في ما بعد، عنيف. "هذا بسبب الأدوية"، يقول أطباؤها، "إنها شكوى شائعة".

أما أحلامها الأكثر اعتدالا التي تراودها أثناء النهار فتحملها عبر مناظر خَرِبة مثل حدائق خلفية قديمة، غبراء، تنتشر النفايات في مساكب أزهارها وترزح تحت أكوام من الشجيرات الميتة، عبر شوارع حيث رجال ونساء بيض الوجوه يسقون مروجاً تغص بنباتات برية مثل لسان الحمل والهندباء البرية، مروج من المقدّر لها، بسبب الجهل وعدم توفر المال الكافي، ألا تزدهر أبداً.

بين طيّات الوعي التي تقع بين النوم واليقظة تكون قادرة على اقتحام آليات وطرائق الابتكار والإبداع. ترسم مناظر طبيعية حية. تستعرض لنفسها محادثات، مناظرات، تعابير معينة تنبشها من الذاكرة أو تخترعها، تقعقع داخل رأسها المريض، تسخر

منها بتواترها ومعناها الذي تآكل.

"جاء القسّيس لرؤيتك، يا عزيزتي".

"ماذا؟" من داخل دوامةٍ من نومٍ شفّاف اللون.

"القسّيس، سيدة فليت، هل تشعرين برغبة في التحدث إلى القسّيس؟".

"من؟".

بصوت أعلى هذه المرة. "القسّيس، الكاهن ريك. تتذكرين الكاهن ريك".

"لا".

"بل تتذكرينه. فقد صلّيتما معاً البارحة. وقرأتما بعض المقاطع من الإنجيل".

"لا".

"سيدة فليت، لا تفعلي هذا بي ـ أنت تتذكرين الكاهن، من المؤكد أنك تتذكرينه".

"لا".

"لا ماذا؟"

"لا، لا أريد أن أراه. ليس اليوم".

تمكث في غرفة خاصة بها بنافذة واسعة بلا ستارة عند نهاية البهو. تستلقي في فراشها خلال الأيام التي تلت جراحتها، يائسة تعسة، وأثناء لحظات صَحْوِها القصيرة تحدق خارجاً في مباني فلوريدا البيتونية الشاحبة، باللون الوردي، الأخضر، الأرجواني الفاتح، مثل قطع بيتي فور مغطاة بطبقة بيضاء، شُكّلت من قبل يد عجينيّة وتُركت كي تتصلب وتجف. تسطع

أشعة الشمس على سيارات ستيشن مبعوجة، وتتلألأ على رؤوس أمهات شابات يتحدثن بحب إلى أطفالهن ويغلقن أبواب السيارات بقوة، وتُسخِّن لدرجة التبييض السور البيتونيّ المتشقق الذي يحيط بساحة وقوف السيارات. يوقف الأطباء سياراتهم من ماركة مرسيدس ولينكولن في القسم المخصص لهم قرب أبواب المستشفى، وتومض الأجزاء العلوية لهذه لسيارات بالتألّق الحاد الذي يميز السكاكر الرخيصة، تدرّج لونيّ يشبه قوس قزح.

"لا، لن أرى الكاهن اليوم"، تقول بوقار، بما تظنه وقاراً.

"لا بأس، إن كان هذا ما تريدينه". بهزة من الكتفين.

"هذا ما أريده".

"أعرف".

"لكن لكلمات السيد المسيح، الكلمات الأكثر عذوبة في هذا العالم، فائدة كبيرة في هذا العالم المجنون الذي نحيا فيه".

"أنا متعبة جداً اليوم".

"ستبعث البهجة في نفسك. أرى هذا يحدث كل يوم، تلك هي الحقيقة الخالصة. الرب هو راعِيَّ، لن يعوزني شيء، إنه الدواء الأفضل على الإطلاق وهو في متناول اليد من دون مقابل".

"لا، حقاً، لا أعتقد ـ".

"ولكن ها هو الكاهن ريك الآن. كيف حالك أيها الكاهن؟ لماذا لا تدخل لدقيقة أو اثنتين، كي تبهج مريضتنا هنا، التي تعاني الانقباض والكآبة".

"من فضلك، أنا ـ".

"أخبريني ـ هل أنت مستعدّة لمحادثة صغيرة، سيدة فليت؟".

"في الواقع، أنا ـ".

"يمكنني العودة غداً".

"في الواقع ـ".

"سأمكث لدقيقة واحدة فقط. أنا بالتأكيد لا أريد أن أرهقك".

"أوه، لا".

"عفوا؟ ماذا قلت، سيدة فليت؟"

"تفضل بالجلوس. أهلا و ـ "

"أخشى أنني لم أسمعك بوضوح ـ "

"أهلاً، أهلاً" ـ هنا تتلعثم الجدة فليت، تدفع بلسانها فوق قمة أسنانها السفلية، تذعر قليلاً، ثم، حمداً لله، تعثر على الكلمة المناسبة ـ "وسهلاً".

سأسحب كرسياً سيدة فليت، إن كنت لا تمانعين".

"لطف منك أن تأتي لزيارتي.".

الأب، الابن والروح القدس، أصبحوا فجأة هنا في غرفة المستشفى الخاصة بالجدة فليت، اصطفّوا على طول الجدار، ثلاث لوحات مرسومة على المخمل، غامضة، مذهّبة الأطراف، أفواههم اللطيفة ليست باسمة، لكنها توشك أن تتكلم عن الحب الأبدي. لن يهبط عصفور سواهم ـ ماذا يمتهن هؤلاء الثلاثة؟ ما الذي يفعلونه؟ كنت أعرف، لكني الآن في

سن الثمانين قد نسيت. يبدو أن أوان السؤال قد فات، ومن غير المحتمل أن يقدّم الكاهن ريك أي شرح. التطهير من الخطايا، الافتداء. وفي مكان ما، منذ أمد بعيد، دم خروف. شيء بربري. سفحُ تلٍّ مغطّى بالأشجار الحراجية يُخَرَّب وتُقطَّع أشجاره.

"أخشى أنّي لم أتبيّن تماماً ما قلتِه، سيدة فليت".

"قلت، لطف منك أن تأتي لزيارتي".

هل السيدة فليت تصرخ الآن؟

لا، بل هذا ما يبدو عليه الأمر؛ فالمسكينة، في الواقع، تتحدث همساً. من غور الملاءات التي هي غارقة فيه. من ألمها وحيرتها. الأنابيب والأسلاك الموصولة بجسدها. ضعف حنجرتها ذات الثمانين عاماً. الأدوية. الأحلام. قدماها، الباردتان الرطبتان، المكشوفتان، اللتان يتجاهلهما الجميع، واللتان تواجهان قدرهما المشؤوم. ما تطل عليه نافذتها الباهظة الثمن من مناظر تبدو وكأنها رُسمت بألوان البَستل، أبواب السيارات التي تُصْفَق في موقف السيارات، المسيح والله والروح القدس الذين ينظرون إليها بطريقة تليق بأعضاء في نادٍ للرجال، يعرفون كل شيء، يرون كل شيء، لكنهم لا يُبدون أي اهتمام على الإطلاق، عندما يتعلق الأمر بآلام ومعاناة جسدها ـ في هذه المرحلة من حياتها. الآن. في هذه اللحظة. ابتعِدوا، من فضلكم، ابتعِدوا فقط.

"لطف منك أن تأتي لزيارتي".

هل سمعتم هذا، هذا الأسلوب المهذب الذي يميز هذه السيدة المسنة؟ لا يصادف المرء كثيراً ذاك النوع من الكياسة

العتيقة الطراز هذه الأيام. وإذا تذكرنا أنّ هذا يحدث بعد أسبوعين فقط من خضوعها لعملية في شرايين القلب، بعد ستة أيام من استئصال كليتها. وركبتاها، ركبتاها المهشَّمتان المثيرتان للشفقة. من المدهش، إذا أخذنا كل هذا بعين الاعتبار، أنها قادرة على تذكر العبارة المناسبة، من المدهش والباعث للقشعريرة أيضاً، القيود الراسخة في المحادثات الاجتماعية.

لا بأس، هذا لا يعني شيئاً؛ إنها فقط السيدة فليت وهي تمارس كونها السيدة فليت.

تغصّ غرفة الجدة فليت بالبطاقات والأزهار. فتاة العصير ـ يبدو أن اسمها جوبيلي ـ تطلقُ دعابةً خشنة حول هذا الفيض، تصرخ، مستنكرةً، متظاهرةً بالرعب ـ "ليس باقة أخرى! سيدة فليت! أخبريني أنت الآن، كيف لي أن أجد مكاناً لباقة ورد أخرى في هذه الغابة التي لديك؟".

ابن السيدة فليت، وارن، وزوجته الجديدة بيغي، أرسلا زرافة قابلة للنفخ، ارتفاعها خمسة أقدام، برموش مقوّسة من الفينيل وفم مليء بالأسنان الطرية ـ تقف قرب النافذة، تتمايل قليلا كلّما هبت نسمة. هل هي جزء من محادثة سابقة، تتساءل السيدة فليت، بقليل من الحيرة، متسائلةً إن كانت الزرافات تحمل مغزىً خاصاً بالنسبة للمسنّين، بالنسبة لوهن الشيخوخة ـ أم أنها تومئ باتجاه دعابة معينة تتعلق بالعائلة؟ أما حفيداتها في أوريغون ـ رَيان، بيث، ليزا وجيلي ـ فقد اشتركن بالمال الذي جنينه من مجالسة الأطفال وأرسلنَ للجدة فليت لعبة معقدة تعمل على البطارية تسمى لعبة البريدج الشخصي. إن مجرد التفكير بكرمهن، بتضحيتهنّ، يجعلها تغص بالدمع، رغم أنها،

في الواقع، لا تُخرج اللعبة من صندوقها أبداً، لا تستطيع استجماع ما يكفي من الطاقة لقراءة التعليمات المطبوعة بحروف متراصة.

وفي الخامسة من بعد ظهر كل يوم، تتلقى الجدة فليت مكالمة هاتفية من وراء البحار، من ابنتها أليس التي تقيم في هامستيد، إنكلترا (في العاشرة مساء، بتوقيت غرينتش). اعتادت أليس أن تمزح بأنّ أمها، عندما يحين الوقت، سترفع يدها بمرح وهي خارجة، كما تفعل الملكة إليزابيث وهي في موكب سيارات، مرتديةً قبعتها، وقفازيها، مودِّعةً كل شيء، مودِّعةً الحياة ـ هذا اللغز، هذه المغامرة الصغيرة. لكنّها تدرك الآن أن الصورة التي كوّنتها بحاجة إلى إعادة ترتيب. فأمّها مريضة، عاجزة ولا حول لها، لكنّ أليسْ، أثناء مكالمتها القادمة من وراء الأطلسي، تتحدث بصوت هادئ، من دون عجلة، وكأنها تتصل من مكان قريب في نفس الشارع، وكأنها شخصية في مسلسل تلفزيوني.

"تحدثت إلى الطبيب، يا ماما، وهو يؤكّد أنك تتماثلين للشفاء بصورة رائعة، وتتمتعين بقوة استثنائية. ويقول، لو أنك فقط أكثر صبراً بقليل. بحسب معدل التقدم الذي تحققينه حالياً، ستتمكنين من العودة إلى المنزل خلال أسبوعين، ولكن لماذا الاستعجال وأنت تنعمين بهذه العناية والاهتمام الرائعين، ومن حسن الحظ أن الصليب الأزرق يغطي كل النفقات تقريباً".

تتصل أليس أيضا بشقيقتها جوان في بورتلاند، أوريغون، وتقول، داخلة في الموضوع من دون مقدمات: "لا يمكنها العودة إلى البيت بأيّ حال، يقول الطبيب أن ذلك مستحيل.

كيف ستتدبّر أمرها؟ إنها عاجزة تماماً".

وتقول لشقيقها وارن في نيويورك، وأسلاك الهاتف واضحة: "تحدثت إلى جرّاح التّجبير وهو يقول إنها لن تتمكن من المشي ثانيةً أبداً، ليس من دون الاعتماد على هيكل على عجلات مُعَدّ لهذا الغرض، وقد لا تتمكن من المشي حتى بالاعتماد عليه. أعني، يا للهول، علينا مواجهة الحقيقة، هذه هي بداية النهاية.

يشعر أولاد السيدة فليت الثلاثة بالذنب لأنهم ليسوا بجانب سريرها. تخطط أليسْ للطيران إلى أمها في نهاية فصلها التدريسيّ، ليس قبل شهر آخر. وقد وضعت زوجة وارن الجديدة في الفترة الأخيرة طفلة تعاني من تخلف عقلي ـ عُمِّدت باسم إيما ـ وهو يشعر، مُحِقّاً، بأنه لا يستطيع أن يتخلى عن أسرته في وقت كهذا، حتى ولو لأيام قليلة. أما جَوان فقد قامت في الواقع برحلة واحدة سريعة ـ بورتلاند، شيكاغو، تامبا، ثم العودة ـ لكنها، في النهاية، أمّ لأربع بنات مراهقات عليها الاعتناء بهنّ ولديها أيضاً زوج ميال إلى إقامة علاقات خارج الزواج. وتكتب قريبة السيدة فليت، فيكتوريا، رسالة خفيفة الدم كل يومين، لكنّها تعجز عن مغادرة تورنتو في الوقت الراهن بسبب مسؤوليات عملها، إضافة إلى زوجها، لويس، والتوأمين. عندما تفكر الجدّة فليت بأسرتها المبعثرة، بأولادها، بأحفادها، بقريبتها، تعجز عن تكوين تصورات في ذهنها عن وجوههم المستقلة المميِّزة لكل منهم. الفتاة الشابة، جوبيلي، هي أكثر حقيقيّةً منهم بالنسبة لها الآن. والطبيب آرونفيلد والطبيب سكوت بجولاتهما اليومية، بدعاباتهما، بضحكهما الرنان النابع من القلب. والكاهن ريك،

بطريقته الخاصة. والمخلصة ماريان مَكْ هنري التي لم تفوّت زيارة مسائية واحدة، ولا بأس أن كلّ ما يمكنها الحديث عنه هو أقاربها في كليفلاند. والزّهرات! ماذا كان سيحلّ بها لولاهن، يأتينَ لزيارتها في سيارة أجرة، كل يومين أو ثلاثة أيام، ويا للوقت الرائع الذي يقضينه معاً.

حتى عندما كان أنبوب التغذية ما زال في أنف السيدة فليت، عندما كانت بالكاد قادرة على رفع رأسها عن الوسادة، كانت الزّهرات تأتين لخوض جولة من لعب البريدج إلى جانب سريرها. اقتصر الأمر على زوج من الأيدي في اليوم الأول، ثم ازداد العدد بالتدريج. ما كان ليخطر ببال أحد أن الجدة فليت تستطيع التركيز على الكُبَّة والبستوني، على موقع كل لاعبة والحِيَل المتَّبعة في اللعب، على الورق الرابح وغير الرابح في وقت كهذا، لكنها تستطيع، وتفعل؛ شأنها شأن كل اللاعبات. ليلي (وتعني الزنبق)، ميرتل (وتعني نبات الآس العطري)، وغلاد، هي أسماؤهن؛ غلاد هو في الواقع اختصار لـ غلاديس، وليس اختصاراً لـ غلاديولا (وهو اسم نوع من السوسن)، لكنها مع ذلك تعتبر نفسها زهرةً مثلهنّ. وهنّ الأربعة يُقِمْن في طوابق مختلفة من بيسايد تاور، حيث شقّة السيدة فليت التي أقامت فيها طوال هذه السنوات، وكنّ قد التقين لأوّل مرة في غرفة لعب الورق، في قبو بيسايد تاور. (حدث هذا في أواخر السبعينات، بعد أن فقدت السيدة فليت صديقتيها العزيزتين، إذ توفيت بينز بصورة مفاجئة، وأصبحت فريدي هويت خَرِفة قبل وفاتها؛ كان وقتاً مروعاً). تنسجم الزّهرات مع بعضهن مثل بيتٍ مشتعل، مثل مجموعة متفوّقين. يحسدهنّ الآخرون في بيسايد على طبيعتهنّ الودودة

المسترخية، ومرحهن ولا مبالاتهن، وكل واحدة من الزهرات تدرك جيداً هذا الحسد، وهنّ، في شيخوختهن، مندهشات لهذا الحسد وسعيدات به. فها هنّ أخيراً يتمتّعن بنوع من شعبية فتيات المدارس. شعبية لم يكسبْنَها بجهدهم، ولكن، أليست الشعبية دوماً كذلك؟ إن الزهرات الأربع محظوظات بمودّتهن المتبادلة وهن يدركن حسن طالعهن. ليلي هي بالأصل من جورجيا، غلاد من نيوهامشاير، وصاحبة الحديث المرح، ميرتل، هي من ميشيغان ـ إنهن ينتمين إلى عوالم مختلفة، يمكنك القول، ومع ذلك فإنّ حياتهنّ تتّبع إيقاعاً متشابهاً. انظر فقط إليهن: أربع نساء مسنّات من العرق الأبيض. وهنّ، مثل دايزي غودويل، أرامل؛ وهنّ، جميعهنّ، ميسورات؛ وهن لم يطمحن إلى أيّ مهنة أخرى عدا أن يكنّ أمهات وزوجات؛ مولعات بالضحك والمرح؛ وهناك ما يثير الضحك في كونهن دوماً على حافّة الضحك. يذهبْن معاً أيام الآحاد إلى قداديس الكنسية المشيخية، ومن هناك، يذهبن لتناول غداء في بوفيه مفتوح في مطعم شِيلْ سِيْكرْزْ (هناك لافتة فوق ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية تقول " وجباتنا تساعد على التخلي عن الطهي المنزلي")؛ وبعد ظهر كل يوم من الاثنين حتى السبت بين الساعة الثانية والرابعة والنصف، يلعبن البريدج في قاعة لعب الورق في بيسايد تاور، يجلسن دوماً إلى الطاولة المستديرة في الزاوية بعيداً عن الضجيج والتيار البارد الصّادرَين عن مكيف الهواء. هذه طاولة الزهرات ولا أحد غيرهن. "كيف حال نضارة الزهرات اليوم؟" يقول نزلاء بيسايد الآخرين على سبيل التحية.

"كان زوجي يقول إن الفتيات اللائي يحملن أسماء أزهار

يذبلن بسرعة". كانت ميرتل هي التي قالت هذا في أحد الأيام، من دون مقدمات، ولسبب ما جعلهن هذا القول يضحكن إلى حدّ الوَهَن. الآن، عندما يُسألن كيف حال نضارة الزهرات، سترد إحداهن مستذكرة من دون ريب: "يذْبلن بسرعة"، وستضيف أخرى، بحيوية وحماس، "لكنّهنّ صامدات". إن هذا طقس من طقوسهن الكثيرة. لديهن نكتة، على سبيل المثال، حول سترة صوفية لونها بيج تعمل غلاد على حياكتها منذ عشر سنوات. ونكتة أخرى حول السيد جيليكو في الطابق السادس، الذي يهدهد بين ساقيه عندما يظن أن لا أحد ينظر إليه. وحول السيدة بُولتْ التي تعتني بركن المكتبة وتدّخر الكتب ذات أحرف الطباعة الكبيرة لنفسها. وماريان ملكْ هنري وأبناء وبنات إخوتها المضجِرين في كليفلاند. وحول حتميّة تناول فطيرة الجوز في مطعم شِيل سيكرْز، والشعور بالإثم الناجم عن ذلك. يحتفلن بعيد ميلاد كل منهنّ ـ بقالب حلوى من المخبز وكأس من نبيذ كاليفورنيا ـ وفي مثل هذه المناسبات من المؤكّد أنْ تنطلق واحدة أو أخرى من الزهرات قائلةً: "لنشرب نخب عام آخر ودعونا نأمل أننا سنقضيه فوق سطح الأرض".

في الحقيقة، النّكتة التي يستسغْنها أكثر من كل النكات الأخرى، هي هذه النكتة التي تسبّب الصّدمة لأفراد أُسَرِهِنّ عند زيارتهنّ، لكنها تجري على ألسنتهنّ بعذوبة منعشة، بمسحة خفيفة من السخرية ـ نكتة هي، عندما تفكر بالأمر، حول موتهنّ بالذات. يذبل ضحكهن في هذه اللحظات ويصبح متقطعاً. لقد قررن أنه عندما "تُعلِّق إحداهنّ قبّعتها" أو "تركل الدّلو" أو "تذهب إلى الجانب الآخر من الجدار" أو "تتحول إلى رماد" أو "تثب إلى الغصن" أو "تنضمّ إلى الجوقة

الخفيّة» ـ وبعد أسبوع أو أسبوعين من الحداد اللائق، ستقوم الثلاث الباقيات بدعوة آيريس جاكمان الفظيعة (الطابق الثالث، الجناح الغربي) كي تحل محلّها على الطاولة المستديرة، رغم أن آيريس تعاني من أسوأ حالة عزلة وهي غبيّة لدرجة أنها لا تعرف الفرق بين بنت الكُبَّة وجويزة السّباتي.

ينبعث سرّ في جسد الجدة فليت، ويتجمع بأناقة على عظم رسغها حيث يسقط الضوء على البلاستيك الأبيض لسوار المستشفى، الذي كُتب عليه: دايزي غودويل.

هذا كل شيء ـ فقط دايزي غودويل. قام شخص مهمِل في مكتب القبول باختصار اسمها، حاذفاً كنية فليت وتاركاً الاسم القديم ـ اسم البَتُولة الخاص بها ـ معلّقاً في الفضاء، عارياً كزهرة توليب. لحسن الحظ، لا يظهر هذا الخطأ على أوراق المستشفى الخاصة بها كما أنّ أحداً من العاملين في المستشفى أو من زوّار السيدة فليت الكُثُر لم يكتشفه حتى الآن. إنه سر تعرفه هي فقط.

تحتفظ به في ذهنها. وهي تفكر به أكثر فأكثر على أنه العلامة المرئيّة عن روحها.

هذا لا يعني أنّها اهتمّت يوماً بروحها؛ فقد كانت طوال حياتها المديدة مشغولة لدرجة لم تسمح لها بالاهتمام بالميتافيزيقيات ـ زوجها، أولادها، الأشياء الكثيرة لتي يتوجب على المرأة القيام بها ـ كما سيطر عليها ارتباك خَجِل حيال نجّار النّاصرة، وجعلها غير مستعدّة للنظر في عينيه أو مناجاته باسمه الأول، مدركةً أنها ستكون عاجزةً عن اجتذابه إلى محادثةٍ مثيرةٍ للاهتمام، قلقةً كيف أنه خلال دقيقتين لا أكثر ولا أقل

سيكتشف ضعف تفكيرها. السيدة فليت، التي ارتادتْ مدارس الأحد في طفولتها ثم الكنيسة في ما بعد، لم تتمكن يوماً من التخلّص من فكرة أنّ هذه النشاطات تشبه عرضاً على منزلق للعب الأطفال: فهي مأمونة وتحسّن المزاج ولكن يجب أن لا تُؤخَذ على محمل الجدّ ـ رغم أنّه كان عليها ارتداء قبّعة وتثبيت نظرة جادّة على محيّاها طوال الساعة التي تستغرقها هذه النشاطات الكنسيّة بينما تنجرف مع أحلام يقظة صغيرة حول ما إذا كان قد تبقّى لديها ما يكفي من لحم البقر المشوي لتحضير العشاء، حيث يمكن أن تُقدَّم معه صلصة الفلفل الأحمر التي صنعتْها في الخريف الماضي، وما زال لديها مرطبانين أو ثلاثة على رف خزانة المؤن، على الأقل كانت هناك عندما تفقدتها آخر مرة. لِجان وأسواق خيرية، حفلات زفاف وتعميد، نعم، نعم، ولكن لم يكن ذلك يوماً بالنسبة للسيدة فليت التّذبذب المثير للغثيان بين الشعور بالخطيئة وبين الإنقاذ والتّخليص من الخطيئة. فالسيّدة فليت الواقعيّة، لم تفكّر يوماً بعمق حول مثل هذه الأمور، ولماذا عليها أن تفعل؟ فاللوحة التشيكوسلوفاكية التي تمثّل مريم العذراء حول المِذْوَد الذي وُلِد فيه يسوع في بيت لحم، الّتي تزيّن بيتها بها في عيد الميلاد، لا ترمز بالنسبة لها إلى الأسرة المقدسة، بل هي بالفعل الأسرة المقدسة ـ أشكال بشرية مصغَّرة، منحوتة بإتقان بطريقة فولكلورية شاقّة ومطلية بألوان زاهية، رغم أن الطفل في المِذوَد ليس أكثر من لفة ثياب مصقولة. يسوع المسيح، بهجة قلب الإنسان. كان كل ذلك مربكاً، لكنه لم يكن مُزعجاً أو مُقلِقاً على الإطلاق.

هل يتحدث الناس عادة عن مثل هذه الأشياء. هي ليست متأكدة.

ولكن عندما بدأ الكاهن ريك زياراته لها خلال الأيام الأولى التي تلت خضوعها للعملية الجراحية، بحذرٍ في البداية، ثم بصورةٍ مبالغ فيها، بدأ بالحديث عن وجود روحها، حالة روحها، تألّق روحها، إلى آخره، إلى آخره، والآن، في عامها الواحد والثمانين، انبعاث روحها عبر النعمة الإلهية ليسوع المسيح، ربّنا ومخلّصنا. من نافل القول إن السيدة فليت لم تذكُر للكاهن ريك حقيقةَ أنّ جوهر روحها المركَّز متضمَّن في تلك الكلمتين المكتوبتين على سوار المستشفى فوق رسغها: دايزي غودويل.

ووراء ذاك الاسم، ولكن بصورة شديدة الارتباط به، يكمن شيء آخر، شيء لا يوصف. شيء لا ترى هيئته إلا عندما تدير رأسها بسرعة إلى أحد الجانبين أو حين تركّز انتباهها على إيقاع زفيرها. تأتي هذه الومضات عادةً في ساعات الصباح الباكر، آخذةً إياها على حين غرّة. لقد نسيت تقريباً القطعة الأوّليّة الصغيرة من ذاتها التي جاءت عديمة الشّكل إلى العالم، بريئةً من أيّ فكرة، والتي، في الواقع، لم تظهر يوماً على سيمائها الخارجي أي فكرة. ولكن مع ذلك (وهو أمر لا يمكن تفاديه) كلّ ما يأتي لاحقاً، حتى أكثر تجاربنا غنىً، نُخضِعه لحُكم تلك الكتلة الصغيرة الناطقة من المادّة الأولية. أو ربما ليست مادّة على الإطلاق، بل شيء آخر. شيء مقدس. مُقْتَطَع من جبين الله العظيم.

"ما زلت هنا"، تفكّر، وهي تؤرجِح نفسها كي تستعيد وعيها وإحساسها بعدم الراحة في عزلةِ غرفة المستشفى المكيَّفة التي تفوح منها رائحة المطّاط، "ما زلتُ هنا".

"إنها حلوة المعشر"، تقول جوبيلي لكلّ من يصادِف أن يكون قربها. "ليست مثل بعض الآخرين الذين يمكنني تسميتهم في هذا الطابق".

"يا لها من مقاتلة"، تقول السيدة دورٌ، رئيسة الممرضات. "مقاتلة لا تتذمر على الإطلاق، حمداً لله على ذلك".

"إنها لطيفة جدا، محبَّبة"، يقول الطبيب سكوت.

"إنها سيدة حقيقية"، يقول المعالِج الفيزيائي، رَسّل لاتربي، "من الطِّراز القديم".

وبسبب هذا تنسى السيدة فليت وجود دايزي غودويل من لحظةً لأخرى، وحتى من يوم لآخر، وتنسى تلك الحالة المبكّرة الشبيهة بالدّرنة التي سبق وجودها، وجود دايزي غودويل؛ فهي منشَغلة أثناء وجودها في المستشفى بأن تكون حلوة المعشر، مقاتلة، سيدة حقيقية، امرأة لا تتذمر أبداً، تواجه الالتهابات البولية التي تصيبها بشجاعة، لا تنفعل أثناء حديثها عبر الهاتف مع أبنائها، منشغلة بالاهتمام بعلاقات الحب الخاصة بالشابة جوبيلي، التصرف بغنج مع السيد لاتزبي، والعمل ببسالة واستمرار على مراعاة مشاعر الكاهن ريك، المتناقضة لدرجة تثير القلق، في الواقع. "إنها مذهلة"، تقول ابنتها، أليسْ، التي وصلت من إنكلترا في الوقت المناسب كي تساعد أمها على مغادرة مستشفى ساراسوتا ميموريال إلى مصحّ كناري بالمز للناقهين، "إنها ملهِمة حقاً".

تقول أليسْ أن أمها ملهِمة، لكنها لا تعني ما تقول. بل تعني ما هو أقرب إلى عكس ملهِمة.

أليسْ هي امرأة وسيمة قوية في أواسط الأربعينات من عمرها لم تفكّر كثيراً حول اضمحلال الحياة ـ إلا منذ لحظة، في الواقع، حين نظرت بالمصادفة إلى درج خزانة أمها المجاورة للسرير في مصحّ كناري بالمز للنّقاهة ورأت فيه، في حالة فوضى: فرشاة أسنان، معجون أسنان، مشط، دفتر ملاحظات، حمالة مفاتيح، كريم خاص باليدين، علبة محارم ورقية، وعلبة مجوهرات صغيرة من القطيفة ـ كل ممتلكات السيدة باركر فليت يتسع لها الآن درج معدنيّ صغير. لقد أخلي ذاك البيت المكون من ثلاثة طوابق في أوتاوا، كما أخليت تلك الشقة المريحة في فلوريدا. كيف أُمكن لتقلّصٍ واضمحلالٍ كهذا أن يحدث؟ تشعر أليسْ بتلك الفكرة تعتصر قلبها فتطلق صيحة لا إرادية.

"ما الأمر، أليسْ؟"

"لا شيء يا أماه، لا شيء".

"ظننت أني سمعت ـ".

"ش، حاولي أن ترتاحي قليلاً".

"كل ما أفعله في الفترة الأخيرة هو أن أرتاح".

"هذا ما تعنيه النّقاهة ـ الراحة. أليسَ هذا ما قاله الطبيب؟"

"نعم!"

"إنه طبيب مرموق جداً. يقول الطبيب سْكوتْ إنه الأفضل على الإطلاق".

"هل أخبرت الممرضة عن عصير التفاح؟".

"قلت لها إنك شعرت بأنه فاسد، لكنها قالت إنه جيد. إنه فقط ماركة مختلفة عمّا اعتدت عليه في المستشفى".

" يشبه طعمُه طعمَ العصير المكثّف الذي يُحلّ بالماء قبل شربه".

"قد يكون مكثّفاً".

"وهو ليس بارداً حتى. لقد تُرك خارج الثلاجة".

"سأتحدّث إليها مرة أخرى".

"وصَلْصَة اللحم".

"ماذا عن صلصة اللحم؟".

"لا يقدّمون أي صلصة هنا، هذه هي المشكلة. يقدّمون اللحم جافّاً فوق الطّبق".

"لم يعد أحد يستخدم صلصة اللحم الآن، يا أمي. توقف الجميع عن صنع صلصة اللحم منذ ١٩٧٤".

"ماذا قلتِ؟"

"لا شيء. كانت مجرد نكتة".

"يوك، يوك، كنت تقولين عندما كنتِ طفلة. أنت وجوان، تقرقن كالدجاج".

"حقا؟"

"لا تطلّ هذه النافذة على شيء يستحق الرؤية".

"ماذا عن تلك الأشجار؟ وتلك الحديقة الجميلة؟"

"أعجبني المستشفى أكثر".

"أعرف".

"اشتقت لجوبيلي".

"أوه، يا إلهي، نعم".

"وللزّهرات أيضاً. غلاد، ليلي -".

"إن المسافة بعيدة بالنسبة لهن".

"لست مرتاحة هنا".

"سيتحسّن الأمر. ستعتادين المكان خلال أيام".

"لست مرتاحة هنا".

"أنا أيضا لست مرتاحة".

"ماذا قلت؟ لا أستطيع سماعك مع كل هذه الجلبة في القاعة، وتلك المرأة التي تصرخ".

"قلت إني، أنا أيضاً، لست مرتاحة".

تبنّت أليس رسمياً اسم البَتُولة الخاص بأمها؛ وهو ظاهر الآن على جواز سفرها: أليس غودويل. كانت قد دفنت الاسم الثاني لزوجها، داونينغ، منذ سنوات في مكتب محامٍ في لندن، رغم أنّ أولادها الثلاثة، بنجامين، جودي، وراتشلَ يحتفظون به. كما أن اسم فليت كان قد دُفِن رمزيّاً بالنسبة لأليسْ منذ عامين عند نشرها لكتابها الخامس الذي تلقّى مراجعات سلبيّة في كل مكان: "إن رواية أليسْ فليت الأولى يجب أن تكون بمثابة تحذير لكل الأكاديميين الذين يطمحون إلى الإبداع الأدبي". "مُدَّعية". "متحذلقة". "تعليميّة". "ثريد بارد على طبق كرتوني".

ماذا كان عليها أن تفعل؟ ماذا كان بوسعها أن تفعل؟ ذهبت إلى المحكمة وغيرتْ اسمها. حتى عندما كانت فتاة

صغيرة تذمرتْ أليسْ من اسم فليت، الذي شعرت أنّه موجز بصورة حادّة. كان اسم فليت مجرّد ذرّة غبار، لطخة صغيرة جداً على الجدار، لا ترمز لأيّ شيء، بينما لاسم غودويل وقْع جيّد في الأذن، ويُصدِر موجات مجازيّة متناغمة(٢٦)، رغم أن والدتها تقسم أنها لم تفكر بذاك الاسم يوماً على أنه تلميحيّ. تعاني أليسْ من الإحباط في الوقت الراهن (تلك الرواية اللعينة)، لكنها متفائلة بالمستقبل. أو بالأحرى كانت متفائلة إلى أن وصلتْ إلى فلوريدا ورأتْ مقدار التغيّر الذي طرأ على أمها. فقد أصبحت نحيلة، شاحبة، متغضّنة.

أثناء طيرانها إلى هنا، كانت قد تخيّلت حوارات مثيرة غنية ستخوضها مع أمها.

"هل كنت سعيدة في حياتك؟" هكذا خطّطت أن تسأل أمها. تصوّرتْ نفسها جالسة قرب سريرها، الملاءات مطوية على شكل مروحة مرتبة، يدها ممسكة بيد أمها، وضوء شحيح يدخل عبر النافذة. "هل أنت راضية عمّا حقّقتِه في حياتِك؟" - مهما كان معنى كلمة رضا. "هل عشتِ لحظاتٍ من الوجْد والنّشوة؟ هل كانت حياتك تستحقّ العناء؟ هل نظرتِ يوماً إلى صورة بناء كبير أو قرأتِ فقرة في كتاب وشعرتِ أنّ العالم بدأ يزداد اتساعاً فجأة، وفي الوقت نفسه يتقلص ويتصلب إلى بذرة من النقاء التام؟هل تعرفين ما أَعنيه؟ كل شيء يبدو كاملاً على نحو مفاجئ، كل شيء في مكانه المناسب. كما كان الحال مع حديقتنا في أوتاوا، شيء كهذا. هل كانت حياتك كافية، أعني؟

(٢٦) غود ويل good will، تعني حرفياً، الإرادة الخيّرة.

هل أنت مستعدة لل ـ ؟ هل أنت خائفة؟ هل أنت هناك؟ ماذا بوسعي أن فعل من أجلك؟".

بدلاً من ذلك، تتحدثان عن عصير التفاح، صلصة اللحم، الصراخ في الردهة، الطبيب، وهو من جامايكا ـ لم يتحدّثا في الواقع عن حقيقة أنه جامايكي.

عندما تمد أليسْ يدها وتمسك يد أمها، تروعها شفافيتها. لا تتمالك نفسها من التحديق فيها. براجم من اللؤلؤ. تبدو ميتة منذ الآن. متحجّرة. تذكّر نفسها بأن ما تنتهي إليه حياة معظم الناس هو أن تصبح واجباً يتخيّلونه: أن يكونوا صالحين، أن يكونوا أوفياء لفكرة أن يكونوا صالحين. ابنة صالحة. أمّ صالحة. أن يكونوا صبورين لدرجة بطوليّة. هذا التّكبير للذات يمكن أن يثير الرعب.

"قولي لي، كيف يُفتَرَض أن أعيش حياتي".

"ماذا قلت يا أليسْ؟"

"لا شيء. نامي".

"لم تتجاوز الساعة التاسعة بعد".

"بدأ الضوء يخبو".

"هذا بسبب الستائر، أنتِ أغلقتِ الستائر".

"لا، انظري. الستائر مفتوحة. انظري".

تمر على الجدة فليت أيام جيدة، بالطبع. أيام ترتدي فيها نظاراتها وتقرأ الجريدة بلا عناء. أيام يمتدح فيها العاملون في المستشفى يقظتَها المدهشة. وصفَتْها ممرضة على مسمع منها بأنّها "ذات قبضة قوية"، وهو تعبير لا تميّزه السيدة فليت. "إنه

يعني أنك صلبة وقوية"، تقول لها أليسْ. "هذا ما أظنه أنا على الأقل".

"لمْ أعتبر نفسي يوماً صلبة وقوية".

"إن المقصود بهذا القول هو المديح".

"لست حقا صلبة".

"كنتِ دوما رقيقة لينة".

"لا تصفيني بهذا. إنه يذكرني بحبات الشوكولا الليّنة المركز التي اعتاد والدك أن يأتي بها معه عند عودته من إحدى سفراته. لم أُطِقْها يوماً، لم أطق أن أقضمها".

"أنا آسفة". سمعتْ أليسْ عن الشوكولا اللينة المركز من قبل. مرات كثيرة من قبل.

"النُّوغَة. كريمة الزبدة. وذاك النوع الثالث".

"راحة الحلقوم".

"إنها تثير الغثيان في نفسي. مجرّد التفكير بها".

"لا تفكّري فيها". تغلق أليسْ عينيها، وهي نفسها تشعر بالغثيان: التظاهر المزيّف بديمومة الحبّ.

"كان يسافر كثيراً. لا أعرف إنْ كنتِ تتذكّرين، كنتِ صغيرة جداً. كان كثير السّفر. مونتريال، تورنتو".

"أعرف. أذكر ذلك بالفعل".

"لم أفهم يوماً سبب كل تلك الأسفار".

"اجتماعات".

"لم أفهم يوماً لماذا كان السفر ضرورياً إلى ذاك الحد.

سألتُه، بالطّبع، أبديتُ اهتمامي بالأمر، أو حاولتُ أن أفعل على الأقل. فقد كانوا يشجعون النساء في تلك الأيام على إبداء الاهتمام بمهنة أزواجهن ـ لكنّ الأمر لم يتّضح في ذهني أبداً. لم يكن واضحاً بالنسبة لي. ماذا كان موضوع تلك الاجتماعات، ماذا كانت غايتها".

"مجرد هراء إداري، ربّما".

"كانت تثير قلقي. كانت تزعجني، يجبْ أن أقول".

"لا تفكّري حول ذلك الآن".

"كان يجلب معه علبة تزن رطلين إنكليزيين من تلك الشوكولا. يا إلهي. أنا بالطّبع لم أقل له يوماً أني لا أحبّها. اعتدتُ أن أقدّمها للسيّد مانرلي. أنت تذكرين السيد مانرلي، أليسْ. كان يساعدنا في العناية بالحديقة. كان يقوم بالأعمال الصعبة".

"طبعاً أنا أذكر السيد مانرلي". تعرف أليسْ أنّ أمّها الآن على وشك تذكيرها كيف أنّ زوجة السيد مانرلي توفّيت بسبب داء السكّري، وكيف أن ابنه، آنغوس، امتهنَ السياسة.

"توفيت زوجته المسكينة وهي شابة. كانت تعاني من الدّاء السكري، لم يكن من الممكن معالجته في تلك الأيام". هامسةً. "لا أعتقد أنها تناولت أيّاً من تلك الشوكولا، على الأقل آمل أنها لم تفعل. لم يكن ولدهما آنغوس قد تجاوز الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره عند رحيل أمه. كان في السادسة عشرة، على ما أعتقد. لقد حقق نجاحاً كبيراً. وهو ما زال مستمراً في منصبه السياسي للفترة الثالثة على التوالي، إن لم أكن مخطئة. اعتدتُ رؤية اسمه في الجريدة. آغنوس مانرلي،

إنه اسم رائع لشخصية سياسية، هذا ما اعتقدته دوماً".

"إنه اسم مُحبَّب إلى النفس". إنّ إقامة أليسْ لوقت طويل في إنكلترا قد منحتها الحق باستخدام التعبير "محبَّب إلى النفس"، وهي تستخدمه كثيرا.

"يسعدني أنك هنا يا أليسْ. أقدّر حضورك. لا أقصد أن أبدو غريبة بقولي هذا".

"لست تبدين كذلك. أنت ـ".

"لا بأس، ليس عليك أن تقولي أي شيء".

"عنيت فقط ـ "

"أنا جادة، يا عزيزتي، لستِ مضطرّة لقول أي شيء".

"لا بأس".

"ماذا كان ذاك التعبير مجددا؟ ما قالته الممرضة؟"

"ذات قبضة قوية".

"إنّ لهذا التعبير وقْع السّباب".

"لا أعتقد ذلك. ربما كان كذلك".

"له وقع ـ لا تحضرني الكلمة، إنها على طرف لساني، له وقع ـ".

"له وقع بغيض؟"

"لا. بل أشْبَه بالتّرفّع".

"التكبّر".

"نعم. ذاك هو التعبير. التكبر".

"أنت محقّة. إنّه تكبّر. المقصود به التقليل من شأن

الآخرين. تعبير متغطرس وقح، في الحقيقة.

"نعم".

"نتظاهر بالإعجاب بالقبضة القوية لدى الآخرين"، تقول أليسْ متأمّلة، "لكنّنا نكره أن نكون نحن من ذوي القبضات القويّة. نكره أن ينعتنا أيّ شخص بهذا الوصف".

"تفوح من هذا النعت رائحة كريهة".

"ماذا؟"

"له رائحة شيء ناضج أكثر مما ينبغي. مثل فريز متهرّئ".

"تماماً".

"كان له جذع طويل جدا، أعني والدك. أعتقد أنه لهذا السبب لم يتعلّم الرقص أبداً".

"ليس الرقص لكل الناس".

"أنا سعيدة بوجودك هنا يا أليسْ".

"أنا سعيدة لأني هنا".

"ماذا قلت؟"

"قلت أني سعيدة لأني هنا".

"سامحيني، عزيزتي أليسْ، إذا لمْ أصدّقك".

(هل حقّاً تنطق الجدّة فليت بهذه الجملة جهاراً؟ هي ليست متأكدة. لم تعد تعي ما هو حقيقي وما هو ليس كذلك، كما لم أعُدْ أنا أعي ذلك في سنّي هذا).

عندما نقول عن شيءٍ ما أو حدث ما إنه حقيقي، نجلّه ونحترمه. ولكن عندما يكون الشيء مُختَلَقاً ـ مهما بدا حقيقيّاً

وعادلاً ـ فإننا نبدي له الازدراء. هذا هو العصر الذي نحيا فيه. العصر الوثائقي. وكأننا لا نكتفي أبداً من الحقائق. نشغّل جهاز التلفزيون وما نسمعه هو دورات حياة الطيور. إعادة عرض للحروب. مقابلات مع قتلة جماعيين. ولا تعرف الصحف شيئاً آخر.

قُتل صحفي يُدعى بينكي فولهام عندما انقلبت آلة بيع مشروبات غير كحولية فسحقته. يبدو أنه كان يهز الآلة نحو الأمام والخلف محاولاً استرجاع قطعة نقدية عالقة من فئة ربع دولار. منذ سنوات مضت تسبّب بينكي فولهام بأذىً جسيم لدايزي غودويل، ولهذا عندما سمعت بموته لم تستطع أن تتظاهر بحزن كبير.

"يا إلهي"، قالت ابنتها، أليسْ، "كيف سمعتِ بهذا؟".

"أخبرني أحدهم"، قالت الجدة فليت بأسلوب غامض، "أو ربما قرأتُ الخبر في الجريدة".

"حقاً؟ هذا أمر لا يُصَدق".

"في الحقيقة يلقى أحد عشر أمريكياً شمالياً مصرعهم سنويّاً نتيجة انقلاب آلات بيع عليهم. ورد هذا في الصحيفة. أذكر أنّي قرأت حول ذلك منذ أمد قريب. البارحة على ما أعتقد. أو ربما هذا الصباح".

"وبينكي فولهام هو واحد من هؤلاء".

"على ما يبدو".

"هذا أمر لا يُصدق".

"إنه كذلك حقاً".

منذ إصابتها بأزمة قلبية أصبح كل شيء يفاجئها، ولكن فقط بالقدْر الذي تسمح هي به، وكأنّ إحساساً جديداً بخوائها الداخلي جعلها متطوعة للاستبدال. إنّ كوكب جسدها الميت بذرّاته وجزيئاته وكتله الماديّة تزهر فجأة بعناوين صحفية، كوابيس، بطاقات المعايدة، مرارة الأدوية، صخب الليل، الخطوات في الرواق، روائح أنفاسها ودمها، صوت شخصٍ ما وراء بابها يهمهم لحناً توشك أن تميّزه.

يصل طرد بريدي للجدّة فليت. سترة تُلبس فوق المنامة من حفيدتها، جُودي، في إنكلترا.

يا للهول! ـ يدرك المرء أنه مريض عندما يرسل إليه أحدهم سترة تُلبس فوق المنامة بدلاً من إرسال بودرة ما بعد الاستحمام أو كتاب رحلات ممتع. لقد أصبحت السترة التي تُلبَس فوق المنامة الآن أثريّة مثل الأرداف المستعارة أو الوقاء تحت الثوب. إن السترة التي تُلبس فوق المنامة تَنْطِق باليأس. ومع ذلك، تدرك السيدة فليت العجوز أن حفيدتها قد تجشّمت عناءً كبيراً كي تعثر على هذه السترة. قد يُعثَر في المخازن الأساسية، إن عُثر، على نصف دزينة منها، كما أنّ الباعة، نساء في الأربعينات أو الخمسينات من أعمارهن، ينظرن نحو الأعلى بحيرة وارتباك عندما ينحني شخص ما فوق النُّضُد ويقول، "أخشى أني لم أعثر على مكان عرض السترات التي تلبس فوق المنامة".

أين تُصنع السترات التي تُلبس فوق المنامة؟ نيويورك؟ سان فرانسيسكو؟ ربما ثمّة بلدة صغيرة في وسط آيوا قد سيطرت على السوق، وأصبحت: العاصمة الوطنية لإنتاج

السترات التي تُلبَس فوق ملابس النوم. بل العاصمة العالمية. ولكن من هو الذي قام بتصميم هذا الرداء الغريب؟ الحواشي المخرّمة، الكمّين الصغيرين المكسوّة بخطوط مدروزة متقاطعة، والضّمامَة ذات السطح المُبَلّر، التي تُربط تحت الذقن؟ ربما لم يقم أحد بتصميمها. ربما كانت تتكاثر مثل الهندباء البرية فوق الرفوف الخلفية لمصانع ملابس النوم والملابس الداخلية. ثمّة أمر آخر ـ لماذا ومتى يجب على امرأة ما ارتداء السترة التي تُلبس فوق المنامة؟ هل السترة التي تُلبس فوق المنامة رداء يُلبس في غرفة نوم المرء أم يمكن الظهور فيها أمام الآخرين؟ هل تنام المرأة فيها أم تنزعها قبل النوم مباشرة؟ هل تأتي مع كُتَيِّب تعليمات؟

"أمي، تبدين شاردة الذهن".

"كنت أفكّر كم هو لطيف من جودي أن تتذكرني".

"إنها تعبدك، أوَتعلمين".

"لم يسبق أن كان بحوزتي سترة تُلبس فوق المنامة من قبل".

"تبدين محبَّبة عندما ترتديها. انتظري حتى يراك الطبيب ريكيا. سيلهج لسانه بالإطراءات".

"يا لذاك الرجل".

"إنه ليس سيئاً. هيّا اعترفي. ورموش عينيه، لا تقولي أنك لم تلاحظي رموش عينيه. إنه حقاً رجل محبّب تماماً. هيا اعترفي بذلك".

"في الواقع...".

"أنا شخصياً أجده ساحراً. وأعتقد أنك، سراً، معجبة به أيضاً".

"نعم".

إن أليسْ لا تجد الكاهن ريك فاتناً، هي تعرف جيداً هذا النوع من الرجال. لقد حيّته ببرود، بغِلظة تقريباً، عندما قدم في أحد الأيام إلى كناري بالمز، ثم أصرّت على المغادرة، تاركةً إياه وحيداً كي يتحدث إلى أمها.

تدرك السيدة فليت، من دون أن يخبرها أحد، بأنّ كل ما تريده أليسْ هو حمايتها من القسْر البروتستانتي، من هذا البائع المتجول من غرفة إلى غرفة، لبيع سلع مغلّفة بالإحساس بالذنب. تعتقد أليسْ، من منظارها الخاص بشخص في خريف العمر، بل تؤمن، أن أمها تتمتّع بروح طاهرة ـ طاهرة بما يكفي على كل حال ـ ويغضبها كثيراً أن ترى شبح الخطيئة يزور شخصاً مريضاً ومعرَّضاً لهذه الدرجة.

لكنّ الحوار بين السيدة فليت والكاهن ريك يتّخذ انعطافاً حاداً بعيداً عن أرواح المسنّين وحلم التخليص من الخطيئة.

"أنا لوطيّ، أوَتعلمين"، يقول الكاهن ريك للسيدة فليت. "مِثْلِيّ. لم أكن قد اكتشفت ذلك عندما بدأت دراسة الكهنوت، لكني بعد ذلك اكتشفت ميولي الحقيقية. أبقيتُ الأمر سراً لفترة طويلة. ثم اكتشف شخص أو شخصان الأمر، ثم، تدريجياً، نصف دزّينة من الأشخاص عرفوا بالأمر، والآن الكل يعرف ـ ما عدا أمي. تلك هي مشكلتي. هل أخبرها أم لا؟ كنت أقول لنفسي، أنت في مثل سنّ أمي. حسناً، في الواقع، أمي هي في الستين فقط من عمرها، ولكنّك، لسببٍ ما، تذكرينني بها. لا

أعرف ماذا يتوجّب عليّ أن أفعل. تسألني أمي بإلحاح متى سأجد فتاة لطيفة وأستقر. هذا يجعلني أكره الذهاب إلى البيت، لأني أعرف أنها ستكرر السؤال".

إن جزءاً من السيدة فليت يرغب بإغماض عينيها في هذه اللحظة والاستسلام للنوم؛ وهي تدرك جيداً بأنها قد تنجو بفعلتها إن فعلت ذلك. فسنّها يمنحها هذا الامتياز.

هذا مزعج جداً، مؤلم جداً.

تشعر بصوت تَمَزُّق وراء عينيها، وتدرك أنها تشعر بالإطراء لأنه أفضى بسره إليها، لكنها، في الوقت نفسه، تشعر بالامتعاض. يؤلمها، مثلاً، أن تُوضع، من دون تفكير، في الخانة نفسها مع والدة الكاهن ريك، وهي تشعر أنها امرأة قد لا تروق لها. في الواقع، هي لا تحب الكاهن ريك حقاً، ولم تحبه يوماً؛ فهناك توقٌ ما يكمن وراء حماسته، وهناك أيضاً أكتافه المسترخية وياقات قمصانه التي تبدو، بغرابة، وكأن كلباً مضغها. من ناحية أخرى، قادَ هذا الرجل الشاب سيارته من الطرف الآخر للمدينة، وصولاً إلى كناري بالمز ـ تحت الحر القاتل لهذا اليوم ـ كي يستشيرها، سعياً إلى حكمتها. لم يتكرر هذا كثيراً في حياة السيدة فليت. في الحقيقة، لم يحدث أبداً من قبل. ومن شِبْه المؤكّد أنه لن يحدث مرة أخرى.

"هل جرّبت"، قالت أخيراً، "أن لا تكون لوطيّاً".

"ماذا؟" يهز خصلة متدلية من الشعر كي يبعدها عن عينيه.

"أعني، هل حاولت أن تجد لنفسك صديقة حميمة وتجرب أن ـ حسناً، قد تُفاجَأ أنت نفسك، قد تكتشف أن

الفتيات يَرُقْنَك ـ ما أعنيه هو، من الممكن أن تغير موقفك".

"أن يكون المرء لوطياً، يا سيدة فليت، هو ليس مسألة موقف".

لقد جرحتْ مشاعره. ومن دون أن تدير رأسها وتنظر إليه مباشرة، تدرك أن جسده كله قد تصلّب. وهذا أمر لا تستطيع تحمّله. أنْ تسبّب الأذى لشخص ما. فنقطة ضعفها الكبرى ـ كما أدركت دوماً ـ هي خوفها من أن تتسبّب بالأذى، أكثر مما فعلتْ حتى الآن. ولهذا، ورغم غضبها، ورغم ما قرأتْه في الجريدة عن الإيدز، تمدّ يدها نحوه، وتشعر بأنه أمسكها بيده.

"لا تخبر والدتك"، تقول له بعد دقيقة.

"ولكني لا أستطيع الاستمرار في الكذب".

"لمَ لا؟" تتوقف للحظة. "معظم الناس يكذبون".

"ليس الذين يأخذون إيمانهم المسيحيّ على محمل الجد ـ"

"إن والدتك تعرف الحقيقة من دون أن تخبرها". تقول هذا بنزق.

تشعر السيدة فليت فجأة بأن والدة الكاهن ريك موجودة هنا في الغرفة معهما، وهي حقاً، كما يتبيّن في النهاية، امرأة لطيفة؛ مليئة بالنشاط والحيوية؛ دائمة الابتسام.

"دعني أقُلْها بطريقة أخرى. والدتك تعرف الحقيقة جزئياً. وسرعان ما ستدرك الحقيقة كاملةً. سوف تستنتجها. هذا ما يحدث عادة. إنه ليس بالأمر الذي يجب أن تناقشاه في ما بينكما إذا كنتما لا ترغبان بذلك. لن تضطرّا لذلك يوماً". (لا

تتمالك نفسها من الشعور بالفخر حيال خطبتها).

"ولكنّ العيش وهذا الحاجز يفصل بيننا!" يقول بصوت هامس سخيف. إنه يبكي الآن. يبكي وينشق.

"أخشى أني أشعر بتعب شديد على نحو مفاجئ. إنها هذه الأقراص التي يعالجوني بها".

كان الأمر مختلفاً على زمانك. كان الناس يخشون من المجاهرة بميولهم الجنسية. كانوا يعيشون حياتهم بطولها وكأنها حكاية من حكايات الجنّ.

"أشعر بنعاس شديد". تشعر بوخز في حلقها، وخز حقيقي. "اعذرني، أنا بحاجة للراحة".

"فليباركك الله يا سيدة فليت".

"كيف يردّ المرء على التمنّي له بأن يباركه الله؟ "وداعاً"، تقول السيدة فليت بحزم، مغمضة عينيها، ضاغطةً برأسها بشدّة على وسائدها، ثم تضيف مباركةً مُرتَجلة، أنثوية، نسائية، أموميّة، خليقة بالجدّات، "قُدْ سيارتك بانتباه".

في وسط كتابتها لشيك مصرفيّ، تنسى الشهر، ثم العام. إنها مخبّلة، مجنونة، لقد أصيبت بثقبِ تَسَرُّب، مادّة دماغها تشحّ مثل المادة الرمادية على مغلف بريدي، إنها تنتشر فوق كل الأثاث. وما تحتاجه، كما تُخبر ابنتها، هو إجراء عملية قلب ـ مفتوح على رأسها.

"ها"، تقول أليسْ بدافع الواجب.

كل شيء يثير أعصابها، ذبول الأزهار في المزهرية، رائحة البول، بولها هي. لقد تحولتْ إلى عجوز لاذعة، ولكن، ليس

بصورة حقيقية. ففي داخلها ما زالت مثل زبديّة من الجِل المتذَبْذِب، نابضةً بالحيويّة، السيدة الإبهام الأخضر المعروفة الحكيمة، هل تذكرونها؟ إنها شخص يمكن للمرء سؤالها، الاعتماد عليها، الاتصال بها في حالات الطوارئ. يفاجئ الجدة فليت أنّ هناك كمّاً هائلاً من روح الدعابة مخبّأً في صدوع الأرض؛ إنه في كل مكان، مثل ألف نوع من الطحالب. كل يوم تقريباً تعثر على مادة أو اثنتين في الصحيفة أو في برنامج صباح الخير يا أمريكا، تجلب البسمة إلى شفتيها. أو يحدث شيء ما مسلٍ في الطابق، الممرضات يضحكن جيئة وذهاباً، وكأنّما على نكتةٍ مستمرّةٍ ما. من كان يظنّ أن الكوميديا يمكن أن تستمر حتى سنّ الشيخوخة الوهِن؟

والزّهو أيضاً. يرفض الزّهو أن يموت، دافعاً ملل وتفاهة الحياة اليوميّة إلى ثنايا، تجاويف، وطيّات صغيرة من الحلوى المثيرة. تنظر في المرآة بجانب سريرها، المخبأة ببراعة على الجزء الخفي من صينية السرير، وتقول لنفسها، "ها هي ذي، رفيقة حياتي. كنت أحتل قلبها يوماً. والآن أجثُم في زاوية من عينها" . ومع ذلك، تضع قليلاً من أحمر الشفاه في الصباح قبل مجيء الطبيب ريكيا، وتنثر القليل من البودرة فوق أنفها (اضطرّت للتخلي عن ماركتها المفضلة، وودبري). ولكن كيف تجد الطاقة اللازمة لرفع القطعة التي تذرّ بها البودرة، رغم درايتِها بكل ما تعرف؟

وتتفقد أظافر يديها. كانت أليسْ هي التي قامت بالترتيبات اللازمة لمجيء مُدَرِّمة الأظافر في الأسبوع الماضي. قاومتْ السيدة فليت الفكرة في البداية بالطبع - إذ لم يسبق لها أن

استعانت بمدرِّمة أظافر محترفة من قبل، وكانت تعتبر الأمر إسرافاً ـ لكنّ أليسْ أصرّت. متعة صغيرة، هكذا دعَت الأمر. وهكذا أُنزلت يدا السيدة فليت في محاليل صابونية مختلفة، ثم وُضعت فوق حضن هذه الشابة ونُشفت برفق بواسطة منشفة. شُذِّبت البشرة الميتة حول الأظافر التي بُردت إلى أشكال بيضاوية بالغة الكمال. "النمط الفرنسي أم العادي؟" سُئلت. "ماذا تقترحين؟" قالت السيدة فليت؟ "حسناً، دعيني أرى"، بدأت المدرِّمة المحترفة، وكان من الواضح أن هذا القرار يحتاج إلى بعض التفكير الجدّي، إلى اتخاذ قرار ما. واختير النمط الفرنسي في النهاية؛ "فهو يعطي مظهراً نظيفاً جميلاً، يناسب الصّيف". وكأنّ السيدة فليت ستحضر في وقت قريب سلسلة من حفلات الهواء الطلق أو سترتاد واحداً من أفخم المطاعم في ساراسوتا.

تبقي أظافرها العشر المصقولة الجميلة تحت الغطاء العُلوي بحذر، لكنها تسحبها كل حوالى نصف ساعة كي تتفقدها، باسطةً إياها تحت ضوء الشمس. إن النظر إليها هو أول ما تفعله في الصباح وآخر ما تفعله في الليل، ولكن الحقيقة هي أنها حاضرة في ذهنها طوال الوقت. ترتعش بخفة بجانبها، وتصعد هذه الخفة إلى رسغيها ثم تجري إلى ذراعيها وجسدها. تبدو أظافرها أنيقة؛ بالفعل! تبدو جديدة تماماً. عندما يفكر المرء بالاعتلال الذي أصاب جسدها، بالتّلف، قد يتمكن من تفهّم حماقتها الأخيرة. لكنّ هذا التركيز على أظافر يديها يكاد يكون استحواذيّاً، وإلهاءً عن زهوها العادي بأحمر الشفاه والبودرة. إلى أي مدى كانت حياتها ضحلة وغير مُرْضية كي تستشعر كل هذه المتعة في أشياء صغيرة كهذه. إذا لم تتوخّ الحذر سوف

تتحول إلى واحدة من كعكات الفواكه المثيرة للشفقة التي لا تنتهي من إحصاء النِّعَم التي تغمرها.

"هل سبق أن فكرتِ بتدريم أظافرك من قِبَل شخص محترف؟" سألتها أليسْ.

تتوارد الصور في رأسها، أكثر إشراقاً بكثير من تلك التي تراها على شاشة التلفزيون الكبيرة في غرفة جلوس المرضى. دمار رائع. يهمس في أذنيها. يمكنها دخوله في أي وقت تريد.

هي في السابعة من عمرها، واقفة في حديقة عمتها كلارينتاين، منحنية فوق أزهار فم السمكة، تضغط عليها بأصابعها كيف تفتح أفواهها وتغلقها. إنّ لها أسناناً وألسنة صغيرة. هل يعرف الآخرون ذلك. تقطع برعماً من الثوم المعمّر وتمصّه. "دايزي"، تسمع. يدعونها للحضور إلى العشاء. وعدتْ العمة كلارينتاين بإعداد الفطائر المحلاة. كل هذا: فكرة الفطائر المحلاة، حدة الثوم المعمّر، الحلاقيم المخبأة لأزهار فم السمكة، الشمس، وقْعُ اسمها نفسه ـ تشعر فجأة بالدوار بسبب ضغط المشاعر، وتخشى أن تموت نتيجة له.

تساقطت الثلوج فوق منازل الحي وأصبحت حالاً، هي وحدائقها الصغيرة المسيّجة، مغطاة بفرو أبيض ناعم، بما كان يدعى تلك الأيام بـ شربات الربيع. جرفت ملء يدها عن أسكفة نافذة غرفة نومها، وأبقتها ملامِسة لجبهتها حتى لم تعد تحتمل البرودة أكثر. كان ذاك امتحاناً من نوع ما. كان امتحاناً لشجاعتها. كان ضوء القمر بارداً وصافياً.

تعثر على شيء جميل. تلوُّن قُزَحِيّ على الطريق. وكأنه قوس قزح مثبَّت على أرضية الشارع المرصوفة. لم يكن أي

شخص قد لاحظ وجوده هناك، وجود هذا الشيء الرائع الذي اكتشفته. لكنّها ارتكبت خطأ لفت نظر فتاة أكبر سنّاً من الحي، فقالت تلك بهدوء تام، "إنه فقط وقود، مجرد قليل من البنزين الذي تسرب إلى أرضية الشارع، لا شيء يستحق كل هذا الحماس والبهجة".

إنه الصيف مرة أخرى. أخذت نصل ورقة عشب، فلقتها طوليا بأصابعها، أمسكت بها بين إبهاميها ونفخت عليها. كان شخص ما قد علمها كيف تفعل ذلك، لكنها لا تتذكر من هو. كان ذلك سهلاً ـ إحداث صوت العويل هذا، وكأنه صوت معتوه يصرخ ذعراً. لقد أتقنتِ الأمر أكثر فأكثر. لقد تعلمتِ، ولم تنسِ أبداً. كنت مثل الآخرين، كنت قادرة على فعل الأشياء نفسها التي يفعلها الآخرون.

كانت الأوراق البنيّة قد جُمعت في كومة كي تُحرق، وأحست برغبة شديدة في أن تستلقي على ظهرها فوق الأوراق لدقيقةٍ فقط، أن تتمدد على ظهرها فوق خشخشة الأوراق، وتحدّق نحو الأعلى. تترك نفسها لتسقط نحو الخلف، ذراعاها ممدَّدتان على جانبيها، باستسلام واثق، فتظهر حالاً تعقيدات الأغصان، الأسيجة، الأكواخ والمنازل، ظهرت كثيفة ومتداخلة، ظهرت كرسم كاريكاتوري فوق خلفية من الروعة الاستثنائية للسماء، الفجاءة الأولية للون الأزرق. هذا كل ما كان هناك. هي معلّقة في كرة زجاجية. يمكنك العودة مرة بعد أخرى إلى تلك الصورة الحقيقية الراسخة، والاحتفاظ بها داخل رأسك طوال ما تبقى من حياتك.

ما اسمك؟

دايزي.

دايزي ماذا؟

دايزي غودويل.

هل تعرفين ما تعنيه كلمة "دايزي"؟ إنها تعني "عين اليوم[٢٧]".

هذا صحيح. كنت أعرف ذلك في ما مضى؛ لكني نسيت.

فزهرة المارغريتا[٢٨] تشبه حقّاً العين، عندما نفكر بالأمر، فهي دائرية ومحاطة بالأهداب، تحدق نحو الأعلى.

تفتح وتغمض.

الأمر الغريب حول الصّور التي تتطاير إلى رأس دايزي غودويل هي أنها تُظهِرها دوماً وحيدة. هناك أصوات تتناهى إلى مسامعها من بعيد؛ هناك ظلال وإيحاءات ـ لكنها مع ذلك وحيدة. نحن بحاجة، على ما يبدو، في لحظات شجاعتنا أو لحظات إحساسنا بالخجل، إلى شاهدٍ واحد على الأقل، لكن السيدة فليت لم تنعم بهذا الامتياز. هذا ما يحطم قلبها. هذا ما تعجز عن احتماله. حتى في هذه اللحظة، وهي في الثمانين من عمرها.

تدرك الجدة فليت أن حديثها غير مترابط، تدرك أنها تكرر ذاتها، وأليسْ، باركها الله، لا توقفها أبداً، ولا تقول لها أبداً، "لقد حدثتِني حول هذا من قبل، يا أماه".

---

(٢٧) هنا لعب على الألفاظ، الاسم Daisy يصبح Day's eye. (المترجمة)

(٢٨) اسم دايزي يعني زهرة المارغريتا. (المترجمة)

كل ما تحاول فعله هو الإبقاء على الأشياء صحيحةً واضحةً في ذهنها. الإبقاء على وزن ذكرياتها موزَّع بالتساوي. الاحتفاظ بفصول حياتها بتسلسلها الصحيح. تشعر بحنان جديد ينمو في لحظات معينة؛ إنها مثل خرزات مجموعة بخيط، والخيط بدأ يبلى. وهي تدرك في الوقت نفسه أن ما تبقى بانتظارها يجب أن تُوضَع خواتيمه بمساعدة مخيّلتها وليس بالسّرد الحيادي لتاريخ مختنق غير واضح. تصبح الكلمات ضرورية أكثر فأكثر. والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي قصة حياة شخص ما؟ هل هي عرض للأحداث وفق تسلسلها الزمني أم أنها طبعة منمَّقة ببراعة؟ هل هي عملية جمْع كلّ ما يخفيها؟ أم جمْع ما يُكشَف عنه تلقائياً، تلك الكميات الصغيرة المُحَصَّصَة من المعرفة؟ إنها بحاجة إلى مكان هادئ كي تفكر بهذا الأمر الهام. وهي بحاجة لشخصٍ ما ـ أي شخص ـ كي ينصت إليها.

لكن الرغبة في الإعادة إلى الوجود لكلّ ما تمّ اختباره وتخزينه في الذاكرة وكل ما خلقه الحلم تُعد مبالغة في إطلاق العنان لأهواء المرء. يتوجب عليها ألا تستمرّ في حماقتها، عليها أن تتوقف عن وقْر سمع أليسْ المسكينة، وإضجار الطبيب ريكيا إلى أبعد الحدود. تؤنّب نفسها: إنها تتحوّل إلى شخص شبيه بماريان ملْ هنري، فهي تتحدث طوال الوقت حول همومها الشخصيّة. بدلاً من التفكير بالآخرين. بدلاً من إيثار الآخرين.

إيما الصغيرة توفّيت. أو ربما أودِعت في مؤسسة مع أطفال آخرين يعانون من التخلف العقلي. كانوا يسمّونهم

منغوليين في الماضي، في الأزمنة الأكثر قسوة.

لا أحد يقول كلمة واحدة للجدّة فليت حول إيما خشية أن يُحزنها الأمر، لكنها تعرف مع ذلك. هنا، ضمن دائرة الرؤية بجانب سريرها، ترى ابنها، وارن، وزوجته الجديدة ـ التي تعجز الجدة فليت في هذه اللحظة عن تذكر اسمها. تنزلق الغرفة باتجاه واحد. أصبحت النافذة في الزاوية. حتى لسانها ذاته التفّ على نفسه. تطلب كأسا من الماء، طلب بسيط، تعبير بسيط، لكنها لا تتمكن من لفظه على نحو صحيح؛ "منغولي"، تقول، بدلاً من ذلك. يلامس الذعر قسمات وجه وارن ثم ينتشر باتجاه الأسفل عبر العمود المرن المنتصب الذي يشكل عنقه. تودّ أن تواسيه بنظرة أو كلمة لطيفة، لكن جسدها مُثقَل بتشوّشِه الخاص به. لا تقصد أن تكون فظّة. تطْبق عينيها، مركّزةً، نائيةً بنفسها عن ابنها وزوجته الشابة، متأمّلةً شيئاً بالغ التعقيد مطبوعاً على البشرة الرقيقة لجفنيها، سرّاً، حلماً، فيلماً من نوع ما.

تتزوج أليسْ والطبيب ريكيا بصورة مفاجئة. تنتقل معه إلى جامايكا حيث يقيمان في بيت جميل من طابق واحد على شاطئ المحيط. ينجبان طفلاً، صبياً صغيراً أهدابه طويلة ومقوسة، لطيف الطبع.

لا، لا شيء من هذا صحيح. بل السيدة فليت العجوز تحلم مرة أخرى.

كيف تنشأ هذه الروايات الزائفة؟ •

فكّري، فكّري، تقول السيدة فليت لنفسها. كوني معقولة. فالطبيب ريكيا متزوج وأب لطفلين؛ شاهدت السيدة فليت

صوراً فوتوغرافية لأفراد عائلة ريكيا وهم واقفون أمام منزلهم ذي الطراز الكولونيالي في حي كينزينغتون بارك.

تعود أليسْ إلى إنكلترا. فقد انقضى الصيف. سيبدأ فصلها التدريسي في الأسبوع القادم، وهي تخطِّط منذ الآن لإقامة حفلة لدزّينة من الأصدقاء في نهاية الأسبوع: موسيقى مغربية، وجبة من الكاري، جعة باردة، وهي صاخبة وساخرة، بأقراطها المتأرجحة. لقد عثرت على شارٍ للشقّة في بايسايد تاور واهتمّت بعدد من القضايا القانونية الخاصة بأمها، بعد أن مُنحت تفويضاً قانونياً. وُقِّعت أوراق. واتُّخذت تدابير من أجل المستقبل. تعود أليسْ إلى هامستيد بلون برونزي رائع اكتسبته في فلوريدا، رغم أن الجميع حذّرها، حتى أمّها، بأنّ اللون البرونزي الذي يُكتَسب تحت شمس فلوريدا لا يدوم. لا بأس، ستعود في عيد الميلاد. بدأ أسلوب حياتها الجديد يتّخذ شكلاً واضحاً، رحلة طويلة من التعديل والتكيّف. إنها تشكّله يوماً بيوم. لم يكن هذا هو التصور الذي كان لديها حول سنوات كهولتها، لكن هذا هو المسار الذي ستتخذه على كل حال.

خطر على بالها أمر ما ـ أمر بسيط بصورة جلية، أمر كانت دوماً على دراية به، على ما يبدو، لكنها لم تصرّح به أبداً. وهو أنّ الموت يحدث بينما المرء ما زال على قيد الحياة. فالحياة تمضي في مسيرتها حتى تصطدم بجدار ذاك الظلام الأخير، حالة صارخة من الوصل بالتّناكب بين شيئين، لا يفصل بينهما، أي الموت والحياة، ولا حتى شهيق أو زفير واحد. ولا حتى طرفة عين. يمكن لشخص ما أن يستمر ويستمر متناغماً مع الموسيقى اليومية للطعام والعمل والطقس والكلام

حتى اللحظة الأخيرة، بحيث لا يضيع أي شيء.

تشدّ هذه الفكرة من عزيمتها بصورة مدهشة، ولا تتمالك نفسها من إطلاع أمها على ما تشعر به.

والدتها، دايزي غودويل، ما زالت حية داخل جسدها الواهن. حالتها غير مستقرّة، تمرّ بأيام جيدة، وأيام سيئة. إنها تُبلي جيداً بقدر ما هو متوقع، هذا ما يردّده الجميع. قد تستمر على هذا النّحو لسنوات.

الفصل العاشر

الـموت

دايزي (غودويل) فليت توفّيت بسلام، يوم ـ ، من شهر ـ، عام ـ ١٩٩ في مصح كناري بالـمز للنقاهة، ساراسوتا، فلوريدا، بعد مرض طويل تحمّلته بصبر.

كان زوج "الـجدة" فليت، باركر فليت، وهو مرجعيّة كنديّة مرموقة في مجال الحبوب المهجّنة، قد توفّي قبلها. سبّب موتها الحزن الشديد لابنتها أليسْ غودويل ـ سبنسر في هامستيد، إنكلترا، ابنتها جَوان وزوجها روس تايلور في بورتلاند، أوريغون، ولدها وارن وزوجته بيغي في مدينة نيويورك، وقريبتها فيكتوريا وزوجها لويس روي في تورنتو. وكانت الجدّة المحبوبة لبنجامين، جوديث، راتشل، راين، تيلر، بيث، ليزا، جيلي، وإيما (؟)، كما كانت والدة جدة مادلين، أندرو، ومردخاي، وعمة أم التوأمين صوفي وهيو.

سيُقام قدّاس لراحة نفسها في كنيسة كناري بالـمز، في الساعة العاشرة. نعتذر شاكرين عن قبول الأزهار. سيتم الدفن بعد ذلك مباشرة في مقبرة لونغ كي.

تُقبل الأزهار بامتنان
إحياء لذكرى
دايزي غودويل فليت
التي أحبّت وأحاطت بعنايتها بقدر المستطاع
كل الأشياء القابلة للنمو:
الحدائق الأطفال وبالونات
الذاكرة
رغم أنها كانت تخاف كثيراً شبح العزلة والصمت
المحاصِر
الذي توصّلت إلى موازنته
مع حياتها
دايزي دايزي
أجيبيني بصدق

دايزي، عين اليوم هو أنتِ
الوجه في المرآة هو أنتِ

"كانت في درج الطاولة المجاورة لفراشها. علبة القطيفة الصغيرة هذه".

"ما هي؟ تبدو مثل ـ".

"إنها كذلك. مُقَلِّمة أظافر. كانت لها، على ما أفترض".

"يا إلهي".

فليت، دايزي (المولودة باسم غودويل)، التي، بسبب

مصادفة تاريخية، بسبب اللامبالاة، بسبب الافتقار إلى الفرص والشَّجاعة، لم تجرِّب، ولو لمرة واحدة طوال سنيّ حياتها، الإثارة والتحدّي المرتبطين بـ: الرسم بالألوان الزيتية، التزلج على الجليد، الإبحار، السباحة عارية، حليّ الزمرد، السجائر، المداعبات الجنسية بالفم، ثقب الأذنين، رقصة القبقاب السويدية، الفراش المائي، روايات الخيال العلمي، الأفلام الإباحية، المشاعر الدينية الغامرة، الكمْأة، شراب الكرز المسْكِر، الفلفل الحار، بطة بكّين، فيينّا، موسكو، مدريد، العلاج النفسي مع مجموعة، تدليك الجسم، الجوع، درجات الامتياز أو ألقاب الشرف، الشَّجْب الغاضب، التي لم تقد سيارة أبداً، لم تتمتّع بطاقة يانصيب في حياتها، والتي، (من ناحية أخرى) لم يسبق لها أبداً أبداً أن ضُرِبت على الوجه أو الجسد من قِبَل شخص آخر، ولم تضع أبداً نظارة القراءة الخاصة بها (وهي تتنهّد) فوق قمة رأسها، كما أنها (خوفاً من التعرّض للسخرية) لم تستقصِ أبداً إمكانيات الخضوع لجراحة تجميلية أو ممارسة اليوغا، ولم تكرس نفسها أبداً لمقالات المجلات التي تعلّمك أن تكون مهتمّاً بنفسك، أن تثق بنفسك وتعتني بها. كما أنها، على الرغم من معرفتها بأنها أحيطت بالحب في حياتها، لم تسمع أبداً تعبير "أحبك، يا دايزي" وهو يُقال بصوت مرتفع (رغم بساطة هذا التعبير)، ولم تتوفر لديها الظروف ووقت الفراغ اللازمان للتفكّر حول هذا الظلم إلا أثناء فترة النوم الطويلة الواهنة الخالية من الأحداث التي سبقت موتها.

"نعمة"، هتفت دارسة تشيخوف البارزة أليسْ غودويل ـ سبنسر عندما أُخبرت بوفاة أمها.

"ترفرف حياة أمي على مستوى تحت الصفر منذ بعض الوقت"، يعلّق وارن فليت، مدرس الموسيقى في المدارس الحكومية جنوب مانهاتن.

"كانت مرهقة تماماً"، تعلن جوان تايلور، الابنة الصغرى لعائلة فليت، العاطلة عن العمل والتي ستبلغ الخمسين من عمرها في وقت قريب. "أرهقتها حياتها ثم أرهقها موتها".

"أخبرتني أنها مستعدّة لمواجهة الموت في أي لحظة"، تهمهم الباحثة الحاصلة على جائزة في علم النبات الإحيائي، فيكتوريا لويس فليت ـ روي. "ولكن هل حقّاً يصبح المرء مستعداً على الإطلاق؟".

كان لديها هذا النوع المجنون من الذكاء القابل للتكيّف. كان بمقدورها أن تعرِضه للعيان عندما تريد".

"قطيعيّ. سمعتها مرةً تقول تلك الكلمة الفصيحة جداً: قطيعيّ. تدحرجت الكلمة على لسانها بيُسْر".

"والدُّخَان المقدس. كانت تقول الدخان المقدس".

"حقا؟".

"وكانت أحيانا تبدو غافلة تماماً عما حولها. وكأنها ليست موجودة".

"وتلك الملابس! كانت تختار ملابسها بطريقة يتعذّر معها معرفة إن كانت قد أنفقت الكثير جداً أم القليل جداً لاقتنائها. أو ما إذا كانت متخلِّفة عن رُكْب الموضة بأربعة أعوام أم بأربعة وعشرين عاماً".

"ها!".

"لقد كانت غامضة".

"نعم، ولكن يمكن للغموض أن يكون شكلاً من أشكال العدوانية".

"ماذا قلت؟"

"لقد سمعتني بوضوح".

العصفور الأزرق، الفتيات الرائدات في الخدمة، جِي إسْ إي، بنات عائلة تيودرو، دورة التاريخ، مسعى مسيحي، ألفا زيتا، نادي المقلع، نساء الكنيسة المتحدات، اتحاد الأمهات، شجيرة السّهام، جمعية متشمور للبيت والمدرسة، جمعية البستنة في أوتاوا، لجنة الأرض الجميلة، صندوق ولاية كارلتون، سلسلة مطاعم ريديو، مزرعة أونتاريو للبذار، نادي الأشغال اليدوية للسيدات، الزهرات.

"لا، قطعاً، لا أريد التبرّع بأي عضو من أعضاء جسدها".

"كانت مجرد فكرة".

"كل أعضائها منهكة، على كل حال".

"ظننت فقط ـ "

إحياءً لذكرى العزيزة

دايزي غودويل فليت

١٩٠٥ ـ ١٩٩

إحياءً لذكرى العزيزة

دايزي غودويل

التي
وهي بكامل قواها العقلية
ومن دون أن تقصد الأذى
ورغم اعتراض عائلتها
قررتْ
بعد تفكير طويل
بعد عذاب
بتوجّس بصعوبة باعتذار بتصميم
أن تمضي وحيدة إلى عالم الموت

"ماذا قلت أنها تركت لكِ؟" صرخت جوان عبر الهاتف. (خطّ رديء عبر الأطلسي).

"سلّة حديقتها"، قالت أليس، وهي تلوي قسمات وجهها.

"ما هي سلة الحديقة بحق السماء؟".

" سلتها القديمة تلك. ألا تذكرين ذاك الشيء العفن بمسكته المقوسة الكبيرة الحجم؟".

"أعتقد أني تذكرت. بصورة غير واضحة. ولكن لماذا؟"

"لا أعرف. للسبب نفسه الذي جعلها توصي لك بصينية تقديم الهليون الفضية، كما أعتقد".

"يا إلهي".

"أتعلمين بماذا أوصت لوارن".

"لا. بماذا أوصت له؟" .

"مذكراتها منذ أيام الجامعة. ومقالاتها. كلها مدونة بخط اليد. عدد لا يحصى من الصفحات. علبة كرتونية كبيرة مليئة" .

"أعتقد أنها فقدت صوابها في النهاية، ماذا تظنين؟" .

"ربما كانت هذه مجرد دعابة؟" .

"لم تكن شخصاً يطلق الدعابات" .

"لا أوافقك الرأي حول ذلك" .

"حصلت فيكتوريا على مجموعة أزهار خفّ السيدة المصنَّفة" .

"يا إلهي، وماذا ستفعل بتلك الأشياء القديمة؟" .

"هي أرادت الحصول عليها. هذا ما قالته على الأقل" .

"اتُّخِذت كل الإجراءات اللازمة حول كل شيء آخر. ممتلكاتها، وما إلى ذلك" .

"يعود الفضل في ذلك إلى محاسبها" .

"ومحاميها أيضا. رغم أنه هو أيضا قد شاخ كثيراً" .

"ماذا عن كناري بالمز؟" .

"يا للهول!" .

"أشعر بالذنب لمجرد الحديث عن هذا. لمجرد التفكير حوله" .

"وأنا أيضاً" .

"لكني أعتقد أن الجميع ينتابه الشعور نفسه" .

"نعم، بالطبع" .

"ماذا بمقدورنا أن نفعل؟"

"لا شيء على الإطلاق".

أربعة وسبعون بالمائة من الأسر الأمريكية تنفق ألف دولار هذا العام على الأقل من أجل تحسين منازلهم أو المحافظة عليها كما هي. سمعتُ هذا من الراديو، نشرة الأخبار ـ أو ربما أكون قد تخيلته. أخبروني، ما حاجتي لمعرفة شيء كهذا؟ هل يتحسن مزاج المرء لمعرفة أمر كريه عديم الفائدة كهذا؟ لا. ليس عندما يكون المرء على حافة الموت.

أليس لديكم أي شيء آخر تخبروني به؟

جهاز عرس دايزي غودويل هود، ١٩٢٧

٢ من أطقم العرائس الثلاثية القطع من الحرير الصيني والمخرمات مزينة بتطريز يدوي جميل.

١٢ قميص تحتيّ

١٢ من الأطقم الفرنسية المؤلفة من قطعتين، قميص تحتي فضفاض وسروال تحتي قصير، بالألوان القرنفلي، الأصفر الشاحب، الأزرق، ولون الشاي.

٦ منامات

٦ مباذل، من الكريب الجورجيت والمخرمات

٢ روب دو شامبر، ١ من قماش صوفي مقلم، ١ من القطن المزين بالقيطان.

٦ صديريات الثديين، ماركة "الشباب المتّقد"

٦ صديريات ثديين ماركة "بانزي" من الحرير وقطن المرسيليزيه

٣ سترات تحتية قصيرة بلا أكمام من الحرير الوردي.

٢ من المشدّات من القماش الحريري مع بطانة مطاطية على الجانبين.

١٢ زوج من الجوارب الحريرية

١٢ زوج من الجوارب القطنية

٣ بيجامة تُلبس على الشاطئ، ساتان برتقالي، أزرق، وأصفر

٦ مباذل يابانية، أسود، أزرق، أحمر، وردي، قرنفلي وبنفسجي زاهي

٢ ثوب سباحة ماركة كيليرمان (من الصوف الحرّ)، أسود، أزرق

١ كاب (رداء بلا أكمام يُطرح على الكتفين) محاك بالصنارة

١ قلنسوة سباحة

٦ مآزر متنوعة

"لم أكن أعلم أنها تجيد التطريز".

"هذا جميل".

"هل أنت متأكدة أنها من قام بهذا التطريز؟".

"رسمت زهرة دايزي (مارغريت) على الزاوية اليمنى".

"أنت على حق، ها هي ذي".

"إنها بمثابة شكل من أشكال التوقيع".

"ها!".

"كانت الممرضات تتحدثن دوماً عن طبيعتها الودودة، وابتسامها في وجه الجميع".

"عدا تلك المرة حين كسرت الراديو. رمتْه على الأرض".

"ربما كان ذلك حادثاً عرضياً".

"صحيح".

"ما أعجز عن فهمه هو لماذا لم تخبرْنا أبدا حول زواجها الأول ذاك".

"لا بد أنها كانت تدرك أننا سنكتشف الأمر بعد رحيلها. أعني أن الأوراق كلها موجودة. عقد الزواج وإعلانه في الصحيفة وكل شيء".

"هود! كان اسمه هود".

"هارولد هود".

"على وزن تود[٢٩]. ليمنحني الله القوة".

"ولكن انظري إلى هذه الصورة. لقد كان ـ يبدو شبيهاً بنجم سينمائي، مثل نجوم الأفلام الصامتة. وسيم جدا".

"ولكن لماذا لم تخبرنا؟".

"فكري بالأمر. كيف يمكن لها أن تتحدث عن شيء بهذا القدر من الفظاعة".

"الصدمة التي لا بد أنها أصابتها حينها".

"أنا لا أفهم. هل كانت محرجة حيال الأمر؟".

---

(٢٩) تود تعني شخص تافه. (المترجمة)

"سقط هذا الرجل الجميل من نافذة. حبيبها. زوجها الحديث العهد جداً. تخيلي لو حدث هذا لك. هل كنت سترغبين بالحديث عنه؟" .

"ربما كانت محطمة الفؤاد بسبب هذا الأمر. لم تتحمل حتى التفكير حوله، دعي جانباً الحديث عنه. تخيلي أن يحدث هذا لك وأنت في شهر العسل" .

"وبسنّها ذاك" .

"الكبت. أحياناً يكون الكبت خياراً جيداً. كيف كانت ستتمكن من الاستمرار في العيش لولا ـ ؟" .

"يبدو أكثر وسامة من والدنا" .

"وأصغر سناً" .

"بكثير" .

"لا بد أن والدنا كان يعلم بأمره" .

"بالتأكيد. أعني، صحيح أنها كانت متكتمة ولكن ـ" .

"هذا يثير فيّ ـ "

"ماذا؟"

"القشعريرة" .

"ما الذي يثير القشعريرة؟ التفكير حول سقوط السيد هود على رأسه؟" .

"لا. بل التفكير فيها. طوال تلك السنوات ـ" .

"طوال تلك السنوات ـ التكتّم على الأمر" .

"لا بد أنها كانت تتذكر الأمر كل عام، في الذكرى

السنوية ل ـ " .

"هل تذكرين كيف أنها كانت ترغب أحيانا بالاستلقاء في سريرها في منتصف النهار. ليس رغبة في النوم. بل كانت تستلقي هناك وتحدق في السقف" .

"كانت تحتفظ بكل ذلك في رأسها. وتتذكره.

"أعرف" .

"يا إلهي" .

حفل غذاء في نادي غاردن، ١٩٥١

رغيف اللحم | فطيرة الجبن

مخلل منوّع

سلطة كرات الشمام والعنب العديم البذور

قالب حلوى محشوة بالهلام

كعكات محلاة منوعة

قهوة شاي

ما زلتُ هنا، داخل عظامي، كاحِلَيّ، محجرَيّ عينَيّ، كتفَيّ، ردفيّ، أسناني (التي أصبحت كلها رماد، شظايا)، ما زلتُ هنا، أوه، أوه.

"لو أنها عاشت في عصر آخر لكان من المحتمل أن يكون لها برنامجها التلفزيوني الخاص تحت اسم السيدة الإبهام الأخضر" .

"عاشت في الزمن البدئيّ".

"لسبب ما، أعجز عن تخيله".

"هذا يعني القرن الوجداني القديم. لقد كتم أنفاسها. مثل ستارة من النوع الذي لا يمكن الرؤية من خلالها".

كان بمقدورها أن تطلّق أبي".

"كخطوة أولى".

"ماذا؟ ما الذي تتحدثون عنه؟".

"لماذا يخطر لكم هذا الخاطر؟ أعني أنهما كانا سعيدين معاً، إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار".

"هل تعتقد ذلك حقا؟"

"كانوا سعداء كما الآخرين".

"مهما كان ما نعنيه بكلمة سعادة".

"أخبريني عن ذلك".

"كل ما أعرفه هو أنّ الماضي لا يغادرنا أبدا".

"هل يفترض بهذه الفكرة أنْ تكون عميقة؟"

"همم".

وصفة العمة دايزي لحلوى الليمون

٤ ملاعق طعام زبد	١ فنجان حليب
١/٢ ملعقة طعام دقيق	١/٢ فنجان سكر أبيض
٢ بيضة، يفصل البياض عن الصفار	عصير وبرش ليمونة

اخلطي السكر والزبد، أضيفي صفار البيض بعد خفقه حتى يصبح متماسكاً وبلون الليمون، أضيفي الدقيق والحليب، عصير الليمون وبرش الليمونة. اخفقي بياض البيض حتى

يتماسك من دون أن يصبح جافاً. أضيفي بياض البيض إلى الخليط. اخبزي الخليط في صينية مدهونة بالزبد وموضوعة في وعاء فيه ماء حار. بحرارة فرن معتدلة، ٣٥٠ درجة.

"هل تعتقدين أن حياتها كانت ستختلف لو كانت رجلاً؟".

"هل تمزحين؟"

"فقط انظري إلى هذه السترة التي تُلبس فوق المنامة".

"تبدو جديدة تماماً. لم تُلبس أبداً، على ما أعتقد".

من أجل يوم الثلاثاء ـ

١ علبة حليب مكثف

١ باقة كرفس

جزر

بصل

١ رطل زبد

١ رطل دهن حيواني

كبريت

برش صابون

٢ علبة من لحم البقر المملح المعلب

شرائح لحم خنزير

رأس خفق جديد لآلة الخفق

أسنان وارن

مكتب البريد

الصيدلية، شراب سعال، علبة K

عرعر

والآن... هذه امرأة أجادت تحضير رغيف لحم رائع، امرأة أحسنت كتابة تقرير صحفي عن نبتة مطاط متدلية، امرأة لعبت الورق بذكاء ونزاهة، امرأة أحسنت ارتداء القبعات، امرأة اعتنت بنظافتها الشخصية، امرأة أرسلت دوماً بطاقات شكر من دون إبطاء، امرأة ثابرت وواصلت مسيرتها، امرأة تدهورت وتدهورت، وواصلت تدهورها، امرأة أخطأت مرماها، أخطأت غاياتها، لكنها، مع ذلك، كانت دوماً لطيفة وكيّسة مع الآخرين.

هل تذكرين جِاي ددلي؟"

"من؟"

"ذاك الأحمق الذي كان يعمل في صحيفة ريكوردر في أوتاوا. كان اسمه جِاي ددلي".

"أوه، بالتأكيد، أتذكّره. ربطات عنق مُحاكة يدوياً؟ أزرار لأكمام القميص من السيراميك؟"

"هل تعتقدين أنهما، قد أقاما علاقة حميمة على الإطلاق، هو وأمي؟"

"لا".

"هذا مؤسف".

الجمال الأسود(٣٠)، آن من غرين غابلز(٣١)،

(٣٠) الجمال الأسود: رواية ١٨٧٧، الكاتبة الإنكليزية آنّا سيويل. قصة حصان يباع مرات عديدة. (المترجمة)

(٣١) آن من غرين غابلز: رواية، ١٩٠٨، للكاتبة الكندية لوسي مود مونتغمري. (المترجمة)

نمش[٣٢]، حكايات حكيت مرتين[٣٣]، طاحونة على النهر[٣٤]، جُو الجميل[٣٥]، بوكاهونتاس[٣٦]، أطفال هيلين[٣٧]، صديقنا المشترك[٣٨]، ذكريات نيللي[٣٩]، إليزابيث وحديقتها الألمانية[٤٠]، جين آير[٤١]، توحيد إيطاليا[٤٢]، بيوولف[٤٣]،

---

(٣٢) نمش: رواية، مطلع القرن العشرين، الكاتبة الأمريكية جين ستراتون بورتر. (المترجمة)

(٣٣) حكايات حكيت مرتين: مجموعة قصصية، ١٨٣٧، للكاتب ناثانييل هوثورن (المترجمة)

(٣٤) طاحونة على النهر: رواية، جورج إليوت، ١٨٦٠. (المترجمة)

(٣٥) جُو الجميل: رواية، ١٨٩٣، مارغريت مارشال ساوندرز. (المترجمة)

(٣٦) بوكاهونتاس: قصة ابنة زعيم قبيلة هندية في فرجينيا، ١٥٩٥ ـ ١٩١٧، ساعدت المستوطنين الأوروبيين في جورج تاون وتزوجت من المستوطن جون رولف. (المترجمة)

(٣٧) أطفال هيلين، رواية للكاتب الأمريكي جون هابيرتون، صدرت عام ١٨٧٦. (المترجمة)

(٣٨) صديقنا المشترك، الرواية الأخيرة التي كتبها تشارلز ديكنز ١٨٦٥ ـ ١٨٦٤. (المترجمة)

(٣٩) ذكريات نيللي، رواية للكاتبة البريطانية روزا نوتشيت، صدرت عام ١٨٦٨. (المترجمة)

(٤٠) إليزابيث وحديقتها الألمانية، رواية للكاتبة البريطانية إليزابيث فون آرمين، صدرت عام ١٨٩٨.(المترجمة)

(٤١) جين آير، رواية للكاتبة البريطانية شارلوت برونتي، صدرت في لندن عام ١٨٤٧. (المترجمة)

(٤٢) حول حركة توحيد دول شبه الجزيرة الإيطالية إلى دولة إيطاليا في القرن ١٩ بقيادة كافوار وغاريبالدي...(المترجمة)

(٤٣) بيوولف، عنوان قصيدة شعرية إنكليزية ملحمية بطولية تجري أحداثها في اسكنديناڤيا في القرن ١١ ميلادي مؤلفة من ٣١٨٣ بيت وتعد الأثر الأدبي الأنجلو ـ سكسوني الأهمّ. (المترجمة)

الشعراء الرومانسيين، على خطاه[٤٤]، إوَز برّي[٤٥]، ذهب مع الريح[٤٦]، كلوديا[٤٧]، السنوات الستّ الأولى[٤٨]، عناقيد الغضب[٤٩]، آمبر إلى الأبد[٥٠]، البيضة وأنا[٥١]، أرخص ثمناً بالدّزينة[٥٢]، تعطّش للحياة[٥٣]، الشبكة والصخرة[٥٤]، قصة عائلة سكوتاري، تاريخ موجز لجزر الأوكني، ابنة تشيخوف، المرأة العذبة[٥٥]، الأرض الطيبة[٥٦] (طبعة بأحرف كبيرة)، جريمة في الأثناء (طبعة بالأحرف الكبيرة، نصف منته).

"ماذا تعنين بقولك أنّ المرء لا يكون مستعدّاً أبداً؟".

"يا إلهي، أنا مستعدّة في هذه اللحظة".

---

(٤٤) رواية حققت أفضل المبيعات للكاتب تشارلز مونرو شيلدون، صدر عام ١٨٩٦. (المترجمة)

(٤٥) إوز بري، رواية للكاتب دانييل كارني.

(٤٦) ذهب مع الريح، رواية الكاتبة الامريكية مارغريت ميتشيل، صدرت عام ١٩٣٦. (المترجمة)

(٤٧) سلسلة روايات رومانسية.

(٤٨) السنوات الستّ الأولى (من عمر الطفل)، ١٩٩٢.

(٤٩) رواية، صدرت عام ١٩٣٩ للكاتب جون شتاينبك الذي حاز في ما بعد على جائزة نوبل. (المترجمة)

(٥٠) أمبر إلى الأبد، رواية رومانسية، ١٩٤٤، للكاتبة كاثرين وينسور. (المترجمة)

(٥١) سيرة ذاتية هزلية للكاتبة بيتي مكدونالد، ١٩٤٥. (المترجمة)

(٥٢) أرخص ثمناً بالدزينة، رواية، ١٩٥٠، فرانك غيلبرث. (المترجمة)

(٥٣) تعطُّش للحياة، رواية حول الفنان فينسنت فانكوخ، صدرت عام ١٩٣٤، تأليف إرفينغ ستون. (المترجمة)

(٥٤) الشبكة والصخرة، رواية توماس وولف الأشهر، ١٩٣٩. (المترجمة)

(٥٥) المرأة العذبة، مارغريت أتوود، ١٩٦٩

(٥٦) الأرض الطيبة، رواية بقلم بيرل بَك، ١٩٣١

"هذا بسبب الكآبة الناجمة عن كونك عاطلة عن العمل. لستِ مستعدة على الإطلاق. وأراهنك أنها لم تكن مستعدة هي أيضاً".

"لا أدري".

"هل سنحت لك فرصة التحدث إليها حول، أعني ـ".

"الموت؟ لم يكن من الممكن التحدث إليها حول أمر كهذا".

"كانت تسارع إلى تغيير الموضوع".

"وتبدو مثل تلميذة مدرسة مرتبكة".

"ترمش بعينيها".

"يتخذ فمها شكل دائرة صغيرة".

"وحاجباها".

"في الحقيقة، أنا أيضاً ينتابني الرعب الشديد عند التفكير بالموت".

"إنها صفة سائدة في العائلة".

"مورّثاتنا هي من الصوّان الحرّ".

"حبات صغيرة من الخردق".

"حبات من البَرَد".

"أذكر أنها قالت مرة بأنها تحب أزهار الثالوث في الجنازة. ليس تلك الأزهار الحمقاء التي تشبه الوجوه. ما يعجبها حقاً هو تلك الأزهار باللون الأرجواني الخالص، تلك البتلات المخمليّة الغامقة اللون. هذا هو الشيء الوحيد الذي أذكر أنها قالته في ما يتعلق بالموت".

"تركتْ حياتها تتخذ الوجهة التي تريدها من دون تدخل منها".

"حسناً، ولِمْ لا، بحقّ الجحيم؟".

"وكأنها ـ".

"وكأنها ماذا؟".

"وكأنها كانت دوماً تسعى وراء فكرة صغيرة تائهة بإبرة وخيط".

"خائفةً من النظر داخل نفسها. خوفاً من أن تجدها خاوية".

"أليسَ هذا ما يسعى البوذيون بجدّ كي يحققوه؟".

"البوذيون؟".

"في محاولة منهم للوصول إلى حالة العدم".

"حقا؟"

"يا لها من فكرة فظيعة".

"لماذا؟".

"لا أعرف. أعني، العدم هو، كما تعلمين، ليس بالشيء الكثير".

"العدم هو العدم".

"آمين".

أشياء يجب إنجازها ـ على المدى البعيد.

الستائر صيفية

حِفظ الفراء

وضع بعض اللمسات على الدرجات الخلفية، السياج

إعادة قولبة القبعات الشتوية.

خزامى ـ غرسات جديدة

رشّ أثاث الشرفة

نزهة على الأقدام؟

وراء الموقد، تحت الثلاجة.

شيك للسيد م

غاز

كرات حفظ الملابس من العُثّ

المجلات إلى المتجر للاستفادة منها.

الفرن

البيانو

السمّ

مثبّتات المصابيح

المغص الولادي، جدري الماء، الحصبة، الالتهاب الشَّعَبي الرئوي، الحساسية، الانفلونزا، المغص المرافق للدورة الشهرية، الإكزيما، التهاب مثانة، المخاض والولادة، ارتفاع ضغط الدم، سن اليأس، الاكتئاب، الخناق الصدري، انسداد شرياني، كسور في العظام، عملية فتح شريان، قصور كلوي، سرطان، التهاب المثانة، جلطة، قرحة الفراش، ساق متقرّحة، سلس بولي، جلطة، ضعف ذاكرة، ضعف بصر، استجابات غير ملائمة، عجز عن الكلام، اكتئاب، جلطة، جلطة.

دايزي غودويل، خلال مرضها الأخير، المرض الذي اشتهرت بتحملها له بصبر كبير، تُركت مع موتها فقط كي تتأمله

وتفكر فيه ـ وقد قاربته بكامل ضعف وعجز جسدها اللذين يعملان بانسجام. في لحظةٍ ما خلال تلك الأسابيع الأخيرة الحالمة، حدثَ تحوّل في التيار. حدث ذلك أثناء الفترات العديدة التي قضتها غائبة عن الوعي. دخلت في النوم، وكأنّه نفق، وهي ما زالت تتلمس الماضي، وتتنفس ملء رئتيها المراحل الحقيقية والمتَخَيَّلة من حياتها وكأنها نوع من الأوكسجين، ثم سيطر عليها نوع من الإعياء، أو ربما نوع من الملل ـ مهما يكن، سرعان ما بهتت الخطوط والألوان، وانهارت الآلية التي استدعت بموجبها المشاهد السابقة. ما كان يضغط على جفنَيّ عينيها، بدلاً من ذلك، هو سلسلة من شفافية متقلبة لا تمشي عبر الزمن إلى الوراء بل نحو الأمام ـ إلى الأمام نحو موتها. يمكن القول إنها هي التي أوجدته، ثم وقعت في حبه.

كان تصوُّرها الأولي نظريّ، التابوت المعتاد الفاتح اللون، قراءة رتيبة لمقاطع من الكتاب المقدس، الصوت الرّاعش لأنابيب الأرغن ـ كلّ النّثار المثير للحزن يطفو حرّاً في غرفة مليئة ومفعمة بالحيوية، يعلو فيها هراء النحيب والثّناء. لكن هذا كان منافياً للعقل.

تنهار الغرفة المشرقة، مخلّفةً مكانها كتلة صمّاء من الظلام. جسدها فقط يبقى، ومشكلة ما يجب أن تفعله به. فهو لم يتحوّل إلى تراب. تغمرها دراية واضحة ساخرة نيّرة حول فكرة تحول أطرافها وأعضاء جسدها إلى تراب. تجد الأمر مضحكاً.

حجارة، هكذا ترى نفسها في النهاية، كل خلاياها الحية وقد حلّت محلها رواسب معدنية جامدة عديمة الوعي والإدراك

والحسّ. من السهل أن تتركها تجتاحها. تستلقي، ضمن آخر أحلامها، ممددة على ظهرها فوق لوح سميك، يضاهي بجلالته الأساقفة والقديسين الذين رأتهم منذ سنوات في كاتدرائية كيروول الكبيرة الوردية اللون. لم يكن ذلك جيداً بما فيه الكفاية بالنسبة لهم، وهو ليس جيداً بما فيه الكفاية بالنسبة لها، لكن الصورة، على الأقلّ، هادئة؛ إنها تحبّها، في الواقع، وتشعر بنفسها، في النهاية، تندمج مع جسد أمها الساكن الميت وتصبحُ هذا الجسد.

إنها بعيدة جداً الآن عن عظم ترقوتها، عن خلاياها الدهنية، عن أنسجة منطقتها التناسلية، عن أظافر أصابع قدميها ولثّتها، عن منخريها وحاجبيها، وعن المكان العظميّ الذي لا اسم له وراء أذنيها. دماغها هو مادة زجاجية نقية؛ يمكنك رفعه مقابل النافذة فيشعّ الضوء عبره. لكنه فارغ، هذا هو الجانب الساحر في الأمر.

تتأمّل ببطء وبدهشة مهذبة كل تفصيل من تفاصيل حالتها الجامدة، تجمع وتطرح، تشذّب وتصقل. طيات ثوبها، وهو بدائي ومتيبس، يُضفَى عليه لمسة لطيفة بواسطة حاشية تزيينية، حافة كلسية مكوَّنة من قواقع بحرية، كالتي نراها فوق قوالب الحلوى في أعياد الميلاد. وثيقة على شكل لفِيْفَة حجرية تنخفض برفق تحت قدميها المرتديتين لخفّين، التاريخ ممحو عنها، غير مقروء، وتغوص وسادة حجرية تحت رأسها، شعرها الأجعد ممشّط بشكل ناعم، وأخيراً. يداها ببراجمها التي شفّت، منحنيتان نحو الداخل إلى جانبيها، بُسِّطت كثيراً، الأصابع مندمجة معاً، لا ترتدي أي خاتم، لا أثر للتقدم في

السنّ عليها، لكنها تومئ (ذاك الإبهام المائل قليلاً) تومئ نحو المنطقة الثابتة الساكنة الكبيرة التي تقع أبعد من مرمى سمعها. من خارج وجهها الجامد الفاقد الحسّ تحدّق عيناها جليديّةً كالرخام، مفتوحتان ولكن لا تريان شيئا، أي شيء ما عدا الحزن العام المشترك العميق الذي يعانيه الرجال والنساء، وكم هو قليل ما يُسمح لهم، في النهاية، بقوله.

وضعيّتها الجسمانية النهائية، بعد ذلك، هي وضعية إغريقية. ساكنة. سرمديّة. كلاسيكية نموذجية. لقد شعرت دوماً بأنها تتمتع بهذه القدرة الكامنة.

لا تحتاج سوى إلى الحدّ الأدنى من الطاقة لاستدعاء ذاتها الحجرية وإبقائها في مكانها. وهي صماء لكل الأصوات ما عدا الأصداء الأكثر ارتفاعاً، التي تزدهر على منحنيات تراجعها ذاته ـ البياض، السطح الكتيم ـ وتملأ عالم بصرها وبصيرتها بشكل تام مما يُبعد كل الاستراتيجيات والترتيبات السابقة. الأسنان والشعر والعظام الطاهرة لدايزي غودويل تقبل وتعتنق هذا الشكل النهائي، أو بالأحرى، هذا الشكل النهائي هو الذي يقبلها ويعتنقها، سامحاً لها، في النهاية، الدخول في نشوة العزلة، مسمِّراً وزنه إلى قلبها الذي يشبه بندولاً متخامد الحركة، وعلى رئتيها المرجانيتين المتصلبتين. تصبح أصلب وأكثر برودة، وسرعان ما سيسود وتتمّ له الغلبة. في الأسبوع القادم. غداً. الليلة.

١٤ غرانج رود، تايندل، مانيتوبا (هُدم عام ١٩٢٢)

١٦٦ سيمكو ستريت، وينبيغ، مانيتوبا (هُدم عام ١٩٤٧)

الشقة ١٢، ١٤٤ إيست أفنيو، بلومينغتون، إنديانا (أصبح

موقعاً لمصلحة الآثار ١٩٧٥)

ألفا زيتا هاوس، كلية لونغ للنساء، هانوفر، إنديانا (حُوِّلت إلى مكاتب للخريجين ١٩٥٧)

٥٨٣، ذي درايفواي، أوتاوا، أونتاريو (قُسِّم إلى شقق ملكيتها مشتركة ١٩٨١)

٤١٩ إيست بيسايد تاورز، تاميامي تريل، ساراسوتا، فلوريدا (حكم عليه بأنه لا يحقق شروط الأمان ضد الحريق ١٩٨٦)

كناري بالمز، نزل النقاهة، مارين درايف، كولمان، فلوريدا (بيع لمركز الدراسات الإدراكية والتأمل ICW 1990).

كاناري بالمز كير فاسيليتي، ١٢٦٧ فاونا أفينيو، كولمان، فلوريدا

"لست في حالة سلام واطمئنان".

آخر كلمات دايزي غودويل (غير المنطوقة)

"دايزي غودويل فليت، زوجة، أم ، مواطنة من قرننا: لترقد بسلام".

البركة الختامية، قرأها وارن م. فليت،

في القداس الجنائزي، كناري بالمز

"أزهار الثالوث(٥٧)، هل سبق أن رأيت أزهاراً فاتنة بهذا القدر؟".

"كانت ستحبّها لو رأتها".

---

(٥٧) أزهار الثالوث: نوع من البنفسج. (المترجمة)

"لسببٍ ما، توقعتُ رؤية كومة من أزهار المرغريتا الصغرى[٥٨]".

"أزهار المرغريتا، نعم".

كان على أحد ما أن يتذكر أزهار المرغريتا".

"نعم".

"أوه، قد فات الأوان".

(٥٨) اسم دايزي يعني لغوياً زهرة المرغريتا الصغرى أو زهرة الربيع، وهي زهرة من الفصيلة المركبة. (المترجمة)

الفهرس



حققت هذه الرواية أفضل معدل مبيعات على المستوى الوطني

حازت على جائزة غوفرنر جنرال أووارد.

أُدرجت على اللائحة النهائية للكتب التي رشحت لنيل جائزة البوكر.

"روايةٌ معجزة، نصب تذكاري صلب كالصخر، يخلد الطبيعة الفانية لكل الحيوات..."

ماكلينز

"مذكرات الحجر تذكرنا مرة أخرى بمدى أهمية الأدب."

نيويورك تايمز بوك ريفيو

رواية مذكرات الحجر هي قصة حياة امرأة واحدة؛ رواية تمتع الحواس، تظهر العقود المضطربة لقرننا وتلقي الضوء عليها.

دايزي غودويل، المولودة عام ١٩٠٥، تنجرف عبر فصول الطفولة، الزواج، الترمّل، الزواج الثاني ، الأمومة والشيخوخة. دايزي المرتبكة بسبب عدم قدرتها على فهم دورها بالذات، تسعى إلى العثور على طريقة كي تروي قصتها ضمن روايةٍ هي نفسها تتحدث عن قصور السِّيَر الذاتية ومحدوديتها.

"...أنشودة شكر مدروسة بصورة جميلة لكل القصص الخاصة التي نُجلّها ونعزّها."

بوسطن غلوب

ISBN 2-84306-154-7

9 782843 061547